بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير العابدين

بشرح

رياض الصالحين

للإمام النووي رحمه الله (ت ٦٧٦) .

من الباب (١ – ١٠)

فضائل – منوعات – أقوال - فوائد

بقلم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

بدأ هذا الشرح في يوم الإربعاء ٢٢ / ٤ / ١٤٣٣هـ

الفهـــرس

الموضوع		الموضوع	
من أقوال السلف في الإخلاص	٤	من أقوال السلف في الغضب	١١٥
فوائد الاستشارة	١٩	من أقوال السلف في الصدق	١٢٨
فضائل الإخلاص	٣٢	علامات الصادق	١٢٩
تعريف التوبة النصوح	٣٦	فضائل الورع	١٣٠
فوائد الاستغفار	٣٩	من أقوال السلف في الورع	١٣٠
فضائل التوبة	٤٠	فضائل مراقبة الله	١٤٠
الرحلة في طلب العلم	٤٤	من أقوال السلف في المراقبة	١٤٧
فضائل العلم	٤٦	الموجب لخشية الله	١٤٨
فضائل المحبة في الله	٤٧	فضال حسن الخلق	١٤٩
حذار حذار من أمرين	٥٧	فوائد محاسبة النفس	١٦١
أقوال في التسويف	٥٧	فضائل التقوى	١٦٩
فضائل الصبر	٧٠	من أقوال السلف في التقوى	١٧٠
مباحث الميزان	٧٢	فتنة النساء	١٧٣
فضائل الصدقة	٧٤	فضائل التوكل	١٧٤
اسباب تعين على الصبر عن المعصية	٧٦	أسباب الرزق	٢٠٠
فضائل العفة	٧٨	من أسباب تحصيل العلم التفرغ	٢٠٩
ما يعين على الصبر على أذى الناس	٩٩	فضائل الاستقامة	٢١١
فوائد البلاء	١٠٢	من أقوال السلف في التفكر	٢١٨
ثمرات الرضا	١٠٩	ثمرات التفكر	٢١٩
علاج الغضب	١١٣	معوقات التفكر	٢٢٣

١ – باب الإخلاص وإحضار النية

في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ [البينة : ٥] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ** ﴾ [الحج : ٣٧] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** ﴾[آل عمران : ٢٩] .

تعريف الإخلاص :

الإخلاص شرعاً : هو تصفية القلب من إرادة غير الله .

- **قال اللَّه تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَة).**

المعنى : وما أمروا في سائر الشرائع إلا ليعبدوا الله وحده قاصدين بعبادتهم وجهه تبارك وتعالى , مائلين عن الشرك إلى الإيمان, ويقيموا الصلاة ، التي هي أشرف عبادات البدن ويُؤَدُّوا الزكاة لمستحقيها ، وهذا من الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين ، وذلك هو دين الاستقامة, وهو الإسلام .

وجمع بين الصلاة والزكاة ، لأن الصلاة متضمنة الإخلاص للمعبود ، والزكاة متضمنة الإحسان على عبيده ، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود ، وسعيه في نفع الخلق . [السعدي] .

- وَقالَ تَعَالَى : (**لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ**) .

المعنى: لن ينال اللهَ مِن لحوم هذه الذبائح ولا من دمائها شيء، ولكن يناله الإخلاص فيها، وأن يكون القصد بها وجه الله وحده.

- وَقالَ تَعَالَى : (**قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**) .

المعنى : يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر ، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات ، ويجمع ما في السموات والأرض ولا يغيب عنه مثقال ذرة ، ولا اصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال .

في الآية تنبيه على وجوب الإخلاص لله تعالى ، والتحذير من الرياء ، فلا يغتر بخفاء ما في قلبه ، فإن الله مطلع على ما في القلوب .

١–وعن أمير المؤمنين أبي حَفْصٍ عمرَ بنِ الخطابِ بنِ نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزّى بن رياحِ بنِ عبدِ اللهِ بن قُرْطِ بن رَزاحِ بنِ عدِي بنِ كعب بنِ لُؤَيّ بنِ غالبٍ القُرشِيّ العَدويّ ﷺ ، قالَ : سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، يقُولُ : ((إنّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِىءٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكَحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه)) . مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ . رَوَاهُ إِمَامَا الْمُحَدّثِينَ ، أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعيلَ بْن إبراهِيمَ بْن الْمُغيرَةِ بنِ بَرْدِزْبهْ الجُعْفِيُّ البُخَارِيُّ ، وَأَبُو الحُسَيْنِ مُسْلمُ بْنُ الحَجَّاجِ بْنِ مُسْلمٍ الْقُشَيريُّ النَّيْسَابُورِيُّ رضي اللهُ عنهما فِي صحيحيهما اللَّذَيْنِ هما أَصَحُّ الكُتبِ المصنفة .

(**عن عُمَر بْنَ الْخَطَّابِ**) هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيْل القرشي العدوي ، أمير المؤمنين ، وثاني الخلفاء الراشدين ، أسلم في السنة الخامسة أو السادسة بعد البعثة ، فكان في إسلامه عز للمسلمين ، قتله أبو لؤلؤة المجوسي عام: ٢٣ هـ ودفن مع

النبي ﷺ وأبي بكر، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأياماً .

(**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**) اختلف العلماء في معناها ، هل هما جملتان بمعنى واحد أو مختلفتان ؟ والراجح أن الأولى غير الثانية :

الأولى : (إنما الأعمال بالنيات) سبب ، بيّن النبي ﷺ فيها أن كل عمل لا بد فيه من نية ، كل عمل يعمله الإنسان وهو عاقل مختار لا بد فيه من نية ، ولا يمكن لأي عاقل مختار أن يعمل عملاً بغير نية ، و**الثانية** : (وإنما لكل امرئ ما نوى) نتيجة هذا العمل : إذا نويت هذا العمل لله والدار الآخرة حصل لك ذلك ، وإذا نويت الدنيا فليس لك إلا ما نويت .

فجملة (إنما الأعمال بالنيات) جاءت متعلقة بحكم الشريعة على العمل .

وجملة (وإنما لكل امرئ ما نوى) جاءت متعلقة بحكم الشريعة على العامل .

أما العمل : لا شيء من العمل يقبل ويكون مشروعاً إلا بنية .

أما العامل : فإن حظ العامل من عمله على قدر نيته .فإذا صحت نيته صح ثوابه وعمله وإذا فسدت نيته ضاع ثوابه وفسد عمله .

ومن هنا عظمت عناية السلف بالنية , قال ابن المبارك (كم من عمل صغير كبرته النية ، وكم من عمل كبير صغرته النية) .

(**إِنَّمَا الأَعْمَالُ**) والمراد (بالأعمال) ما يصدر من المكلف ويدخل فيها الأقوال .

(**فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله**) نية وقصداً .

(**فهجرته إلى الله ورسوله**) ثواباً وأجراً .

(**ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا**) حقيقتها ما على الأرض من الهواء والجو مما قبل قيام الساعة .

(**أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا**) نص عليه لشدة الافتتان بها وإلا فهي تدخل ضمن (دنيا يصيبها) .

(**فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**) أي: من حيث أنه لا ثواب له فيها ولا أجر، وقد يكون عليه فيها وزر .

والهجرة هنا : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

١- الحديث دليل على وجوب الإخلاص ، وأن الإنسان ليس له من عمله إلا بقدر نيته ، وأن الأجور في الأعمال الصالحة تعظم بعظيم ما في قلب العبد من سلامة القصد وصحة النية .

والإخلاص : تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين .

والأدلة على وجوب الإخلاص كثيرة :

قال تعالى (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

وقال تعالى (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) .

وقال تعالى (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي) .

وقال تعالى (قُلْ إِنِي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين) .

وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وقال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه .

وقال ﷺ (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجه الله) رواه النسائي .

وقال ﷺ . قال تعالى (من عمِل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركَه) رواه مسلم .

وعن محمود بن لبيد . أن رسول الله ﷺ قال (إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ؟ قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء ، يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) رواه أحمد .

٢- الحديث دليل على أن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً لله تعالى، والعمل الصالح لا يقبل إلا بشرطين:

الأول : أن يكون خالصاً لله .

لحديث الباب .

الثاني : أن يكون موافقاً لسنة النبي ﷺ .

لقوله ﷺ (من عمِل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

قال بعض العلماء : حديث (إنما الأعمال بالنيات ...) ميزان للأعمال الباطنة .

وحديث (من أحدث في أمرنا ...) ميزان للأعمال الظاهرة .

وقد قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ) .

قال ابن كثير : قوله تعالى **(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)** أخلص العمل لربه ، عز وجل ، فعمل إيمانًا واحتساباً **(وَهُوَ مُحْسِنٌ)** أي : اتبع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق .

وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما ، أي : يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون متبعًا للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة ، وباطنه بالإخلاص ، فمن فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد ، فمن فقد الإخلاص كان منافقًا ، وهم الذين يراءون الناس ، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ، ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين (الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُون) .

٣- من أقوال السلف في الإخلاص في العلم :

قال الشافعي : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم – يقصد علمه – على أن لا ينسب إليّ حرف منه .

قيل لسهل التستري – رحمه الله – : أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب .

فالنفس تحب الظهور والمدح والرياسة ، وتميل إلى البطالة والكسل ، وزينت لها الشهوات ولذلك قيل : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال .

وقال بعضهم : إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز .

وقال بعضهم لنفسه : أخلصي تتخلصي .

وقال : طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلا وجه الله .

كان سفيان الثوري يقول : قالت لي والدتي : يا بُني لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به ، وإلا فهو وبال عليك يوم القيامة .

وقال إبراهيم النخعي : من ابتغى شيئاً من العلم يبتغي به وجه الله آتاه الله منه ما يكفيه .

وقال الثوري : لو أعلم بالذي يطلب العلم لله لا يريد به إلا ما عند الله لكنت أنا الذي آتيه في منزله فأحدثه بما عندي مما أرجو أن ينفعه الله به .

وقال أبو داود الطيالسي رحمه الله : ينبغي للعالم إذا حرّر كتابه أن يكون قصده بذلك نصرة الدين لا مدحه بين الأقران لحسن التأليف .

وعن عون بن عبد الله قال : كان الفقهاء يتواصون بينهم بثلاث وكتب بذلك بعضهم إلى بعض : من عمل لآخرته كفاه الله

دنياه ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس .

وقال أبو يوسف : يا قوم ، أريدوا الله بعلمكم ، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلُوهم ، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أُفتضح .

قال الأعمش : إن لي عشرين سنة ما رأيت مخلصاً في علمه إنما صار العلم حرفة للمفاليس .

فعلى قدر صدق الإنسان وإخلاصه يحفظ ، قال ابن عباس : إنما يحفظ الرجل على قدر نيته

فعلى طالب العلم أن يحذر من الرياء وطلب الرياسة والمنزلة :

قال حمد بن سلمة : من طلب الحديث لغير الله مكر به .

وقال إسرائيل بن يونس : من طلب هذا العلم لله شرُف وسعُد في الدنيا والآخرة ، ومن لم يطلبه لله خسر في الدنيا والآخرة .

وكان عمر بن الخطاب يقول : اللهم اجعل عملي صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وقال ابن تيمية : فكلما قوي إخلاص حبه ودينه لله ، كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات .

وقال رحمه الله : وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة ، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل .

وقال ابن قدامة : اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصور الهمّ على مراعاة الخلق ، مشغوفاً بالتردد إليهم والمراءاة لهم .

وقال : واعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس، رجاء المدح ، وخوفاً من الذم ، وذلك من المهلكات .

وقال : ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي ، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم .

وقال : ومن الدواء النافع (في علاج الرياء) أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما نغلق الأبواب دون الفواحش ، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال .

وقال ابن الجوزي : ما أقل من يعمل لله تعالى خالصاً، لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم، وسفيان الثوري كان يقول: لا أعتد بما ظهر من عملي ، وكانوا يسترون أنفسهم .

وقال : فاعلم أن ترك النظر إلى الخلق ، ومحو الجاه من قلوبهم بالعمل ، وإخلاص القصد ، وستر الحال ، هو الذي رفع من رفع .

وقال : إنما يتعثر من لم يخلص ، وإنما يمتنع الإخلاص ممن لا يُراد .

وقال رحمه الله : وعلامة المخلص: أن يكون في جلوته كخلوته، وربما تكلف بين الناس التبسم والانبساط، لينمحي عنه اسم الزاهد .

وقال الذهبي : ينبغي للعالم أن لا يفتر عن محاسبة نفسه ، فإنها تحب الظهور والثناء .

٤- علامة كون العلم لله :

قال مالك بن دينار : إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمُهُ ، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجوراً أو فخراً .

قال الذهبي : فَمَن طلبَ العلمَ للآخرة كَسَرَه العلمُ وخشع لله .

قال بعض السلف : من ازداد علما ولم يزدد خشية فليتهم علمه .

سُئِلَ الحافظ عبد الغني المقدسي :

لِمَ لا تقرأ من غير كتاب ؟ قال : أخاف العجب . [السير ٤٤٩/٢١] .

وقد قيل لذي النون المصري – رحمه الله تعالى – : متى يعلم العبد أنه من المخلصين ؟ فقال: إذا بذل المجهود في الطاعة ، وأحب سقوط المنزلة عند الناس .

وقيل ليحيى بن معاذ . رحمه الله تعالى . : متى يكون العبد مخلصاً ؟ فقال: إذا صار خلقه كخلق الرضيع ، لا يبالي من مدحه أو ذمه .

قال النووي : من علامة المخلص أن يتكدر إذا اطلع الناس على محاسن عمله كما يتكدر إذا اطلعوا على مساويه ، فإن فرح النفس بذلك معصية وربما كان الرياء أشد من كثير من المعاصي .

قال ابن جماعة : حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به ، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم القيامة ، والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه ، وعظيم فضله .

وقال ابن القيم : لا يكون المتعلم ناجياً إلا بهذه الأمور الثلاثة : المخلص في تعلمه ، المتعلم ما ينفعه ، العامل بما علِمَه .

٥- قوله (فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) .

معناها (**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) نية وقصداً (**فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) ثواباً وحكماً .

وهذا مثل ضربه الرسول ﷺ للعمل الذي يراد به وجه الله والذي يراد به غير الله ، وذلك بالهجرة :

فبعض الناس يهاجر ويدع بلده لله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، فهذا هجرته لله ويؤجر عليها كاملاً ، ويكون أدرك ما نوى ، وبعض الناس يهاجر لأغراض دنيوية ، كمن هاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام من أجل المال ، أو من أجل امرأة يتزوجها ، فهذا هاجر لكنه لم يهاجر لله ، ولهذا قال الرسول : فهجرته إلى ما هاجر إليه .

- وقوله ﷺ (ومن كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ) أي : هو أظهر للناس أنه مهاجر لله لكن في نيته أنه هاجر من أجل امرأة يتزوجها أو من أجل دنيا يصيبها .

قال ابن الملقن : إن قلت لم ذم على طلب الدنيا وهو أمر مباح لا ذم فيه ولا مدح ؟

قلت : إنما ذم لكونه لم يخرج في الظاهر لطلب الدنيا ، وإنما خرج في صورة طالب فضيلة الهجرة فأبطن خلاف ما أظهر .

٦- الحديث دليل على فضل الهجرة لله ، حيث ضرب النبي ﷺ بها مثلاً في هذا الأصل الأصيل من قواعد الدين .

والهجرة لغة : الترك , **وشرعاً** : ترك ما لا يحبه الله ويرضاه إلى ما يحبه الله ويرضاه .

- والهجرة فضلها عظيم :

قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً) .

ففي هذه الآية وعد الله تعالى أن من هاجر في سبيله سيجد أمرين :

أولهما : مراغماً كثيراً .

وثانيهما : سعة .

والمراد بالأمر الأول كما يقول الرازي : (مراغماً) ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية .

والمراد بالأمر الثاني (سعة) السعة في الرزق .

- وهي ٣ أنواع :

الأول : هجرة ترك المعاصي ، كما قال ﷺ (والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) رواه البخاري .

والثاني : مفارقة الدار والتحول عنها ، وهذا له صور أعظمها مفارقة بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

والثالث : وهي أعظمها ؛ هجرة القلوب : وهي الهجرة العظيمة ، وهي إلى الله بالإخلاص وإلى رسوله ﷺ بالمتابعة .

٧- الحديث دليل على أن الأعمال قد تتفق صورة وتختلف قصداً وثواباً وأجراً .

٨- الحديث دليل على التحذير من الدنيا وفتنتها .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) .

وقال ﷺ : (إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا) . متفق عليه

قال ابن الحنفية : من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .

قيل لعلي : صف لنا الدنيا ؟ فقال : ما أصف من دار ؟ أولها عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حَزن .

قال ابن القيم : الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج ، إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا إليها ، فلا ترضى إلا بالدياثة .

وقال : الدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها ، فكيف تعدو خلفها .

وقال : على قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة .

وقال بعض الزهاد : دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها .

وقال الحسن البصري : من نافسك في دينك فنافسه ، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره .

قال الشاعر في وصف الدنيا :

أحلامُ نومٍ أو كظلٍ زائلٍ إن اللبيبَ بمثلها لا يخدع

وقال آخر :

الدنيا ساعةْ فاجعلها طاعةْ

والنفس طماعةْ عوّدها القناعةْ

٩- التحذير من فتنة النساء لقوله (أو امرأة ..) وخصها بالذكر لشدة الافتتان بها .

قال ﷺ (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) متفق عليه .

وقال ﷺ (.. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) . رواه مسلم

ومما يدل على خطورة هذه الفتنة أن الله بدأ بها في قوله تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

قال ابن كثير : فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد .

قال سعيد بن المسيب : ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَل النساء .

وقال أبو صالح السمان : بلغني أن أكثر ذنوب أهل النار في النساء .

فائدة : هذا الحديث من الأحاديث الهامة التي عليها مدار الإسلام .

قال أبو عبد الله : ليس في أخبار النبي ﷺ أجمع وأغنى فائدة من هذا الحديث .

وقال الشافعي : يدخل في سبعين باباً من أبواب العلم .

ولأهميته ابتدأ به الإمام البخاري صحيحه .

وبدأ به الإمام النووي في كتبه : الأذكار – ورياض الصالحين – والأربعين نووية .

فائدة أخرى : الإخلاص لله من علامات الزهد .

قال ابن رجب رحمه الله شارحاً قول بعض السلف في علامات الزهد : أنْ يستوي عندَ العبد حامدُه وذامُّه في الحقِّ .

وهذا من علامات الزُّهد في الدُّنيا ، واحتقارها ، وقلَّةِ الرَّغبة فيها : فإنَّ من عظُمتِ الدُّنيا عنده أحبَّ المدحَ وكرِهَ الذَّمَّ ، فربما حمله ذلك على تركِ كثيرٍ مِنَ الحق خشيةَ الذَّمِّ ، وعلى فعلِ كثيرٍ مِنَ الباطلِ رجاءَ المدح ، فمن استوى عنده حامدُه وذامُّه في الحقِّ ، دلَّ على سُقوط منزلة المخلوقين من قلبه ، وامتلائه مِنْ محبَّة الحقِّ ، وما فيه رضا مولاه ، كما قال ابن مسعود : اليقين أنْ لا تُرضي النَّاسَ بسخط الله ... وقد مدح الله الذين يُجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ... ثم قال رحمه الله :

ولهذا يقال : الزهد في الرِّياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة، فمن أخرج مِنْ قلبه حبَّ الرياسة في الدُّنيا، والتَّرفُّع فيها على الناس، فهو الزاهد حقاً ، وهذا هو الذي يستوي عنده حامدُه وذامُّه في الحقِّ ، وكقول وهيب بن الورد: الزهد في الدُّنيا أنْ لا تأسى على ما فات منها، ولا تفرح بما آتاك منها، قال ابن السماك: هذا هو الزاهد المبرز في زهد .

وهذا يرجع إلى أنَّه يستوي عند العبد إدبارها وإقبالها وزيادتها ونقصُها ، وهو مثلُ استواءِ المصيبة وعدمها كما سبق .

وسئل بعضُهم – أظنُّه الإمام أحمد – عمَّن معه مالٌ : هل يكون زاهداً ؟ قال : إنْ كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه ، أو كما قال .

٢– وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عَائشَةَ رَضيَ الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا ببيْداءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ ». قَالَتْ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنهُمْ ،؟ قَالَ : «يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ ، ثُمَّ يُبْعَثُون عَلَى نِيَّاتِهِمْ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ : هذا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ .

(**وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عَائشَةَ**) أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، عائشة بنت أبي بكر الصديق، كانت أحب نساء النبي ﷺ إليه، لم تلد للنبي ﷺ شيئاً، وسألته أن تكتني فقال (اكتني بابن أختك) فاكتنت أم عبد الله ، كانت وفاتها سنة : ٥٨هـ .

(**ببيْداءَ مِنَ الأَرْضِ**) البيداء أرض ملساء لا شيء فيها .

(**يُخْسَفُ بأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ**) الخسف الذهاب في الأرض .

(**وفيهم أسواقهم**) قيل : المعنى أهل أسواقهم كما ترجم له البخاري ، وقيل : السوقة منهم .

(**ثُمَّ يُبْعَثُون عَلَى نِيَّاتِهِمْ**) فيعامل كل بقصده من الخير أو الشر .

١– في هذا الحديث من الفقه التباعد عن أهل الظلم والتحذير من مجالستهم وجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين لئلا يناله ما يعاقبون به .

٢– الحديث دليل على أن من كثر سواد قوم جرى عليه حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا .

٣– الحديث دليل على أن ما أخبر به النبي ﷺ سوف يقع ، لكن ما هذا الجيش ، ومتى ، فهذا لا يعلمه إلا الله .

٤– الحديث دليل على علم من أعلام نبوته ﷺ .

٥– الحديث دليل على أن الإنسان يعامل ويبعث على نيته وقصده من خير أو شر .

٦– إثبات البعث والجزاء .

٧– الحث على مصاحبة الأخيار .

٨– حفظ الله للكعبة شرفها الله .

٣- وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عنْهَا قَالَت قالَ النَّبِيُّ ﷺ : «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلكنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرتُمْ فانْفِرُوا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَمَعْنَاهُ : لا هِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ لأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إِسْلامٍ .

(**لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ**) وَمَعْنَاهُ : لا هِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ لأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إِسْلامٍ .

(**وَلكنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**) أي بقي الجهاد في سبيل الله ، والنية الخالصة في أعمال الخير من جهاد وطلب علم وغيرهما .

(**وَإِذَا اسْتُنْفِرتُمْ**) أي طلب منكم الخروج إلى الجهاد .

(**فانْفِرُوا**) أي : اخرجوا .

١- قوله ﷺ (لا هجرة بعد الفتح) صح عن النبي ﷺ في غير ما حديث أن الهجرة انقطعت بفتح مكة :

كما في حديث الباب : (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا) .

وعن مجاشع بن مسعود أنه جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي ﷺفقال: هذا مجالد يبايعك على الهجرة، فقال ﷺ (لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن أبايعه على الإسلام) .

وجاء عنه ﷺ أنه قال (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) .

وقال ﷺ (إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد) .

وللعلماء في الجمع بين هذه الأحاديث والتوفيق بينها مسالك:

قال البغوي رحمه الله : الأولى أن يجمع بينهما من وجه آخر :

وهو أن قوله (لا هجرة بعد الفتح) أراد به من مكة إلى المدينة، وقوله (لا تنقطع الهجرة) أراد بها هجرة من أسلم في دار الكفر عليه أن يفارق تلك الديار، ويخرج من بينهم إلى دار الإسلام لقول النبي ﷺ (أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين، لا تتراءى ناراهما) ، وعن سمرة بن جندب قال رسول الله ﷺ : (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله) .

وقال النووي رحمه الله : قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة، وتأولوا هذا الحديث (لا هجرة بعد الفتح) بتأويلين :

أحدهما : لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام، فلا تتصور منها الهجرة.

الثاني : وهو الأصح، أن معناه أن الهجرة الفاضلة المهمة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازاً ظاهراً انقطعت بفتح مكة ، ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة ، لأن الإسلام قوي وعز بعد فتح مكة عزاً ظاهراً بخلاف ما قبله .

٢- الإشارة إلى أن مكة ستبقى بلد إسلام .

٣- أن النية تقوم مقام الفعل لقوله (ونية) وعلى هذا فتكون الواو بمعنى (أو) يعني : أنه جهاد لمن قدر، أو نية لمن لم يقدر، لكن النية لا تقوم مقام الفعل إلا بشروط :

الشرط الأول : أن تكون النية صادقة ، بمعنى أنه ينوي نية صادقة من قلبه أنه لولا المانع لفعل .

الشرط الثاني : أن يكون قد شرع في العمل ، ولكن عجز عن إتمامه ، أما إذا نوى بدون أن يشرع في العمل فله أجره النية فقط .

٤- فضل النية الصالحة .

٥- أن الإمام إذا طلب الخروج للجهاد فإنه يجب النفير ،

قال ابن قدامة : ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع :

احدها : إذا التقا الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف وتعين عليه المقام .

لقول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

الثاني : إذا نزل الكفر ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

الثالث : إذا استنفر الإمام قوما لزمهم النفير معه .

لقول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) .

وقال النبي ﷺ (وإذا استنفرتم فانفروا) .

٤- وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ رضِيَ الله عنْهُمَا قَالَ (كُنَّا مَع النَّبِيِّ ﷺ في غَزَاة فَقَالَ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً ، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلاَّ كانُوا مَعكُم حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ» وَفِي روايَةِ : «إِلاَّ شَرَكُوكُمْ في الأَجْرِ) رَواهُ مُسْلِم .

ورواهُ البُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ (رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أَقْوَامَاً خلْفَنَا بالمدِينةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلاَ وَادِياً إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا ، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ) رواه البخاري

(**عن جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ**) هو جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري ، صحابي وأبوه صحابي ، وهو من المكثرين ، شهد مع النبي ﷺ جميع الغزوات مع بدر وأحد ، مات سنة : ٧٤ هـ .

(**في غَزَاة**) هي غزوة تبوك وكانت في سنة ٩هـ ، كما في رواية البخاري .

(**إِلاَّ كانُوا مَعكُم**) وفي الرواية الأخرى (إِلاَّ شَرَكُوكُمْ في الأَجْرِ) .

(**حَبَسَهُمُ**) أي منعهم .

(**مَا سَلَكْنَا شِعْباً**) كسر الشين أي الطريق في الجبل .

(**وَلاَ وَادِياً**) الوادي هو الموضع الذي يسيل فيه الماء .

١- الحديث دليل على فضل النية الصالحة ، وأن مع النية يكتب للإنسان أجر ما نوى .

قال النووي : وفى هذا الحديث فضيلة النية في الخير ، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات ، فعرض له عذر منعه ، حصل له ثواب نيته ، وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه .

٢- ينبغي للإنسان أن ينوي النية الصالحة ليكتب له أجر النية .

مسألة : هل يحصل للمتخلف عن العمل الصالح مع نيته له أجر ؟

بالنظر في المسألة المذكورة يمكن تقسيم من تخلف عن العمل الصالح بعد أن نواه وهمَّ به إلى قسمين :

القسم الأول : من كان يعمل هذا العمل في حال عدم العذر ، ثم عجز عنه – مع رغبته فيه – .

فإنه يكتب له أجر العمل كاملاً .

والدليل على ذلك : ما خرجه البخاري عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (إذا مرض العبد أو سافر ، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً) رواه البخاري .

القسم الثاني : أن لا يكون من عادته عمل هذه الطاعة في حال عدم العذر؛ ولكنه همَّ بعملها ، فهذا القسم لا يخلو من حالات :

الحالة الأولى : أن يهم بالطاعة ثم يتركها كسلاً وتهاوناً .

فهذا يثاب على الهم الأول ، ولكن لا يثاب على الفعل ؛ لأنه لم يفعله بدون عذر .

لحديث عبدِ اللهِ بنِ عباسِ بنِ عبد المطلب رضِيَ اللهُ عنهما ، عن رَسُول الله ﷺ ، فيما يروي عن ربهِ ، تباركَ وتعالى ، قَال (إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالى عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً ،وَإنْ هَمَّ بهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعمئةِ ضِعْفٍ إلى أَضعَافٍ كَثيرةٍ ، وإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلةً ، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَة) مُتَّفَقٌ عليهِ .

الحالة الثانية : أن يقترن بالنية قولٌ أو سعيٌ بأسبابها ، ولكن لم يدرك هذا العمل .

فهذا وقع فيه نزاع بين أهل العلم على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنه يكتب له الأجر كاملاً مع المضاعفة .

وهو اختيار القرطبي في أحكام القرآن ، والقرطبي في المفهم .

القول الثاني : أنَّ له أجر النية فقط .

وهو اختيار السبكي الكبير – فيما نقله ابن حجر في الفتح ولم يتعقبه ابن حجر – فلعله يرى رأيه ! وهو اختيار الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – في شرح رياض الصالحين .

القول الثالث : أنه يكتب له أجر النية مع العمل دون المضاعفة .

وهو اختيار ابن رجب – رحمه الله – في جامع العلوم والحكم .

ولعل القول الثالث هو الراجح – والله أعلم – ، وذلك لما يلي :

أولاً : قال تعالى (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً) .

وجه الاستدلال : أن الله – سبحانه – نفى في هذه الآية التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين ، ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر بدرجة ، وتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر بدرجات

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : القاعدون المفضَّل عليهم المجاهدون درجة هم القاعدون من أهل الأعذار ، والقاعدون المفضَّل عليهم المجاهدون درجات هم القاعدون من غير أهل الأعذار .

ثانياً : قوله تعالى (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) .

وجه الاستدلال : أنَّ من خرج مهاجراً ثم مات قبل أن تتم هجرته فإنَّ له أجر المهاجر الذي تمت هجرته ؛ ولا يحصل على أجر المضاعفة بدليل ما سيأتي في الذي بعده ، أو يقال : إن هذه المسألة خارج البحث ، وذلك أنَّ هذه المسألة فيمن بدأ بالعمل وشرع فيه ثم أدركته المنية فيحصل على أجر العمل مع المضاعفة

ثالثاً : قوله ﷺ في هذا الحديث (إلا شركوكم في الأجر) .

وجه الاستدلال : أنَّ قوله ﷺ (ما سرنا مسيراً ، ولا قطعنا وادياً) وفي اللفظ الآخر (ما سلكنا شعباً) يدل على أنَّ لهم أجر هذه الأعمال ولم يتعرض للمضاعفة ، فإذا نظرنا إلى حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – المتقدم : ... فمن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة ... ، اتضح لنا أنَّ المضاعفة معلَّقة على مباشرة العمل والفعل ، وهذا الذي من أهل الأعذار لم يباشر العمل وإن همَّ به ، فلا يحصل إلا على أجر العمل فقط .

رابعاً : حديث أبي كبشة الأنماري ﷺ مرفوعاً (... إنما الدنيا لأربعة نفر : عبدٍ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي ربه فيه ، ويصل به رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً فذا بأفضل المنازل ، وعبدٍ رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول : لو أنَّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ؛ فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يُخْبَطُ في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ؛ فهذا بأخبث المنازل ، وعبدٍ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أنَّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلانٍ ؛ فهو بنيته ، فوزرهما سواء) .

وجه الاستدلال : أنَّ قوله ﷺ في هذا الحديث (فهو بنيته ، فأجرهما سواء) أي : أنَّ نيته الصادقة أبلغته أجر من جمع بين العلم والمال ، ونقول : أنَّ أجر العمل ثابت بنص هذا الحديث دون المضاعفة ، لما سبق بيانه في الذي قبله ، ولما في الحديث الآتي .

خامساً : حديث أبي هريرة ﷺ قال (أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : قد ذهب أهل الدثور بالدرجات العُلى، والنعيم المقيم . فقال: وما ذاك ؟ قالوا : يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ : أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به مَنْ بعدكم ؟! ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ، قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : تسبحون ، وتكبرون ، وتحمدون في دبر كل صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين مرة , قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين لرسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله . فقال رسول الله ﷺ : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

وجه الاستدلال : أنَّ النبي ﷺ أخبر بأنَّ من فعل الصدقة والعتق مع العمل الذي أرشد إليه فقراء المهاجرين بأنه أفضل من فقراء المهاجرين الذين لا يجدون ما يتصدقون به ويعتقون مع حرصهم على ذلك ، فقال : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

سادساً : أنَّ من مقتضى حكمة الله وعدله – سبحانه – أنْ لا يساوى القائم بالعمل والطاعة بغيره ممن همَّ بالعمل دون أن يعمله – وإن كان من أهل الأعذار – من كل وجهٍ ؛ فيتميز العامل بالمضاعفة .

وبهذا الذي اخترناه – بإذن الله – تجتمع به النصوص ، وتتفق الأدلة ، وتستقيم الدلالة دون معارضة ، والله أعلم .

ولذلك جاء في الحديث عندما ذكر النبي ﷺ الرجل أعطاه الله مالاً فهو ينفقه في سبل الخير ، وكان رجل فقير يقول : لو أن لي مال فلان لعملت فيه عمل فلان ، قال النبي ﷺ : فهو بنيته فهما في الأجر سواء . رواه أحمد . فقوله (في الأجر سواء) أي سواء في أجر النية .

فإن قال قائل : متى يكتب أجر العمل كاملاً ؟ الجواب : إذا كان من عادته أن يعمل هذا العمل ثم عجز عنه لعذر فإنه يكتب له الأجر كاملاً لقوله ﷺ (إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً) رواه البخاري .

٣–وفيه أنَّ النية الصالحة تبلغ ما يبلغ العمل ، وأنَّ من فضل الله – عز وجل – إثابة العبد إذا عجز عن القربة والطاعة مع عزمه عليها .

قال ابن المبارك : رب عمل قليل تكبره النية .

وقال بعض السلف : أخلص النية يكفك القليل من العمل .

وقال داود الطائي : رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية .

وقال يحيي بن أبي كثير : تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل .

وأوصى الإمام أحمد ابنه بالخير وقال : إنك ما تزال بخير ما نويت الخير .

٤- وفيه أنَّ من خصائص دين الإسلام : اليسر ، والسماحة ، ورفع الحرج ؛ حيث رفع الحرج عمن منعه من الخروج للجهاد عذرٌ .

٥- الحديث دليل على أن المجاهد يكتب له أجر ممشاه ، ويدل لهذا قوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

٦- الحديث دليل على فضل الجهاد في سبيل الله .

٥- وعن أبي يَزيدَ مَعْنِ بنِ يَزيدَ بنِ الأخنسِ ﷺ ، وهو وأبوه وَجَدُّه صحابيُّون ، قَالَ : كَانَ أبي يَزيدُ أخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا ، فَوَضعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ في الْمَسْجِدِ ، فَجِئْتُ فأَخذْتُها فَأَتَيْتُهُ بِهَا . فقالَ : واللهِ ، مَا إيَّاكَ أرَدْتُ ، فَخَاصَمْتُهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فقَالَ : «لكَ مَا نَوَيْتَ يَا يزيدُ ، ولَكَ ما أخَذْتَ يَا مَعْنُ» رواهُ البخاريُّ .

(**فَوَضعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ في الْمَسْجِدِ**) في السياق حذف تقديره : وأذن له أن يتصدق بها على محتاج إليها إذناً مطلقاً .

(**فَجِئْتُ فأَخذْتُها**) أي : من المأذون له في التصدق بها بإذنه لا بطريق الاعتداء .

(**فَأَتَيْتُهُ بِهَا**) أي : فأتيت أبي بالدنانير المذكورة .

(**فقالَ : واللهِ ، مَا إيَّاكَ أرَدْتُ**) بهذه الدنانير المتصدق بها .

(**لكَ مَا نَوَيْتَ يَا يزيدُ**) أي ثوابه .

(**ولَكَ ما أخَذْتَ يَا مَعْنُ**) لكونك قبضتها قبضاً صحيحاً .

١- الحديث دليل على أن المتصدق إذا أخرج صدقته لله مجتهداً في إخراجها، فإنه ينال ثوابها سواء وقعت في يد مستحقها أم لا.

٢- الحديث دليل على أن من دفع زكاته لفقير يظنه غنياً فإن ذلك يجزئه ، وهذا القول هو الصحيح من أقوال أهل العلم .

لقوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) .

ولحديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (قَالَ رَجُلٌ لأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ . قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ . فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ . قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى غَنِيٍّ لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ . فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ . فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ وَعَلَى سَارِقٍ . فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ أَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا تَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ وَلَعَلَّ السَّارِقَ يَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ) متفق عليه .

ولحديث الباب .

جاء في الروض مع حاشيته : إذا دفعها لغني ظنه فقيراً فتجزئه، وهو مذهب أبي حنيفة، وأحد القولين عن الشافعي، واختاره أكثر الأصحاب، وجزم به في الوجيز، للمشقة ، ولخفاء ذلك عادة.

ولأن النبي ﷺ أعطى الرجلين الجلدين، وقال: إن شئتما أعطيتكما منها، ولا حظ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب. رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي وغيرهم، من حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسول الله ﷺ يسألانه من

الصدقة، فقلب فيهما البصر، ورآهما جلدين... الحديث، وللنسائي، في الذي وضعها في يد غني قال: قد تقبلت. وتقدم حديث الذي أخذ ولده صدقته، فقال ﷺ : لك ما نويت، وله ما أخذ.

قال ابن رجب وغيره: ولهذا لو دفع صدقته إلى من يظنه فقيرًا، وكان غنيًا في نفس الأمر، أجزأته على الصحيح، لأنه إنما دفع إلى من يعتقد استحقاقه، والفقر أمر خفي، لا يكاد يطلع على حقيقته .

٣-الحديث دليل على أنه يجوز التوكيل في توزيع الصدقة ، والوكالة جائزة بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى (وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ) .

وقال سليمان للهدهد (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ) .

وقال ﷺ (واغد يا أنيْس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها) .

تجوز في كل شيء : في البيع والشراء والطلاق والنكاح وغيرها .

وهناك ثلاثة أشياء لا يصح فيها التوكيل وهي : الظهار ، واللعان ، والإيْمان .

لأن هذا الأشياء تتعلق بنفس الشخص ، فالوكيل لا يستطيع أن يفعلها .

٤- الحديث دليل على جواز التحاكم بين الأب وابنه وأن ذلك بمجرده لا يكون عقوقاً .

٥-الحديث دليل على جواز الحلف من غير استحلاف .

٦- الحديث دليل على مشروعية وفضل الصدقة .

٧- الحديث دليل على جواز الصدقة في المسجد .

٦-وعن أبي إسحاقَ سَعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ مالِكِ بنِ أُهَيْب بنِ عبدِ منافِ بنِ زُهرَةَ بنِ كلابِ بنِ مُرَّةَ بنِ كعبِ بنِ لُؤيٍّ القُرشِيِّ الزُّهريِّ ﷺ ، أَحَدِ العَشَرَةِ المشهودِ لهم بالجنةِ ﷺ ، قَالَ (جاءني رسولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي ، فقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ مَا تَرَى ، وَأَنَا ذُو مالٍ وَلا يَرِثُنِي إلا ابْنَةٌ لي ، أفأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي ؟ قَالَ : « لا » ، قُلْتُ : فالشَّطْرُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فقَالَ : « لا » ، قُلْتُ : فالثُّلُثُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَثِيرٌ - أَوْ كبيرٌ - إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أغنِيَاءَ خيرٌ مِنْ أنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يتكفَّفُونَ النَّاسَ ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجهَ اللهِ إلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ في فِيِّ امْرَأَتِكَ » ، قَالَ : فَقُلتُ : يَا رسولَ اللهِ ، أُخلَّفُ بعدَ أصْحَابِي ؟ قَالَ : « إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعملَ عَمَلاً تَبتَغي بِهِ وَجْهَ اللهِ إلاَّ ازْدَدتَ بِهِ دَرَجةً ورِفعَةً ، وَلَعلَّكَ أنْ تُخَلَّفَ حَتّى يَنتَفِعَ بِكَ أقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخرونَ . اللَّهُمَّ أَمْضِ لأصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ ولاَ تَرُدَّهُمْ عَلَى أعقَابِهِمْ ، لكنِ البَائِسُ سَعدُ بْنُ خَوْلَةَ » يَرْثِي لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ ماتَ بمَكَّة) مُتَّفَقٌ عليهِ .

(**سعْدِ بْنِ أبي وَقَّاص**) أحد العشرة المبشرين بالجنة ، مات بالعقيق سنة (٥٥) هـ .

(**جاءني رسولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي**) أي : يزوروني ، وفي رواية للبخاري (من وجع أشفيتُ منه على الموت) أي : قاربت الموت من أجل شدته .

(**عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ**) وفي الرواية الأخرى (وأنا بمكة) وحجة الوداع كانت في العام العاشر للهجرة ، وسميت بذلك لأن النبي ﷺ ودع الناس فيها ، قال في الفتح : واتفق أصحاب الزهري على أن ذلك في حجة الوداع إلا ابن عيينة فقال (في فتح مكة) أخرجه الترمذي وغيره من طريقه ، واتفق الحفاظ على أنه وهِم فيه .

(**وَأَنَا ذُو مالٍ**) أي عندي مال كثير .

(**وَلا يَرِثُنِي إلا ابْنَةٌ لِي**) أي ليس لي وارث إلا هذه البنت ، قال النووي : معناه لا يرثني من الولد أو من خواص الورثة ، أو من النساء ، وإلا فقد كان لسعد عصبات ، لأنه من بني زهرة وكانوا كثيراً .

(**أفأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي**) أي اثنين من ثلاثة ، والمراد الوصية ، ففي الرواية الأخرى (أوصي بمالي كله) .

(**قَالَ : لا**) أي : لا ينبغي لك أن تتصدق بثلثي مالك .

(**قُلْتُ : فالشَّطْرُ**) أي : في النصف .

(**قُلْتُ : فالثُّلُثُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟**) أي : أتصدق بالثلث .

(**قال : الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَثِيرٌ**) وفي رواية عند البخاري (قال : الثلث يا سعد ، والثلث كثير) .

(**إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ**) أي : تترك .

(**عَالَةً**) أي : فقراء .

(**يتكَفَّفُونَ النَّاسَ**) أي يسألون الناس بأكفِهم ، قال القرطبي (يتكففون الناس) يسألون الصدقة من أكف الناس ، أو يسألونهم بأكفهم .

(**أُخلَّفُ بعدَ أصْحَابِي ؟**) أي : أترك في مكة بعد انصرافهم عنها .

(**لعلك أن تخلف**) تخلف هنا غير تخلف الأولى ، فالمراد هنا : لعلك أن تخلف : أي يطيل عمرك ، وهذا الذي وقع ، فإن سعداً عمر زمناً طويلاً، حتى ذكر العلماء أنه خلّف سبعة عشر ذكراً واثنتي عشرة بنتاً، وفي رواية (وعسى الله أن يرفعك) أي : يطيل عمرك ، وكذلك اتفق ، فإنه عاش بعد ذلك أزيد من أربعين سنة ، بل قريباً من خمسين .

(**حَتّى يَنتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخرونَ**) أي : ينتفع بك المسلمون بالغنائم ، مما سيفتح الله على يديك من بلاد الشرك ، ويُضر بك المشركون الذين يهلكون على يديك .

(**اللَّهُمَّ أَمْضِ**) أتمم .

(**لكنِ البَائِسُ**) من اشتدت حاجته واشتد حزنه .

(**سَعدُ بْنُ خَوْلَةَ**) من المهاجرين السابقين ، شهد بدراً ، يقول النبي ﷺ هذا الكلام توجع وحزن له لكونه مات بمكة ، وكانوا يكرهون الإقامة في الأرض التي هاجروا منها وتركوها لله مع حبهم لها .

١- الحديث على فضل النية الصالحة في جميع الأعمال ، حتى في المباحات لقوله (وَإِنَّكَ لَنْ تُنفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجهَ اللهِ إلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيّ امْرَأَتِكَ) .

٢- الحديث دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يحتسب في كل عمل عمله النية الصالحة ، فإن المباحات تنقلب بالنيات طاعات .

قال النووي رحمه الله في شرح حديث (أيأتي أحدنا شهوته ...) وَفِيهِ: أَنَّ الْمُبَاح إِذَا قَصَدَ بِهِ وَجْه اللَّه تَعَالَى صَارَ طَاعَة، وَيُثَاب عَلَيْهِ، وَقَدْ نَبَّهَ ﷺ عَلَى هَذَا بِقَوْلِه ﷺ : حَتَّى اللُّقْمَة تَجْعَلهَا فِي فِي اِمْرَأَتك. لِأَنَّ زَوْجَة الْإِنْسَان هِيَ مِنْ أَخَصّ حُظُوظه الدُّنْيَوِيَّة وَشَهَوَاته وَمَلَاذه الْمُبَاحَة، وَإِذَا وَضَعَ اللُّقْمَة فِي فِيهَا فَإِنَّمَا يَكُون ذَلِكَ فِي الْعَادَة عِنْد الْمُلَاعَبَة وَالْمُلَاطَفَة وَالتَّلَذُّذ بِالْمُبَاحِ، فَهَذِهِ الْحَالَة أَبْعَد الْأَشْيَاء عَنْ الطَّاعَة وَأُمُور الْآخِرَة، وَمَعَ هَذَا فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ إِذَا قَصَدَ بِهَذِهِ اللُّقْمَة وَجْه اللَّه تَعَالَى، حَصَلَ لَهُ الْأَجْر بِذَلِكَ، فَغَيْر هَذِهِ الْحَالَة أَوْلَى بِحُصُولِ الْأَجْر إِذَا أَرَادَ وَجْه اللَّه تَعَالَى.

وقال الشيخ ابن عثيمين : إذا فعل المباح ولم ينوِ أنه عبادة فليس فيه أجر، إلا إذا كان فيه نفع متعدٍ، مثل: أن يطعم الإنسان أهله الذين تجب عليه نفقتهم فيطعمهم، فهنا قد لا يستحضر النية ويكون له الأجر، وكذلك من زرع حباً أو غرس نخلاً فأصاب منه طير أو دابة أو إنسان فإنه يكتب له الأجر.

ولذلك كان ابن عباس –رضي الله عنهما– يقول : أحتسب على الله نومتي، كما أحتسب على الله قومتي.
ولهذا قال بعض أهل العلم : عبادات أهل الغفلة عادات، وعادات أهل اليقظة عبادات .
قَال عَبدُ اللَّه بنُ الإمَام أحمد لِأبيه يومًا : أوصني يا أبتِ فقال : يَا بُني انو الخَير فإنك لا تزالُ بخير ما نَوَيْتَ الخَير .
قال ابن القيم وغيره : العارفون بالله عاداتهم عبادات، والعامة عباداتهم عادات.
قال ابن رجب: قال زيد الشامي: إني أحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب.
وقال داود الطائي: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية، وكفاك بها خيرًا وإن لم تنصب.
وقال بعض السلف : من سره أن يكمل له عمله فليحسن نيته ، فإن الله يأجر العبد إذا أحسن نيته حتى باللقمة.
قال ابن رجب : وقد صحَّ الحديث بأنَّ نفقة الرجل على أهله صدقة ، ففي الصحيحين عن أبي مسعود الأنصاري ، عن النَّبيّ ﷺ قال (نفقةُ الرجل على أهله صدقةٌ) ، وفي روايةٍ لمسلم (وهو يحتسبها) ، وفي لفظٍ للبخاري (إذا أنفقَ الرجلُ على أهله وهو يحتسبها ، فهو له صدقة) ، فدل على أنّه إنَّما يؤجرُ فيها إذا احتسبها عند الله كما في حديث سعد بن أبي وقاص، عن النَّبيّ ﷺ قال (إنَّك لن تُنفِق نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلاَّ أُجِرْتَ عليها ، حتَّى اللُّقمة ترفعُها إلى في امرأتك) .
وفي صحيح مسلم عن ثوبان ، عن النَّبيّ ﷺ ، قال (أفضلُ الدنانير دينارٌ ينفقُه الرَّجُل على عيالِه ، ودينارٌ ينفقه على فرسٍ في سبيل الله ، ودينارٌ ينفقه الرجل على أصحابه في سبيل الله) قال أبو قِلابة عند رواية هذا الحديث: بدأ بالعيال، وأيُّ رجلٍ أعظمُ أجراً من رجلٍ ينفقُ على عيالٍ له صغار يُعِفُّهم الله به، ويُغنيهم الله به .
وفيه أيضاً عن سعد ، عن النَّبيّ ﷺ قال (إنَّ نفقتك على عيالِكَ صدقة ، وإنَّ ما تأكلُ امرأتُك من مالك صدقة) . وهذا قد ورد مقيداً في الرواية الأخرى بابتغاء وجه الله .
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النَّبيّ ﷺ قال (دينار أنفقتَه في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدَّقت به على مسكينٍ، ودينارٌ أنفقته على أهلك، أفضلُها الدِّينارُ الذي أنفقته على أهلك) .
وخرَّج الإمام أحمد من حديث المقدام بن معدي كرب ، عن النَّبيّ ﷺ قال (ما أَطْعَمْتَ نفسَك ، فهو لك صدقة ، وما أطعمت ولدكَ ، فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجتك ، فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمَك ، فهو لك صدقة) .
وفي هذا المعنى أحاديثُ كثيرة يطول ذكرها .
وفي الصحيحين عن أنس ، عن النَّبيّ ﷺ قال (ما مِنْ مسلمٍ يَغرسُ غَرْساً، أو يزرعُ زرعاً ، فيأكلُ منه إنسانٌ ، أو طيرٌ ، أو دابَّةٌ، إلا كان له صدقةٌ) .
وفي صحيح مسلم عن جابر ، عن النَّبيّ ﷺ قال (ما من مسلمٍ يغرسُ غَرْساً إلا كان ما أكلَ منه له صدقة ، وما سُرِقَ منه له صدقة ، وما أَكَلَ السَّبعُ منه فهو له صدقة ، وما أكلتِ الطَّير فهو له صدقةٌ ، ولا يرزؤُه أحدٌ إلا كان له صدقة) ، وفي روايةٍ له أيضاً (فيأكل منه إنسانٌ ، ولا دابةٌ ، ولا طائرٌ إلاَّ كان له صدقة إلى يوم القيامة) .
وظاهر هذه الأحاديث كلّها يدلُّ على أنَّ هذه الأشياء تكونُ صدقة يُثاب عليها الزارعُ والغارسُ ونحوهما من غير قصدٍ ولا نيةٍ، وكذلك قولُ النَّبيّ ﷺ (أرأيت لو وضعها في الحرام، أكان عليه وِزْرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ) يدلُّ بظاهره على أنَّه يُؤْجَرُ في إتيان أهله من غير نيَّةٍ، فإنَّ المباضِع لأهله كالزَّارع في الأرض الذي يحرث الأرض ويبذر فيها .
وقد ذهب إلى هذا طائفةٌ من العلماء ، ومال إليه أبو محمد بن قتيبة في الأكل والشُّرب والجماع .
واستدل بقول النَّبيّ ﷺ (إنَّ المؤمنَ ليؤجَرُ في كلِّ شيءٍ حتَّى في اللُّقمة يرفعها إلى فيه) .

وهذا اللَّفظ الذي استدلَّ به غيرُ معروف، إنَّما المعروف قولُ النَّبيّ ﷺ لسعد (إنَّكَ لن تُنفِقَ نفقةً تبتغي بها وجهَ اللهِ إلا أُجِرتَ عليها، حتَّى اللُّقمة ترفعها إلى في امرأتك) وهو مقيَّدٌ بإخلاص النية لله، فتحمل الأحاديثُ المطلقة عليه، والله أعلم .

٣- الحديث دليل على مشروعية عيادة المريض ، وقد جاءت نصوص كثيرة في فضل ذلك :

أ- عن البَرَاءِ بن عازِبٍ رضي الله عنهما ، قَالَ (أَمَرَنَا رسولُ الله ﷺ بعِيَادَةِ الْمَريضِ ، وَاتِّبَاعِ الجَنَازَةِ ، وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ ، وَنَصْرِ المظْلُومِ ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي ، وَإِفْشَاءِ السَّلاَمِ) متفقٌ عَلَيْهِ .

ب- وعن أَبي هريرة ﷺ : أنَّ رسول الله ﷺ ، قَال (حَقُّ المسْلِمِ عَلَى المسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلاَمِ، وَعِيَادَةُ المرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الجَنَائِزِ ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ ، وَتَشْمِيتُ العَاطِس) متفقٌ عَلَيْهِ .

ج-وعنه ، قَالَ : قَالَ رسولُ الله ﷺ (إنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ يَومَ القِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدنِي ! قَالَ : يَا رَبِّ ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ ؟! قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ! يَا ابْنَ آدَمَ ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمنِي ! قَالَ : يَا رَبِّ ، كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ ؟! قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ! يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي ! قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي). رواه مسلم

د-وعن أَبي موسى ﷺ ، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ (عُودُوا المريضَ، وَأَطْعِمُوا الجَائِعَ ، وَفُكُّوا العَانِيَ). رواه البخاري

هـ- وعن ثوبان ﷺ ، عن النبي ﷺ ، قَال (إنَّ المسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ المسْلِمَ ، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ)) قِيلَ : يَا رَسولَ الله ، وَمَا خُرْفَةُ الجَنَّةِ ؟ قَالَ : (جَنَاهَا) واه مسلم .

و- وعن عليّ ﷺ ، قَالَ : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ ، يَقُولُ (مَا مِنْ مُسْلِم يَعُودُ مُسْلِماً غُدْوة إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِي ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبحَ ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّة) واه الترمذي ، وقال : ((حديث حسن)) .

ز- وعن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (من عاد مريضاً أو زار أخاً له ، قيل له : طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً) رواه الترمذي .

وقد اختلف العلماء في حكم عيادة المريض :

القول الأول : أنها سنة مؤكدة .

وهذا قول جمهور العلماء .

للأحاديث الكثيرة التي سبقت في فضلها .

القول الثاني : أنها فرض كفاية .

وهذا اختيار ابن القيم رحمه الله ، وهذا القول هو الراجح ، للأمر بها :

كما في حديث البراء بن عازبٍ السابق قال (أمرنا رسولُ الله ﷺ بِسَبعٍ : ... بِعَيادَةِ المريض) .

وكما في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال (حَقُّ الْمُسلِمِ عَلَى الْمُسلِمِ خَمْسٌ :.. وَعِيادَةُ المريض) .

وكما في حديث أبي موسى ﷺ قال : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ (عُودُوا المرِيضَ ...) .

- وفي عيادة المريض فوائد :منها : يؤدي حق أخيه المسلم – أنه لا يزال في خرفة الجنة – أن في ذلك تذكيراً للعائد بنعمة الله عليه في الصحة – أن فيها جلباً للمحبة والمودة . (قاله الشيخ ابن عثيمين) .

٤- الحديث دليل على استحباب وضع اليد على المريض والدعاء له ، فقد جاء في رواية لهذا الحديث عند البخاري (...ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ ، ثُمَّ مَسَحَ يَدَهُ عَلَى وَجْهِى وَبَطْنِى ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْداً وَأَتْمِمْ لَهُ هِجْرَتَهُ) .

٥-الحديث دليل على تواضع النبي ﷺ .

٦- الحديث دليل على مشروعية الوصية .

قال تعالى (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ) .

وقال تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ) .

وعن ابن عمر مرفوعاً (ما حق امرىء مسلم له شيء يريدُ أن يوصي فيه ، يبيت ليلتين إلا ووصيتُه مكتوبة عنده) متفق عليه .

وقد أجمع العلماء في جميع الأمصار والأعصار على جواز الوصية [قاله ابن قدامة] .

والحكمة من مشروعيتها : فلأمور جليلة ، ومقاصد شريفة ، تجمع بين مصالح العباد في الدنيا ، ورجاء الثواب والدرجات العلى في الآخرة ، ففي الوصية يصل الموصي رحمه وأقرباءه الذين لا يرثون ، ويُدخل السعة على المحتاجين ، ويخفف الكرب على اليتامى والمساكين . وفي الوصية مصلحة للموصي حيث جعل الإسلام له جزءاً من ماله يبقى ثوابه عليه بعد وفاته ، وبهذا يتدارك ما فاته من أعمال البر والإحسان في حياته .

٧- الحديث دليل على جواز إخبار المريض بشدة مرضه ، وقوّة ألمه ، إذا لم يقترن بذلك شيء مما يُمنع أو يُكره .

٨- الحديث دليل على تحريم الوصية بأكثر من الثلث .

وتحرم الوصية في حالتين :

الحال الأولى : بأكثر من الثلث لغير وارث .

لحديث الباب .

وإنما مُنع الموصي من الزيادة على الثلث لأمرين :

الأمر الأول : أن النبي ﷺ لم يأذن لسعد إلا بالثلث ، فدل على أن الثلث هو النهاية وما زاد فهو ممنوع منه .

الأمر الثاني : أن ما زاد على الثلث داخل في المضارة التي قال الله فيها (من بعد وصية يوصى أو دين غير مضار) .

الحال الثانية : لوارث بشيء .

لقوله ﷺ (إن الله أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث) رواه أبو داود.

٩- الحديث دليل على أن الأفضل الوصية بأقل من الثلث، وإن كان الثلث جائزاً، لقوله ﷺ (الثلث والثلث كثير) قال العلماء : الأفضل أن يوصي بالخمس أو الربع ، وإن أوصى بالثلث جاز .

لقوله ﷺ لسعد : (الثلث والثلث كثير) مع إخباره إياه بكثرة ماله وقلة عياله .

وقال أبو بكر (أرضى ما رضيه الله لنفسه) . يعني الخمس .

قال ابن قدامة : فالأفضل للغني الوصية بالخمس، ونحو هذا يروى عن أبي بكر، وعلي بن أبي طالب، وهو ظاهر قول السلف .

قال الشيخ بن عثيمين رحمه الله : ولهذا نعرف أن عمل الناس اليوم، وكونهم يوصون بالثلث خلاف الأولى، وإن كان هو جائزاً، لكن الأفضل أن يكون أدنى من الثلث، إما الربع، وإما الخمس .

وقد قال ابن عباس : (لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن الرسول ﷺ قال: الثلث والثلث كثير) .

١٠- الحديث دليل على أن الوصية تكره لمن كان فقيراً وورثته محتاجون ، لأن هذا يضر بالورثة لقوله (... إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغنِيَاءَ خيرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يتكفَّفُونَ النَّاس) .

١١-الحديث دليل على أنه يجوز أن يوصي بجميع ماله لمن لا وارث له ، وهذا قول جمهور العلماء ، لأن النبي ﷺ منع من الزيادة على الثلث لحق الورثة ، فدل على أن من ليس له ورثة ، فلا مانع أن يزيد على الثلث ، بل لا مانع أن يوصي بماله كله ، لزوال المانع .

١٢-الحديث دليل على أنه ينبغي استشارة أهل العلم في الأمور الشرعية ، وقد حث الله على الاستشارة .

فقال تعالى (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) .

قال السعدي : فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره :

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله .

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس -إذا جمع أهل الرأي: والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث- اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي: المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ وهو أكمل الناس عقلا وأغزرهم علما، وأفضلهم رأياً (وشاورهم في الأمر) فكيف بغيره؟!

١٣- الحديث دليل على فضل صلة الأرحام ، والإحسان إلى الأقارب .

١٤-الحديث دليل على أن صلة الأقرب أفضل من الأبعد،وفي الحديث (الصدقة على القريب صدقة وصلة).

١٥- الحديث دليل على أن أجر الواجب يزداد بالنية ، لأن الإنفاق على الزوجة واجب ، وفي فعله الأجر ، فإذا نوى به ابتغاء وجه الله ازداد أجره بذلك ، قاله ابن أبي جمرة .

١٦- الحديث دليل على وجوب النفقة على الزوجة .

١٧-الحديث دليل على جواز جمع المال بشرطه .

١٨-الحديث دليل على أن من ترك شيئاً لله لا ينبغي له الرجوع فيه ولا في شيء منه مختاراً .

١٩- الحديث دليل على النظر في مصالح الورثة .

٧-وعنْ أبي هريرةَ عبدِ الرحمانِ بنِ صخرٍ ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :((إنَّ الله لا ينْظُرُ إلى أجْسَامِكُمْ ، ولا إلى صُوَرِكمْ ، وَلَكن ينْظُرُ إلى قُلُوبِكمْ وأعمالكم)) رواه مسلم .

(**وعنْ أبي هريرةَ عبدِ الرحمانِ بنِ صخرٍ**) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، أسلم عام خيبر ، ولازم النبي ﷺ ، وكان أكثر الصحابة رواية للحديث ، مات عام (٥٧) هـ .

١- الحديث دليل على أهمية عمل القلب ، وأن العبرة بما في القلب وليس بالصور والأجسام .

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) .

قال ابن كثير : أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب ، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ .

وقال السعدي : يخبر تعالى أنه خلق بني آدم، من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالاً كثيراً ونساء، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك، التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله، أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله، ظاهرًا وباطنًا، ممن يقوم بذلك، ظاهرًا لا باطنًا، فيجازي كلا بما يستحق .

فالقلوب هي محل النظر والعمل، وأما الصور والأموال فلا قيمة لها إن لم يستعن بها على طاعة الله ، ولكن محل النظر القلوب إذا استقامت على محبة الله والإخلاص له وخوفه ورجاءه وصلحت الأعمال ، وصارت خالصة لله موافقة للسنة هذا هو الذي ينفع صاحبه، صلاح القلب وصلاح الأعمال .

ولهذا قال ﷺ (التقوى ههنا) وأشار إلى صدره .

قال ابن رجب: وإذا كان أصلُ التَّقوى في القُلوب، فلا يطَّلعُ أحدٌ على حقيقتها إلا الله – عز وجل ، كما قال ﷺ (إنَّ الله لا ينظرُ إلى صُورِكُم وأموالِكم ، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم) وحينئذ ، فقد يكونُ كثيرٌ ممَّن له صورةٌ حسنةٌ ، أو مالٌ ، أو جاهٌ ، أو رياسةٌ في الدنيا ، قلبه خراباً من التقوى ، ويكون من ليس له شيء من ذلك قلبُه مملوءاً مِنَ التَّقوى ، فيكون أكرمَ عند الله تعالى ، بل ذلك هو الأكثر وقوعاً ، كما في الصحيحين عن حارثةَ بن وهبٍ ، عن النَّبيّ ﷺ قال (ألا أُخبِرُكم بأهل الجنَّةِ : كلُّ ضعيف متضعَّفٍ ، لو أقسم على الله لأبرَّهُ ، ألا أخبركم بأهل النَّارِ : كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستكبِرٍ) .

وفي المسند عن أنس عن النَّبيّ ﷺ قال (أمَّا أهلُ الجنَّة ، فكلُّ ضعيفٍ متضعَّفٍ ، أشعث ، ذي طِمرين ، لو أقسمَ على الله لأبرَّه ؛ وأمَّا أهلُ النَّارِ ، فكلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظ جمَّاعٍ ، منَّاعٍ ، ذي تَبَع) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ، عن النَّبيّ ﷺ قال (تحاجَّت الجنَّةُ والنَّارُ ، فقالتِ النَّارُ : أُوثِرْتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرين ، وقالتِ الجنَّةُ : لا يدخُلُني إلا ضعفاءُ النَّاس وسَقَطُهم ، فقال الله للجنَّةِ : أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاءُ من عبادي ، وقال للنار : أنت عذابي ، أعذِّبُ بكِ من أشاء من عبادي) .

وخرَّجه الإمام أحمد من حديث أبي سعيدٍ عن النَّبيّ ﷺ قال (افتخرت الجنَّةُ والنَّارُ ، فقالت النار : يا ربِّ ، يدخُلُني الجبابرة والمتكبِّرون والملوكُ.

والأشرافُ ، وقالت الجنَّةُ : يا ربِّ يدخُلُني الضُّعفاء والفقراءُ والمساكين) وذكر الحديث .

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد، قال : مرَّ رجلٌ على سولِ الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس (ما رأيك في هذا ؟) فقالَ رجلٌ منْ أشراف الناس : هذا والله حريٌّ إنْ خطَب أنْ يُنكح ، وإنْ شفع أنْ يشفَّعَ ، وإن قالَ أن يُسمَعَ لقوله ، قالَ : فسكت النَّبيُّ ﷺ ، ثُمَّ مرَّ رجلٌ آخر ، فقالَ لهُ رسول الله ﷺ ما رأيك في هذا ؟ ، قال : يا رسول الله ، هذا رجلٌ مِن فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إنْ خطب أنْ لا يُنكحَ، وإن شفع أن لا يشفَّع، وإنْ قال أنْ لا يُسمع لقوله ، فقال رسول ﷺ : (هذا خيرٌ من ملءِ الأرض مثل هذا) .

وقال محمد بنُ كعب القُرَظيُّ في قوله تعالى (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)، قال : تَخفِضُ رجالاً كانوا في الدُّنيا مرتفعين ، وترْفَعُ رجالاً كانوا في الدُّنيا مخفوضين .

قال ابن تيمية : فالجزاء يوم القيامة على ما في القلوب لا على مجرد الظواهر .

وقال رحمه الله : فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص , وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض .

وقال أيضاً : والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة , بل لحقائقها التي في القلوب , والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً .

ولهذا لم يُثن الله على أحد في القرآن بنسبه أصلاً : لا على ولد نبيّ, ولا على أبي نبيّ, وإنما أثنى على الناس بإيمانهم وأعمالهم . وإذا ذكر صنفاً وأثنى عليهم , فلما فيهم من الإيمان والعمل , لا لمجرد النسب ، ولما ذكر الأنبياء – ذكرهم في الأنعام – وهم ثمانية عشر , قال (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فبهذا حصلت الفضيلة باجتبائه سبحانه وتعالى وهدايته إياهم إلى صراط مستقيم , لا بنفس القرابة .

وقال ابن القيم : تتفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها .

وقال ابن رجب : لم يكن أكثر تطوع النبي ﷺ وخواص أصحابه بكثرة الصوم والصلاة ، بل ببر القلوب وطهارتها وسلامتها وقوة تعلقها بالله ، خشية له ومحبة ، وإجلالاً وتعظيماً ، ورغبة فيما عنده ، وزهداً فيما يفنى .

وقد قال تعالى (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

قال ابن القيم : القلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرئاسة ، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله .

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد ، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص ، وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحدة منها أنواع كثيرة، تتضمن أفراداً لا تنحصر .

ولذلك اشتدت حاجة العبد، بل ضرورته، إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها.

قال بعض العلماء : إن القرآن الكريم وضع (القلب السليم) مقابل المال والبنين، ولهذا دلالته؛ وذلك أن كثيراً ما يكون المال وكذلك البنون حاجزاً بين الإنسان وبين سلوك سبيل الرشاد، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى محذراً ومنبهاً (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً) .

وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

وقد قال ﷺ (إلا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله) متفق عليه .

قال ابن رجب : فيه إشارةٌ إلى أنَّ صلاحَ حركاتِ العبدِ بجوارحه ، واجتنابه للمحرَّمات واتِّقاءه للشُّبهات بحسب صلاحِ حركةِ قلبِه .

فإنْ كان قلبُه سليماً ، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يُحبه الله ، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه ، صلحت حركاتُ الجوارح كلّها ، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرَّمات كلها ، وتوقي للشبهات حذراً مِنَ الوقوعِ في المحرَّمات .

وإنْ كان القلبُ فاسداً ، قدِ استولى عليه اتِّباعُ هواه ، وطلب ما يحبُّه ، ولو كرهه الله ، فسدت حركاتُ الجوارح كلها ، وانبعثت إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتِّباع هوى القلب .

فعلى المسلم أن يسعى في إصلاح قلبه :

وذلك بقراءة القرآن بتدبر وخشوع .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

والإكثار من ذكر الله .

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) .

وقال ﷺ (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره كمثل الحي والميت) رواه مسلم .

والاستجابة لأمر الله ورسوله .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

وإعمار القلب بمحبة الله والتعلق به .

قال ﷺ (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ...) .

قال ابن القيم : إن في القلب وحشة لا يُذهبها إلا الأنس بالله ، وفيه حزن لا يُذهبه إلا السرور بمعرفته ، وفيه فاقة – يعني فقر – لا يُذهبه إلا صدق اللجوء إليه ، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تذهب تلك الفاقة أبداً .

وليحذر من مفسدات القلب وهي : الخلطة والتمني والتعلق بغير الله والشبع والمنام فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب .

وقال ابن القيم مبيناً سبب انقطاع القلب قال : الوقوف عند مدح الناس وذمهم : علامة انقطاع القلب وخلوه من الله ، وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه .

٢–قوله (قُلُوبِكمْ وأعمالكم) هذا يدل على أن هناك علاقة وثيقة بين القلب والعمل فبصلاح القلب ، صلاح العمل ولابد ومنه قوله ﷺ (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) رواه البخاري ومسلم وقال الله تعالى في محكم تنزيله (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً) .

٣–الحديث دليل على أنه لا عبرة بحسن الظاهر وزخرف اللسان مع خبث الجنان .

٤– الحث على مراقبة الله .

٨–وعن أبي موسى عبدِ اللهِ بنِ قيسٍ الأشعريّ ﷺ ، قَالَ : سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقاتلُ شَجَاعَةً ، ويُقَاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذلِكَ في سبيلِ الله ؟ فقال رَسُول الله ﷺ : ((مَنْ قَاتَلَ لِتَكونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيَا ، فَهوَ في سبيلِ اللهِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

(**وعن أبي موسى عبدِ اللهِ بنِ قيسٍ الأشعريّ**) هو عبد الله بن قيس الأشعري ، صحابي مشهور ، أمّره عمر ، ثم عثمان ، وكان حسن الصوت بقراءة القرآن ، مات سنة (٥٠) هـ وقيل بعدها .

(**عَنِ الرَّجُلِ يُقاتلُ شَجَاعَةً**) وفي الرواية الأخرى (فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَباً) أي : لأجل حظ نفسه ، ويحتمل أن يفسّر القتال للحميّة بدفع المضرة ، والقتال غضباً بجلب المنفعة .

(**وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً**) أي : لمن يُقاتِل لأجله من أهل ، أو عشيرة ، أو صاحب ،

(**ويُقَاتِلُ رِيَاءً**) أي : ليراه الناس، ولذلك جاء عند البخاري في التوحيد (ويقاتل رياء)، وفي رواية للمصنف في الجهاد (الرجل يقاتِل للمغنم ، والرجل يقاتل للذِّكْر ، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه) فقوله (والرجل يقاتل للذِّكْر) أي : ليذكره الناس فيما بينهم

بالشجاعة ، **قال الحافظ** : فمرجع قوله (يقاتل ليُذكر) إلى السمعة ، ومرجع قوله (ويقاتل ليُرى مكانه) إلى الرياء ، وكلاهما مذموم .

(**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا**) قال في الفتح : المراد بـ(بكلمة الله) دعوة الله إلى الإسلام .

١-الحديث دليل على أنه يشترط لقبول العبادة والعمل الإخلاص لله تعالى ، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله .

وقد خَرَّج النَّسائيُّ من حديث أبي أُمامة ، قال (جاء رجلٌ إلى النَّبيّ ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ ، ما لَهُ ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شيءَ له ، ثمَّ قال رسول الله ﷺ إنَّ الله لا يقبلُ من العملِ إلاَّ ما كانَ خالصاً ، وابتُغي به وجهُهُ) .

وخرَّج أبو داود من حديث أبي هريرة (أنَّ رجلاً قال : يا رسول اللهِ ، رجلٌ يريدُ الجِهادَ وهو يبتغي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنيا ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا أجر له ، فأعاد عليه ثلاثاً ، والنَّبيُّ ﷺ يقول : لا أجر له) .

٢- الحديث دليل على أنه يجب أن يكون الدين كله لله تعالى .

قال تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) .

قال ابن تيمية : وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الَّذِي خُلِقَ الْخَلْقُ لَهُ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) فَكُلُّ مَا كَانَ لِأَجْلِ الْغَايَةِ الَّتِي خُلِقَ لَهَا الْخَلْقُ كَانَ مَحْمُودًا عِنْدَ اللَّهِ وَهُوَ الَّذِي يَبْقَى لِصَاحِبِهِ وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَاتُ . وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ : مَنْ يَعْمَلْ لِلَّهِ بِشَجَاعَةٍ وَسَمَاحَةٍ ؛ فَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْتَحِقُّونَ لِلْجَنَّةِ . وَمَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللَّهِ بِشَجَاعَةٍ وَسَمَاحَةٍ ؛

وقال : فَالْمَقْصُودُ بِالْجِهَادِ أَنْ لَا يُعْبَدَ أَحَدٌ إلَّا اللَّهُ .

وقال رحمه الله ... ومن هنا تنشأ الفتن بين الناس , قال الله تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) فإذا لم يكن الدين كله لله وكانت فتنة ، وأصل الدين أن يكون الحب لله , والبغض لله , والموالاة لله , والمعاداة لله , والعبادة لله , والاستعانة بالله , والخوف من الله .

٣-الحديث دليل على القتال لا يكون في سبيل الله إلا إذا قاتل لإعلاء كلمة الله تعالى .

وهل يدخل في سبيل الله إذا قصد المغنم ضمناً لا أصلاً مقصوداً ، وبذلك صرح الطبري فقال : إذا كان أصل الباعث هو الأول لا يضره ما عرض له بعد ذلك ، وبذلك قال الجمهور .

لكن روى أبو داود والنسائي من حديث أمامة بإسناد جيد ، قال : جاء رجل فقال يا رسول الله ! أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ قال : لا شيء له ، فأعاده ثلاثاً كل ذلك يقول : لا شيء له ، ثم قال رسول الله ﷺ : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغي به وجهه .

ويمكن أن يحمل هذا على من قصد الأمرين معاً على حد واحد ، فلا يخالف المرجّح أولاً .

قال ابن أبي جمرة : ذهب المحققون إلى أنه إذا كان الباعث الأول قصد إعلاء كلمة الله لم يضره ما انضاف إليه .

ويدل على أن دخول غير الإعلاء ضمناً لا يقدح في الإعلاء إذا كان الإعلاء هو الباعث الأصلي ، ما رواه أبو داود بإسناد حسن عن عبد الله بن حوالة قال (بعثنا رسول الله ﷺ على أقدامنا لنغنم فرجعنا ، ولم نغنم شيئاً ، فقال : اللهم لا تكلهم إليّ ...) .

٤- في إجابة النبي ﷺ بما ذكر غاية البلاغة والإيجاز ، وهو من جوامع كلمه ﷺ ، لأنه لو أجابه بأن جميع ما ذكره ليس في سبيل الله احتمل أن يكون ما عدا ذلك كله في سبيل الله ، وليس كذلك ، فعدل إلى لفظ جامع .

٥- الحديث دليل على أن الفضل الوارد للمجاهدين يختص بمن قاتل لإعلاء كلمة الله .

٦- ذم الحرص على الدنيا .

٨- حرص الصحابة على العلم .

٩-ذم الحمية الجاهلية .

٩- وعن أبي بَكْرَة نُفيْعِ بْنِ الْحارِثِ الثَّقفِي ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا الْتقَى الْمُسْلِمَانِ بسيْفيْهِمَا فالْقاتِلُ والمقْتُولُ في النَّارِ» قُلْتُ : يَا رَسُول اللَّهِ ، هَذَا الْقَاتِلُ فمَا بَالُ الْمقْتُولِ ؟ قَال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» متفقٌ عليه .

(**وعن أبي بَكْرَة نُفيْعِ بْنِ الْحارِثِ الثَّقفِي**) الصحابي المشهور ، مشهور بكنيته ، كان رقيقاً فأعتقه النبي ﷺ ، وكان من فضلاء الصحابة ، مات عام (٤٩) هـ وقيل بعدها .

(**فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**) وقد أخرج البراز في حديث (القاتل والمقتول في النار) زيادة تبين المراد وهي (إذا اقتتلتم على الدنيا فالقاتل والمقتول في النار) ويؤيده ما أخرجه مسلم بلفظ (لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس زمان لا يدري القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قتل ، فقيل : كيف يكون ذلك ؟ قال : الهرج ، القاتل والمقتول في النار) .

(**في النار**) أي : يستحقان ذلك ولكن أمرهما إلى الله تعالى إن شاء عاقبهما ثم أخرجهما من النار كسائر الموحدين ، وإن شاء عفا عنهما فلم يعاقبهما أصلاً ، وقيل : هو محمول على من استحل ذلك .

١- الحديث دليل على أن الأعمال بالنيات ، فإن هذا لما نوى قتل صاحبه صار كأنه فاعله ذلك :

قال الشيخ ابن عثيمين فيمن همّ بمعصية :

النوع الأول : أن يعمل السيئة ، فهذا تكتب عليه سيئة واحدة من غير مضاعفة .

كما في الحديث (وإن هم بسيئة فعملها كتبها الله سيئة واحدة) .

وقال تعالى (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) .

النوع الثاني : الهم بالسيئة ثم يتركها خوفاً من الله ، فهذا تكتب له حسنة .

كما في حديث ابن عباس الآتي (وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة) .

وقد جاء في رواية (إنما تركها من أجلي أو من جرائي) .

ومثل قصة الذي همّ بابنة عمه بسوء فتركها لله ، فأجاب الله دعاءه وفرج همه فانفرجت الصخرة .

النوع الثالث : من همّ بالسيئة وسعى في تحصيلها لكن عجز عنها ، فهذا يكتب عليه وزر السيئة كاملاً ، دليل ذلك ، قول النبي ﷺ (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه) .

٢- الحديث دليل على تحريم الاقتتال بين المسلمين وأنه من كبائر الذنوب .

٣- الحديث رد على الخوارج الذين يقولون بكفر مرتكب الكبيرة ، وجه ذلك : قوله (الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ ...) فسماهم مسلمين مع التوعد بالنار .

٤- حديث الباب محمول على القتال بغير تأويل سائغ كما تقدم ((إذا اقتتلتم على الدنيا فالقاتل والمقتول في النار) ولهذا قال القرطبي : فبين هذا الحديث ، أن القتال إذا كان على جهل من طلب الدنيا أو اتباع هوى فهو الذي أريد بقوله (القاتل والمقتول في النار)، ولهذا قال الحافظ ابن حجر: ومن ثَم كان الذين توقفوا عن القتال في الجمل وصفين أقل عدداً من الذين قاتلوا، وكلهم متأول مأجور إن شاء الله.

٥- احتج بالحديث من لم ير القتال في الفتنة وهم كل من ترك القتال مع علي في حروبه كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأبي بكرة وغيرهم قالوا : يجب الكف حتى لو أراد أحد قتله لم يدفعه عن نفسه ، ومنهم من قال لا يدخل في الفتنة ، فإن أراد أحد قتله دفع عن نفسه .

وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى نصر الحق وقتال الباغين ، وحمل هؤلاء الأحاديث الواردة في ذلك على من ضعف عن القتال ، أو قصر نظره عن معرفة صاحب الحق ، وحمل هؤلاء الوعيد المذكور في الحديث على من قاتل بغير تأويل سائغ بل بمجرد طلب الملك ، ولا يرد على ذلك منع أبي بكرة الأحنف من القتال مع علي ، لأن ذلك وقع عن اجتهاد من أبي بكرة أداه إلى الامتناع والمنع احتياطاً لنفسه ولمن نصحه ، قال الطبري : لو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهرب منه بلزوم المنازل وكسر السيوف لما أقيم حد ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل الفسق سبيلاً إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال ، وسفك الدماء ، وسبي الحريم ، بأن يحاربوهم ويكف المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا هذه فتنة وقد نهينا عن القتال فيها وهذا مخالف للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء .

٦- فضيلة الأحنف بن قيس حيث امتثل لحديث (انصر أخاك ظالماً ...) .

٧- فضيلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

٨- أن الصحابي قد يتأول الحديث على غير وجهه، حيث نزّل أبو بكرة الحديث على القتال بين الصحابة، والصحيح أن الحديث محمول على القتال من أجل الدنيا والملك وغيرها من أمور الدنيا .

٩- في الحديث العذر للمتأول .

١٠-وفيه وجوب نصرة المؤمن .

١٠- وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «صَلاَةُ الرَّجُلِ في جماعةٍ تزيدُ عَلَى صَلاَتِهِ في سُوقِهِ وَبَيْتِهِ بضْعاً وعِشْرينَ دَرَجَةً ، وذلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِد لا يُرِيدُ إلاَّ الصَّلاَةَ ، لا يَنْهَزُهُ إلاَّ الصَّلاَةُ ، لَمْ يَخطُ خُطوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِها دَرجةٌ ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطيئَةٌ حتَّى يَدْخلَ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا دخل الْمَسْجِدَ كانَ في الصَّلاَةِ مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ التي تحبِسُهُ ، وَالْمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدكُمْ ما دام في مَجْلِسِهِ الَّذي صَلَّى فِيهِ ، يقُولُونَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ ، مالَمْ يُؤْذِ فِيهِ ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ » متفقٌ عليه ،وهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ . وَقَوْلُهُ ﷺ : «ينْهَزُهُ » هُوَ بِفتحِ الْياءِ وَالْهاءِ وَبالزَّاي : أَي يُخْرِجُهُ ويُنْهِضُهُ .

(**صَلاَةُ الرَّجُلِ**) أي : ثواب صلاته .

(**في جماعةٍ**) أي : معهم .

(**تزيدُ عَلَى صَلاَتِهِ في سُوقِهِ وَبَيْتِهِ بضْعاً وعِشْرينَ دَرَجَةً**) قال النووي : المراد صلاته في بيته وسوقه منفرداً، هذا هو الصواب ، وقيل فيه غير هذا ، وهو قول باطل ، نبهت عليه لئلا يُغتر به .

(**بضْعاً وعِشْرينَ دَرَجَةً**) البِضع بكسر الباء، وهو من الثلاثة إلى العشرة، وجاء في رواية حديث ابن عمر (صلاة الرجل في الجماعة ، تزيد على صلاته وحده سبعاً وعشرين) وفي حديث أبي هريرة (صلاة الجماعة تعدل خمساً وعشرين من صلاة الفذ) .

(**لا يَنْهَزُهُ إلاَّ الصَّلاَةُ**) بفتح الياء والهاء أي : يخرجه ويُنهضه .

(**إلاَّ الصَّلاَةُ**) أي : إلا إرادة الصلاة المكتوبة في جماعة ، يعني لم ينو بخروجه من بيته غير الصلاة من أمور الدنيا .

(**خطوة**) : الخطوة اسم لما بين الخطوتين .

(**لَمْ يَخطُ خُطوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِها دَرجةٌ**) أي : بتلك الخطوة عند الله .

(**وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطيئَةٌ**) أي محي عنه ذنب .

(**مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ التي تحبِسُهُ**) أي : مدة كون الصلاة تمنعه عن الخروج من المسجد .

(**وَالْمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدكُمْ**) أي : تدعو له بالخير

(**ما دام في مَجْلِسهِ الَّذي صَلَّى فِيهِ**) كأنه خرج مخرج الغالب ، وإلا فلو قام إلى بقعة أخرى من المسجد مستمراً على نية انتظار الصلاة كان كذلك .

(**ما لَمْ يُؤْذِ فِيهِ**) أي : في المسجد أي ما لم يصدر منه ما يتأذى به بنو آدم من قول أو فعل .

(**مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ**) أي ما لم يبطل وضوءه .

١- الحديث دليل على اعتبار الإخلاص في حصول هذا الأجر (... لَمْ يَخطُ خُطوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِها دَرجةٌ ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطيئَةٌ ....) .

٢-الحديث دليل على فضل صلاة الجماعة على المنفرد بسبع وعشرين درجة .

فإن قيل : ما الجمع بين هذه الرواية وبين الرواية الأخرى (بخمس وعشرين) ؟

اختلف العلماء في الجمع بين الروايتين :

قيل : أخبر أولاً بالقليل ثم أعلمه الله تعالى بزيادة الفضل فأخبر بها .

وقيل : السبع والعشرين للصلاة الجهرية . والخمس والعشرين للصلاة السرية ، ورجحه الحافظ ابن حجر .

وقيل : يختلف باختلاف أحوال المصلين وأحوال الصلاة ، فيكون لبعضهم خمس وعشرون ولبعضهم سبع وعشرون بحسب كمال الصلاة ومحافظته على هيئتها وخشوعها .

٣- الحديث رد على من قال بشرطية صلاة الجماعة ، لأن قوله ﷺ (... على صلاته في بيته وسوقه) يقتضي صحة صلاته منفرداً ، لاقتضاء صيغة أفعل الاشتراك في أصل التفاضل ، فإن ذلك يقتضي وجود فضيلة في صلاة المنفرد ، وما لا يصح لا فضيلة له .

والصحيح أن صلاة الجماعة واجبة .

أ-لقوله تعالى (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ) .

فأمر بالجماعة حال الخوف ، ففي غيره أولى .

ب- ولحديث أبي هريرة ﷺ . أن رسول الله ﷺ (لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ثم أخالف إلى رجالٍ لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار) متفق عليه .

فهدد رسول الله ﷺ تارك صلاة الجماعة بالتحريق فدل على وجوبها .

ج-وعن أبي هريرة ﷺ قال (أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال يا رسول الله: ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له أن يصلي في بيته فرخص له، فلما ولى دعاه فقال له: هل تسمع النداء بالصلاة؟ قال: نعم قال: فأجب) رواه مسلم .

د- وقال ابن مسعود ﷺ (ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق أو مريض) رواه مسلم .

٤- الحديث دليل على فضل إحسان الوضوء ، وهو إكماله وإتمامه ، وقد جاءت أحاديث في ذلك :

أ- حديث حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ قَالَ تَوَضَّأَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ يَوْماً وُضُوءاً حَسَناً ثُمَّ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ « مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لاَ يَنْهَزُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ غُفِرَ لَهُ مَا خَلاَ مِنْ ذَنْبِه) رواه مسلم .

ب–وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الإِبِلِ فَجَاءَتْ نَوْبَتِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِماً يُحَدِّثُ النَّاسَ فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ) رواه مسلم .

ج–وعن عُثْمَانَ قَالَ (وَاللَّهِ لأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثاً لَوْلاَ آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (لاَ يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ فَيُصَلِّى صَلاَةً إِلاَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلاَةِ الَّتِي تَلِيهَا) رواه مسلم .

د–وعن عُثْمَانَ . قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول (مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ) رواه مسلم .

٥– أن هذا الأجر (لم يخط خطوة ...) مشروط بأمرين :

أ– إحسان الوضوء .

ب– أن يقصد صلاة الجماعة بنية خالصة .

٦–الحديث دليل على فضل المشي إلى المساجد ، وقد جاءت بعض الأحاديث في فضل المشي إلى المساجد .

أ–عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقض فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة) رواه مسلم .

ب– وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط) رواه مسلم .

ج– وخاصة بالظلم كما قال ﷺ (بشر المشائين بالظلم بالنور التام يوم القيامة) رواه أبو داود .

٧– في حديث الباب (... لم يخط خُطوة إلا رفعت له بها درجة وحُط عنه بها خطيئة) وظاهر هذا الحديث أن الخطوة توجب شيئين اثنين : رفعة الدرجة وحط الخطيئة .

لكن جاء في مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال (مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَة) .

وفيه أيضاً من حديث عائشة أن الرسول ﷺ قال (.. إلا كتب له بها حسنة أو حُط عنه بها خطيئة) ؟

وهذه الأحاديث فيه إشكال ؟

الجمع بينها هو ما استظهر ابن حجر : أن العبد إذا خطا خطوة ، إما أن تكون عليه خطيئة أو لا تكون عليه خطيئة ، فإذا كانت عليه خطيئة محيت تلك الخطيئة ، وإن لم تكن عليه خطيئة كتب له بها حسنة توجب رفعة درجة .

٨– الحديث دليل على فضل الجلوس في المسجد وانتظار الصلاة وأن الملائكة تستغفر له وتدعو له .

لقوله (فَإِذَا دخل الْمَسْجِدَ كانَ في الصَّلاَةِ مَا كَانَتِ الصَّلاَةُ هِيَ التي تحبِسُهُ ...) طال الوقت أو قصر .

قال ابن عبد البر : في هذا الحديث دليل على فضل منتظر الصلاة كفضل المصلي ، لأنه معلوم أن قوله عليه الصلاة والسلام : لا يزال أحدكم في صلاة .... ، لم يرد به أن ينتظر الصلاة قائم ، ولا أنه راكع وساجد ، وإنما أراد أن فضل انتظار الصلاة بالقصد إلى ذلك وبالنية فيه كفضل الصلاة ، وأن منتظرها كالمصلي في الفضل .

وقال رحمه الله : هذا الحديث من أفضل ما يروى في فضل المنتظر للصلاة ، لأن الملائكة تستغفر له ، وفي استغفارهم له دليل على أنه يغفر له – إن شاء الله – ألا ترى أن طلب العلم من أفضل الأعمال ، وإنما صار كذلك – والله أعلم – لأن الملائكة تضع أجنحتها له بالدعاء والاستغفار .

والجالس قبل الصلاة في المسجد لانتظار تلك الصلاة خاصة فهو في صلاة حتى يصلي ، ففي الصحيحين عن أنس . عن النبي ﷺ (أنه لما أخر صلاة العشاء الآخرة ثم خرج فصلى بهم ، قال لهم : إنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة) .

وفي حديث الباب (... ولا يزال أحدكم في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه) .

وانتظار الصلاة ينقسم إلى قسمين :

الجلوس قبل الصلاة لانتظارها --- والجلوس لانتظار صلاة أخرى .

قال ابن رجب : وهذا (أي : الجلوس لانتظار صلاة أخرى) أفضل من الجلوس قبل الصلاة لانتظارها ، فإن الجالس لانتظار الصلاة ليؤديها ثم يذهب تقصر مدة انتظاره ، بخلاف من صلى صلاة ثم جلس ينتظر أخرى ، فإن مدته تطول ، فإن كان كلما صلى صلاة جلس ينتظر ما بعدها استغرق عمره بالطاعة، وكان ذلك بمنزلة الرباط في سبيل الله عز وجل .

وقال رحمه الله : وبالجملة فالجلوس في المسجد للطاعات له فضل عظيم، وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً : لا يوطن رجل المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله عز وجل كما يتبشبش أهل الغائب إذا قدم عليهم غائبهم .

وقال سعيد بن المسيب: من جلس في المسجد فإنما يجالس الله عز وجل .

وصحّ عن النبي (أنه عدّ من السبعة الذين يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله : ورجل قلبه معلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود) .

وإنما كان ملازمة المسجد مكفراً للذنوب ، لأن فيه مجاهدة للنفس، وكفّاً لها عن أهوائها ، فإنها لا تميل إلا إلى الانتشار في الأرض لابتغاء الكسب ، أو لمجالسة الناس ومحادثتهم ، أو للتنزه في الدور الأنيقة والمساكن الحسنة ومواطن النّزه ونحو ذلك، فمن حبس نفسه في المساجد على الطاعة فهو مرابط لها في سبيل الله ، مخالف لهواها ، وذلك من أفضل أنواع الصبر والجهاد .

٩- فضل التبكير إلى الحضور إلى المسجد .

١٠-الحديث دليل على فضل الصلاة على غيرها من العبادات ، لدعاء الملائكة للمصلي .

١١- الحديث دليل على جواز الصلاة في السوق .

١٢- الحديث دليل على أن من عمل الملائكة الدعاء للمؤمنين .

١٣- أن الحدث الأصغر وإن منع دعاء الملائكة لا يمنع جواز الجلوس في المسجد .

١١-وعن أبي العبَّاسِ عبدِ اللهِ بنِ عباسِ بنِ عبد المطلب رضِيَ اللهُ عنهما ، عن رَسُول الله ﷺ ، فيما يروي عن ربهِ ، تباركَ وتعالى ، قَالَ : « إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالى عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً ،وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعمئةِ ضِعْفٍ إلى أَضعَافٍ كَثيرةٍ ، وإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » مُتَّفَقٌ عليهِ .

(**وعن أبي العبَّاسِ عبدِ اللهِ بنِ عباسِ**) بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ، حبر الأمة وفقيهها وترجمان القرآن، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، توفي رسول الله ﷺ وقد ناهز الاحتلام ، مات في الطائف عام (٦٨) هـ، وصلى عليه محمد بن الحنفية .

(**إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ**) الكتابة بمعنى التدوين والإحصاء ، والمراد أنها مكتوبة على العبد في الأزل.

(**ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ**) أي : فضله .

١- في هذا الحديث بيان كتابة الحسنات والسيئات والهم بالحسنة والسيئة .

والكتابة القدرية للحسنات والسيئات تشمل أمرين :

أحدها : كتابة عمل الخلق لها . **والآخر** : كتابة ثوابها وتعيينُه .

وكلاهما حق ، إلا أن المراد منها في هذا الحديث الثاني .

والحسنة شرعاً : اسم لكل ما تُوعّد عليه بالثواب الحسن ، وهي كل ما أمر به الشرع .

والسيئة شرعا : اسم لكل ما تُوعّد عليه بالثواب السيئ ، وهي كل ما نهى عنه الشرع نهي تحريم .

٢- قوله ﷺ (فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) فهذه يكتبها الله عنده حسنة كاملة .

وفي رواية (إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة ، فأنا أكتبها له حسنة) .

- والمراد بالهمّ هنا هو همّ الخطرات، فإذا وجد في القلب خطرة إلى الحسنة كتبها الله له حسنة وإن لم يعمل .

٣- قوله ﷺ (وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ) فمن هم بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات ، وهذا شامل لكل الحسنات .

كما قال تعالى (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) .

وأما زيادة المضاعفة على العشر لمن شاء الله أن يضاعف له تكون حسب الإخلاص والإحسان في العمل .

كما قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

وعن ابن مسعود قال (جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : يا رسول الله ! هذه في سبيل الله ، فقال : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة) رواه مسلم .

وفي حديث الصيام (قال تعالى : إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به) متفق عليه .

قال ابن رجب : إن مضاعفة الحسنات زيادة على العشر تكون بحسب حسن الإسلام ، ويكون بحسب كمال الإخلاص ، وبحسب فضل ذلك العمل في نفسه ، وبحسب الحاجة إليه .

وقال الشيخ ابن عثيمين : (إلى سبعمائة ضعف) وهذا تحت مشيئة الله تعالى ، فإن شاء ضاعف هذا ، وإن شاء لم يضاعف .

قال ابن تيمية : وفي الصحيحين (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له) .

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها ، وإلا **فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها** .

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق , فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه , فغفر له بذلك ، **فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص** , وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض , **وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له** .

وقال : والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة , بل لحقائقها التي في القلوب , والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً .

وقال رحمه الله : والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله , فيغفر الله له به كبائر ، كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : (يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة

على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً , كل سجل منها مد البصر , فيقال : هل تنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يا رب , فيقول : لا ظلم عليك , فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله , فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فتوضع هذه البطاقة في كفه , والسجلات في كفة , فثقلت البطاقة وطاشت السجلات) .

فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق , كما قالها هذا الشخص, وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون : لا إله إلا الله , ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجّح قول صاحب البطاقة .

٤- قوله ﷺ (وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) فمن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة إذا كان تركها من خشية لله كما في رواية لمسلم (إنما تركها من أجلي أو من جرائي) .

ومثل قصة الذي همّ بابنة عمه بسوء فتركها لله ، فأجاب الله دعاءه وفرج همه فانفرجت الصخرة .

ب- فإن تركها مخافة المخلوقين ومرآتهم فيعاقب على هذا .

ج- فإن تركها بسبب عدم القدرة عليها مع الاشتغال بتحصيل أسبابها ، فهذا يعاقب كمن عمِل ، فتكتب عليه سيئة .

قال الشيخ ابن عثيمين : من همّ بالسيئة وسعى في تحصيلها لكن عجز عنها ، فهذا يكتب عليه وزر السيئة كاملاً ، دليل ذلك ، قول النبي ﷺ (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه) .

٥- قوله ﷺ (وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً) فمن همّ بسيئة وعملها تكتب عليه سيئة واحدة من غير مضاعفة .

كما قال تعالى (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) .

فمن عمل سيئة تكتب عليه سيئة بمثلها من غير مضاعفة ولهذا قال (كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً) إشارة إلى أنها غير مضاعفة .

لكن السيئة تعظُم أحياناً بشرف الزمان أو المكان .

٦- الحديث دليل على عظم فضل الله ورحمته بعباده .

فمن رحمته : أن الحسنة مضاعفة ، والسيئة لا تضاعف .

ومن رحمته : جعل أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة .

ومن رحمته : ما جاء في قوله ﷺ (إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) .

ومن رحمته : ما جاء في حديث (وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي) .

ومن رحمته : أن أمة الإسلام هي أقل الأمم عملاً ، وأكثرهم أجراً .

٧-جاء في رواية في آخر الحديث (ولا يهلك على الله هالك) .

قال ابن رجب رحمه الله : يعني بعد هذا الفضل العظيم من الله والرحمة الواسعة منه بمضاعفة الحسنات والتجاوز عن السيئات ، لا يهلك على الله إلا من هلك ، وألقى بيده إلى التهلكة ، وتجرأ على السيئات ، ورغب عن الحسنات ، وأعرض عنها .

٨- أسلوب الترغيب والترهيب من أفضل أساليب التربية .

٩- اطلاع الملائكة على ما يهم به الإنسان .

١٠- على المسلم أن ينوي فعل الخير دائماً وأبداً ، لعله يكتب له أجره وثوابه .

١١- الحث على العمل الصالح والمسارعة فيه .

١٢- وعن أبي عَبْد الرَّحْمَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: (انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ

نفر مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ الْمبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجبلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا الله تعالى بصالح أَعْمَالكُمْ .

قال رجلٌ مِنهُمْ : اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوانِ شَيْخَانِ كَبِيرانِ ، وكُنْتُ لاَ أَغبِقُ قبْلهَما أَهْلاً وَلا مالاً فنأَى بِي طَلَبُ الشَّجرِ يَوْماً فَلمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلبْت لَهُمَا غبُوقَهمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمِيْنِ ، فَكَرِهْت أَنْ أُوقظَهمَا وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدِى أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُما حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمى فَاسْتَيْقظَا فَشَربَا غَبُوقَهُمَا . اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ففَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَة ، فانْفَرَجَتْ شَيْئاً لا يَسْتَطيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ .

قال الآخر : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانتْ لِيَ ابْنَةُ عمٍّ كانتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ » وفي رواية : « كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشد مَا يُحبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءِ ، فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ففَعَلَت ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا » وفي رواية : « فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا ، قَالتْ : اتَّقِ الله ولا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ ، فانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتركْتُ الذَّهَبَ الَّذي أَعْطَيتُهَا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعلتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ، فانفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا .

وقَالَ الثَّالِثُ : اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجرَاءَ وَأَعْطَيْتُهمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذي لَه وذهب فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجائنى بعد حين فقال يا عبد الله أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي ، فَقُلْتُ : كُلُّ مَا تَرَى منْ أَجْرِكَ : مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَم وَالرَّقِيق فقال: يا عَبْدَ اللَّهِ لا تَسْتهْزِئْ بِي ، فَقُلْتُ : لاَ أَسْتَهْزِئُ بك، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فاسْتاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْه شَيْئاً ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فخرَجُوا يَمْشُونَ) متفقٌ عليه.

(**وعن أبي عَبْد الرَّحْمَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخطَّابِ**) بن نفيل القرشي العدوي ، أحد الأعلام في العلم والعمل ، أسلم صغيراً مع أبيه ، وأول مشاهده الخندق ، قال فيه النبي ﷺ : نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل ، فكان لا ينام من الليل إلا قليلاً ، مات في مكة عام (٧٣) هـ .

(**إِلَى غَارٍ**) الغار الثقب في الجبل .

(**وكُنْتُ لاَ أَغبِقُ قبْلهَما أَهْلاً وَلا مالاً**) أي: ما كنت أقدم عليهما أحداً في شرب نصيبهما من اللبن الذي يشربانه، والغَبوق: شرب العشي .

(**فنأَى بِي طَلَبُ**) أي : بعُد .

(**وَالصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمي**) أي : يصيحون ويستغيثون من شدة الجوع .

(**حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ**) أي : وقعت في سنة جدب ومحل .

(**فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا**) أي : جلست مجلس الرجل من المرأة .

(**قَالتْ : اتَّقِ الله ولا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ**) الخاتم كناية عن البكارة .

١- الحديث دليل على فضل الإخلاص لله تعالى في جميع الأعمال ، وأنه سبب لتفريج الكروب .

وللإخلاص فضائل كثيرة منها .

أولاً : أنه سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب .

كما في حديث الباب ، فسبب نجاتهم دعوتهم لله تعالى بخالص أعمالهم ، فكان كل واحد منهم يقول (اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ...) .

ثانياً : أنه سبب لمغفرة الذنوب ، وسبب لعظم الجزاء مع قلة العمل .

أ-والدليل : قصة المرأة الزانية التي سقت الكلب فغفر الله لها ، والقصة عند البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رحمه الله : فتأمل ما قام في قلبها من حقائق الأيمان والعبودية في هذه اللحظة فمنها : أنها لم تعمله ابتغاء الأجر من أحد لأنها تعطي كلباً فلا تنتظر منه جزاء أو شيئاً - وأنه لم يرها أحد إلا الله وهذا يدل عليه ظاهر الحديث - أنها أتعبت نفسها في سقايتها لهذا الكلب فنزلت في البئر مع أنها امرأة ثم ملئت خفها بالماء وحملته بفيها ثم سقت هذا الكلب الحقير ، فتأمل ما قام في قلبها من أسرار الإخلاص فعندما تمت هذه الحقائق في قلبها(أحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البقاء والزنا فغفر الله لها .

ب- عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل هذا، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً ؟! أظلمك كتبتي الحافظون ؟! فيقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذر ؟! فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم. فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء) رواه الترمذي .

يقول شيخ الإسلام معلقاً على حديث البطاقة : فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلّا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا اله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة .

ثالثاً : أنه يصرف الفتنة عن القلب .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى (٦٠/١) : فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله عز وجل.

ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٢٦١) : فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها .

رابعاً : أنه به تكمل العبودية لله تعالى.

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى (١٩٨/١٠) : وكلما قوي إخلاص العبد كملت عبوديته .

لأن بالإخلاص تقبل الأعمال وترفع إلى الله ، وكلما قبل العمل ارتفعت المنزلة والدرجة عند الله تعالى لذلك العبد ، ولهذا كان من أبرز صفات المقربين والسابقين عند الله هو (إخلاصهم لله) فبالإخلاص ارتفعوا عن الناس وأصبحوا في أعالي عليين .

خامساً : أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى : لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له .

سادساً : أنه سبب لمضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ

) .

قال ابن كثير : وقوله ههنا (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) أي : بحسب إخلاصه في عمله .

وقال ﷺ قال (والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ....) رواه البخاري .

قال ابن رجب : ومضاعفة الأجر بحسب كمال الإسلام، وبكمال وقوة الإخلاص في ذلك العمل .

وقال ﷺ (الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس بخمس وعشرين درجه) رواه ابن ماجة وصححه الألباني .

سابعاً : أنه سبب للنصر على الأعداء .

لحديث سعد ﷺ قال: قال ﷺ (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها،بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم) .

ثامناً : أنه ينجي العبد من النار يوم القيامة .

لقوله النبي ﷺ (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله) رواه البخاري .

قال ابن تيمية في الفتاوى (٢٦١/١٠) : فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله ، فإن ذلك دليل على أنه لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار .

تاسعاً : زيادة الإيمان .

قال تعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) .

قال السعدي : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا) بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله (زَادَهُمْ هُدىً) شكرًا منه تعالى لهم على ذلك، (وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدي جزاءين: العلم النافع ، والعمل الصالح .

عاشراً : نقاء القلب من الحقد والغِل والخيانة .

لقوله ﷺ (ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة أئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن الدعوة تحيط من ورائهم) .

قال ابن القيم : أي: لا يبقى فيه غل، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه عنه، فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً، ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة .

الحادي عشر : قَبول الأعمال من الله تعالى .

قال تعالى (قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

قال ابن تيمية : الناس لهم في هذه الآية ثلاثة أقوال: طرفان ووسط .

فالخوارج والمعتزلة يقولون: لا يتقبل الله إلا من اتقى الكبائر، وعندهم صاحب الكبيرة لا يقبل منه حسنة بحال.

والمرجئة يقولون: من اتقى الشرك.

والسلف والأئمة يقولون: لا يتقبل إلا ممن اتقاه في ذلك العمل، ففعله كما أمر به خالصاً لوجه الله تعالى .

ولحديث أَبِي مُوسَى قَالَ (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَباً ، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً . فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ – قَالَ وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ قَائِماً – فَقَالَ : مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَل) متفق عليه .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ما له، فقال رسول الله

ﷺ : لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ : لا شيء له ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتُغِيَ به وجهه) رواه أبو داود .

الثاني عشر : الانتفاع بالعمل الصالح وإن قَلّ .

كما قال تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ) قال ابن كثير : أي بَدَّلوا الرياء بالإخلاص ، فينفعهم العمل الصالح وإن قل .

الثالث عشر : تحويل المباحات إلى قربات .

كما قال ﷺ (وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْر) رواه مسلم .

الرابع عشر : النصر والتمكين .

قال ﷺ (إنما يَنصر الله هذه الأمة بضعيفها ، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم) .

الخامس عشر : الإظلال في ظل الرحمن يوم القيامة .

كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله حيث قال ﷺ (ورجلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه) متفق عليه .

السادس عشر : نيل شفاعة محمد ﷺ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ ، أَوْ نَفْسِه) رواه البخاري .

٢- الحديث دليل على أنه يجوز أن يتوسل الإنسان بعمله الصالح ، وأن ذلك من التوسل الجائز .

أنواع التوسل الجائز :

أولاً : أن يتوسل بعمله الصالح .

كما في حديث الباب .

وقال تعالى (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) فتوسل هؤلاء بإيمانهم بربهم .

ثانياً : التوسل بأسماء الله وصفاته .

قال تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) .

ثالثاً : التوسل إلى الله بدعاء رجل صالح ترجى إجابته .

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (يدخل الجنة من أمتي زمرة هي سبعون ألفا تضيء وجوههم إضاءة القمر . فقام عكّاشة بن محصن ... قال: ادع الله لي يا رسول الله أن يجعلني منهم ، فقال: اللهم اجعله منهم ..). رواه البخاري ومسلم

وعن أنس . (أن عمر كان إذا قُحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، وقال : اللهم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فيُسقوْن) رواه البخاري .

وشرط هذا أن يكون في حياة الداعي لا بعد موته .

٣- الحديث دليل على فضل بر الوالدين وتفضيلهما على الولد ، وتحمل المشقة لأجلهما ، وأنه من أعظم الأعمال الصالحة .

٤- الحديث دليل على فضل الدعاء وأنه من العبادات العظيمة .

٥- الحديث دليل على اللجوء إلى الله عند نزول الشدائد .

٥- أن الإخلاص والصدق مع الله له عواقب حميدة .

٦-الحديث دليل على أنه يجب على العبد أن يجتهد في إصلاح عمله، وإيقاعه على الوجه الشرعي، فهو الذي ينفع بإذن الله .

٧-الحديث فيه الحذر من فتنة النساء والتعلق بهن ، وأنه ذلك يوجب الوقوع في المنكرات .

٨-ضعف الإنسان أمام الشهوات وخاصة شهوة النساء .

٩-الفقر والحاجة – مع ضعف الإيمان – قد تدفع المرء في الوقوع في المحرمات .

١٠-الحديث دليل على أن ترك الحرام لله تعالى وخوفاً منه يعتبر من أجل الطاعات والأعمال الصالحات .

١١-رب كلمة قالها المرء بصدق وإخلاص غيرت مجرى حياة عبد كان غارقاً في الآثام ، وجعلته – بعد توفيق الله – من أهل الصلاح والاستقامة .

١٢-فيه استحباب التكنية عن الأمور المستقبحة بما يفهم منه المراد ، حتى يعود المرء نفسه على عفة اللسان وطهارته .

١٣- انظر كيف تغير التقوى النفوس ، وتداوي عللها ، بل ترتقي بها في مدارج الكمال والمعالي ، فهذا الرجل لم يمتنع عن المرأة بعد أن ذكّرته بالله فحسب ، بل ترك لها المال الذي كان يضغط عليها به .

١٤- الحديث دليل على جواز الإجارة .

١٥- إعطاء الأجراء حقوقهم ولا تحل مماطلتهم .

١٦- وجوب حفظ الحقوق وردها إلى أهلها .

١٧- إذا اجتهد رب العمل في إنصاف العمال وإعطائهم حقوقهم ، ثم ترك أحدهم حقه ، أو هرب من العمل ، فلا يلحقه بذلك إثم و لا عيب .

١٨-جواز العمل بالتجارة المباحة .

١٩- بركة التجارة الصادقة حيث تضاعفت هذه الأجُرة إلى أضعاف كثيرة .

٢٠- إثبات الكرامة للصالحين .

٢١- علم من أعلام نبوته ﷺ ، حيث أخبر بهذه القصة .

٢٢-وفضل حسن العهد وأداء الأمانة .

٢٣- وفضل السماحة في المعاملة .

٢٤-كم في ثنايا المجن من المنح .

٢٥-في هذه الشدة ذكر كل واحد منهم عملاً صالحاً واكتفى به ، مما يدل أن المؤمن قد تكون له خبيئة من الأعمال الصالحة هي من أرجى أعماله عند الله تعالى ، وإن كان له غيرها .

وقد صح عن عبد الله بن الزبير أنه كان يقول (ليكن لأحدكم خبيئة بينه وبين ربه، فإن ألم به شيء سأل الله بخبيئته هذه) .

وكان للسلف الصالح يكون لأحدهم خبيئة لا يعرفها أحد، حتى أقرب الناس إليه .

٢- باب التوبة

قَالَ العلماءُ : التَّوْبَةُ وَاجبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كَانتِ المَعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لاَ تَتَعلَّقُ بحقّ آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط:

أحَدُها : أنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ .

والثَّانِي : أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا .

والثَّالثُ : أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَداً . فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

وإنْ كَانَتِ المَعْصِيةُ تَتَعَلقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أرْبَعَةٌ: هذِهِ الثَّلاثَةُ، وأنْ يَبْرَأ مِنْ حَقّ صَاحِبِها، فَإِنْ كَانَتْ مالاً أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْه، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْفٍ ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ ، وإنْ كَانْت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا . ويجِبُ أنْ يَتُوبَ مِنْ جميعِ الذُّنُوبِ ، فَإِنْ تَابَ مِنْ بَعْضِها صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عِنْدَ أهْلِ الحَقّ مِنْ ذلِكَ الذَّنْبِ وبَقِيَ عَلَيهِ البَاقي . وَقَدْ تَظَاهَرَتْ دَلائِلُ الكتَابِ والسُّنَّةِ ، وإجْمَاعِ الأُمَّةِ عَلَى وُجوبِ التَّوبة .

قَالَ الله تَعَالَى : (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

وَقالَ تَعَالَى : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) .

وَقالَ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحا) .

- **تعريف التوبة :**

قال ابن القيم : حقيقة التوبة : الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يجب ، وترك ما يكره .

ذكر المصنف – رحمه الله – شروط التوبة وهي :

أحَدُها : أنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ .

قال ابن القيم : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

والثَّانِي : أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا .

قال ابن القيم : فأما الندم، فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه، وفي المسند (الندم توبة) .

والثَّالثُ : أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَداً . فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

يعزم عزماً مؤكداً أن لا يعود إليها مرة أخرى في المستقبل .

- قال المصنف – رحمه الله – : **وإنْ كَانْت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا .**

المعروف في مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك : اشتراط الإعلام والتحلل .

واحتجوا بأن الذنب حق آدمي ، فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه .

والقول الآخر : إنه لا يشترط الإعلام بما نال من عِرضه وقذفه واغتيابه ، بل يكفي توبته بينه وبين الله ، وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة ، فيبدِّل غيبته بمدحه والثناء عليه .

وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية .

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة ، لا تتضمن مصلحة ، فإنه لا يزيده إلا أذى وخنقاً وغماً ، وقد كان مستريحاً قبل سماعه .

قالوا : وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القائل .

والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين :

أحدهما : أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه ، فلا يجوز إخفاؤها عنه ، فإنه محض حقه ، فيجب عليه أداؤه إليه ، بخلاف الغيبة والقذف ، فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه .

الثاني : أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه ، ولم تهج منه غضباً ولا عداوة ، بل ربما سرّه ذلك وفرح به .

ثم ذكر المصنف – رحمه الله – بعض الآيات الدالة على التوبة والأمر بها :

قَالَ الله تَعَالَى : (**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) .

أي : ارجعوا إلى الله تعالى بفعل ما يجب وترك ما يكره لأجل أن تفلحوا بالفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب .

قال ابن القيم : فكل تائب مفلح ، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه .

- وفي الآية وجوب التوبة إلى الله من جميع الذنوب .

وَقالَ تَعَالَى : (**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**) .

وَقالَ تَعَالَى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحا**) .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بأن يتوبوا إليه توبة نصوحاً .

قال ابن القيم : النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء :

الأول : تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته .

والثاني : إجماع العزم والصدق بكليته عليها ، بحيث لا يبقى عنده تردد ، ولا تلوم ولا انتظار .

والثالث : تخليصها من الشوائب والعِلَل القادحة في إخلاصها ، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته ، والرغبة فيما لديه .

١٣–وعن أبي هريرةَ ﷺ ، قَالَ : سمعْتُ رسولَ الله ﷺ ، يقول : (والله إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إِلَيْه في اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً) رواه البخاري .

١٤–وعن الأَغَرِّ بنِ يسار المزنِيّ ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، تُوبُوا إِلى اللهِ واسْتَغْفِرُوهُ ، فإِنِّي أَتُوبُ في اليَومِ مئةَ مَرَّةٍ) رواه مسلم .

(**لأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إِلَيْه**) ظاهره أنه يطلب المغفرة ويعزم على التوبة ، ويحتمل أن يكون المراد يقول هذا اللفظ بعينه ، ويرجح الثاني ما أخرجه النسائي بسند جيد من طريق مجاهد عن ابن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول (أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه في المجلس قبل أن يقوم مائة مرة) ، وله من رواية محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر بلفظ (إنا كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس : رب اغفر لي وتب علي ، إنك أنت التواب الغفور ، مائة مرة) .

(**وأَتُوبُ إِلَيْه**) التوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة .

١–قوله (والله إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إِلَيْه) الاستغفار : هو ستر الذنب عن الخلق ، والتجاوز عن عقوبته ، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه –عز وجل – حتى يضع كنفه – أي ستره ورحمته – فيقرره بذنوبه ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم ، أي ربي ، حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال الله : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) رواه البخاري ومسلم ، ومنه سمي المغفر ، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام .

قال ابن القيم : الاستغفار نوعان :

مفرد ومقرون بالتوبة .

فالمفرد : كقول نوح عليه السلام لقومه : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً) . وكقول صالح لقومه (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

والمقرون كقوله تعالى (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ). وقول هود لقومه (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً). .

فالاستغفار المفرد كالتوبة بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ، فالاستغفار يتضمن التوبة والتوبة تتضمن الاستغفار ، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق .

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى فالاستغفار منه ، طلب وقاية شره وذنب يخاف وقوعه ، فالتوبة : العزم على أن لا يفعله ، والرجوع إلى الله يتناول النوعين : رجوع إليه ليقيه شر ما مضى ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله .

فهاهنا أمران لا بد منهما : مفارقة شيء والرجوع إلى غيره فخصت التوبة بالرجوع ، والاستغفار بالمفارقة وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين ولهذا جاء والله أعلم الأمر بهما مرتباً بقوله (استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل ، وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر ، والتوبة طلب جلب المنفعة ، فالمغفرة أن يقيه شر الذنب ، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده والله أعلم .

٢- الحديث دليل على وجوب التوبة والاستغفار من جميع الذنوب .

كما قال تعالى (وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ) .

وقال تعالى (وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقال تعالى (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) .

٢- الحديث دليل شدة عبودية النبي ﷺ لربه واستغفاره له كما أمره الله في آيات كثيرة :

لقوله (فاستغفروني أغفر لكم) .

وقال تعالى (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) .

وقال تعالى (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) .

وقال سبحانه (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) .

والأنبياء وأهل الفضل يطلبون المغفرة من الله .

قال تعالى عن نوح (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) .

وقال الخليل (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) .

وقال موسى (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ) .

وكان ﷺ يقول (رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي ، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير) متفق عليه .

وكان يقول (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلاَنِيَتَهُ وَسِرَّهُ) رواه مسلم .

قال ابن القيم : هذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه .

٣- اختلف العلماء في الحكمة من استغفاره ﷺ مع أنه مغفور له :

أولاً : أنه قد يقع منه الذنب إلا ذنباً ينافي مقتضى الرسالة مثل الخيانة والكذب وما أشبه ذلك .

ثانياً : لتقتدي به الأمة .

ثالثاً : تحقيقاً للعبودية .

رابعاً : أن الخطاب له والمقصود الأمة .

٤- والاستغفار له فوائد كثيرة :

أولاً : تكفير السيئات ورفع الدرجات .

قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً) .

وفي الحديث القدسي (قال الله : من يستغفرني فأغفر له ..) متفق عليه .

وتقدم قوله تعالى في الحديث القدسي (فاستغفروني أغفر لكم) رواه مسلم .

ثانياً : سبب لسعة الرزق والإمداد بالمال والبنين .

قال تعالى عن نوح أنه قال لقومه (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) .

ثالثاً : سبب لحصول القوة في البدن .

قال هود لقومه (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) .

رابعاً : سبب لدفع المصائب ورفع البلايا .

قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) .

خامساً : سبب لبياض القلب .

قال ﷺ (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه) رواه أحمد .

من أقوال السلف :

قال بعض العلماء : طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً .

وكان ابن عمر : يطلب من الصبيان الاستغفار ويقول : إنكم لم تذنبوا .

وقال قتادة : إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، فأما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالاستغفار .

وقال رياح القيسي : لي نيف وأربعون ذنباً ، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة .

وقال الحسن : لا تملُّوا من الاستغفار .

وقال بكر المزَني : إن أعمال بني آدم تُرفع فإذا رُفعت صحيفةٌ فيها استغفار رُفعت بيضاء ، وإذا رُفعت ليس فيها استغفار رفعت سوداء .

وعن الحسن قال : أكثروا من الاستغفار في بيوتكم ، وعلى موائدكم ، وفي طُرُقِكم ، وفي أسواقكم ، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة .

قال لقمان لابنه : أيْ بُنَيَّ عوِّد لسانك : اللهم اغفر لي ؛ فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً .

ورئي عمر بن عبد العزيز في النوم فقيل له : ما وجدت أفضل ؟ قال : الاستغفار .

فائدة : قال تعالى (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ) .

قال السعدي : وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير ، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً ، أو يفعله على وجه ناقص ، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار ، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته فإنه هالك .

١٥- وعن أبي حمزةَ أنسِ بنِ مالكٍ الأنصاريّ- خادِمِ رسولِ الله ﷺ - ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((لَلهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وقد أضلَّهُ في أرضٍ فَلاةٍ) مُتَّفَقٌ عليه .

وفي رواية لمُسْلِمٍ : (للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يتوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بأرضٍ فَلاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابهُ فأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتى شَجَرَةً فاضطَجَعَ في ظِلِّهَا وقد أيِسَ مِنْ رَاحلَتِهِ ، فَبَينَما هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِها قائِمَةً عِندَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ : اللَّهُمَّ أنْتَ عَبدِي وأنا رَبُّكَ ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ) .

(**وعن أبي حمزةَ أنسِ بنِ مالكٍ الأنصاريّ**) صحابي جليل، خدم النبي ﷺ عشر سنوات ، من المكثرين من الحديث .

(**للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ**) فيه إثبات الفرح لله إثباتاً يليق بجلاله .

(**عَبْدِهِ**) وفي رواية لمسلم (لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن) .

(**وقد أضلَّهُ**) أي : ذهب منه بغير قصد .

(**في أرضٍ فَلاةٍ**) أي : بمفازة .

(**كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بأرضٍ فَلاةٍ**) وفي رواية للبخاري (من رجل نزل منزلاً وبه مَهْلَكة ومعه راحلته) .

(**فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابهُ**) زاد أبو معاوية عن الأعمش (وما يصلحه) أخرجه الترمذي وغيره وفي رواية (فطلبها).

(**فَأَتى شَجَرَةً فاضطَجَعَ في ظِلِّهَا وقد أيِسَ مِنْ رَاحلَتِهِ**) وفي رواية (قال أرجع إلى مكاني فرجع فنام) وفي رواية (أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت) .

١- الحديث دليل على فضل التوبة إلى الله ، وأن الله يفرح بتوبة عبده .

وللتوبة فضائل :

أولاً : أنها سبب لمحبة الله .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) .

ثانياً : أنها طاعة ومرادة لله تعالى .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) .

ثالثاً : أن التوبة سبب الفلاح، والفوز بسعادة الدارين:

قال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يتلذذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه .

رابعاً : بالتوبة تكفر السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفَّر الله بها جميع ذنوبه وخطاياه.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الأَنْهَارُ) .

خامساً : بالتوبة تبدل السيئات حسنات: فإذا حسُنت التوبة بدَّل الله سيئات صاحبها حسنات .

قال تعالى (إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح .

قال ابن عباس . رضي الله عنهما ما رأيت النبي ﷺ فَرِحَ بشيء فَرَحَهُ بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) .

سادساً : التوبة سبب للمتاع الحسن، ونزول الأمطار، وزيادة القوة، والإمداد بالأموال والبنين .

قال تعالى (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) .

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِين) .

وقال على لسان نوح عليه السلام (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) .

سابعاً : سبب لفرح الله تعالى .

كما في حديث الباب .

٢- إن الغاية من المثل الذي ضربه النبي ﷺ في هذا الحديث هي دعوة المؤمنين إلى المبادرة بالتوبة ، حتى يطهّروا أنفسهم من أرجاس المعاصي والذنوب ، كما قال الحقّ سبحانه وتعالى في محكم التنزيل (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)، وقال تعالى (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) .

وقد بيّن ﷺ أن ربنا عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، وأن أبواب التوبة مفتوحة ، لا تُغلق إلى قرب قيام الساعة ، وما أكثر الآيات والأحاديث التي جاءت تبيّن ذلك وتفصّله .

٣- الحديث دليل على عظم التوبة وعلو منزلتها .

٤- الحديث دليل على سعة رحمة الله تعالى .

٥- الحديث دليل على إثبات الفرح لله تعالى ، إثباتاً يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تمثيل ولا تشبيه .

٦- الحديث دليل على أن الفرج مع الكرب كما قال ﷺ (، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنْ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

قال ابن رجب رحمه الله : ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر : أن الكربَ إذا اشتد وعظُمَ وتناهى ، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين ، وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلبُ بها الحوائج ، فإن الله يكفي من توكل عليه ، كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال الفضيل : لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كل ما تريد . (جامع العلوم والحكم) .

٧- الحديث دليل على أنّ الله سبحانه وتعالى لا يحاسب العبد على الألفاظ والأقوال التي تصدر منه دون قصد ، فالرّجل قال من شدّة الفرح (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) فظاهر العبارة كفرٌ ، لكنّ العبرة بما وقر في قلبه وما أراده في نفسه .

١٦-وعن أبي موسَى عبدِ اللهِ بنِ قَيسٍ الأشْعريِّ رضي الله عنه ، عن النَّبيّ ﷺ ،قَالَ : (إنَّ الله تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بالليلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ

النَّهَارِ ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها) رواه مسلم

١٧–وعن أبي هُريرةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (مَنْ تَابَ قَبْلَ أنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها تَابَ اللهُ عَلَيهِ) رواه مسلم

١٨–وعن أبي عبد الرحمان عبد الله بنِ عمَرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهما ، عن النَّبي ﷺ، قَالَ : (إنَّ الله ﷻ يَقْبَلُ تَوبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ) رواه الترمذي، وَقالَ : (حديث حسن) .

١– هذه الأحاديث فيها أن هناك وقتين لا تقبل فيهما التوبة ؟

الأول : إذا طلعت الشمس من مغربها .

لقوله تعالى (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) .

قوله (أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) المراد بذلك : طلوع الشمس من مغربها ، كما صحت بذلك الأحاديث

عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) متفق عليه .

وعن أبي ذر . قال : قال رسول الله ﷺ (أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ قلت : لا أدري ، قال : إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي ، يوشك يا أبا ذر ! أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت ، وذلك حين (لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ..) متفق عليه .

وقد جاء في الحديث عنه ﷺ (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه) رواه مسلم .

وفي الحديث الآخر – عن أبي موسى – قال ﷺ (إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من معربها) رواه مسلم .

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ) أي : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، وإن كان مخلّطاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه كما جاء بذلك الأحاديث .

(أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً) أي : ولا ينفع المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك .

قال ابن الجوزي : وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان .

وقال القرطبي : قال العلماء : وإنما لا ينفع نفساً إيمانُها عند طلوعها من مغربها ؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس ، وتَفْتُرُ كلّ قوّة من قوى البدن ؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدّواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت.

وقال السعدي : والحكمة في هذا ظاهرة ، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة ، ولم يبق للإيمان فائدة ، لأنه يشبه الإيمان الضروري ، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه كما قال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ) .

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم

ينفعهم إيمانهم ويُغلق حينئذ بابُ التوبة.

الثاني : عند الاحتضار .

قال تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) .

فقوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أي: وليس قبول التوبة ممن ارتكب السيئات والمنكرات واستمر عليها، (حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) أي : حتى إذا فاجأهم الموت وحضرت أسبابه وعلاماته وبلغت الحلقوم ، (قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) أي : قال في هذه الحال حضور الموت ، واليأس من الحياة ، إني تبت الآن ، فهؤلاء لا تنفعهم توبتهم في هذه الحال ، لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) .

ولحديث الباب (... ما لم يغرغر) أي تبلغ روحه رأس حلقه ، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار ؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله.

وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش ؛ لأن علمه بالله تعالى وبنبيه صلىﷺ وبوعده قد صار ضرورة .

٢- وجوب المبادرة بالتوبة ، لأن الإنسان لا يدري متى يهاجمه الموت .

٣- وفي الأحاديث أن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً كما تقدم .

وقد قال تعالى (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) فذكر أول صفة للمتقين هي الإيمان بالغيب .

قال السعدي : وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر ، إنما الشأن في الإيمان بالغيب ، الذي لم نره ولم نشاهده ، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله ، فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله ، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله ، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه ، بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية ، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها ، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ففسدت عقولهم ، ومرجت أحلامهم ، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله .

٤- اختلف العلماء : هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر على قولين :

والذي عندي في هذه المسألة : أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب ، مع مباشرة آخر لا تعلق له به ، ولا هو من نوعه ، فتصح ، كما إذا تاب من الربا ولم يتب من شرب الخمر مثلاً ، فإن توبته من الربا صحيحة . (مدارج السالكين) .

٥- الحديث دليل على أن من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها ، وهي من العلامات الكبرى .

٦- إثبات اليد لله تعالى .

كما قال تعالى (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) .

وقال تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) .

وحالف في ذلك أهل التعطيل من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ، وقالوا : إن المراد باليد هي القوة أو النعمة .

والرد عليهم :

أ–أن تفسير اليد بالقوة أو النعمة مخالف لظاهر اللفظ ، وما كان مخالفاً لظاهر اللفظ فهو مردود إلا بدليل .

ب–أنه مخالف لإجماع السلف ، فقد أجمع السلف على إثبات اليدين لله ، فيجب إثباتها له بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

ج–أنه يمتنع غاية الامتناع أن يراد باليد النعمة أو القوة في مثل قوله : (لما خلقت بيديّ) لأنه يستلزم أن تكون النعمة نعمتين فقط ونِعَمُ الله لا تحصى ، ويستلزم أن تكون القوة قوتان والقوى بمعنى واحد لا تتعدد .

د–أنه لو كان المراد باليد القوة، ما كان لآدم فضل على إبليس ولا على الحمير والكلاب، لأنهم كلهم خلقوا بقوة الله، ولو كان المراد باليد القوة ما صح الاحتجاج على إبليس، إذ أن إبليس سيقول : (وأنا يا رب خلقتني بقوتك فما فضْله علي) .

هـ–أن يقال: إن هذه اليد التي أثبتها الله جاءت على وجوه متنوعة يمتنع أن يراد بها النعمة أو القوة فإن فيها ذكر الأصابع والقبض والبسط والكف واليمين ، وكل هذا يمتنع أن يراد بها القوة ، لأن القوة لا توصف بهذه الأوصاف .

١٩–وعن زِرّ بن حُبَيْشٍ ، قَالَ (أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ ﷺ أَسْأَلُهُ عَن الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ ، فَقالَ : ما جاءَ بكَ يَا زِرُّ ؟ فقُلْتُ : ابتِغَاء العِلْمِ ، فقالَ : إنَّ المَلائكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لطَالبِ العِلْمِ رِضىً بِمَا يطْلُبُ . فقلتُ : إنَّهُ قَدْ حَكَّ في صَدْري المَسْحُ عَلَى الخُفَّينِ بَعْدَ الغَائِطِ والبَولِ، وكُنْتَ امْرَءاً مِنْ أَصْحَابِ النَّبيّ ﷺ فَجئتُ أَسْأَلُكَ هَلْ سَمِعْتَهُ يَذكُرُ في ذلِكَ شَيئاً؟ قَالَ : نَعَمْ ، كَانَ يَأْمُرُنا إِذَا كُنَّا سَفراً – أَوْ مُسَافِرِينَ – أنْ لا نَنْزعَ خِفَافَنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ إلاَّ مِنْ جَنَابَةٍ ، لكنْ مِنْ غَائطٍ وَبَولٍ ونَوْمٍ . فقُلْتُ : هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكرُ في الهَوَى شَيئاً ؟ قَالَ : نَعَمْ ، كُنّا مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ في سَفَرٍ ، فبَيْنَا نَحْنُ عِندَهُ إِذْ نَادَاه أَعرابيٌّ بصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ: يَا مُحَمَّدُ ، فأجابهُ رسولُ الله ﷺ نَحْواً مِنْ صَوْتِه : ((هَاؤُمْ)) فقُلْتُ لَهُ : وَيْحَكَ ! اغْضُضْ مِنْ صَوتِكَ فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبي ﷺ ، وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ هذَا ! فقالَ : واللهِ لاَ أغْضُضُ . قَالَ الأعرَابيُّ : المَرْءُ يُحبُّ القَوْمَ وَلَمَّا يلْحَقْ بِهِمْ ؟ قَالَ النَّبيُّ ﷺ : ((المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يومَ القِيَامَةِ)) . فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَاباً مِنَ المَغْرِبِ مَسيرَةُ عَرْضِهِ أَوْ يَسِيرُ الرَّاكبُ في عَرْضِهِ أرْبَعينَ أَوْ سَبعينَ عاماً – قَالَ سُفْيانُ أَحدُ الرُّواةِ : قِبَلَ الشَّامِ – خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاواتِ والأَرْضَ مَفْتوحاً للتَّوْبَةِ لا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ. رواه الترمذي وغيره، وَقالَ: ((حديث حسن صحيح)).

(**عن زِرّ بن حُبَيْشٍ**) الأسدي الكوفي ، أبو مريم ، ثقة جليل مخضرم .

قَالَ (**أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ**) المرادي ، صحابي مشهور ، سكن الكوفة ، غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة .

(**أسْأَلُهُ**) وفي رواية النسائي (فقعدتُ على بابه) .

(**إلاَّ مِنْ جَنَابَةٍ**) يعني أنه أمرهم أن ينزعوا الخف من أجل الجنابة .

(**لكنْ مِنْ غَائطٍ وَبَولٍ ونَوْمٍ**) أي : لا ننزعه من أجل غائط وبول ونوم .

١–الحديث دليل على فضل الرحلة في طلب العلم ، وأن السلف كانوا يرحلون لطلب العلم .

والرحلة في طلب الحديث سنة ثابتة عن أهل الحديث .

قال ﷺ (من سلك طريقاً يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنَّة) رواه مسلم .

قال ابن الجوزي : تأملت عجباً ، وهو أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه ، ويكثر التعب في تحصيله، فإنَّ العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار ، وهجر اللذات والراحة .

وقال ابن القيم : وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع ، وصدق الطلب ، وصحة النية .

وقال يحيى بن كثير : لا ينال العلم براحة الجسم .

وقد قيل : من طلب الراحة ترك الراحة .

وقال الشافعي : حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار منه ، والصبر على كل عارض دون طلبه ، وإخلاص النية لله تعالى في إدراكه نصاً واستنباطاً ، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه .

ولذلك – أخي في الله – من تمثل سير سلفنا الصالح ، ونظر في معاناتهم في طلب العلم هانت عليه كل شدة ، واحتقر نفسه أمامهم ، فقد كابدوا من الصعاب ما يفوق التخيل ، وتركوا البلاد والأولاد وهجروا اللذات والشهوات ، وجابوا مشارق الأرض ومغاربها سعيًا وراء حديث واحد، أو لقاء شيخ أو معرفة مسألة، فانظر إلى هؤلاء الأفذاذ كيف طلبوا العلم عساك تنتفع بذلك .

قيل للإمام أحمد : رجلٌ يطلب العلم يلزم رجلاً عنده علم كثير أو يرحل ؟ قال : يرحلُ ، يكتب عن علماء الأمصار ، فيشامُّ النَّاس ، ويتعلم منهم .

وقيل له مرةً : أيرحلُ الرجل في طلب العلم؟ فقال: بلى والله، لقد كان علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي – وهما من أهل الكوفة بالعراق – يبلغهما الحديث عن عمر فلا يقنعهما حتى يخرجا إليه – إلى المدينة المنورة – فيسمعانه منه.

وهذا جابر بن عبد الله ﷺ رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد ، وقد تقدم الحديث .

وهذا عقبة بن الحارث سافر من مكة إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ يسأله عن مسألة رضاع وقعت له ، وسيأتي الحديث قريباً إن شاء الله .

قال أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي (ت ٢٧٧ هـ) يقول: أحصيت ما مشيت على قدميَّ زيادة على ألف فرسخ،لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته .

وقال إبراهيم بن أدهم قال : إنّ الله تعالى يرفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث .

وعن عن زكريا بن عدي قال : رأيت ابن المبارك في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي برحلتي في الحديث .

وعن أبي العالية قال : كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام لأسمع منه فأوّل ما أفتقد منه صلاته ، فإن أجده يُقيمها أقمت وسمعت منه،وإن وجدته يُضيِّعها رجعت ولم أسمع منه،و قلت:هو لغير الصلاة أضيع .

وقيل للشعبي : من أين لك هذا العلم كله؟ قال : بنفي الاعتماد،والسّير في البلاد،وصبر كصبر الجماد ، وبكور كبكور الغراب .

وعنه قال : لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره رأيت أنّ سفره لا يضيع .

وقال بعض أهل العلم: إنّ فيما عاناه موسى من الدّأب والسفر والصبر عليه من التواضع والخضوع للخضر، بعد معاناة قصده، مع محلّ موسى من الله وموضعه من كرامته وشرف نبوته ، دلالة على ارتفاع قدر العلم وعلو منزلة أهله وحسن تواضعه لمن يلتمس منه ويؤخذ عنه ، ولو ارتفع عن التواضع لمخلوق أحد بارتفاع درجة سمو منزلة لسبق إلى ذلك موسى ، فلما أظهر الجدّ والاجتهاد والانزعاج عن الوطن ، والحرص على الاستفادة مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يصل من العلم إلى ما هو غائب عنه ، دلّ على أنه ليس في الخلق من يعلو على هذه الحال ولا يكبر عنها .

وعن عمرو بن أبي سلمة يقول : قلت للأوزاعي : أنا ألزمك منذ أربعة أيام ولم أسمع منك إلا ثلاثين حديثاً ؟قال : وتستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام ؟ لقد سار جابر بن عبد الله إلى مصر واشترى راحلة وركبها حتى سأل عقبة بن عامر عن حديث واحد وانصرف وأنت تستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام ؟

وقال سعيد بن المسيّب : إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد .

وعن أبي قلابة قال : أقمت في المدينة ثلاثاً ما لي بهن من حاجة إلا قدوم رجل بلغني عنه حديثاً فبلغني أنه يقدم فأقمت حتى

قدم فحدثني به .

وهذا الحافظ الجوال ابن منده (ت ٣٩٥هـ) بدأ الرحلة في طلب العلم وهو ابن عشرين سنة، ورجع وهو ابن خمس وستين سنة، ولما عاد إلى وطنه تزوج – وهو ابن ٦٥ سنة !! – ، ورزق الأولاد ، وحدَّث بالكثير .

وقد قال – رحمه الله – : طفت الشرق والغرب مرتين .[مقدمة الجرح والتعديل (١٠٣٢/٣)] .

قال الذهبي : ولم أعلم أحداً كان أوسع رحلةً منه، ولا أكثر حديثاً منه، مع الحفظ والثقة ، فبلغنا أن عدة شيوخه ألف وسبعمائة شيخ . سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٠) .

٢– الحديث دليل على فضل العلم وطلبه ، حيث تضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع .

قال ابن قدامة : في معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بسط الأجنحة .

الثاني : أنه بمعنى التواضع لطالب العلم .

الثالث : أن المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران .

وقال ابن رجب : واختلف الناس في تأويل وضع الملائكة أجنحتها :

فمنهم من حمله على ظاهره ، وأن المراد فرش الأجنحة وبسطها لطلاب العلم لتحملهم عليها إلى مقاصدهم من الأرض التي يطلبون فيها العلم ، وإعانة لهم على الطلب .

ومنهم من فسر وضع الملائكة أجنحتها بالتواضع لهم ، والخضوع لطلاب العلم .

ومنهم من فسر ذلك بأن الملائكة تحف بأجنحتها مجالس الذكر إلى السماء كما جاء ذلك صريحاً في الحديث ، ولعل هذا القول أشبه .

قال ابن القيم : فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له ، لأنه طالبٌ لما به حياة العالَم ونجاته ، ففيه شبه من الملائكة، وبينه وبينهم تناسب ، فإن الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبني آدم ... فإذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله ، فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه .

- **وللعلم فضائل كثيرة :**

أولاً : أنه من أسباب دخول الجنة .

كما قال ﷺ (من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة) رواه مسلم .

ثانياً : من أسباب الرفعة .

قال تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .

ثالثاً : أن الله لم يأمر نبيه بالاستزادة إلا من العلم .

قال تعالى (٤٢٥ عِلْماً) .

قال ابن القيم : وكفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه .

رابعاً : أن الله استشهدهم وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة .

قال تعالى (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ) .

قال القرطبي : هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء .

خامساً : أن العلم دليل على الخير .

قال ﷺ (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) متفق عليه .

قال الحافظ ابن حجر : يفقهه : أي يفهمه ، ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين ــ أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع ــ فقد حرم الخير .

سادساً : أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم .

قال ﷺ (وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع) رواه أبو داود .

قال ابن القيم : ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعاً له وتوقيراً وإكراماً لما يحمله من ميراث النبوة .

سابعاً : العلماء ورثة الأنبياء .

قال ﷺ (وإن العلماء ورثة الأنبياء) رواه أبو داود .

ثامناً : رحلة نبي الله موسى إلى الخضر ليتعلم منه .

وهذا من أعظم فضائل العلم .

٣- الحديث دليل على جواز المسح على الخفين ، وقد تواترت النصوص في ذلك .

٤- في الحديث بعض شروط المسح على الخفين :

فمنها : أن يكون في المدة المحددة : ثلاثة أيام بلياليهن للمسافر ويوماً وليلة للمقيم .

لحديث علي قال (جَعَلَ اَلنَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ لِلْمُسَافِرِ, وَيَوْمًا وَلَيْلَةً لِلْمُقِيمِ) رواه مسلم .

ولحديث الباب في قوله (إِذَا كُنَّا سَفراً – أَوْ مُسَافِرِينَ – أَنْ لا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ) .

ومنها : أن المسح على الخفين خاص بالوضوء دون الغسل .

لقوله (... إلاَّ مِنْ جَنَابَةٍ) .

قال ابن قدامة : ولا يجزئ المسح في جنابة ولا غسل واجب ولا مستحب لا نعلم في هذا خلافاً .

وقال الحافظ ابن حجر : المسح على الخفين خاص بالوضوء لا مدخل للغسل فيه بإجماع .

٥-الحديث دليل على فضل المحبة في الله ، والمحبة لله لها فضائل :

أولاً : أن المحبة لله سبب لمحبة الله للعبد .

قال عليه السلام : (قال الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ) رواه مالك

ثانياً : أن الله سبحانه وتعالى يظل المتحابين في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : ... فذكر منهم : ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه) . متفق عليه

ثالثاً : أن الحب في الله والبغض في الله دليل على كمال إيمان العبد .

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أحب في الله وأبغض في الله وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان).

رابعاً : أن الحب في الله سبب لحلاوة الإيمان وطعمه .

كما في حديث أبي هريرة قال: قال ﷺ (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان:... وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله). متفق عليه

وقال أيضاً ﷺ : (من أحب أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله) . رواه أحمد

خامساً : أن المرء بمحبته لأهل الخير لصلاحهم يلتحق بهم ويصل إلى مراتبهم وإن لم يكن عمله بالغاً مبلغهم .

ففي الصحيحين عن ابن مسعود قال : (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ؟ قال : المرء مع من أحب) . متفق عليه

سادساً : أن الله يكرم من أحب عبداً في الله .

فعن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما أحب عبدٌ عبداً لله إلا أكرمه الله) . رواه ابن أبي الدنيا .

سابعاً : أن المتحابين في الله لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء .

عن معاذ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (قال الله تعالى: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء). رواه الترمذي وصححه .

٦- الحديث دليل على أن خروج الغائط والبول من نواقض الوضوء وهذا بالإجماع .

٧- استدل بالحديث من قال إن النوم ناقض للوضوء ، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على أقوال :

القول الأول : أنه لا ينقض الوضوء بأي حال .

ونسبه النووي لأبي موسى الأشعري ، وسعيد بن المسيب ، وشعبة .

أ-لحديث أنس – عند مسلم قال (كان أصحاب رسول الله ﷺ ينامون ثم يصلون ولا يتوضئون) وبقية رواياته .

ب- عن أنس . قال (أقيمت الصلاة والنبي ﷺ يناجي رجلاً في جانب المسجد ، فما قام إلى الصلاة حتى نام القوم) رواه البخاري ومسلم .

قال الحافظ : وقع عند إسحاق بن راهوية في مسنده ، عن ابن علية عن عبد العزيز في هذا الحديث (حتى نعس بعض القوم) وكذا هو عند ابن حبان من وجه آخر عن أنس ، وهو يدل على أن النوم لم يكن مستغرقاً .

ج-عن عائشة قالت (أعتم رسول الله ﷺ بالعشاء حتى ناداه عمر : الصلاة ، نام النساء والصبيان ، فخرج فقال : ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم ...) متفق عليه .

القول الثاني : أنه ناقض مطلقاً .

ونسبه النووي للحسن البصري ، والمزني ، وأبي عبيد والقاسم بن سلام ، وإسحاق بن راهوية .

قال ابن المنذر : وبه أقول .

لحديث الباب – وفيه (كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا كنا سفراً أن لا ننزع خفافنا ... ولكن من بول وغائط وريح) .

وجه الدلالة : قرن النوم بالبول والغائط في إيجاب الوضوء منه .

القول الثالث : أنه إذا نام ممكناً مقعدته على الأرض لم ينقض ، سواءً قل أو كثر .

قال النووي : وهذا مذهب الشافعي .

قال الشوكاني : وهذا أقرب المذاهب عندي ، وبه يجمع بين الأدلة .

القول الرابع : أن كثير النوم ينقض الوضوء ، وقليله لا ينقض بحال .

ونسبه النووي للزهري وربيعة والأوزاعي ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه .

وهذا القول هو الراجح جمعاً بين الأدلة .

فحديث صفوان يدل على أن النوم ناقض مطلقاً .

وحديث أنس (حديث الباب) يحمل على أن النوم اليسير لا ينقض الوضوء .

ويؤيد هذا الجمع : أن النوم ليس حدثاً في نفسه وإنما هو دليل على خروج الريح، ولذلك إذا نام طويل ربما يخرج منه ريح، ويؤيد

هذا حديث علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (العين وكاء السه ، فإذا نامت العينان استطلق الوكاء) رواه أحمد

السه : اسم لحلقة الدبر . **وكاء** : الوكاء الخيط الذي يربط به ، **والمعنى** : اليقظة وكاء الدبر ، أي حافظة ما فيه من الخروج ، لأنه ما دام مستيقظاً أحس بما يخرج منه .

٦- الحديث دليل على سعة رحمة الله وفتحه باب التوبة لقبول توبة التائبين .

٧- الحديث دليل على أن التوبة تنقطع إذا طلعت الشمس من مغربها .

٢٠-وعن أبي سَعيد سَعْدِ بنِ مالكِ بنِ سِنَانٍ الخدريّ ﷺ : أنّ نَبِيَّ الله ﷺ قَالَ : ((كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعينَ نَفْساً ، فَسَأَلَ عَنْ أعْلَمِ أَهْلِ الأرضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ ، فَأَتَاهُ . فقال : إنَّهُ قَتَلَ تِسعَةً وتِسْعِينَ نَفْساً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ ؟ فقالَ : لا ، فَقَتَلهُ فَكَمَّلَ بهِ مئَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ . فقَالَ : إنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فقالَ : نَعَمْ ، ومَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ التَّوْبَةِ ؟ انْطَلِقْ إلى أرضِ كَذَا وكَذَا فإنَّ بِهَا أُناساً يَعْبُدُونَ الله تَعَالَى فاعْبُدِ الله مَعَهُمْ ، ولاَ تَرْجِعْ إلى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أرضُ سُوءٍ ، فانْطَلَقَ حَتَّى إذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ ، فاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذَابِ . فَقَالتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِباً ، مُقْبِلاً بِقَلبِهِ إلى اللهِ تَعَالَى ، وقالتْ مَلائِكَةُ العَذَابِ : إنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيراً قَطُّ ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ في صورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ – أيْ حَكَماً – فقالَ : قِيسُوا ما بينَ الأرضَينِ فَإلَى أيّتهما كَانَ أدنَى فَهُوَ لَهُ . فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أدْنى إلى الأرْضِ التي أرَادَ ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحمةِ)) مُتَّفَقٌ عليه

وفي رواية في الصحيح : ((فَكَانَ إلى القَريَةِ الصَّالِحَةِ أقْرَبَ بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أهلِهَا)) .

وفي رواية في الصحيح : ((فَأَوحَى الله تَعَالَى إلى هذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي ، وإلَى هذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي ، وقَالَ : قِيسُوا مَا بيْنَهُما ، فَوَجَدُوهُ إلى هذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ)) . وفي رواية : ((فَنَأى بصَدْرِهِ نَحْوَهَا)) .

(**عن أبي سَعيد سَعْدِ بنِ مالكِ بنِ سِنَانٍ الخدريّ ﷺ**) الأنصاري الخزرجي ، غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة ، أولها غزوة الخندق سنة خمس ، وكان قبلها صغيراً ، مات عام (٧٤) هـ ودفن بالبقيع .

(**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكمْ**) وفي الرواية الأخرى (كان في بني إسرائيل رجل) .

١- الحديث دليل على مشروعية التوبة من جميع الذنوب حتى من قتل النفس .

٢-الحديث دليل على عظم رحمة الله ومغفرته ، وأن من تاب توبة صادقة تاب الله عليه ومحى عنه سيئاته .

٣- أن من علامات توفيق الله للعبد : أن يستصغر حسناته ويعظم ذنوبه .

قال ابن القيم : وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله ، وكلما كبرت وعظمت في قلبك صغرت عند الله ، وسيئاتك بالعكس ، ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية : تلاشت حسناته عنده ، وصغرت جداً في عينه .

٤-الحديث دليل على أن القاتل عمداً له توبة ، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين :

القول الأول : أن القاتل عمداً له توبة .

وهذا قول جماهير العلماء .

قال النووي : هذا مذهب أهل العلم وإجماعهم على صحة توبة القاتل عمداً ، ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس .

وقال ابن كثير : والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها : أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله ، فإذا تاب وأناب وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات .

لقوله تعالى (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً)

إلى قوله تعالى (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

ولقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) .

قال ابن كثير : فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك .

ب-ولقوله تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .

قالوا : فهذا عام في جميع الذنوب ، من كفر ، وشرك ، ونفاق ، وقتل ، وفسق وغير ذلك ، كل من تاب من أي ذنب تاب الله عليه .

ج-ولحديث الباب .

قالوا : وإذا كان هذا في بني إسرائيل ، فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى ، لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم .

د- وقالوا : إذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر – وهما أعظم إثماً من القتل – فكيف تقصر عن محو أثر القتل .

القول الثاني : أن القاتل عمداً لا توبة له .

وهذا مذهب ابن عباس .

أ-لقوله تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً) .

ب- عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ : عَمَّنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ، ثُمَّ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، ثُمَّ اهْتَدَى ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَأَنَّى لَهُ التَّوْبَةُ سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ (يَجِيءُ مُتَعَلِّقًا بِالْقَاتِلِ تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا يَقُولُ : سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ أَنْزَلَهَا وَمَا نَسَخَهَا) رواه النسائي .

ج-وعن معاوية . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً) رواه أحمد .

والصحيح القول الأول ، وأما الجواب عن أدلة القول الثاني :

أما الآية :

فقيل : إن الآية على ظاهرها ، لكن قد يوجد مانع يمنع من ذلك .

وهذا اختيار النووي وابن تيمية وابن القيم والسفاريني والسعدي .

وقيل : إن هذا جزاؤه إن جازاه .

وهذا اختيار الطبري ، والشنقيطي ، واستحسنه ابن كثير .

قال الطبري : وَأَوْلَى الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ إِنْ جَزَاهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا, وَلَكِنَّهُ يَعْفُو أَوْ يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ , فَلاَ يُجَازِيهِمْ بِالْخُلُودِ فِيهَا , وَلَكِنَّهُ عَزَّ ذِكْرُهُ إِمَّا أَنْ يَعْفُوَ بِفَضْلِهِ فَلاَ يُدْخِلُهُ النَّارَ , وَإِمَّا أَنْ يُدْخِلَهُ إِيَّاهَا ثُمَّ يُخْرِجَهُ مِنْهَا بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ لِمَا سَلَفَ مِنْ وَعْدِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) .

وقيل : إن هذا وعيد ، وإخلاف الوعيد لايذم بل يمدح .

وذهب إلى هذا الواحدي .

وقيل : حمل الآية على عمومها ، وتفسير الخلود بمعنى : المكث الطويل ، اعتماداً على ما ورد في كلام العرب من إطلاق الخلود

على غير معنى التأبيد ، كقولهم : لأخلدن فلاناً في السجن ، وقولهم : خلد الله ملكه .
ورجح هذا القول ابن حزم ، ومحمد رشيد رضا ، وابن عثيمين ، وذهب إليه الرازي ، وأبو السعود .
وقيل : إن الآية للتشديد والتخويف والتغليظ في الزجر عن قتل المؤمن .
وقيل : إن هذه الآية في القاتل المستحل .
وقال بهذا عكرمة .
٤-قال العلماء : في هذا الحديث استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب والأخدان المساعدين له على ذلك ومقاطعتهم ما داموا على حالهم ، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبدين الورعين ومن يقتدي بهم وينتفع بصحبتهم وتتأكد بذلك توبته . (نووي) . ولهذا قال له الأخير (ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء) ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها كلها .
قال ابن تيمية : فأحوال البلاد كأحوال العباد فيكون الرجل تارة مسلماً وتارة كافراً وتارة مؤمناً وتارة منافقاً ، وتارة براً تقياً وتارة فاسقاً ، وتارة فاجراً شقياً، وهكذا المساكن بحسب سكانها ، فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة، وهذا أمر باق إلى يوم القيامة .
وقال ابن رجب : هجران أماكن المعصية وإخوانها من جملة الهجرة المأمور بها ، فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، قال إبراهيم بن أدهم : من أراد التوبة فليخرج من المظالم ، وليدع مخالطة من كان يخالطه ، وإلا لم ينل ما يريد .
٥-أنواع الهجرة:
يمكن تقسيم الهجرة إلى نوعين أفصح عنهما سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله بقوله:
الهجرة هجرتان: هجرة الأوطان، وهجرة الإثم والعدوان. وأفضلهما هجرة الإثم والعدوان؛ لما فيها من إرضاء الرحمن، وإرغام النفس والشيطان .
ولعلَّ العزَّ رحمه الله قصد أن هذه الهجرة متجددة ، بخلاف ترك الوطن فإنه يكون مرة غالباً؛ والمتجدد أكثر أجراً، وإلا فإن الأولى لا يقارن بها شيء، والعلم عند الله تعالى.
فالهجرة هجرتان: معنوية، وحسية.
المعنوية : هي الهجرة من الكفر إلى الإسلام، ومن البدعة إلى السنة، ومن الشرك إلى توحيد الله، ومن المعصية إلى الطاعة.
ثبت في سنن أبي داود أنه قيل للنبي ﷺ : أي الهجرة أفضل؟ فقال (من هجر ما حرم الله) رواه أبو داود.
وفي صحيح البخاري، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْه) .
وأما الهجرة الحسية فهي أربعة أنوع:
الأول: الهجرة إلى النبي ﷺ في المدينة، وهذه أشرف الهجرات وأفضلها على الإطلاق.
وهذه خصَّ الله تعالى بها ساداتِ الأولياء من المهاجرين، رضي الله عنهم وأرضاهم.
وتأمل هذا الحديث لتعرف عظيم قدرهم..
عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ؟ حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ ؛ لِلَّذِي ذَخَرَ اللَّهُ لِلْأَنْصَارِ. فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَمَرِضَ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ ، فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ.

فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ، فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ، وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي؛ بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ . فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ؟! قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ. فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِر) رواه مسلم.

الثاني: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

وهذه واجبة لمن لا يقدر على إقامة دينه .

كهجرة الصحابة من مكة إلى الحبشة خوفاً من الفتنة ، وفراراً بالدين .

الثالث: هجرة أرض السوء إلى أرض الصلاح.

ودليلها قصة قاتل المائة نفس (حديث الباب) .

وقال الحافظ : ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية، والتحول منها كلها والاشتغال بغيرها .

الرابع: الهجرة إلى الشام في آخر الزمان عند ظهور الفتن.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:(سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ، فَخِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ أَلْزَمُهُمْ مُهَاجَرَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَبْقَى فِي الْأَرْضِ شِرَارُ أَهْلِهَا، تَلْفِظُهُمْ أَرْضُوهُمْ، تَقْذَرُهُمْ نَفْسُ اللَّهِ، وَتَحْشُرُهُمْ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ) .

قال ابن رجب : و في الجملة : فلا شؤم إلا المعاصي و الذنوب فإنها تسخط الله عز و جل ، فإذا سخط على عبده شقي في الدنيا و الآخرة ، كما إنه إذا رضي عن عبده سعد في الدنيا والآخرة .

قال بعض الصالحين و قد شكي بلاء وقع في الناس فقال : ما أرى ما أنتم فيه إلا بشؤم الذنوب .

وقال أبو حازم : كل ما يشغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم .

فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله و اليمن هو طاعة الله و تقواه كما قيل :

(إن رأياً دعا إلى طاعة الله ... لرأي مبارك ميمون)

و العدوى التي تهلك من قاربها هي المعاصي ، فمن قاربها وخالطها وأصر عليها هلك ، وكذلك مخالطة أهل المعاصي ومن يحسن المعصية ويزينها ويدعو إليها من شياطين الإنس ، وهم أضر من شياطين الجن ، قال بعض السلف : شيطان الجن نستعيذ بالله منه فينصرف ، وشيطان الإنس لا يبرح حتى يوقعك في المعصية .

و في الحديث (يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) .

و في حديث آخر (لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي) .

فالعاصي مشؤوم على نفسه وعلى غيره ، فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعم الناس ، خصوصاً من لم ينكر عليه عمله ، فالبعد عنه متعين ، فإذا كثر الخبث هلك الناس عموماً ، وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها يتعين البعد عنها والهرب منها خشية نزول العذاب ، كما قال النبي ﷺ لأصحابه لما مر على ديار ثمود بالحجر (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خشية أن يصيبكم ما أصابهم) ولما تاب الذي قتل مائة نفس من بني إسرائيل و سأل العالم : هل له من توبة ؟ قال له : نعم ، فأمره أن ينتقل من قرية السوء إلى القرية الصالحة ، فأدركه الموت بينهما فاختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إليهم أن قيسوا بينهما ، فإلى أيهما كان أقرب فألحقوه بها فوجدوه إلى القرية الصالحة أقرب برمية حجر فغفر له .

٦- الحديث دليل على فضل العالم على العابد لأن الذي أفتاه أولاً بأن لا توبة له غلبت عليه العبادة فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير, وأما الثاني فغلب عليه العلم ، فأفتاه بالصواب ودله على طريق النجاة.

٧-في الحديث إشارة إلى قلة فطنة الراهب ، لأنه كان من حقه التحرز ممن اجترأ على القتل حتى صار له عادة بأن لا يواجهه بخلاف مراده وأن يستعمل معه المعاريض مداراة عن نفسه , هذا لو كان الحكم عنده صريحاً في عدم قبول توبة القاتل فضلاً عن أن الحكم لم يكن عنده إلا مظنوناً .

٨-أن باب التوبة مفتوح إلى أن يأتي الإنسان الموت، أو تطلع الشمس من مغربها .

فعلى المذنب أن يستيقظ من غفلته، و يفيق من سباته ونومه، ويبادر إلى التوبة؛ لأنه لا يدري متى يفاجئه الموت، قال تعالى: (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) ، وقال تعالى: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) ، وقال تعالى: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) .

٩- أن التوبة المقبولة عند الله هي التوبة النصوح، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) . والتوبة النصوح هي المجتمعة الأركان (الشروط)، قال النووي: لِلتَّوْبَةِ ثَلَاثَة أَرْكَان : أَنْ يُقْلِع عَن الْمَعْصِيَة, وَيَنْدَم عَلَى فِعْلهَا, وَيَعْزِم أَنْ لَا يَعُود إِلَيْهَا, فَإِنْ تَابَ مِنْ ذَنْب ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ لَمْ تَبْطُل تَوْبَته, وَإِنْ تَابَ مِنْ ذَنْب وَهُوَ مُتَلَبِّسٌ بِآخَر صَحَّتْ تَوْبَته. هَذَا مَذْهَب أَهْل الْحَقّ. وَخَالَفَت الْمُعْتَزِلَة فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ. وَاَللَّه أَعْلَم .

٢١- وعن عبدِ الله بن كعبِ بنِ مالكٍ ، وكان قائدَ كعبٍ ﷺ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عمِيَ ، قَالَ : سَمِعتُ كَعْبَ بنَ مالكٍ ﷺ يُحَدِّثُ بحَديثِهِ حينَ تَخلَّفَ عن رسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ . قَالَ كعبٌ (لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رسولِ الله ﷺ في غَزْوَةٍ غزاها قط إلا في غزوة تَبُوكَ ، غَيْرَ أنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ ، ولَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهُ ؛ إنَّمَا خَرَجَ رسولُ الله ﷺ والمُسْلِمُونَ يُريدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ الله تَعَالَى بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ ميعادٍ . ولَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ لَيلَةَ العَقَبَةِ حينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلامِ ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وإنْ كَانَتْ بدرٌ أذْكَرَ في النَّاسِ مِنْهَا . وكانَ مِنْ خَبَري حينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ أنِّي لم أكُنْ قَطُّ أَقْوى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عنْهُ في تِلكَ الغَزْوَةِ ، وَالله ما جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا في تِلْكَ الغَزْوَةِ وَلَمْ يَكُنْ رسولُ الله ﷺ يُريدُ غَزْوَةً إلاَّ وَرَّى بِغَيرِها حَتَّى كَانَتْ تلْكَ الغَزْوَةُ، فَغَزَاها رسولُ الله ﷺ في حَرٍّ شَديدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَراً بَعِيداً وَمَفَازاً، وَاستَقْبَلَ عَدَداً كَثِيراً، فَجَلَّى للْمُسْلِمينَ أمْرَهُمْ ليتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فأَخْبرَهُمْ بوَجْهِهِمُ الَّذِي يُريدُ ، والمُسلِمونَ مَعَ رسولِ الله كثيرٌ وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ (يُريدُ بذلِكَ الدّيوَانَ) قَالَ كَعْبٌ : فَقَلَّ رَجُلٌ يُريدُ أنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أنَّ ذلِكَ سيخْفَى بِهِ ما لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ الله ، وَغَزا رَسُول الله ﷺ تِلْكَ الغَزوَةَ حِينَ طَابَت الثِّمَارُ وَالظِّلالُ ، فَأنَا إلَيْهَا أصْعَرُ ، فَتَجَهَّزَ رسولُ الله ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ وطَفِقْتُ أغْدُو لكَيْ أتَجَهَّزَ مَعَهُ ، فأرْجِعُ وَلَمْ أقْضِ شَيْئاً ، وأقُولُ في نفسي : أنَا قَادرٌ عَلَى ذلِكَ إذَا أَرَدْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتمادى بي حَتَّى اسْتَمَرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ ، فأصْبَحَ رسولُ الله ﷺ غادياً والمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أقْضِ مِنْ جِهَازي شَيْئاً ، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أقْضِ شَيئاً ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حَتَّى أسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ ، فَهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ ، فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ، ثُمَّ لم يُقَدَّرْ ذلِكَ لي ، فَطَفِقْتُ إذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أنِّي لا أرَى لي أُسْوَةً ، إلاّ رَجُلاً مَغْمُوصاً عَلَيْهِ في النِّفَاقِ ، أوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الضُّعَفَاءِ ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ في القَوْمِ بِتَبُوكَ : ((ما فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ؟)) فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ : يا رَسُولَ اللهِ ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ. فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ : بِئْسَ مَا قُلْتَ ! واللهِ يا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إلاَّ خَيْرَاً ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ . فَبَيْنَا هُوَ عَلى ذَلِكَ رَأى رَجُلاً مُبْيِضاً يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ)) ، فَإِذَا هُوَ أبُو خَيْثَمَةَ الأنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ

التَّمْرِ حِيْنَ لَمَزَهُ المُنَافِقُونَ .

قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي ، فَطَفِقْتُ أتَذَكَّرُ الكَذِبَ وأقُولُ : بِمَ أخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدَاً ؟ وأسْتَعِيْنُ عَلى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رأْيٍ مِنْ أهْلِي ، فَلَمَّا قِيْلَ : إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أظَلَّ قَادِمَاً ، زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أنِّي لَنْ أنْجُوَ مِنْهُ بِشَيءٍ أبَداً ، فَأجْمَعْتُ صدْقَهُ وأصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ قَادِماً ، وَكَانَ إذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلِكَ جَاءهُ المُخَلَّفُونَ يَعْتَذِرونَ إلَيْه ويَحْلِفُونَ لَهُ ، وَكَانُوا بِضْعاً وَثَمَانِينَ رَجُلاً ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلى الله تَعَالَى ، حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ. ثُمَّ قَالَ : ((تَعَالَ)) ، فَجِئْتُ أمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فقالَ لِي : ((مَا خَلَّفَكَ ؟ ألَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟)) قَالَ : قُلْتُ : يَا رسولَ الله ، إنِّي واللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أهْلِ الدُّنْيَا لَرَأيتُ أنِّي سَأخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ؛ لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً ، ولَكِنِّي واللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليوم حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عنِّي لَيُوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطَكَ عَلَيَّ ، وإنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إنِّي لأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى الله ﷻ ، واللهِ ما كَانَ لي مِنْ عُذْرٍ، واللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أقْوَى وَلاَ أيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ . قَالَ: فقالَ رسولُ الله ﷺ : ((أمَّا هَذَا فقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فيكَ)) .

وَسَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فاتَّبَعُونِي فَقالُوا لِي : واللهِ مَا عَلِمْنَاكَ أذْنَبْتَ ذَنْباً قَبْلَ هذَا لَقَدْ عَجَزْتَ في أنْ لا تَكونَ اعتَذَرْتَ إلَى رَسُول الله ﷺ بما اعْتَذَرَ إليهِ المُخَلَّفُونَ ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُول الله ﷺ لَكَ . قَالَ : فَوالله ما زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أرْجِعَ إِلَى رسولِ الله ﷺ فأُكَذِّبَ نَفْسِي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ هذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلانِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قيلَ لَكَ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هُما ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيع الْعَمْرِيُّ ، وهِلاَلُ ابنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ ؟ قَالَ : فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْراً فيهِما أُسْوَةٌ ، قَالَ : فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُما لِي . ونَهَى رَسُول الله ﷺ عَنْ كَلامِنا أيُّهَا الثَّلاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، فاجْتَنَبَنَا النَّاسُ – أوْ قَالَ : تَغَيَّرُوا لَنَا – حَتَّى تَنَكَّرَتْ لي في نَفْسي الأَرْض ، فَمَا هِيَ بالأَرْضِ الَّتي أعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً . فَأمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانا وقَعَدَا في بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَان . وأمَّا أنَا فَكُنْتُ أشَبَّ الْقَومِ وأجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أخْرُجُ فَأشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ المُسْلِمِينَ ، وأطُوفُ في الأَسْوَاقِ وَلا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَآتِي رسولَ الله ﷺ فأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ في مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَأَقُولُ في نَفسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْه بِرَدِّ السَّلام أَمْ لاَ ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيباً مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فَإِذَا أقْبَلْتُ عَلَى صَلاتِي نَظَرَ إلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إذَا طَال ذلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ المُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدارَ حائِط أبي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاس إلَيَّ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أبَا قَتَادَةَ ، أنْشُدُكَ بالله هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ ﷺ ؟ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَقَالَ : اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ ، فَبَيْنَا أَنَا أمْشِي في سُوقِ الْمَدِينة إذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أهْلِ الشَّام مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالمَدِينَةِ يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إلَيَّ حَتَّى جَاءنِي فَدَفَعَ إلَيَّ كِتَاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ ، وَكُنْتُ كَاتباً . فَقَرَأْتُهُ فإذَا فِيهِ : أَمَّا بَعْدُ، فإنَّهُ قَدْ بَلَغَنا أنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بدَارِ هَوانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ ، فَالْحَقْ بنَا نُوَاسِكَ ، فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا : وَهَذِهِ أيضاً مِنَ البَلاءِ ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا ، حَتَّى إذَا مَضَتْ أرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إذَا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتِيني ، فَقالَ : إنَّ رسولَ الله ﷺ يَأمُرُكَ أنْ تَعْتَزِلَ امْرَأتَكَ ، فَقُلْتُ : أُطَلِّقُهَا أمْ مَاذَا أفْعَلُ ؟ فَقالَ : لاَ ، بَلِ اعْتَزِلْهَا فَلاَ تَقْرَبَنَّهَا ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذلِكَ . فَقُلْتُ لامْرَأتِي : الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ في هَذَا الأمْرِ . فَجَاءتِ امْرَأةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رسولَ الله ﷺ فَقَالَتْ لَهُ : يَا رَسُولَ الله ، إنَّ هِلاَلَ بْنَ أمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ، فَهَلْ

تَكْرَهُ أنْ أخْدُمَهُ ؟ قَالَ : ((لاَ ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبَنَّكِ)) فَقَالَتْ : إنَّهُ واللهِ ما بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إلَى شَيْءٍ ، وَوَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أمْرِهِ مَا كَانَ إلَى يَومِهِ هَذَا . فَقَالَ لي بَعْضُ أهْلِي : لَو اسْتَأْذَنْتَ رسولَ الله ﷺ في امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِن لِامْرَأةِ هلاَل بْنِ أمَيَّةَ أنْ تَخْدُمَهُ ؟ فَقُلْتُ : لاَ أسْتَأذِنُ فيها رسولَ الله ﷺ ، وَمَا يُدْرِيني مَاذَا يقُول رسولُ الله ﷺ إذَا اسْتَأْذَنْتُهُ ، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌ ! فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلاَمِنا ، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ الله تَعَالَى مِنَّا ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أوفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأعْلَى صَوتِهِ : يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أبْشِرْ ، فَخَرَرْتُ سَاجِدا ، وَعَرَفْتُ أنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ . فآذَنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ الله ﷻ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا ، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إلَيَّ فَرَساً وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أسْلَمَ قِبَلِي ، وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، فَكَانَ الصَّوْتُ أسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءني الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُني نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إيَّاهُ بِبشارته، وَاللهِ مَا أمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبسْتُهُما ، وَانْطَلَقْتُ أتَأَمَّمُ رسولَ الله ﷺ يَتَلَقَّاني النَّاسُ فَوْجاً فَوْجاً يُهَنِّئونَني بالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِي : لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ . حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإذَا رسولُ الله ﷺ جَالِسٌ حَوْلَه النَّاسُ ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ ﷺ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَني وَهَنَّأَني ، واللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيرُهُ – فَكَانَ كَعْبٌ لاَ يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ .

قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُور : ((أبْشِرْ بِخَيْرِ يومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ)) فَقُلْتُ : أمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُول الله أَمْ مِنْ عِندِ الله ؟ قَالَ : ((لاَ ، بَلْ مِنْ عِنْدِ الله ﷻ)) ، وَكَانَ رسولُ الله ﷺ إذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذلِكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يَا رسولَ الله ، إنَّ مِنْ تَوْبَتِي أنْ أنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إلَى اللهِ وَإلَى رَسُولِهِ . فَقَالَ رسولُ الله ﷺ : ((أمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ)) . فقلتُ : إنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيبَرَ . وَقُلْتُ : يَا رسولَ الله ، إنَّ الله تَعَالَى إنَّمَا أنْجَانِي بالصِّدْقِ ، وإنَّ مِنْ تَوْبَتِي أنْ لا أُحَدِّثَ إلاَّ صِدْقاً مَا بَقِيتُ ، فوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمينَ أبْلاهُ الله تَعَالَى في صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلِكَ لِرسولِ الله ﷺ أحْسَنَ مِمَّا أبْلاني الله تَعَالَى ، واللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كِذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذلِكَ لِرسولِ الله ﷺ إلَى يَومِيَ هَذَا ، وإنِّي لأَرْجُو أنْ يَحْفَظَنِي الله تَعَالَى فيما بَقِيَ ، قَالَ : فأَنْزَلَ الله تَعَالَى : (لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) حَتَّى بَلَغَ : (إنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيم وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) حَتَّى بَلَغَ : (اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) قَالَ كَعْبٌ : واللهِ ما أنْعَمَ الله عَلَيَّ مِنْ نعمةٍ قَطُّ بَعْدَ إذْ هَدَانِي اللهُ للإِسْلاَمِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدقِي رسولَ الله ﷺ أنْ لا أكونَ كَذَبْتُهُ ، فَأَهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذينَ كَذَبُوا ؛ إنَّ الله تَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أنْزَلَ الوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ ، فقال الله تَعَالَى : (سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إذَا انْقَلَبْتُمْ إلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) قَالَ كَعْبٌ : كُنّا خُلّفْنَا أيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أمْرِ أُولئكَ الذينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رسولُ الله ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وأرجَأَ رسولُ الله ﷺ أمْرَنَا حَتَّى قَضَى الله تَعَالَى فِيهِ بذلِكَ . قَالَ الله تَعَالَى : (وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا) وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفُنَا عن الغَزْو ، وإنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إيّانا وإرْجَاؤُهُ أمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعْتَذَرَ إلَيْهِ فقبِلَ مِنْهُ. مُتَّفَقٌ عليه .

وفي رواية : أنَّ النَّبيّ ﷺ خَرَجَ في غَزْوَةِ تَبُوكَ يَومَ الخَميسِ وكانَ يُحِبُّ أنْ يخْرُجَ يومَ الخميس .

وفي رواية : وكانَ لاَ يقْدمُ مِنْ سَفَرٍ إلاَّ نَهَاراً في الضُّحَى ، فإذَا قَدِمَ بَدَأَ بالمَسْجِدِ فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ فِيهِ .

(**تَوَاثَقْنَا**) بمثلثة وقاف، أي تحالفنا وتعاهدنا والتَّواثُق تفاعُل منه والميثاقُ العهد، أي أخذ بعضنا على بعض الميثاق لما تبايعنا على الإسلام .

(**المَفَاز**) الصحراء البعيدة عن العمار، والماء، تفاؤلاً من الفوز بالنجاة منها.

(**فَجَلَّى**) بالجيم وتشديد اللام أي أوضح .

(**أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ**) الأُهبة بضم الهمزة وسكون الهاء، أي ما يحتاج إليه في السفر والحرب .

(**وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ**) بالفاء والطاء المهملة، أي فات وسبق .

(المَغْمُوص) بالغين المعجمة، والصاد المهملة، أي مطعوناً عليه في دينه متهماً بالنفاق .

(**يُؤَنِّبُونِي**) بنون ثقيلة ثم موحدة، والتَّأْنِيبُ المبالغة في التَّوْبِيخ والتَّعْنيف .

(**فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ**) بالسين المهملة والقاف المعجمة، أي أنظر إليه في خفيه .

(**حَتَّى تَسَوَّرْتُ**) أي علوت سور الدار .

(**إِذَا نَبَطِيٌّ**) النبط نسبة إلى استنباط الماء واستخراجه، وهم فلاحوا العجم، وهذا النبطي الذي جاء لكعب ﷺ نصراني .

(**نُوَاسِكَ**) بضم النون وكسر السين المهملة من المواساة .

(**فَتَيَمَّمْتُ**) أي قصدت .

(**فَأَوْفى**) أي أشرف واطلع .

(**فَسَجَرْتُهُ**) بسين مهملة، وجيم، أي أوقدته .

١- الحديث دليل على فضل التوبة ، وأن من صدق في توبته تاب الله عليه .

٢- الحديث دليل على فضل الصدق وأنه سبب للطمأنينة [سيأتي مباحث الصدق] .

وقد قال ﷺ (فإن الصدق طمأنينة) .

وقال تعالى (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) .

قال ابن تيمية : والصدق أساس الحسنات وجماعها ، والكذب أساس السيئات ونظامها .

٣- الحديث على أن الإنسان لا ينبغي له أن يتأخر عن فعل الخير ، بل يتقدم ولا يتأخر ، وفي الحديث قال ﷺ (لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله) .

قال ابن القيم : إنّ الرّجْلَ إذَا حَضَرَتْ لَهُ فُرْصَةُ الْقُرْبَةِ وَالطّاعَةِ فَالْحَزْمُ كُلّ الْحَزْمِ فِي انْتِهَازِهَا وَالْمُبَادَرَةِ إلَيْهَا وَالْعَجْزِ فِي تَأْخِيرِهَا وَالتّسْوِيفِ بِهَا ، وَلَا سِيّمَا إذَا لَمْ يَثِقْ بِقُدْرَتِهِ وَتَمَكّنِهِ مِنْ أَسْبَابِ تَحْصِيلِهَا ، فَإِنّ الْعَزَائِمَ وَالْهِمَمَ سَرِيعَةُ الِانْتِقَاضِ قَلّمَا ثَبَتَتْ وَاَللّهُ سُبْحَانَهُ يُعَاقِبُ مَنْ فَتَحَ لَهُ بَابًا مِنْ الْخَيْرِ فَلَمْ يَنْتَهِزْهُ بِأَنْ يَحُولَ دَعَاهُ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ وَإِرَادَتِهِ فَلَا يُمْكِنُهُ الِاسْتِجَابَةُ بَعْدَ ذَلِكَ . قَالَ تَعَالَى (يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) وَقَدْ صَرّحَ اللّهُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا فِي قَوْلِهِ (وَنُقَلّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوّلَ مَرّةٍ) وَقَالَ تَعَالَى (فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ) . وَقَالَ (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلّ قَوْمًا بَعْدَ إذْ هَدَاهُمْ حَتّى يُبَيّنَ لَهُمْ مَا يَتّقُونَ إنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ . (زاد المعاد) .

وقال رحمه الله : حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء :

أحدهما : رد الحق لمخالفته هواك .

فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأساً ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك .

قال تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك .

والثاني : التهاون بالأمر إذا حضر وقته .

فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك .

قال تعالى (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) .

فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة . (بدائع الفوائد) .

٤- خطورة التسويف ، وأنه يفسد على العبد أمر دينه ودنياه .

قال بعض العلماء : سوف أحد جنود إبليس .

وقال ابن الجوزي : إياك والتسويف فإنه أعظم جنود إبليس .

وقال الغزالي : إن التسويف يسبب أربعة أشياء : ترك الطاعة والكسل فيها ، وترك التوبة وتأخيرها ، والحرص على الدنيا والاشتغال بها ، وقسوة القلب ونسيان الآخرة .

وقال الحسن : إياك والتسويف ، فإنك بيومك ولست بغدك ، فإن يكن غداً لك فكن في غد كما كنت في اليوم ، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم .

٥- الحديث دليل على هجران أهل المعاصي والبدع .

قال تبارك وتعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) .

وقال تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) .

قال الإمام القرطبي – رحمه الله – في تفسيره: فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم ، والرضا بالكفر كفر، قال الله – عز وجل – (إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ)، فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية .

وقال سبحانه (وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ) .

الأدلة على مشروعية الهجر من السنة النبوية ما يلي:

عن سعيد بن جبير أن قريباً لعبد الله بن مغفلﷺ خذف فنهاه، وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف، وقال (إنها لا تصيد صيداً ولا تنكأ عدواً، ولكنها تكسر السن وتفقأ العين)، قال: فعاد فقال: أحدثك أن رسول الله ﷺ نهى عنه ثم تخذف لا أكلمك أبداً) رواه مسلم .

قال الإمام النووي – رحمه الله – : فيه هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم ، وأنه يجوز هجرانه دائماً والنهى عن الهجران فوق ثلاثة أيام إنما هو فيمن هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا ، وأما أهل البدع ونحوهم فهجرانهم دائماً.

وهجر النبي ﷺ كعب بن مالك وصاحبيه ﷺ (كما في حديث الباب) لما تخلفوا عن غزاة تبوك، واستمر هجرهم مدة خمسين ليلة، حتى آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله عليهم .

قال الإمام النووي تعليقاً على هذا الحديث: فيه استحباب هجران أهل البدع والمعاصي الظاهرة وترك السلام عليهم ومقاطعتهم؛ تحقيراً لهم وزجراً .

وقال الإمام ابن عبد البر رحمه الله : وقد جعل بعض أهل العلم حديث كعب هذا أصلاً في هجران أهل البدع ومن أحدث في الدين ما لم يرض .

وقال ابن كثير رحمه الله في ترجمة أبو محمد البربهاري : العالم الزاهد الفقيه الحنبلي، الواعظ ، وكان شديداً على أهل البدع والمعاصي، وكان كبير القدر تعظمه الخاصة والعامة .

فظهر بذلك مشروعية هجر أهل المعاصي والبدع، وأنها مستثناه من النهي عن الهجر فوق الثلاث .

٦- الحديث دليل على أنه يستحب للقادم من السفر أن يبدأ بالمسجد فيصلي فيه ركعتين ، وهذه السنة ثبتت من فعله ﷺ ومن قوله :

من فعله كما في حديث الباب .

ومن قوله : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ (خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَأَبْطَأَ بِي جَمَلِي وَأَعْيَى ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلِي وَقَدِمْتُ بِالْغَدَاةِ فَجِئْتُ الْمَسْجِدَ فَوَجَدْتُهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ قَالَ : الآنَ حِينَ قَدِمْتَ » . قُلْتُ نَعَمْ . قَالَ : فَدَعْ جَمَلَكَ وَادْخُلْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، قَالَ فَدَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ ثُمَّ رَجَعْت) متفق عليه .

٧- الحديث دليل على استحباب تبشير المسلم بما يسره .

قال تعالى (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقال تعالى (وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ) .

وقال معاذ للرسول (أفلا أبشر الناس ؟) متفق عليه .

٨- الحديث دليل على استحباب سجود الشكر لقوله (فخررتُ ساجداً) .

قال النووي : فيه دليل للشافعي وموافقيه في استحباب سجود الشكر بكل نعمة ظاهرة حصلت أو نعمة ظاهرة اندفعت .

ومما يدل على الاستحباب :

أ-حديث أَبِي بَكْرَةَ ﷺ (أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا جَاءَهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ خَرَّ سَاجِداً لِلَّهِ) رواه أبو داود .

ب- وَعَنْ عَبْدِ اَلرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ قَالَ (سَجَدَ اَلنَّبِيُّ ﷺ فَأَطَالَ اَلسُّجُودَ , ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : إِنَّ جِبْرِيلَ آتَانِي , فَبَشَّرَنِي , فَسَجَدْت لِلَّهِ شُكْرًا) رَوَاهُ أَحْمَد .

ج- وَعَنْ اَلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا- (أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ عَلِيًّا إِلَى اَلْيَمَنِ - فَذَكَرَ اَلْحَدِيثَ - قَالَ : فَكَتَبَ عَلِيٌّ ﷺ بِإِسْلَامِهِمْ , فَلَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ اَلْكِتَابَ خَرَّ سَاجِدًا) رَوَاهُ اَلْبَيْهَقِيُّ .

وقد روي عن أبي بكر أنه سجد لما جاءه خبر فتح اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب . رواه عبد الرزاق

وروي أن أمير المؤمنين عمر ، سجد لما جاءه خبر بعض الفتوحات في عهده .

وسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حين وجد ذا الثدية مع قتلى الخوارج بعد وقعت النهروان بينه وبينهم ، لأنه عرف أنه على الحق ، لأن النبي ﷺ أخبر عن الخوارج أنهم شرّ الناس ، وأن سيماهم : أن منهم رجلاً ليس له ذراع ، وعلى رأس عضده مثل ملحة الثدي .

- قوله (... فقام طلحة بن عبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنّأني) فيه دليل على استحباب القيام للداخل للتهنئة ونحوها.

قال الشيخ ابن عثيمين : لا بأس أن يقوم الإنسان للشخص ليتلقاه بالسلام، أو التهنئة بمولود، أو نحو ذلك، فقد قام طلحة

ﷺ حين أقبل كعب بن مالك ودخل المسجد والنبي ﷺ يحدث أصحابه، فقام طلحة يهنئه بتوبة الله عليه، قال (فكنتُ لا أنساها لـ طلحة)، فهذا لا بأس به.

ولهذا يقول العلماء في هذا الباب: هناك ثلاثة أصناف للقيام: قيام للشخص، وقيام إلى الشخص، وقيام على الشخص.

فالقيام للشخص: جائز؛ لكن الأولى تركه، إلا إذا اعتاد الناس أن عدم القيام إهانة للداخل فلْيُقَمْ له.

والقيام إلى الشخص: جائز، بل يكون مطلوباً إذا كان الشخص أهلاً لذلك.

والقيام على الشخص: هذا منهِيٌّ عنه، حتى أن الرسول ﷺ ذات يوم صلى بأصحابه جالساً وصلوا هم قياماً؛ لأنهم قادرون، فأشار إليهم أن اجلسوا.

وبين أن ذلك منهيٌّ عنه؛ لأنه فعلُ الأعاجم بملوكها؛ إلا إذا كان فيه مصلحة للإسلام فقُمْ، أو كان هناك خوف على الذي قمت على رأسه فقُمْ.

ومما جاء في ذلك من الأحاديث :

عن أنس قال (لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ قال وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك) رواه الترمذي .

وعن معاوية . قال : قال رسول الله ﷺ (من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار) رواه الترمذي .

قال ابن تيمية : (لم تكن عادة السلف على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين أن يعتادوا القيام كلما يرونه عليه السلام ، كما يفعله كثير من الناس ، بل قال أنس بن مالك : (لم يكن شخص أحب إليهم من النبي ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك) ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه تلقيا له ، كما روي عن النبي ﷺ أنه قام لعكرمة. وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ : قوموا إلى سيدكم ، رواه البخاري ومسلم . وكان قد قدم ليحكم في بني قريظة ؛ لأنهم نزلوا على حكمه .

٩- على المسلم أن يسارع في الطاعات ، ويحرص على أدائها بعزم وجد ، لقوله (لقد هممت أن أرتحل فأدركهم) .

١٠- أنه لم يكن يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا أحد رجال ثلاثة : إما مغموص عليه في النفاق، أو رجل من أهل الأعذار، أو من خلّفه رسول الله ﷺ واستعمله على المدينة أو خلفه لمصلحة .

١١- حسنات الإنسان وسابقته مهما كانت لا تعصمه من الخطأ، ولا تمنع من معاتبته أو معاقبته عليه ، وإن كانت محسوبة له.

١٢- قول الحق ولو على النفس بدون زيادة ولا نقصان، وهذا من التجرد الذي نحن بحاجة إليه في هذا الزمن من قوله (ولم أكن قط أقوى ...) .

١٣- جواز الحلف .

١٤- التصريح بجهة الغزو إذا لم تقتض المصلحة ستره .

١٥- أن الإمام إذا استنفر الجيش عموماً لزمهم النفير ولحق اللوم بكل فرد أن لو تخلف .

١٦- مشروعية إيراد قصص التائبين حتى يستفيد ويعتبر منها السامع.

١٧- أفضل من يورد القصة هو صاحبها، الذي عاش أحداثها، وتنقل بين فصولها، فمنه تكون أصدق وأوثق ، من قول عبد الله بن كعب (سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ).

١٨- جواز تحدث العبد بما أنعم الله عليه من النعم بشرط أن يأمن الفتنة على نفسه، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) من قول كعب (لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلاَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ) .

١٩- أن الله إذا أراد أمراً هيأ أسبابه .

٢٠- أن العاجز عن الخروج بنفسه أو بماله لا لوم عليه .

٢١- استخلاف من يقوم مقام الإمام على أهله والضعفة .

٢٢- تقديم محبة الله ورسوله على ما تحب النفس لقوله (وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت ...) .

٢٣- ترك قتل المنافقين للمصلحة .

٢٤- عظم أمر المعصية .

٢٥- أن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف في الدين .

٢٦- جواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره تحذيراً ونصيحة لغيره .

٢٧- تسلية نفسه بما لم يحصل له بما وقع لنظيره .

٢٨- فضل أهل بدر والعقبة .

٢٩- رد الغيبة .

٣٠- جواز تمني ما فات من الخير .

٣١- جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد وهم الطاعن أو غلطه .

٣٢- مشروعية السلام على القادم وتلقيه .

٣٣- قبول المعاذير .

٣٤- استحباب بكاء العاصي أسفاً على ما فاته من الخير .

٣٥- إجراء الأحكام على الظاهر ووكول السرائر إلى الله تعالى .

٣٦- أن التبسم قد يكون عن غضب كما يكون عن تعجب ولا يختص بالسرور .

٣٧- معاتبة الكبير أصحابه ومن يعز عليه دون غيره .

٣٨- أن من عوقب بالهجر يُعذر في التخلف عن صلاة الجماعة ، لأن مرارة وهلالاً لم يخرجا من بيوتهما تلك المدة .

٣٩- أن مسارقة النظر في الصلاة لا تقدح في صحتها .

٤٠- إيثار طاعة الرسول على مودة القريب .

٤١- خدمة المرأة زوجها .

٤٢- جواز تحريق ما فيه اسم الله للمصلحة .

٤٣- مشروعية سجود الشكر .

٤٤- الاستباق إلى البشارة بالخير .

٤٥- إعطاء البشير أنفس ما يحضر الذي يأتيه بالبشارة .

٤٦- تهنئة من تجددت له نعمة .

٤٧- اجتماع الناس عند الإمام في الأمور المهمة .

٤٨- سرور الإمام بما يسر أتباعه .

٤٩- مشروعية العارية .

٥٠- التزام المداومة على الخير الذي ينتفع به .

٥١- استحباب الصدقة عند التوبة .

٥٢- أن من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراج جميعه .

٢٢- وَعَنْ أبي نُجَيد – بضَمّ النُّونِ وفتحِ الجيم – عِمْرَانَ بنِ الحُصَيْنِ الخُزَاعِيّ رضي الله عنهما : أنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أتَتْ رسولَ الله ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزّنَى ، فقالتْ : يَا رسولَ الله ، أصَبْتُ حَدّاً فَأَقِمْهُ عَلَيَّ ، فَدَعَا نَبِيُّ الله ﷺ وَلِيَّها ، فقالَ : أَحْسِنْ إِلَيْهَا ، فإذا وَضَعَتْ فَأْتِني ، فَفَعَلَ فَأَمَرَ بهَا نبيُّ الله ﷺ ، فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا. فقالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُول الله وَقَدْ زَنَتْ ؟ قَالَ: ((لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ أَفضَلَ مِنْ أنْ جَادَتْ بنفْسِها لله ﷻ ؟!)) رواه مسلم .

(**وَعَنْ أبي نُجَيد – بضَمّ النُّونِ وفتحِ الجيم – عِمْرَانَ بنِ الحُصَيْنِ الخُزَاعِيّ**) أسلم عام خيبر ، وكان صاحب راية خزاعة عام الفتح ، كان من فضلاء الصحابة وفقهائهم ، مات سنة (٥٢) هـ بالبصرة .

(**أنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ**) وفي رواية أخرى لمسلم (جاءت امرأة من غامد ، من الأزد) قال القرطبي: ولا تباعد بين الروايتين، فإن غامداً قبيلة من جهينة ، قاله عياض ، وأظن جهينة من الأزد ، وبهذا تتفق الروايات .

(**أتَتْ رسولَ الله ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزّنَى فقالتْ : يَا رسولَ الله ، أصَبْتُ حَدّاً فَأَقِمْهُ عَلَيَّ**) هذا اعتراف منها بالزنا ، وفي رواية لمسلم أخرى (...فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي . فَقَالَ : وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ » . فَقَالَتْ أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ) .

(**فَدَعَا نَبِيُّ الله ﷺ وَلِيَّها ، فقالَ : أَحْسِنْ إِلَيْهَا**) **قال النووي** : هذا الإحسان له سببان :

أحدهما : الخوف عليها من أقاربها أن تحملهم الغيرة ولحوق العار بهم أن يؤذوها، فأوصى بالإحسان إليها، تحذيراً لهم من ذلك.

والثاني : أمر به رحمة لها ، إذ قد تابت ، وحرص على الإحسان إليها ، لما في نفوس الناس من النفرة من مثلها ، وإسماعها الكلام المؤذي ونحو ذلك ، فنهى عن ذلك كله .

(**فإذا وَضَعَتْ**) أي : ولدت حملها .

(**فَأْتِني**) وفي رواية لمسلم (..لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِى كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزاً فَوَاللَّهِ إِنِّى لَحُبْلَى . قَالَ : إِمَّا لاَ فَاذْهَبِى حَتَّى تَلِدِي) .

(**ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ**) وفي رواية لمسلم (ثم أمر بها فحُفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها) .

١- الحديث دليل على فضل التوبة ، وأنها تجب ما قبلها ، وأن التوبة الصادقة منزلتها عالية ، وترفع العبد درجات .

وقد ذكر ابن القيم بعض علامات التوبة المقبولة الصحيحة ؟

منها : أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

ومنها : أنه لا يزال الخوف مصاحباً له ، لا يأمن مكر الله طرفة عين .

ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندماً وخوفاً .

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً : كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ، ولا تكون لغير المذنب لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد ، وإنما هي أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً ، كحال عبد جان آبق من سيده ، فأخذ فأحضر بين يديه ولم يجد من ينجيه من سطوته ولم يجد منه بداً ولا عنه غناءً ولا منه مهرباً ، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه ، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته ، هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده وذله وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد ، وما أجدى عائدتها عليه ، وما أعظم جبره بها ، وما أقربه بها

من سيده ، فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه ، والاستسلام له .
فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة ، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته ، وليرجع إلى تصحيحها ، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة ، وما أسهلها باللسان والدعوى ؟

٢- الحديث دليل على أن من علامات التوفيق: تعظيم العبد لذنبه، وتصغير حسناته في عينه، كما تقدم النقل عن ابن القيم.
قال ابن القيم : .... فاستقلال العبد المعصية عين الجرأة على الله ، وجهل بقدر من عصاه وبقدر حقه ، وإنما كان مبارزة ، لأنه إذا استصغر المعصية واستقلها هان عليه أمرها ، وخفت على قلبه ، وذلك نوع مبارزة .

٣- أن العبد إذا تاب من الذنب : فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حطه عنها الذنب أو لا يرجع إليها ؟ اختلف في ذلك :

فقالت طائفة : يرجع إلى درجته ، لأن التوبة تجب الذنب بالكلية ، وتصيره كأن لم يكن والمقتضي لدرجته : ما معه من الإيمان والعمل الصالح فعاد إليها بالتوبة .

قالوا : لأن التوبة حسنة عظيمة ، وعمل صالح ، فإذا كان ذنبه قد حطه عن درجته فحسنته بالتوبة رقته إليها .

وقالت طائفة : لا يعود إلى درجته وحاله ، لأنه لم يكن في وقوف ، وإنما كان في صعود ، فبالذنب صار في نزول وهبوط ، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقي .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يحكي هذا الخلاف ثم قال : والصحيح : أن من التائبين من لا يعود إلى درجته ، ومنهم من يعود إليها ، ومنهم من يعود إلى أعلى منها ، فيصير خيراً مما كان قبل الذنب ، وكان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، قال : وهذا بحسب حال التائب بعد توبته وجده وعزمه وحذره وتشميره ، فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى درجة ، وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله ، وإن كان دونه لم يعد إلى درجته وكان منحطاً عنها وهذا الذي ذكره هو فصل النزاع في هذه المسألة (مدارج السالكين) .

٤- الحديث دليل على أنه لا يقيم الحد إلا الإمام أو نائبه .

أ-لأن النبي ﷺ كان يقيم الحد في حياته وخلفاؤه بعده .

ب-ولأن إقامة الحد من غير الإمام أو نائبه فيها مفاسد .

ج- ولأجل أن يؤمن الحَيْف في استيفائه .

٥- الحديث دليل على أنه لا يلزم حضور الإمام ، لأنه أمر برجمها ولم يحضر .

ولقوله ﷺ (واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها) .

وأمر برجم ماعز ولم يحضر .

٦- وينبغي للإمام أن ينوي بإقامة الحد أموراً ثلاثة :

أولاً : الامتثال لأمر الله عز وجل في إقامة الحدود .

ثانياً : أن ينوي رفع الفساد .

ثالثاً : أن ينوي إصلاح الخلق .

٧- أن المرأة ترجم جالسة ، لأنه أستر لها .

وتشد عليها ثيابها : لأنه ربما مع الضرب تضطرب وتتحرك وتنفك ثيابها .

وتمسك يداها : لئلا تتكشف .

ففي حديث الباب (فأمر بها النبي ﷺ فشكت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت) رواه مسلم .

٨- أن حد الزاني إذا كان محصناً الرجم حتى الموت .

قال ابن قدامة : وجوب الرجم على الزاني المحصن رجلاً كان أو امرأة ، وهذا قول عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار في جميع الأعصار ، ولا نعلم فيه خلافاً إلا الخوارج .

والرجم ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

أ-في الكتاب : الآية المنسوخة : (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ...) .

ب- وعن عمر بن الخطاب قال (إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ وَإِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَاف) متفق عليه .

ج- **ورجم النبي ﷺ ماعزاً** :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله أَنَّهُ قَالَ (أَتَى رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ - فَنَادَاهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ , إِنِّي زَنَيْتُ , فَأَعْرَضَ عَنْهُ . فَتَنَحَّى تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ , إِنِّي زَنَيْت , فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى ثَنَّى ذَلِكَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ . فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ: دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ , فَقَالَ : أَبِكَ جُنُونٌ؟ قَالَ: لا . قَالَ : فَهَلْ أُحْصِنْت ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ) متفق عليه .

د- ورجم اليهوديين :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ (إِنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ : أَنَّ امْرَأَةً مِنْهُمْ وَرَجُلاً زَنَيَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ, فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟ فَقَالُوا : نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ: كَذَبْتُمْ , فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ , فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا , فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا . فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ : ارْفَعْ يَدَك . فَرَفَعَ يَدَهُ , فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ , فَقَالَ : صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ , فَأَمَرَ بِهِمَا النَّبِيُّ ﷺ فَرُجِمَا . قَالَ : فَرَأَيْت الرَّجُلَ : يَحْنَأُ عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ) متفق عليه .

هـ – ورجم المرأة الأسلمية :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنهما , أَنَّهُمَا قَالا :(إِنَّ رَجُلاً مِنَ الأَعْرَابِ أَتَى رَسُولَ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ , أَنْشُدُك اللَّهَ إلاَّ قَضَيْتَ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ . فَقَالَ الْخَصْمُ الآخَرُ - وَهُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ - نَعَمْ , فَاقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ , وَأْذَنْ لِي . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : قُلْ , فَقَالَ : إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفاً عَلَى هَذَا , فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ , وَإِنِّي أُخْبِرْت أَنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ , فَافْتَدَيْت مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ , فَسَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أَنَّمَا عَلَى ابْنِي جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ , وَأَنَّ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا الرَّجْمَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ , الْوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ عَلَيْك وَعَلَى ابْنِك جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ . وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ - لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ - عَلَى امْرَأَةِ هَذَا , فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا , فَغَدَا عَلَيْهَا , فَاعْتَرَفَتْ , فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَتْ) متفق عليه .

هـ- ورجم الجهنية :

كما في حديث الباب .

٩- أن الزاني المحصن يرجم ولا يجمع معه الجلد ، وقد اختلف العلماء فيمن وجب عليه الرجم ، هل يجلد أولاً أم لا ؟

القول الأول : أن الزاني المحصن يرجم فقط ولا يجلد .

وهذا مذهب جمهور العلماء .

أ-لحديث أبي هريرة في المرأة الأسلمية (فإن اعترفت فارجمها) ولم يذكر الجلد .

ب- والنبي ﷺ رجم ماعزاً ولم يجلده .

ج- ورجم الغامدية ولم يجلدها .

د- ورجم اليهوديين ولم يجلدهما .

هـ - ولأن الحد الأصغر ينطوي في الحد الأكبر ، وذلك إنما وضع للزجر ، فلا تأثير للزجر بالضرب مع الرجم .

القول الثاني : الجمع بين الجلد والرجم ، فيجلد مائة ثم يرجم .

وهذا القول مروي عن علي وابن عباس .

لحديث عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : (خذوا عني خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً ، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم) . رواه مسلم

والراجح القول الأول .

وأما الجواب عن حديث عبادة : أنه منسوخ .

فإن الأدلة التي بها الرجم فقط كلها متأخرة عن حديث عبادة ، ويدل لذلك قوله ﷺ : (قد جعل الله لهن سبيلاً) فهو دليل على أن حديث عبادة هو أول نص ورد في الزنا .

١٠- الحديث دليل على أنه يكفي في الإقرار أن يكون مرة واحدة .

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة ، هل يشترط أن يقر أربع مرات أم يكفي مرة واحدة ؟ على قولين :

القول الأول : لا بد أن يقر أربع مرات .

وهذا مذهب الحنابلة .

لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (أَتَى رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ - فَنَادَاهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ , إِنِّي زَنَيْتُ , فَأَعْرَضَ عَنْهُ . فَتَنَحَّى تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ , إِنِّي زَنَيْت , فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى ثَنَّى ذَلِكَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ . فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ: دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ , فَقَالَ: أَبِكَ جُنُونٌ؟ قَالَ: لا . قَالَ : فَهَلْ أُحْصِنْت؟ قَالَ : نَعَمْ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ) متفق عليه ، وهذا الرجل هو ماعز .

وجه الدلالة : النبي ﷺ لم يقم عليه الحد حتى شهد أربع مرات .

القول الثاني : يثبت الزنا بإقراره مرة واحدة ، ولا يشترط التكرار أربعاً .

وهذا مذهب مالك والشافعي ورجحه الشوكاني .

أ- لحديث (واغدوا يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها) ولم يذكر تكراراً .

ب- والنبي ﷺ رجم اليهوديين ، ولم ينقل أن النبي ﷺ كرر عليهما الإقرار .

ج- والنبي ﷺ رجم امرأة من جهينة ولم تقر إلا مرة واحدة . رواه مسلم

قالوا : فلو كان تربيع الإقرار شرطاً لما تركه النبي ﷺ في مثل هذه الواقعات التي يترتب عليها سفك الدماء وهتك الحرم .

وأجاب هؤلاء عن قصة جابر [في مجيء ماعز] :

قال الشوكاني : وظاهر السياقات مشعر بأن النبي ﷺ إنما فعل ذلك في قصة جابر لقصد التثبت ، كما يشعر بذلك قوله :

(أبك جنون) ثم بسؤاله بعد ذلك لقومه ، فتحمل الأحاديث التي فيها التراخي عن إقامة الحد بعد صدور الإقرار مرة على من كان أمره ملتبساً في ثبوت العقل واختلاله والصحو والسكر ونحو ذلك ، وإقامة الحد بعد الإقرار مرة واحدة على من كان معروفاً بصحة العقل وسلامة إقراره عن المبطلات .

٢٣-وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ (لَوْ أنَّ لابنِ آدَمَ وَادِياً مِنْ ذَهَبٍ أحَبَّ أنْ يكُونَ لَهُ وَادِيانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إلاَّ التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) مُتَّفَقٌ عليه .

١- الحديث دليل على عظم حب الإنسان للمال ، وأنه يحرص على جمعه من جميع الوجوه .

٢- خطر فتنة المال ، وأنه من أعظم الفتن ، لأنه يحمل صاحبه على الإعراض عن طريق الله تعالى ، ويحمله أيضاً على الطغيان والبغي .

والمال – أيضاً – فتنة ، لأنه يشغل القلب ويلهي عن الطاعة وينسي الآخرة .

قال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) .

وقال تعالى (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ) .

وقال تعالى (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) .

وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) .

وقصة الثلاثة – الأقرع والأبرص والأعمى – الذين ابتلاهم الله ، فجحد اثنان منهما .

وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) .

وقال ﷺ (إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي بالمال) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لأحب أن يكون له ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب) متفق عليه .

وقال ﷺ (يهرم ابن آدم ويهرم معه اثنتان : الحرص على العمر ، والحرص على المال) متفق عليه .

وقال ﷺ (اثنتان يكرهما ابن آدم: يكره الموت والموت خير له من الفتن، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب) رواه أحمد .

وقال ﷺ (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ ، لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنَ الْحَلاَلِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ) رواه البخاري .

وقال ﷺ (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) .

قال ابن رجب : هذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا ، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم ، قد غاب عنها رعاؤها ليلاً ، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها .

فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم .

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا .

- الحرص على المال على نوعين :

الأول : شدة محبة المال مع شدة طلبه من جوهه المباحة المبالغة في طلبه والجد في تحصيله .

ولو لم يكن في الحرص على المال إلا تضييع العمر الشريف الذي لا قيمة له ، وقد كان يمكن صاحبه فيه اكتساب الدرجات العلى والنعيم المقيم ، فضيّعه بالحرص في طلب رزق مضمون مقسوم .

فالحريص يضيع زمانه الشريف يخاطر بنفسه التي لا قيمة لها في الأسفار وركوب الأخطار لجمع مال ينتفع به غيره .

قيل لبعض الحكماء : إن فلاناً جمع مالاً ، فقال : فهل جمع أياماً ينفقه فيها ؟ قيل : لا . قال : ما جمع شيئاً .

كان عبد الأحد بن زيد يحلف بالله ، لحرص المرء على الدنيا أخوف عليه عندي من أعدى أعدائه .

وفي بعض الآثار الإسرائيلية : الرزق مقسوم، والحريص محروم، ابنَ آدم، إذا أفنيتَ عمرَك في طلب الدنيا، فمتى تطلب الآخرة .

إذا كنت في الدنيا عن الخيرِ عاجزاً فما أنت في يومِ القيامة صانعُ .

قال بعض السلف : إذا كان القدر حقاً فالحرصُ باطلٌ ، وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحدٍ عجزٌ ، وإذا كان الموت لكلِ أحد راصداً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق .

كتب بعض الحكماء إلى أخٍ له كان حريصاً على الدنيا : أما بعد ، فإنك أصبحت حريصاً على الدنيا ، تخدمها وهي تزجرُك عن نفسها بالأعراض والأمراض والآفات والعلل ، كأنك لم تر حريصاً محروماً ، ولا زاهداً مرزوقاً ، ولا ميتاً عن كثير ، ولا مبلغاً من الدنيا باليسير .

قال بعض الحكماء : أطول الناس هماً الحسود ، وأهنؤهم عيشاً القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص ، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط .

الثاني : أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأول حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة .

قال تعالى (ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال (اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا) .

وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال (اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) .

قال طائفة من العلماء : الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلها ويمنع حقوقها .

والبخل : هو إمساك الإنسان ما في يده .

قال تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وذلك لإعانتهما فيها ، ووجود الشرف بهما ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الأخروي ، إذ لا يحتاج فيها إليهما ، بقوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً) أي : والأعمال التي تبقى ثمراتها الأخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات ، خير عند ربك من المال والبنين ، في الجزاء والفائدة وخير مما يتعلق بهما من الأمل ، فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال ، وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الرباني والنعيم الأبدي ، لا يزول ولا يحول . (تفسير القاسمي) .

غوائل المال :

أولاً : أنه يجر إلى المعاصي غالباً ، لأن من استشعر القدرة على المعصية انبعث داعيته إليها .

ثانياً : أنه يجر إلى التنعم في المباحات ، حتى تصير له عادة وإلفاً ، فلا يصبر عنها ، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة ، فيقتحم الشبهات .

ثالثاً : أنه يلهيه عن ذكر الله ، وهذا الدال العضال ، فإن صاحب المال يمسي ويصبح متفكراً في ماله وحفظه وزيادته .

٣- فضل القناعة والرضا باليسير .

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) فَسَّر الحياةَ الطيبة عليٌّ وابن عباس والحسن – رضي الله عنهم – فقالوا : الحياة الطيبة هي القناعة .

وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي : من قنع طاب عيشه ، ومن طمع طال طيشه .

وعن فضالة (طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلى الإِسْلام ، وَكَانَ عَيْشهُ كَفَافاً ، وَقَنِعَ) .

وعن عبد الله بن عمرو . قال : قال ﷺ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافاً وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ) رواه مسلم .

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ : (يَضْحَكُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ يقْتلُ أَحدهُمَا الآخَرَ يَدْخُلانِ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلُ هَذَا في سَبيلِ اللهِ فَيُقْتَلُ ، ثُمَّ يتُوبُ اللهُ عَلَى القَاتلِ فَيُسْلِم فَيُسْتَشْهَدُ) مُتَّفَقٌ عليه .

(**يَضْحَكُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ**) فيه إثبات الضحك لله تعالى .

١-معنى الحديث : قال ابن عبد البر : معنى هذا الحديث عند أهل العلم ، أن القاتل الأول كان كافراً .

وقد جاء في رواية (ثم يتوب الله على الآخر ، فيهديه إلى الإسلام) وأصرح من ذلك ما أخرجه أحمد من طريق الزهري عن سعيد بن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة بلفظ (قيل : كيف يا رسول الله ؟ قال : يكون أحدهما كافراً ، فيَقتل الآخر ، ثم يُسلم ، فيغزو ، فيُقتل) .

٢- الحديث دليل على عظم فضل التوبة ، وأن من تاب محيت عنه جميع سيئاته ، قال تعالى (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

فقوله تعالى (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) **قال ابن القيم** : وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح وهو حقيقة التوبة .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما رأيت النبي فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت وفرحه بنزول (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) .

واختلفوا في صفة هذا التبديل وهل هو في الدنيا أو في الآخرة على قولين :

فقال ابن عباس وأصحابه : هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها فبدلهم بالشرك إيماناً، وبالزنا عفة وإحصاناً، وبالكذب صدقاً، وبالخيانة أمانة ، فعلى هذا معنى الآية : أن صفاتهم القبيحة وأعمالهم السيئة عوضها صفات جميلة وأعمالاً صالحة كما يبدل المريض بالمرض صحة والمبتلى ببلائه عافية .

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين : هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة .

٣- الحديث دليل على سعة رحمة الله تعالى .

٤- الحديث دليل على أن الشهيد يدخل الجنة .

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

وقال تعالى (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) .

وكما قال ﷺ (انْتَدَبَ اللَّهُ (وَلِمُسْلِمٍ : تَضَمَّنَ اللَّهُ) لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ , لا يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادٌ فِي سَبِيلِي , وَإِيمَانٌ بِي , وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي فَهُوَ عَلِيّ ضَامِنٌ: أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ, أَوْ أُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ, نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ).

وعن جابر . قال (قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة ، فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل) متفق عليه .

وعن أنس (أن أم حارثة أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ألا تحدثني عن حارثة ، وكان قتل يوم بدر ، أصابه سهم ، فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء ، فقال رسول الله : يا أم حارثة ، إنها جنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى) متفق عليه .

٥- الحديث دليل على إثبات الضحك لله تعالى إثباتاً يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تمثيل ولا تشبيه .

٣- باب الصبر

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]، وقال تعالى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ١٥٥] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَاب** ﴾ [الزمر :١٠] ، وَقالَ تَعَالَى: ﴿ **وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [الشورى: ٤٣] ، وَقالَ تَعَالَى: ﴿ **اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ١٥٣]، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ** ﴾ [محمد : ٣١]، وَالآياتُ في الأمر بالصَّبْر وَبَيانِ فَضْلِهِ كَثيرةٌ مَعْرُوفةٌ .

تعريف الصبر : هو حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي ، والجوارح عما حرم الله .

وقال الشيخ العصيمي حفظه الله ، والصبر : حبس النفس على أمر الله .

فأمر الله : الطاعات : أن يصبر على فعلها ، والسيئات : أن يصبر عنها ، والمصائب : أن يصبر عليها ويحتسب .

- **قَالَ الله تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا) .**

فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه ، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه .

- **وقال تعالى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) .**

(**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ**) يخبر تعالى أنه يبتلي عباده ، أي : يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) فتارة بالسراء ، وتارة بالضراء من خوف وجوع ... وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده ، فمن صبر أثابه ومن قنط أحل به عقابه (**بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ**) أي : بقليلٍ من ذلك (**وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ**) أي : ذهاب بعضِها (**وَالْأَنْفُسِ**) كموت الأصحاب والأقارب والأحباب (**وَالثَّمَرَاتِ**) أي : لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها ، أو ما يصيبها من الآفات (**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**) الصابرين على المصائب بالثواب ، و التبشير : الإخبار بما يسر ، وهذا أمر للرسول ﷺ أو لكل من يقدر على التبشير .

- **وَقالَ تَعَالَى (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَاب) .**

وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور. (تفسير السعدي) .

- **وَقالَ تَعَالَى (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور) .**

يخبر تعالى أن من صبر على ما يناله من أذى الخلق (**وَغَفَرَ**) لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، **(إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)** أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة ، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم ، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترْك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه ، وجاهد نفسه على الاتصاف به ، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته ، ووجد آثاره ، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه . (تفسير السعدي) .

- **وَقالَ تَعَالَى (اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِين) .**

أي : (**وَاسْتَعِينُوا**) أي اطلبوا العون على أموركم الدنيوية والأخروية (**بِالصَّبْرِ**) على فعل الطاعات ، وبالصبر عن المعاصي ، وبالصبر على أقدار الله المؤلمة ، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور ، ومن يتصبر يصبره الله ، فلا نجاح في الدنيا ، ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر (**وَالصَّلاةِ**) أي استعينوا بالصلاة، فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى (وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)، وعن حذيفة . قال (كان رسول الله ﷺ , إذا حزبه أمر صلى) رواه أبو داود

قال الشنقيطي في بيان سر أن الصلاة معينة على أمور الدنيا والآخرة: لأن العبد إذا وقف بين يدي ربه، يناجي ربه ويتلو كتابه ، تذكر ما عند الله من الثواب ، وما لديه من العقاب ، فهان في عينه كل شيء ، وهانت عليه مصائب الدنيا ، واستحقر لذاتها ، رغبة فيما عند الله ، ورهبة مما عند الله .

- **وَقالَ تَعَالَى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِين) .**

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) أي : ولنختبركم بالأوامر والنواهي والتكاليف كالجهاد في سبيل الله وغيره (**حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ)** أي : لكي يتميز بذلك الصادق من الكاذب ، والمؤمن من المنافق ، كما قال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

وقوله تعالى (حَتَّى نَعْلَمَ ...) المراد علماً يترتب عليه الثواب والعقاب ، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك ، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس ، قال القرطبي: هذا العلم هو العلم الذي يقع عليه الجزاء، لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم .

٢٥–وعن أبي مالكٍ الحارث بن عاصم الأشعريّ ﷺ ، قَالَ : قَالَ رسولُ الله ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمان ، والحَمدُ لله تَمْلأُ الميزَانَ ، وَسُبْحَانَ الله والحَمدُ لله تَملآن – أَوْ تَمْلأُ – مَا بَينَ السَّماوات وَالأَرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ ، والصَّدقةُ بُرهَانٌ ، والصَّبْرُ ضِياءٌ ، والقُرْآنُ حُجةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ . كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُها » رواه مسلم .

(**الطُّهُورُ**) بالضم الفعل وبالفتح الماء ، والمراد به الوضوء ، سمي طهوراً لأنه يطهر الأعضاء .

(**شَطْرُ**) أي : نصف .

(**الإيمان**) قيل : المراد به الصلاة كما قال تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وقيل : المراد به الوضوء المعروف .

(**والحَمدُ لله**) الحمد : الثناء على الله مع المحبة والتعظيم .

(**يَغْدُو**) أي : يذهب باكراً .

(**فَمُعْتِقُهَا**) أي : مخلصها .

(**أَوْ مُوبِقُها**) أي : مهلكها .

١- الحديث دليل على فضل الصبر ، لقوله (والصبر ضياء) .

قال ابن رجب : ولما كان الصبر شاقاً على النفوس ، يحتاج إلى مجاهدة النفس ، وحبسها وكفها عما تهواه ، كان ضياء ، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر .

وفضائل الصبر كثيرة :

أولاً : معية الله للصابرين .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

ثانياً : محبة الله لهم .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

ثالثاً : إطلاق البشرى لهم .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) .

رابعاً : إيجاب الجزاء على أحسن أعمالهم .

قال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

خامساً : ضمان المدد والنصرة لهم .

قال تعالى (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةُ مُسَوِّمِينَ) .

سادساً : استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم .

قال تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) .

وقال تعالى (وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

سابعاً : حفظهم من كيد الأعداء .

قال تعالى (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) .

ثامناً : سبب للحصول على درجة الإمامة في الدين .

قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ) .

قال ابن تيمية : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا هذه الآية (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

تاسعاً : أنه من أسباب النصر .

كما في حديث ابن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر) .

عاشراً : أمر الله به المؤمنين .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

الحادي عشر : الصبر ضياء .

كما في حديث الباب (والصبر ضياء) .

الثاني عشر : أنه خير ما أعطي العبد .

قال ﷺ (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) رواه مسلم .

٢-قوله (الطهور شطر الإيمان) المراد بالطهور هنا الحسي وهو الوضوء ، سمي طهوراً لأنه يطهر الأعضاء ، واختلف في معنى (الإيمان) :

فقيل : المراد بالإيمان هنا الصلاة ، كما قال تعالى كما قال تعالى (ومَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أي : صلاتكم .

ويكون المعنى : الطهور (برفع الحدث للصلاة) هو نصف الصلاة ، لأنه مفتاحها التي تفتتح به .

وقيل : الإيمان هنا على ظاهره وأنه شرائع الدين ، وذلك لأن خصال الإيمان قسمان ، ظاهرة وباطنة ، والطهور من الخصال الظاهرة ، والتوحيد من الخصال الباطنة ، ولذلك قرن النبي ﷺ بينهما في حديث عمر في قوله ﷺ (ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ... ، فهذا الحديث جامع بين فعل الوضوء وبين توحيد الله بالإتيان بكلمة التوحيد .

وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالطهارة هنا الطهارة المعنوية التي هي طهارة القلب من نجاسته كالشرك والبدعة والمعصية .

والشطر الآخر تحليته بما فيه قوته وصلاحه مما أمر العبه بفعله .

والصحيح القول الأول، وأن المراد بالطهارة هنا الطهارة الحسية، وعلى هذا عمل الحفاظ كالإمام مسلم، والنسائي، وابن ماجه، فإنهم أدخلوا هذا الحديث في كتاب الطهارة ، وأن المراد بالإيمان هنا شرائع الدين .

٣- الحديث دليل على فضل الوضوء ، وقد جاءت أحاديث كثيرة في فضله :

عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ (من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره). رواه مسلم وللنسائي (من أتم الوضوء كما أمره الله ، فالصلوات كفارات لما بينهن) .

وعن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ...) رواه مسلم .

وعن عقبة بن عامر . قال : قال رسول الله ﷺ (ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة) رواه مسلم .

٤-الحديث دليل على فضل كلمة (الحمد لله) حيث أنها تملأ الميزان .

وقد اختلف في معنى [تملأ الميزان] :

فقيل : أنه ضرب مثل ، وأن المعنى لو كان الحمد جسماً لملأ الميزان .

وقيل : بل الله عز وجل يمثل أعمال بني آدم وأقوالهم صوراً ترى يوم القيامة وتوزن .

٥- الحديث دليل على فضل قول : سبحان الله والحمد لله ، حيث أنهما تملآن ما بين السماء والأرض ، وقد جاء في رواية النسائي وابن ماجه (والتسبيح والتكبير ملءُ السماء والأرض) وهذه الرواية أشبه بالصواب ، ذكره ابن رجب في جامع العلوم

والحكم ، وهو كذلك رواية ودراية ، أما من جهة الرواية فلأن رواية النسائي وابن ماجه أصح طريقاً وأوثق رجالاً ، وأما الدراية ، فلأن ملء الميزان أعظم من ملء ما بين السماء والأرض ، فكيف تكون الحمد لله على الانفراد في الجملة المتقدمة في الحديث (تملأ الميزان) ثم إذا اقترنت بالتسبيح تملأ ما بين السماء والأرض الذي هو أقل من ملءِ الميزان ، فالأظهر تقديم الرواية الأخرى التي وقعت عند النسائي وابن ماجه (والتسبيح والتكبير) .

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه الكلمات :

قال ﷺ (لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس) رواه مسلم

وقال ﷺ (أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله ، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت) . رواه أحمد

وقال ﷺ (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال يا محمد : أقرئ أمتك مني السلام ... وأنها قيعان ، وأن الجنة طيبة التربة ... وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) رواه الترمذي .

٦-الحديث دليل على إثبات الميزان ، وفيه مباحث :

أولاً : تعريفه : هو ميزان حقيقي له كفتان .

ثانياً : أدلة ثبوته .

قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

وقال تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وحديث الباب (.. تملأ الميزان ..) .

والحديث السابق (كلمتان ثقيلتان في الميزان ...) .

ثالثاً : اختلف العلماء في الذي يوزن على أقوال :

القول الأول : أن الذي يوزن الأعمال نفسها .

وإلى هذا ذهب ابن حزم ، والطيبي ، وابن حجر .

قال ابن حجر : والصحيح أن الأعمال هي التي توزن .

أ- لحديث الباب (والحمد الله تملأ الميزان) .

ب- ولحديث أبي هريرة . قال : قال ﷺ (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ... : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) متفق عليه .

قالوا : هذان الحديثان صريحان في وزن الأعمال أنفسها .

ج- ولقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) .

القول الثاني : أن الذي يوزن العامل (أي : صاحب العمل) .

أ- لحديث أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة). متفق عليه

ب- ولقوله ﷺ في ابن مسعود (إن ساقيه أثقل من جبل أحد في الميزان) رواه أحمد .

القول الثالث : أن الذي يوزن صحائف الأعمال .

وإلى هذا ذهب ابن عبد البر ، والقرطبي .

لحديث البطاقة وفيه (.... وتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم

الله شيء) رواه الترمذي .

القول الرابع : أن الجميع يوزن .

وإلى هذا ذهب ابن كثير ، وابن أبي العز ، وحافظ حكمي ، وابن باز وغيرهم .

قال ابن أبي العز بعدما ساق بعض النصوص الواردة في ذلك : فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال .

وقال حافظ حكمي : الذي استظهر من النصوص – والله أعلم – أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يؤذن ، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل ذلك ولا منافاة بينها .

وقال الشيخ ابن باز : الجمع بين النصوص أنه لا منافاة بينها فالجميع يوزن ، ولكن الاعتبار في الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة .

وهذا القول هو **الراجح** .

رابعاً : كيف توزن الأعمال مع أنها أعراض ، لأن الوزن يكون للأجسام ؟

أجاب بعضهم : بأن الله تعالى يقلب الأعراض يوم القيامة أجساماً ثم توزن .

قال ابن كثير : قوله (والحمد لله تملأ الميزان) فيه دلالة على أن العمل نفسه وإن كان عرضاً قد قام بالفاعل ، يحيله الله يوم القيامة فيجعله ذاتاً يوضع في الميزان .

وقال ابن أبي العز : فلا يلتفت إلى قول ملحد معاند يقول : الأعمال أعراض لا تقبل الوزن ، وإنما يقبل الوزن الأجسام ، فإن الله يقلب الأعراض أجساماً .

خامساً : هل هو ميزان واحد أم متعدد ؟

وردت نصوص تدل على أنه متعدد، كقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)، وقوله تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ...).

ووردت نصوص بالإفراد ،كقوله ﷺ (كلمتان ثقيلتان في الميزان) .

والراجح أنه ميزان واحد ، لكنه متعدد باعتبار الموزون .

سادساً : قال القرطبي : قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديره ليكون الجزاء بحسبها .

٧- الحديث دليل على فضل الصلاة وأنها نور .

قال تعالى (إن الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

فهي نور في الدنيا كما قال تعالى (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) .

وهي نور يوم القيامة ، قال ﷺ (من حافظ عليها [أي الصلاة] كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف) رواه أبو داود .

٨- الحديث دليل على فضل الصدقة، وأنها دليل وبرهان على صحة إيمان صاحبها، والسبب في ذلك أن المال محبوب للنفوس، فإذا أنفقت منه فهذا دليل على صحة إيمانها بالله وتصديقها بوعده ووعيده .

وللصدقة فضائل كثيرة منها :

أولاً : أنها برهان على صحة الإيمان .

كما في حديث الباب (والصدقة برهان) .

ثانياً : أنها تطهير للنفس .

قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) .

ثالثاً : أنها تغفر الذنوب .

قال ﷺ (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) رواه الترمذي .

رابعاً : أن الصدقة تزيد المال .

قال ﷺ (ما نقصت صدقة من مال) رواه مسلم .

خامساً : أنها تظلل صاحبها يوم القيامة .

قال ﷺ (العبد في ظل صدقته يوم القيامة) رواه أحمد .

وقال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

سادساً : أنها وقاية النار .

قال ﷺ (اتقوا النار ولو بشق تمرة) متفق عليه .

وقال ﷺ للنساء (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الِاسْتِغْفَارَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ) متفق عليه .

سابعاً : دعاء الملائكة .

كما قال ﷺ (ما من صباح إلا وينزل ملكان : يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه

ثامناً : أن فيها علاجاً من الأمراض .

روي عنه ﷺ أنه قال (داووا مرضاكم بالصدقة) .

قال ابن شقيق (سمعت ابن المبارك وسأله رجل : عن قرحةٍ خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع به، فقال :اذهب فأحفر بئراً في مكان حاجة إلى الماء، فإني أرجو أن ينبع هناك عين ويمسك عنك الدم، ففعل الرجل فبرأ) .

تاسعاً : أن الله يدفع بالصدقة أنواعاً من البلاء .

كما في وصية يحيى عليه السلام لبني إسرائيل (وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفتدي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم) .

فالصدقة لها تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجرٍ أو ظالمٍ ، بل من كافر ، فإن الله تعالى يدفع بها أنواعاً من البلاء ، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض مقرون به لأنهم قد جربوه . (الوابل الصيب) .

عاشراً : أنه لا يبقى لصاحب المال من ماله إلا ما تصدق به .

كما في قوله تعالى (ومَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُم) .

ولما سأل النبي ﷺ عائشة عن الشاة التي ذبحوها ما بقى منها: قالت : ما بقى منها إلا كتفها ، قال (بقي كلها غير كتفها) رواه الترمذي .

الحادي عشر : أن يضاعف للمتصدق أجره .

كما في قوله عز وجل (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيم) .

وقوله سبحانه (مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون) .

الثاني عشر : أن فيها انشراحاً للصدر .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدَيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا ، فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تُغَشِّيَ أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا) متفق عليه .

فالمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه ، وانفسح بها صدره ، فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه ، فكلمَّا تصدَّق اتسع وانفسح وانشرح ، وقوي فرحه ، وعظم سروره ، ولو لم يكن في الصَّدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبدُ حقيقياً بالاستكثار منها والمبادرة إليها وقد قال تعالى (ومَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفْلِحُون) .

٩- في قوله ﷺ (الصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء)

البرهان : هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس محيطاً بقرصها .

والصبر ضياء : وهو النور الذي يكون معه حرارة وإشراق دون إحراق .

فالتمثيل لها بما مثلت به يراد به شيئان :

أحدهما : باعتبار تأثيرها بالروح . (محله الدنيا) .

والثاني : باعتبار ما يكون لها من الجزاء . (محله الآخرة) .

١٠- الحديث دليل على أن القرآن إما أن يكون حجة للإنسان أو حجة عليه .

يكون حجة للإنسان : إذا اتبع أوامره ، وانتهى عند نواهيه ، وعمل به وأقام حدوده .

ويكون حجة على الإنسان : إذا ترك أمره ، ووقع في نواهيه وأعرض عنه .

قال تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً) .

قال ابن مسعود : القرآن شافع ومشفع ، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره قاده إلى النار .

١١- التحذير من الإعراض عن القرآن .

١٢- أن كل إنسان إما ساعٍ في هلاك نفسه أو فكاكها .

فمن سعى في طاعة الله فقد باع نفسه لله ، وأعتقها من عذابه ، ومن سعى في معصية الله فقد باع نفسه بالهوان وأوبقها بالآثام الموجبة لغضب الله وعقابه .

قال الحسن : المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله .

وقال : ابن آدم ! إنك تغدو وتروح في طلب الأرباح ، فليكن همك نفسك ، فإنك لن تربح مثلها أبداً .

وقال أبو بكر بن عياش : قال لي رجل مرة وأنا شاب : خلّص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة ، فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبداً ، قال : فوالله ما نسيتها بعد .

وكان بعض السلف يبكي ويقول : ليس لي نفسان ، إنما لي نفس واحدة ، إذا ذهبت لم أجد أخرى .

١٣- الحث على مجاهدة النفس على العمل الصالح .

١٤- التحذير من الأعمال السيئة .

٢٦- **وعن أبي سَعيد سعدِ بن مالكِ بنِ سنانٍ الخدري رضي الله عنهما : أَنَّ نَاساً مِنَ الأَنْصَارِ سَألوا رسولَ الله ﷺ فَأعْطَاهُمْ ، ثُمَّ سَألوهُ فَأعْطَاهُمْ ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِندَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أنْفَقَ كُلَّ شَيءٍ بِيَدِهِ : (مَا يَكُنْ عِنْدي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفهُ اللهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ . وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) مُتَّفَقٌ عليه .**

(**وعن أبي سَعيد سعدِ بن مالكِ بنِ سنانٍ الخدري**) الأنصاري الخزرجي ، غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة ، أولها غزوة الخندق سنة خمس ، وكان قبلها صغيراً ، كان من علماء الأنصار مات سنة (٧٤) ودفن في البقيع .

(**أَنَّ نَاساً مِنَ الأَنْصَارِ سَألوا رسولَ الله ﷺ**) أي : شيئاً من المال .

(**فَأَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ سَألوهُ فَأَعْطَاهُمْ**) بتكرير السؤال والإعطاء مرتين .

(**حَتَّى نَفِدَ مَا عِندَهُ**) أي : انقطع .

(**مَا يَكُنْ عِنْدي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ**) أي : فلن أحبسه عنكم .

(**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ**) أي : من طلب العفة وتكلفها أعطاه الله إياه ، والاستعفاف : هو الكف عن الحرام ، والسؤال من الناس .

(**يُعِفهُ اللهُ**) أي : يرزقه الله العفة ، قال القرطبي : أي يجازه على استعفافه بصيانه وجهه ورفع فاقته .

(**وَمَنْ يَسْتَغْنِ**) أي : من يستغن بالله عمن سواه ، أو يُظهر الغنى بالاستغناء عن أموال الناس .

(**يُغْنِهِ اللهُ**) يرزقه الله غنى القلب .

(**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ**) أي : يتكلف في تحمل مشاق الصبر .

(**يُصَبِّرْهُ اللهُ**) أي : يعينه الله ويسهل عليه الصبر .

(**وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**) أي : الصبر من أفضل ما يعطاه أحد وأوسعه .

١- الحديث دليل على فضل الصبر ، وأنه من يتبصر ويجاهد نفسه على الصبر يصبره الله ويوفقه ويسهل عليه الصبر .

وعلى العبد أن يعرف الأسباب التي تعين على الصبر عن المعصية ، ذكرها ابن القيم وهي :

أحدها : علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها .

السبب الثاني : الحياء من الله عز وجل ، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه ، وأنه بمرأى منه ومسمع – وكان حياً حيياً – استحى من ربه أن يتعرض لمساخطه .

السبب الثالث : مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك .

السبب الرابع : خوف الله وخشية عقابه .

السبب الخامس : محبة الله سبحانه ، وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه .

السبب السادس : شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع قدرها .

السبب السابع : قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها .

السبب الثامن : قصر الأمل وعلمه بسرعة انتقاله .

السبب التاسع : مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس .

السبب العاشر : وهو الجامع لهذه الأسباب كلها : وهو ثبات شجرة الإيمان في القلب ، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه . (طريق الهجرتين) .

٢- الحديث دليل على أن أفضل ما أعطي العبد الصبر لقوله (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) .

قال ابن القيم : فإن هذا بعد نزول البلاء ، ليس للعبد أوسع من الصبر ، وأما قبله فالعافية أوسع له

وقال السعدي : وإنما كان الصبر أعظم العطايا ، لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته ، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر ،

فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله ، حتى يقوم بها ويؤديها ، وإلى صبر عن معصية الله حتى يتركها لله ، وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة ، فلا يتسخطها ، بل إلى صبر على نعم الله ومحبوبات النفس ، فلا يدع النفس تمرح وتفرح الفرح المذموم ، بل يشتغل بشكر الله ، فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر ، وبالصبر ينال الفلاح ، ولهذا ذكر الله أهل الجنة فقال (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ) (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) وكذلك قوله (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) .

فهم نالوا الجنة بنعيمها ، وأدركوا المنازل بالصبر ، ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذي لا يدري ما عاقبته ، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصبر ، فالعافية هي المطلوبة بالأصالة في أمور الابتلاء والامتحان ، والصبر يؤمر به عند وجود أسبابه ومتعلقاته ، والله هو المعين .

٣- الحديث دليل على فضل الاستعفاف عن الناس والاستغناء عنهم .

قال السعدي : هذا الحديث اشتمل على أربع جمل جامعة نافعة .

إحداها : قوله : (**ومن يستعفف يعفه الله**) .

والثانية : قوله : (**ومن يستغن يغنه الله**) .

وهاتان الجملتان متلازمتان ، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقاً به دون المخلوقين ، فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال ، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك ، حتى يكون عبداً لله حقاً حراً من رق المخلوقين ، وذلك بأن يجاهد نفسه على أمرين : انصرافها عن التعلق بالمخلوقين بالاستعفاف عما في أيديهم ، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله ، ولهذا قال ﷺ لعمر (ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشْرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك) فقطع الإشراف في القلب والسؤال باللسان، تعففاً وترفعاً عن من الخلق ، وعن تعلق القلب بهم ، سبب قوي لحصول العفة .

وتمام ذلك : أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني : وهو الاستغناء بالله والثقة بكفايته ، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه ، وهذا هو المقصود ، والأول وسيلة إلى هذا ، فإن من استعف عما في أيدي الناس وعما يناله منهم ، أوجب له ذلك أن يقوى تعلقه بالله ، ورجاؤه وطمعه في فضل الله وإحسانه ، ويحسن ظنه وثقته بربه ، والله تعالى عند حسن ظن عبده به ، إن ظن خيراً فله ، وإن ظن غيره فله ، وكل واحد من الأمرين يمد الآخر فيقويه ، فكلما قوي تعلقه بالله ضعف تعلقه بالمخلوقين وبالعكس .

ومن دعاء النبي ﷺ (اللهم إني أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى) فجمع الخير كله في هذا الدعاء ، فالهدى : هو العلم النافع ، والتقى : هو العمل الصالح ، وترك المحرمات كلها ، هذا صلاح الدين .

وتمام ذلك بصلاح القلب، وطمأنينته بالعفاف عن الخلق، والغنى بالله ، ومن كان غنياً بالله فهو الغني حقاً، وإن قلت حواصله ، فليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى القلب ، وبالعفاف والغنى يتم للعبد الحياة الطيبة ، والنعيم الدنيوي ، والقناعة بما آتاه الله.

وقال ابن تيمية :سبحانه أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه .

وقال ابن القيم : يستعين الإنسان على التجرد من الطمع والفزع ؟ بالتوحيد والتوكل والثقة بالله ، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، وأن الأمر كله لله ، ليس لأحد مع الله شيء

وقال ابن رجب : وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بالأمر بالاستعفاف عن مسألة الناس والاستغناء عنهم ، فمن سأل الناس ما بأيديهم كرهوه وأبغضوه ، لأن المال محبوب لنفوس بني آدم ، فمن طلب منهم ما يحبونه ، كرهوه لذلك .

وكان عمر يقول في خطبته : إن الطمع فقر ، وإن اليأس غنى ، وإن الإنسان إذا أيس من الشيء استغنى عنه .

وقال رحمه الله : وفي النَّهي عن مسألة المخلوقين أحاديثُ كثيرة صحيحة ، وقد بايع النبيُّ ﷺ جماعةً من أصحابه على أنْ لا

يسألوا النَّاسَ شيئاً، منهم : أبو بكر الصدِّيق ، وأبو ذر ، وثوبان ، وكان أحدهم يسقط سوطُه أو خِطام ناقته ، فلا يسأل أحداً أنْ يُناوله إياه .

واعلم أنَّ سؤالَ اللهِ تعالى دونَ خلقه هوَ المتعين ؛ لأنَّ السؤال فيهِ إظهار الذلِّ من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعترافُ بقدرةِ المسؤول على دفع هذا الضَّرر ، ونيل المطلوب ، وجلبِ المنافع ، ودرء المضارِّ ، ولا يصلح الذلُّ والافتقار إلاَّ لله وحدَه ؛ لأنَّه حقيقة العبادة ، وكان الإمامُ أحمد يدعو ويقول : اللهمَّ كما صُنتَ وجهي عَنِ السُّجود لغيرك فصُنْه عن المسألة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضرِّ وجلب النفع سواه . كما قال (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ) وقال (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) .

وقال ابن تيمية : سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد :

الأولى : مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي نوع من الشرك .

والثانية : مفسدة إيذاء المسؤول وهي نوع من ظلم الخلق .

والثالثة : فيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس ، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة .

- **من فضائل العفة :**

أولاً : أنّها من خصال أهل الإيمان:

قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ . والَذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِين) .

ثانياً : أنّها من أسباب الفوز بظلّ الله يوم القيامة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَال (سبعةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه) . متفق عليه

ثالثاً : أنّ أهل العفّة ينالون عون الله .

ففي سنن التّرمذي وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ (ثلاثةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُم : الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَاف) .

رابعاً : أن النبي ﷺ كان يدعو بها .

عن ابن مسعود قال (كان النبي ﷺ يدعو : اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم .

خامساً : أنّها من أسباب سعادة المرء .

كما قال بعض السّلف : والله للذّة العفّة أعظم من لذّة الذّنب .

وقال الغزالي : ولا معيشة أهنأ من العفّة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت .

قال حكيم : إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة ، وألزمه القناعة ، وأكساه العفاف .

عن وهب بن منبه أنّه قال: الإيمان عريان ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وماله العفّة .

وقال الحسن : لا تزالُ كريماً على الناس ما لم تَعاطَ ما في أيديهم، فإذا فعلتَ ذلك استخفُّوا بكَ، وكرهوا حديثك، وأبغضوك .

وقال أيوب السَّختياني : لا يَنْبُلُ الرجلُ حتى تكونَ فيه خصلتان: العفَّةُ عمَّا في أيدي الناس، والتجاوزُ عمّا يكون منهم .

وقال أعرابيٌّ لأهل البصرة: من سيِّدُ أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن. قال : بما سادهم؟ قالوا: احتاجَ الناسُ إلى علمه ، واستغنى هو عن دنياهم .

٥-كيفية السبيل إلى التعلق بالله والتعفف عن الناس :

أولاً : بالصبر ومجاهدة النفس .

لحديث الباب (ومن يستعفف يعفَّه الله ، ومن يستغن يغنِه الله) .

ثانياً : بالدعاء .

فقد كان النبي ﷺ يقول (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم .

قال ابن تيمية : وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه له ، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك ، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لهم متصرفاً بهم ، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد ، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها ، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها ، لا سيما إذا دَرَت بفقره إليها وعشقه لها وأنه لا يعتاض عنها بغيرها ، فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم ، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ، فإن من استعبد بدنه واسترق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص ، وأما إذا كان القلب -الذي هو الملك- رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب ، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات ، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك، وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان في الظاهر ملك الناس ، فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس .

وقال ابن القيم : أعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله ، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت .

وقال : الجاهل يشكو الله إلى الناس ، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه ، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم ، ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك، وفي ذلك قيل:

وإذا شكوت إلى ابن آدم ---- إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

٢٧-وعن أبي يحيى صهيب بن سنانٍ ﷺ ، قَالَ : قَالَ رسولُ الله ﷺ : ((عَجَباً لأمْرِ المُؤمنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خيرٌ ولَيسَ ذلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ للمُؤْمِن : إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيراً لَهُ ، وإنْ أصَابَتْهُ ضرَاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْراً لَهُ)) رواه مسلم .

(**وعن أبي يحيى صهيب بن سنان**) بن مالك أبو يحيى الرومي ، وإنما قيل له : الرومي ، لأن الروم سبوه صغيراً ، صحابي شهير ، مات بالمدينة سنة ٣٨ في خلافة علي ، وقيل قبل ذلك .

١-الحديث دليل على فضل الله تعالى على المؤمن ، حيث إن المؤمن إن أصابته ضراء فصبر فكان خيراً ، وإن أصابته سراء

فشكر كان خيراً.

وفي المسند عنه (والذي نفسي بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن) .

وفي لفظ (إن أمر المؤمن كله عجيب ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) .

وفي لفظ لأحمد (عجبتُ للمؤمن ، إن أصابه خير حمِد الله وشكر ، وإن أصابته مصيبةٌ حمِد الله وصبر ، فالمؤمن يُؤجرُ في كل أمرهِ ، حتى في اللقمةِ يرفعُها إلى فيّ امرأته) .

٢-إن المؤمن في هذه الدنيا دائر بين نعمة ومصيبة ، فالنعمة يقابلها بالشكر ، والمصيبة يقابلها بالصبر ، وهذا من أعظم علامات السعادة .

فالعبد لا ينفك عن هذه الأمور الثلاثة أبداً : إذا أذنب استغفر ، وإذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر .

قال ابن القيم : فإن هذه الثلاثة هي عنوان سعادة العبد ، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه ، ولا ينفك عبد عنها أبداً ، فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث .

الأولى : نعم من الله تعالى تترادف عليه فقيدها (الشكر) وهو مبني على ثلاثة أركان : الاعتراف بها باطناً ، والتحدث بها ظاهراً ، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها ، فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها .

الثانية : محن من الله تعالى يبتليه بها ففرضه فيها (الصبر) والتسلي ، والصبر حبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر ونحوه ، فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة ، واستحالت البلية عطية ، وصار المكروه محبوباً .

فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه ، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته ، فإن لله تعالى على العبد عبودية الضراء ، وله عبودية عليه فيما يكره كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى .

- **لماذا هذه هي عنوان السعادة ؟**

لأن الإنسان لا ينفك عن حال من هذه الحالات الثلاث .

إما أن يُعطَى ، وإما أن يبتلى ، وإما أن يذنب ويقع في الذنب . [فإن قام بوظيفة كل حالة فهو السعيد لأنه حقق عبودية الله فيها] .

لأن الإنسان إما أن يكون في نعمة ، فما هي وظيفة هذه النعمة ؟ ما هو واجبه تجاه نعم الله ؟

هو شكرها والقيام بشكرها .

وإما أن يقع بذنب – ولا يسلم أحد من الذنوب – فما هو الواجب على من وقع في ذنب ؟ الواجب عليه أن يستغفر ربه وأن يتوب وأن يعود إلى الله .

وإما أن يكون في محنة وبلية ومصيبة ؟ فما هو موقف المسلم إذا أصيب ببلاء أو مصيبة ؟ الصبر والاحتساب الأجر عند الله .

فلذلك صارت هذه الثلاث من أعظم أسباب السعادة .

لأنه حقق العبودية لربه على كل أحواله، وهكذا المؤمن حقاً، يسعى في رضا الله وتحقيق عبوديته على أي حالة يمر بها في حياته .

- وبما أن الشكر منزلته عظيمة ، فكيف نحقق الشكر ؟ نحققه بأمور :

أولاً : سؤال الله ذلك ، بأن يوفقنا لشكره والتضرع في ذلك .

كما قال تعالى عن سليمان (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ) .

وقد أوصى النبي ﷺ معاذ بن جبل أن يقول دبر كل صلاة (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

ثانياً : أن ينظر إلى من هو دونه في أمور الدنيا [ينظر للفقراء ومن هم أقل منه] فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله .

ولذلك قال ﷺ (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) متفق عليه

قال عون بن عبد الله :صحبتُ الأغنياء ، فلم أر أحداً أكبر هماً مني ، أرى دابة خيراً من دابتي ، وثوباً خيراً من ثوبي ، وصحبت الفقراء فاسترحت.

٣- إن من أعظم أسباب الإيمان بالقضاء والقدر اليقين بهذا الحديث .

قال ابن رجب : وممَّا يدعو المؤمن إلى الرِّضا بالقضاء تحقيقُ إيمانه بمعنى قول النَّبيِّ ﷺ (لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له : إنْ أصابته سرَّاء شكر ، كان خيراً له ، وإنْ أصابته ضرَّاء صبر ، كان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن) .

قال السعدي في كتابه : الوسائل المفيدة للحياة السعيدة :

ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع استعمال ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح حيث قال (انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل رآه يفوق جمعاً كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمه وغمه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية، رأى ربه قد أعطاه خيراً ودفع عنه شروراً متعددة، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور.

٢٨-وعن أنسٍ ﷺ ، قَالَ : لَمَّا ثَقُلَ النَّبيُّ ﷺ جَعلَ يَتَغَشَّاهُ الكَرْبُ ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها : وَاكَربَ أَبَتَاهُ . فقَالَ : ((لَيْسَ عَلَى أَبيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ)) فَلَمَّا مَاتَ ، قَالَتْ : يَا أَبَتَاهُ ، أَجَابَ رَبّاً دَعَاهُ ! يَا أَبَتَاهُ ، جَنَّةُ الفِردَوسِ مَأْوَاهُ ! يَا أَبَتَاهُ ، إِلَى جبْرِيلَ نَنْعَاهُ ! فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضي الله عنها : أَطَابَتْ أنْفُسُكُمْ أنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُول الله ﷺ التُّرَابَ ؟! رواه البخاري .

(**لَمَّا ثَقُلَ**) أي : من شدة المرض .

(**الكَرْب**) الشدة من سكرات الموت .

(**فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضي الله عنها : أَطَابَتْ أنْفُسُكُمْ أنْ تَحْثُوا** ...) أشارت رضي الله عنها إلى عتابهم على إقدامهم على ذلك ، لأنه يدل على خلاف ما عرفته منهم من رقة قلوبهم عليه لشدة محبتهم له ، وسكت أنس عن جوابها رعاية لها ولسان حاله يقول : لم تطب أنفسنا بذلك ، إلا أنا قهرناها على فعله امتثالاً لأمره ، وقد قال أبو سعيد فيما أخرجه البزار بسند جيد : وما نفضنا أيدينا حتى أنكرنا قلوبنا .

١- الحديث دليل على جواز التوجع للميت عند احتضاره ، وأنه ليس من النياحة ، لأن النبي ﷺ أقرها على ذلك .

٢- مصداق قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) .

٣- مصداق قوله ﷺ (أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلَى الرجلُ على حسب دينه ، فإن كان في دينهِ صلابةٌ زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقةٌ خفّف عنه) رواه الترمذي .

٢٩-وعن أبي زَيدٍ أُسَامَةَ بنِ زيدِ بنِ حارثةَ مَوْلَى رسولِ الله ﷺ وحِبِّه وابنِ حبِّه رضي اللهُ عنهما ، قَالَ : أَرْسَلَتْ بنْتُ النَّبيِّ

ﷺ إنَّ ابْنِي قَد احْتُضِرَ فَاشْهَدنَا ، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلامَ ، ويقُولُ : ((إنَّ لله مَا أخَذَ وَلَهُ مَا أعطَى وَكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِأجَلٍ مُسَمًّى فَلتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ)) فَأَرسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيهِ لَيَأتِينَّهَا . فقامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَزَيْدُ بْنُ ثابتٍ ، وَرِجَالٌ ﷺ ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُول الله ﷺ الصَّبِيُّ ، فَأَقْعَدَهُ في حِجْرِهِ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ ، فَفَاضَتْ عَينَاهُ فَقالَ سَعدٌ : يَا رسولَ الله ، مَا هَذَا ؟ فَقالَ : ((هذِهِ رَحمَةٌ جَعَلَها اللهُ تَعَالَى في قُلُوبِ عِبَادِهِ)) وفي رواية : ((فِي قُلُوبِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَإِنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحَمَاءَ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

وَمَعنَى ((تَقَعْقَعُ)) : تَتَحرَّكُ وتَضْطَرِبُ .

(**أُسَامَةَ بنِ زيدِ بنِ حارثةَ مَوْلَى رسولِ الله ﷺ**) الحبُّ بن الحب ، مولى رسول الله ﷺ ، استعمله رسول الله ﷺ على جيش فيه أبو بكر وعمر فلم ينفذ حتى توفي النبي ﷺ ، فبعثه أبو بكر إلى الشام ، واعتزل أسامة الفتن بعد قتل عثمان إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية عام ٥٤ هـ .

(**قَالَ : أَرْسَلَتْ بنْتُ النَّبِيِّ ﷺ**) هي زينب كما جاء في رواية عند ابن أبي شيبة .

(**إنَّ ابْنِي قَد احْتُضِرَ**) وفي رواية للبخاري (إن ابناً لي قبِضَ فأتنا) أي : فرب من أن يقبض ، أي : هو في حالة القبض ومعالجة الروح .

(**إنَّ لله مَا أخَذَ**) أي : إن هذا الذي أخذَ منكم له ، لا لكم ، فلم يأخذ إلا ما هو له ، فينبغي أن لا تجزعوا .

(**وَكُلُّ شَيءٍ**) أي : من الأخذ والإعطاء .

(**عِندَهُ بِأجَلٍ مُسَمًّى**) أي : مقدر بأجل معلوم .

(**وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ**) أي : تضطرب وتتحرك .

١-الحديث دليل على وجوب الصبر على المصائب .

قال ابن القيم مبيناً علاج المصيبة :

قَالَ تَعَالَى (وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ الّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) .

وَفِي " الْمُسْنَدِ " عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (مَا مِنْ أَحَدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللّهُمّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إلّا أَجَارَهُ اللّهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا)

وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ أَبْلَغِ عِلَاجِ الْمُصَابِ وَأَنْفَعِهِ لَهُ فِي عَاجِلَتِهِ وَآجِلَتِهِ فَإِنّهَا تَتَضَمّنُ أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ إذَا تَحَقّقَ الْعَبْدُ بِمَعْرِفَتِهِمَا تَسَلّى عَنْ مُصِيبَتِهِ :

أَحَدُهُمَا : أَنّ الْعَبْدَ وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ مِلْكٌ لِلّهِ عَزّ وَجَلّ حَقِيقَةً وَقَدْ جَعَلَهُ عِنْدَ الْعَبْدِ عَارِيَةً فَإِذَا أَخَذَهُ مِنْهُ فَهُوَ كَالْمُعِيرِ يَأْخُذُ مَتَاعَهُ مِنْ الْمُسْتَعِيرِ وَأَيْضًا فَإِنّهُ مَحْفُوفٌ بِعَدَمَيْنِ عَدَمٍ قَبْلَهُ وَعَدَمٍ بَعْدَهُ وَمِلْكُ الْعَبْدِ لَهُ مُتْعَةٌ مُعَارَةٌ فِي زَمَنٍ يَسِيرٍ وَأَيْضًا فَإِنّهُ لَيْسَ الّذِي أَوْجَدَهُ عَنْ عَدَمِهِ حَتّى يَكُونَ مِلْكُهُ حَقِيقَةً وَلَا هُوَ .

وَالثّانِي : أَنّ مَصِيرَ الْعَبْدِ وَمَرْجِعَهُ إلَى اللّهِ مَوْلَاهُ الْحَقّ وَلَا بُدّ أَنْ يُخَلّفَ الدّنْيَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَيَجِيءَ رَبّهُ فَرْدًا كَمَا خَلَقَهُ أَوّلَ مَرّةٍ بِلَا أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا عَشِيرَةٍ وَلَكِنْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسّيّئَاتِ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ بِدَايَةَ الْعَبْدِ وَمَا خُوّلَهُ وَنِهَايَتَهُ فَكَيْفَ يَفْرَحُ بِمَوْجُودٍ أَوْ يَأْسَى عَلَى مَفْقُودٍ فَفِكْرُهُ فِي مَبْدَئِهِ وَمَعَادِهِ مِنْ أَعْظَمِ عِلَاجِ هَذَا الدّاءِ .

وَمِنْ عِلَاجِهِ : أَنْ يَعْلَمَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ .

قال تَعَالَى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) .

وَمِنْ عِلَاجِهِ : أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا أُصِيبَ بِهِ فَيَجِدُ رَبّهُ قَدْ أَبْقَى عَلَيْهِ مِثْلَهُ أَوْ أَفْضَلَ مِنْهُ وَادّخَرَ لَهُ – إِنْ صَبَرَ وَرَضِيَ – مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ فَوَاتِ تِلْكَ الْمُصِيبَةِ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ وَأَنّهُ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهَا أَعْظَمَ مِمّا هِيَ .

وَمِنْ عِلَاجِهِ : أَنْ يُطْفِئَ نَارَ مُصِيبَتِهِ بِبَرْدِ التّأَسّي بِأَهْلِ الْمَصَائِبِ وَلِيَعْلَمَ أَنّهُ فِي كُلّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ، وَلْيَنْظُرْ يَمْنَةً فَهَلْ يَرَى إِلّا مِحْنَةً؟ ثُمّ لِيَعْطِفْ يَسْرَةً فَهَلْ يَرَى إِلّا حَسْرَةً ؟ وَأَنّهُ لَوْ فَتّشَ الْعَالَمَ لَمْ يَرَ فِيهِمْ إِلّا مُبْتَلًى إمّا بِفَوَاتِ مَحْبُوبٍ أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ ، وَأَنّ سُرُورَ الدّنْيَا أَحْلَامُ نُوّمٍ أَوْ كَظِلّ زَائِلٍ ، إِنْ أَضْحَكَتْ قَلِيلًا أَبْكَتْ كَثِيرًا ، وَإِنْ سَرّتْ يَوْمًا سَاءَتْ دَهْرًا ، وَإِنْ مَتّعَتْ قَلِيلًا خِيرَةً إِلّا مَلَأَتْهَا عَبْرَةً ، وَلَا سَرّتْهُ بِيَوْمِ سُرُورٍ إِلّا خَبّأَتْ لَهُ يَوْمَ شُرُورٍ .

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ لِكُلّ فَرْحَةٍ تِرْحَةٌ ، وَمَا مُلِئَ بَيْتٌ فَرَحًا إِلّا مُلِئَ تَرَحًا .

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ : مَا كَانَ ضَحِكٌ قَطّ إِلّا كَانَ مِنْ بَعْدِهِ بُكَاءٌ .

وَمِنْ عِلَاجِهَا : أَنْ يُعْلَمَ أَنّ الْجَزَعَ لَا يَرُدّهَا بَلْ يُضَاعِفُهَا وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ تَزَايُدِ الْمَرَضِ .

وَمِنْ عِلَاجِهَا : أَنْ يُعْلَمَ أَنّ فَوْتَ ثَوَابِ الصّبْرِ وَالتّسْلِيمَ وَهُوَ الصّلَاةُ وَالرّحْمَةُ وَالْهِدَايَةُ الّتِي ضَمِنَهَا اللهُ عَلَى الصّبْرِ وَالِاسْتِرْجَاعِ أَعْظَمُ مِنْ الْمُصِيبَةِ فِي الْحَقِيقَةِ .

وَمِنْ عِلَاجِهَا : أَنْ يُعْلَمَ أَنّ الْجَزَعَ يُشْمِتُ عَدُوّهُ وَيَسُوءُ صَدِيقَهُ وَيُغْضِبُ رَبّهُ وَيَسُرّ شَيْطَانَهُ وَيُحْبِطُ أَجْرَهُ وَيُضْعِفُ نَفْسَهُ وَإِذَا صَبَرَ وَاحْتَسَبَ أَنْضَى شَيْطَانَهُ وَرَدّهُ خَاسِئًا وَأَرْضَى رَبّهُ وَسَرّ صَدِيقَهُ وَسَاءَ عدوه .

وَمِنْ عِلَاجِهَا : أَنْ يَعْلَمَ أَنّ مَا يُعْقِبُهُ الصّبْرُ وَالِاحْتِسَابُ مِنْ اللّذّةِ وَالْمَسَرّةِ أَضْعَافُ مَا كَانَ يَحْصُلُ لَهُ بِبَقَاءِ مَا أُصِيبَ بِهِ لَوْ بَقِيَ عَلَيْهِ وَيَكْفِيهِ مِنْ ذَلِكَ بَيْتُ الْحَمْدِ الّذِي يُبْنَى لَهُ فِي الْجَنّةِ عَلَى حَمْدِهِ لِرَبّهِ وَاسْتِرْجَاعِهِ فَلْيَنْظُرْ أَيّ الْمُصِيبَتَيْنِ أَعْظَمُ ؟

وَمِنْ عِلَاجِهَا : أَنْ يُرَوّحَ قَلْبَهُ بِرُوحِ رَجَاءِ الْخَلَفِ مِنْ اللهِ ، فَإِنّهُ مِنْ كُلّ شَيْءٍ عِوَضٌ إِلّا اللهُ فَمَا مِنْهُ عِوَضٌ كَمَا قِيلَ : مِنْ كُلّ شَيْءٍ إِذَا ضَيّعْتَهُ عِوَضٌ وَمَا مِنْ اللهِ إِنْ ضَيّعْتَهُ عِوَضُ .

وَمِنْ عِلَاجِهَا : أَنْ يَعْلَمَ أَنّ حَظّهُ مِنْ الْمُصِيبَةِ مَا تُحْدِثُهُ لَهُ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرّضَى وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السّخْطُ فَحَظّك مِنْهَا مَا أَحْدَثَتْهُ لَك فَاخْتَرْ خَيْرَ الْحُظُوظِ أَوْ شَرّهَا .

وَمِنْ عِلَاجِهَا : أَنْ يَعْلَمَ أَنّهُ وَإِنْ بَلَغَ فِي الْجَزَعِ غَايَتَهُ فَآخِرُ أَمْرِهِ إِلَى صَبْرِ الِاضْطِرَارِ وَهُوَ غَيْرُ مَحْمُودٍ وَلَا مُثَابٍ .

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ :الْعَاقِلُ يَفْعَلُ فِي أَوّلِ يَوْمٍ مِنْ الْمُصِيبَةِ مَا يَفْعَلُهُ الْجَاهِلُ بَعْدَ أَيّامٍ وَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ صَبْرَ الْكِرَامِ سَلَا سَلْوَ الْبَهَائِمِ.

وَفِي " الصّحِيحِ مَرْفُوعًا (الصّبْرُ عِنْدَ الصّدْمَةِ الْأُولَى) .

وَقَالَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ : إنّك إنْ صَبَرْت إيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَإِلّا سَلَوْتَ سُلُوّ الْبَهَائِمِ .

وَمِنْ عِلَاجِهَا : أَنْ يَعْلَمَ أَنّ أَنْفَعَ الْأَدْوِيَةِ لَهُ مُوَافَقَةُ رَبّهِ وَإِلَهِهِ فِيمَا أَحَبّهُ وَرَضِيَهُ لَهُ ، وَأَنّ خَاصّيّةَ الْمَحَبّةِ وَسِرّهَا مُوَافَقَةُ الْمَحْبُوبِ، فَمَنْ ادّعَى مَحَبّةَ مَحْبُوبٍ ثُمّ سَخِطَ مَا يُحِبّهُ وَأَحَبّ مَا يَسْخَطُهُ فَقَدْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِكَذِبِهِ وَتَمَقّتَ إِلَى مَحْبُوبِهِ.

قَالَ أَبُو الدّرْدَاءِ : إنّ اللهَ إذَا قَضَى قَضَاءً أَحَبّ أَنْ يُرْضَى بِهِ .

وَمِنْ عِلَاجِهَا : أَنْ يَعْلَمَ أَنّ الّذِي ابْتَلَاهُ بِهَا أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ الرّاحِمِينَ ، وَأَنّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُرْسِلْ إِلَيْهِ الْبَلَاءَ لِيُهْلِكَهُ بِهِ، وَلَا لِيُعَذّبَهُ بِهِ ، وَلَا لِيَجْتَاحَهُ وَإِنّمَا افْتَقَدَهُ بِهِ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ وَرِضَاهُ عَنْهُ وَإِيمَانَهُ ، وَلِيَسْمَعَ تَضَرّعَهُ وَابْتِهَالَهُ .

وَمِنْ عِلَاجِهَا : أَنْ يَعْلَمَ أَنّهُ لَوْلَا مِحَنُ الدّنْيَا وَمَصَائِبُهَا لَأَصَابَ الْعَبْدَ – مِنْ أَدْوَاءِ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالْفَرْعَنَةِ وَقَسْوَةِ الْقَلْبِ – مَا هُوَ سَبَبُ هَلَاكِهِ عَاجِلًا وَآجِلًا ، فَمِنْ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرّاحِمِينَ أَنْ يَتَفَقّدَهُ فِي الْأَحْيَانِ بِأَنْوَاعٍ مِنْ أَدْوِيَةِ الْمَصَائِبِ تَكُونُ حَمِيّةً لَهُ مِنْ هَذِهِ

الْأَدْوَاءِ ، وَحِفْظًا لِصِحّةِ عُبُودِيّتِهِ ، وَاسْتِفْرَاغًا لِلْمَوَادّ الْفَاسِدَةِ الرّدِيئَةِ الْمُهْلِكَةِ مِنْهُ ، فَسُبْحَانَ مَنْ يَرْحَمُ بِبَلَائِهِ وَيَبْتَلِي بِنَعْمَائِهِ . (زاد المعاد) .

٢-الحديث دليل على جواز البكاء على الميت من غير نياحة ، وقد جاءت أدلة كثرة على الجواز :

أ-حديث الباب (فَأَقْعَدَهُ فِي حِجْرِهِ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) .

ب- وبكى لما ماتت ابنته :كما في حديث أنس قال (شهدتُ بنتاً للرسول ﷺ تدفن ، ورسول الله ﷺ جالس عند القبر ، فرأيت عينيه تدمعان) رواه البخاري .

ج-وبكى لما زار سعد بن عبادة : كما في حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ (اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَجَدَهُ فِي غَشِيَّةٍ فَقَالَ « أَقَدْ قَضَى » . قَالُوا لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَكَوْا فَقَالَ « أَلاَ تَسْمَعُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْبِ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ) متفق عليه .

د-وبكى لما مات ابنه إبراهيم: كما في حديث أنس قال (دخلنا مع النبي ﷺ على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يا رسول الله! فقال: يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى، فقال: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون) رواه البخاري .

هـ- ومنها : بكاؤه ﷺ لما نعى جعفر وأصحابه . متفق عليه.

بل ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى استحباب البكاء على الميت إذا كان رحمة له .

قال رحمه الله : ... لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب ، وذلك لا ينافي الرضا بخلاف البكاء عليه لفوات حظ فيه ، وبهذا يعرف معنى قول النبي ﷺ لما بكى على الميت وقال (هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ) فإن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت .

٣- الحديث دليل على استحباب التعزية بقول (إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ) .

قال النووي : وهذا الحديث أحسن ما يعزى به .

ومنها : (اتقي الله واصبري) متفق عليه.

ومنها : (اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين ، وأخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره ونور له فيه) رواه مسلم.

وإن قال : عظم الله أجركم ، أو أحسن الله مصابكم ، فكله جائز .

٤- مشروعية استحضار أهل الفضل والصلاح عند المحتضر ليدعو له .

٥- مشروعية إبرار المقسم .

٦- تقديم السلام على الكلام .

٧- الترغيب في الشفقة على خلق الله والرحمة بهم .

٨- أن الجزاء من جنس العمل .

وهذه قاعدة جليلة عظيمة ، أدلتها من الكتاب والسنة كثيرة :

قال تعالى (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) .

وقال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) .

وقال تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) .

وقال ﷺ (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (احفظ الله يحفظك) .

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد .

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه .

وقال ﷺ (من وصل صفاً وصله الله) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (من كان له وجهان في الدنيا ، كان له لسانان من نار يوم القيامة) رواه أبو داود .

٣٠-وعن صهيب رضي الله عنه : أنَّ رسولَ الله ﷺ ، قَالَ : « كَانَ مَلِكٌ فيمَنْ كَانَ قَبلَكمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ للمَلِكِ : إنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إلَيَّ غُلاماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ ؛ فَبَعثَ إلَيْهِ غُلاماً يُعَلِّمُهُ ، وَكانَ في طريقِهِ إذَا سَلَكَ رَاهِبٌ ، فَقعدَ إلَيْه وسَمِعَ كَلامَهُ فَأعْجَبَهُ ، وَكانَ إذَا أتَى السَّاحِرَ، مَرَّ بالرَّاهبِ وَقَعَدَ إلَيْه، فَإذَا أتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ ، فَشَكَا ذلِكَ إلَى الرَّاهِب، فَقَالَ : إذَا خَشيتَ السَّاحِرَ ، فَقُلْ : حَبَسَنِي أَهْلِي ، وَإذَا خَشِيتَ أهلَكَ ، فَقُلْ : حَبَسَنِي السَّاحِرُ .

فَبَيْنَما هُوَ عَلَى ذلِكَ إذْ أتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ ، فَقَالَ : اليَوْمَ أعْلَمُ السَّاحرُ أفْضَلُ أم الرَّاهبُ أفْضَلُ ؟ فَأخَذَ حَجَراً، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إنْ كَانَ أمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إلَيْكَ مِنْ أمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِهِ الدّابَّةَ حَتَّى يَمضِي النَّاسُ ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَها ومَضَى النَّاسُ ، فَأتَى الرَّاهبَ فَأخبَرَهُ . فَقَالَ لَهُ الرَّاهبُ : أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليَومَ أفْضَل منِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى ، وَإنَّكَ سَتُبْتَلَى ، فَإن ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ ؛ وَكَانَ الغُلامُ يُبْرِىءُ الأكْمَهَ وَالأَبْرصَ ، ويداوي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاء .

فَسَمِعَ جَليسٌ لِلملِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ ، فأتاه بَهَدَايا كَثيرَةٍ ، فَقَالَ : مَا ها هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إنْ أنتَ شَفَيتَنِي ، فَقَالَ : إنِّي لا أشْفِي أحَداً إنَّمَا يَشفِي اللهُ تَعَالَى ، فَإنْ آمَنْتَ باللهِ تَعَالَى دَعَوتُ اللهَ فَشفَاكَ ، فَآمَنَ باللهِ تَعَالَى فَشفَاهُ اللهُ تَعَالَى ، فَأَتَى المَلِكَ فَجَلسَ إلَيْهِ كَما كَانَ يَجلِسُ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : مَنْ رَدّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ قَالَ: رَبِّي ، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيري ؟ قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلامِ ، فَجيء بالغُلاَمِ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : أيْ بُنَيَّ ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِىء الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وتَفْعَلُ وتَفْعَلُ ! فَقَالَ : إنِّي لا أَشْفي أحَداً ، إنَّمَا يَشفِي الله تَعَالَى . فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهبِ ؛ فَجِيء بالرَّاهبِ فَقيلَ لَهُ : ارجِعْ عَنْ دِينكَ ، فَأَبَى ، فَدَعَا بِالمِنْشَارِ فَوُضِعَ المِنْشَارُ في مَفْرق رَأسِهِ ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِجَليسِ المَلِكِ فقيل لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى ، فَوضِعَ المِنْشَارُ في مَفْرِق رَأسِهِ ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بالغُلاَمِ فقيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينكَ ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إلَى نَفرٍ مِنْ أصْحَابِهِ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ إلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الجَبَل ، فَإذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإلاَّ فَاطْرَحُوهُ . فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ أكْفنيهمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبلُ فَسَقَطُوا، وَجاءَ يَمشي إلَى المَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهمُ الله تَعَالَى ، فَدَفَعَهُ إلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ فاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ وتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ ، فَإنْ رَجعَ عَنْ دِينِهِ وإلاَّ فَاقْذِفُوهُ . فَذَهَبُوا بِهِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ أكْفِنيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفينةُ فَغرِقُوا ، وَجَاء يَمْشي إلَى المَلِكِ . فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : مَا فعلَ أصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانيهمُ الله تَعَالَى . فَقَالَ لِلمَلِكِ : إنَّكَ لَسْتَ بقَاتلي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ

. قَالَ : مَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي ، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ ثُمَّ قُلْ : بسْمِ اللهِ ربِّ الغُلاَمِ ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذلِكَ قَتَلتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيد واحدٍ ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ ، ثُمَّ قَالَ : بِسمِ اللهِ ربِّ الغُلامِ ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوقَعَ فِي صُدْغِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فَمَاتَ ، فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ ، فَأُتِيَ المَلِكُ فقيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ واللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ . قَدْ آمَنَ النَّاسُ . فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ بأفْواهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وأُضْرِمَ فيهَا النِّيرانُ وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَقْحموهُ فيهَا ، أَوْ قيلَ لَهُ: اقتَحِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءت امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أنْ تَقَعَ فيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلامُ: يَا أُمهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ !)) رواه مسلم .

(**ذِروَةُ الجَبَلِ**) أعْلاهُ، وَهِيَ – بكَسْر الذَّال المعْجَمَة وَضَمِّهَا – و(**القُرْقُورُ**) بضَمّ القَافَيْنِ نَوعٌ مِنَ السُّفُن وَ(**الصَّعِيدُ**) هُنَا: الأَرضُ البَارِزَةُ وَ(**الأُخْدُودُ**) الشُّقُوقُ في الأَرضِ كَالنَّهْرِ الصَّغير ، وَ(**أُضْرِمَ**) : أوْقدَ ، وَ(**انْكَفَأتْ**) أَي : انْقَلَبَتْ ، وَ(**تَقَاعَسَتْ**) : تَوَقفت وجبنت .

(**رَاهِب**) هو المتعبد من النصارى .

(**حَبَسَنِي**) أي : منعني أهلي .

(**الأَكْمَة**) من ولد أعمى .

(**فِي صُدْغِهِ**) بضم الصاد وسكون الدال ، وهو ما بين العين إلى شحمة أذنه .

١- الحديث دليل على شدة عداوة الكفار للمؤمنين، والسعي في صدهم عن دينهم، فإن الناس لما آمنوا فتنهم الكفار حتى يرجعوا عن دينهم.

كما قال تعالى (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا) .

وقال تعالى (وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) .

وقال تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) .

٢-الحديث دليل على عزة المؤمنين، وثباتهم على دينهم، وصبرهم على الابتلاء، وقد أثنى الله عليهم، وخلد ذكرهم في سورة البروج .

٣-الحديث دليل على خطر دعاة الضلالة على الناس، وسعيهم في نشر الفساد بينهم، كما تجلى ذلك في حرص الساحر على بقاء علمه، مع ما في السحر من المحادة لأمر الله تعالى، والشر والضرر على الناس.

٤-رحمة الله تعالى بعباده، حيث هيأ للغلام ذلك الراهب المؤمن، الذي كان على الدين الصحيح في ذلك الوقت – دين عيسى عليه السلام غير المحرف – فتعلم من الدين الحق، وسلم من فتنة الساحر وغوايته.

٥- لزوم توجيه الناس إلى خالقهم، وأن يغرس في نفوسهم أن النفع والضر هو بيد الله تعالى وحده دون من سواه، فلا يجوز أن تتعلق القلوب بغيره، ولذا لما سأل جليس الملك الأعمى الغلامَ أن يشفيه، قال الغلام: (إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ, فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ)، فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ.

٦-جَوَاز الْكَذِب فِي الْحَرْب وَنَحْوهَا, وَفِي إِنْقَاذ النَّفْس مِن الْهَلَاك, سَوَاء نَفْسه أَوْ نَفْس غَيْره مِمَّنْ لَهُ حُرْمَة.

٧-أن الغلام أمر بقتل نفسه لأجل مصلحة ظهور الدين، ولهذا جوز الأئمة الأربعة أن يغمس المسلم في صف الكفار وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين .

٨-تواضع العالم لتلميذه، وثناؤه عليه إذا استحق ذلك، ولكن بالقدر المناسب الذي يحفزه على النشاط في أمره، ولا يوقعه في

الاغترار بما هو عليه .

٩- اقتضت سنة الله تعالى في عباده أن يبتليهم ويمتحنهم ليتميز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق .

قال الله تعالى (أَلم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين) .

وقال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيب) .

١٠-صدق الالتجاء إلى الله تعالى، بدعائه، والثقة بالإجابة، وذلك عندما قال الغلام (اللهم اكفنيهم بما شئت) فاستجاب الله له، ونجاه منهم .

١١-الإصرار على الدعوة، والحرص على إظهار الحق، وتبليغه للناس، ومقاومة الباطل.

١٢- أن الحق ينتصر ويعلو، ويعتنقه الناس إذا اجتهد الداعون إليه في بيانه، وضحوا في سبيله .

١٣-أن من صور النصر العظيمة انتصار الإيمان، بالثبات عليه، والموت في سبيله؛ لأن العاقبة هي الفوز برضاء الله تعالى وجنته.

١٤-تثبيت الله تعالى للمؤمنين، كما جرى للمرأة التي أرادت أن ترجع فأنطق الله تعالى صبيها، وقال: اصبري يا أماه، فإنك على الحق .

١٥-عدم المساومة على قضية الإيمان، ولو كان الثمن هو النفس والنفيس، فالراهب وجليس الملك لم يرجعا عن دينهما ولو شُق كل واحد منهما إلى شقين .

١٦-إثبات كرامة الأولياء، وهي الخوارق التي يؤيد الله تعالى بها عباده الصالحين المتمسكين بالحق.

١٧- الشدائد والمحن تصقل الإنسان ، فيعرف بها شديد الإيمان .

١٨- الابتلاء سنة ربانية لا تتخلف أبداً .

١٩-ينبغي للعبد أن لا يعرض نفسه للإبتلاء والمحن ، فالراهب طلب منه ألا يدل عليه، فلما ابتلي صبر حتى نشر بالمنشار.

٢٠-إثبات الكرامة للأولياء ، وليست بلازمة لكل ولي .

٢١-المعركة بين المؤمنين وأعدائهم أساسها حرب عقيدة .

٢٢-إيثار انتشار الدعوة إلى الله تعالى على الحياة الدنيا .

٢٣- على الدعاة أن يعملوا على خدمة الناس ومساعدتهم ، فقد كان الهدف من قتل الدابة حل مشكلة الناس .

٢٤- الشجاعة : الوصول إلى المراد وإن قُتلت .

٣١-وعن أنس ﷺ ، قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بامرأةٍ تَبكي عِنْدَ قَبْرٍ ، فَقَالَ : « اتّقِي الله واصْبِري » فَقَالَتْ : إِلَيْكَ عَنِّي ؛ فإِنَّكَ لم تُصَبْ بمُصِيبَتِي وَلَمْ تَعرِفْهُ ، فَقيلَ لَهَا : إِنَّه النَّبِيُّ ﷺ فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابينَ ، فقالتْ : لَمْ أَعْرِفكَ ، فَقَالَ : « إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولى » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

وفي رواية لمسلم : « تبكي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا » .

(**مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بامرأةٍ**) لا يعرف اسمها .

(**تَبكي عِنْدَ قَبْرٍ**) في رواية (على صبي لها) أي : لأجل موت ولدها الصغير .

(**فَقَالَ : اتّقِي الله**) كأن في بكائها قدر زائد من نوح أو غيره .

(**فَقَالَتْ**) جاهلة بمن يخاطبها .

(**فَقيلَ لَهَا**) وفي رواية (فلما ذهب قيل لها) .

(**إنَّه النَّبيُّ ﷺ**) وفي رواية مسلم (فأخذها مثْل الموت) خجلاً منه ﷺ ومهابة .

(**فَأَتَتْ بَابَ النَّبيّ ﷺ**) للاعتذار .

(**إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولى**) أي : الصبر الكامل .

١- الحديث دليل على وجوب الصبر على أقدار الله المؤلمة ، وأن ذلك من التقوى .

وقد تقدم تعريف الصبر : هو حبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية ، كاللطم ، وشق الثياب ، ونتف الشعر ونحو ذلك .

قال شيخ الإسلام : والصبر واجب باتفاق العلماء .

وقال ابن القيم : والصبر واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر .

٢- الإنسان تجاه المصيبة له أحوال :

الأول : الصبر .

وهذا واجب .

الثاني : الرضا .

وهو أعلى من الصبر ، وهو أن يكون الأمران عنده سواء .

وهذا مستحب لا واجب على القول الصحيح .

الثالث : الشكر .

وهو أعلى المراتب ، وهو أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة .

الرابع : التسخط .

وهو إما أن يكون بالقلب ، كأن يسخط على ربه ويغضب على ما قدر الله له ، وقد يكون باللسان ، كالدعاء بالويل والثبور .

قال ابن القيم : والمصائب التي تحل بالعبد، وليس له حيلة في دفعها، كموت من يعزُّ عليه، وسرقة ماله، ومرضه، ونحو ذلك، فإن للعبد فيها أربع مقامات :

أحدها : مقام العجز، وهو مقام الجزع والشكوى والسخط، وهذا ما لا يفعله إلا أقل الناس عقلاً وديناً ومروءة.

المقام الثاني : مقام الصبر إما لله ، وإما للمروءة الإنسانية.

المقام الثالث : مقام الرضى ، وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر متفق على وجوبه.

المقام الرابع : مقام الشكر، وهو أعلى من مقام الرضى؛ فإنه يشهدُ البليةَ نعمة، فيشكر المبْتَلي عليها .

٣- الحديث دليل على أن أكمل الصبر وأفضله عند الصدمة الأولى .

قال الحافظ ابن حجر عند قوله ﷺ (إنّما الصبر عند الصّدمَة الأولى) .

المعنى إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع، فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتَب عليه الأَجر .

قال الخطابي : المعنى أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأَة المصيبة, بخلاف ما بعد ذلك فإنه مع الأيام يسلو.

وقال ابن القيم : قوله ﷺ (الصبر عند الصدمة الأولى) مثل قوله ﷺ (ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه وقت الغضب) فإن مفاجئات المصيبة بغتة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمها ، فإن صبر الصدمة الأولى انكسر حدها وضعفت قوتها ، فهان عليه استدامة الصبر ، وأيضاً فإن المصيبة ترد على القلب وهو غير موطن لها فتزعجه وهى الصدمة الأولى ، وأما إذا وردت عليه بعد ذلك توطن لها وعلم أنه لا بد له منها فيصير صبره شبيه الاضطرار ، وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجدي عليها شيئاً ، جاءت تعتذر إلى النبي ﷺ كأنها تقول له قد صبرت ، فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى .

٤- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وان سُكر المصيبة وشدتها لا يسقطه عن الآمر الناهى .

٥- تكرار الأمر والنهى مرة بعد مرة حتى يعذر المرء إلى ربه .

٦- في الحديث الاعتذار إلى أهل الفضل إذا أساء الإنسان أدبه معهم .

٧- وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع .

٨- وأنه ينبغي للإمام والقاضي إذا لم يحتج إلى بوّاب أن لا يتخذه .

٩- استدل بالحديث على جواز زيارة النساء للقبور ، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة .

القول الأول : أنها حرام .

وهذا اختيار ابن تيمية وتلميذه ابن القيم .

أ- لحديث أبي هريرة (أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور) رواه الترمذي .

ب-ولحديث ابن عباس قال (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور) رواه الترمذي .

ج-ولحديث حسان بن ثابت قال (لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور) رواه ابن ماجه .

د- وعن عبد الله بن عمرو قال (بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ بصر بامرأة لا نظن أنه عرفها ، فلما توسط الطريق وقف حتى انتهت إليه ، فإذا فاطمة بنت رسول الله ﷺ قال لها : ما أخرجكِ من بيتك يا فاطمة ؟ قالت : أتيت أهل هذا البيت فترحمت إليهم وعزيتهم بميتهم ، فقال : لعلك بلغت معهم الكدى ؟ قالت : معاذ الله أن أكون بلغتها وقد سمعتك تذكر في ذلك ما تذكر ؟ فقال : لو بلغتها معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك) رواه أبو داود ، والكدى: هي القبور هكذا فسرها بعض الرواة .

وهذا الحديث يدل دلالة صريحة على أن المرأة لا يجوز لها أن تخرج إلى القبور ، وقد كان ذلك مستقراً عند الصحابة ، يدل عليه قول فاطمة : معاذ الله أن أكون بلغتها وقد سمعتك تذكر في ذلك ما تذكر ، تعني من النهي عن ذلك .

القول الثاني : إباحة زيارة النساء للقبور .

وهذا مذهب الجمهور .

قال النووي : بالجواز قطع الجمهور .

أ- لحديث أنس قال : (أتى النبي ﷺ على امرأة تبكي عند قبر ، فقال لها : اتقي الله واصبري ...) .

قال الحافظ : وموضع الدلالة من الحديث أنه ﷺ لم ينكر على المرأة قعودها عند القبر ، وتقريره حجة .

ب- ولحديث بريدة (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) .

وجه الدلالة : أن الخطاب عام ، فيدخل فيه النساء .

قال الحافظ :هو قول الأكثر ، ومحله إذا أمنت الفتنة .

ج-وبحديث عائشة الطويل ، وفيه (قالت :كيف أقول لهم يا رسول الله ؟ قال : قولي : السلام على أهل الديار من المؤمنين ...) . رواه مسلم

قالوا : وتعليم النبي ﷺ لعائشة هذا الدعاء يدل على جواز زيارة المقابر للنساء .

القول الثالث : أنه مكروه .

وهذا مذهب الحنابلة .

لحديث أم عطية (نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا) .

قالوا : والزيارة من جنس الاتباع ، فيكون كلاهما مكروهاً غير محرم .

والراجح القول الأول .

وأما الإجابة عن أدلة من قال بالإباحة :

أما حديث أنس أن النبي ﷺ مرّ بامرأة تبكي عند قبر فقال : اتقي الله واصبري ...) **فيجاب عنه :**

أ-أن النبي ﷺ لم يقرّ المرأة على فعلها ، بل أمرها بتقوى الله التي هي فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، ومن جملتها النهي عن زيارة القبور ، ففي هذا إنكار قعودها عند القبر ، وإذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال .

قال ابن القيم : احتج به على جواز زيارة النساء للقبور ، فإنه ﷺ لم ينكر عليها الزيارة وإنما أمرها بالصبر ، ولو كانت حراماً لبيّن لها حكمها ، وأجيب عن هذا بأنه ﷺ قد أمرها بتقوى الله والصبر ، وهذا إنكار منه لحالها من الزيارة والبكاء .

ب-أن هذه القضية لا يعلم هل كانت قبل أحاديث المنع من زيارة النساء للقبور أو لا ؟ وهي إما أن تكون دالة على الجواز فلا دلالة على تأخرها عن أحاديث اللمنع ، أو تكون دالة على المنع بأمرها بتقوى الله فلا دلالة فيها ، وعلى الجواز على التقديرين لا تعارض أحاديث المنع ، ولا يمكن دعوى نسخها بها .

أما قول النبي ﷺ : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) **فيجاب عنه :**

أنه خطاب للرجال دون النساء ، فإن اللفظ لفظ مذكر وهو مختص بالذكور بأصل الوضع فلا يدخل فيه النساء ، وهذا هو المذهب الصحيح المختار في الأصول .

وعلى هذا فالإذن لا يتناول النساء فلا يدخلن في الحكم الناسخ .

أن الخطاب إن كان متناولاً للنساء بطريق التبع والتغليب ، **فإن للعلماء في ذلك قولين :**

قيل : إن ذلك يحتاج إلى دليل منفصل ، وحينئذٍ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل ، **وقيل** : إنه يحمل على ذلك عند الإطلاق ، وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم ضعيف ، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة المستفيضة في نهي النساء عن زيارة القبور ، بل ولا ينسخها عند جمهور العلماء ، حتى ولو علم تأخر العام وتقدم الخاص ، فكيف إذا لم يعرف أن هذا العام بعد الخاص إذ قد يكون نهي النساء عن زيارة القبور بعد الإذن للرجال في زيارة القبور ، بل هذا هو الأقرب .

أما حديث عائشة : (قولي : السلام على أهل الديار ...) **فيجاب عنه :**

أ-بأن الحديث لا دلالة فيه على جواز زيارة القبور للنساء ، لأن الحديث إنما سيق لتعليم السلام على أهل القبور دون إباحة الزيارة للنساء ، وقد تمر المرأة على أهل القبور في مسير لها من غير قصد الزيارة فتحتاج إلى التسليم عليهم ، فلا يلزم من تعليمه لهن إباحة الزيارة قصداً .

ب–أن هذا التعليم من النبي ﷺ لعائشة يحتمل أن يكون قبل النهي الأكيد والوعيد الشديد لزوّارات القبور .

بما أجاب بعض العلماء (القائلون بعدم التحريم) عن حديث (لعن زائرات القبور) ؟

أن اللعن إنما هو للمكثرات من الزيارة بدلالة قوله (زوّارات) ، وهذا لا يتناول الزائرة من غير إكثار للزيارة .

قال القرطبي : هذا اللعن إنما هو للمكثرات من الزيارة لما تقتضيه الصفة من المبالغة ، ولعل السبب ما يفضي إليه ذلك من تضييع حق الزوج والتبرج ، وما ينشأ منهن من الصياح ونحو ذلك .

وقال الشوكاني بعد سياق كلام القرطبي : وهذا الكلام هو الذي ينبغي اعتماده في الجمع بين أحاديث الباب المتعارضة في الظاهر .

لكن يجاب عن هذا :

أولاً : أنه قد ورد في حديث ابن عباس لفظ (زائرات) ، وفي هذا اللفظ زيادة علم ، حيث إنه يصدق على الزائرة مرة واحدة فيؤخذ به .

ثانياً : أن لفظ (الزوّارات) قد يكون لتعددهن ، كما يقال : فتحت الأبواب ، إذا لكل باب فتح يخصه .

وأجابوا أيضاً :

أن هذه الأحاديث التي فيها لعن زوارات القبور محمولة على ما إذا كانت زيارتهن لتجديد الحزن والتعديد والبكاء والنوح ، وأما إذا كانت الزيارة للاعتبار من غير نوح ولا تعديد فلا يحرم عليهن ذلك .

لكن يجاب عن هذا :

أولاً : أن هذا التأويل أو الحمل للحديث لا دليل عليه .

ثانياً : أن زيارة النساء إذا كانت مظنة وسبباً للأمور المحرمة – والحكمة هنا غير مضبوطة – فإنه لا يمكن أن يحد المقدار الذي يفضي إلى ذلك ، ولا التمييز بين نوع ونوع ، ومن أصول الشريعة ، أن الحكمة إذا كانت خفية ، أو غير منتشرة ، علق الحكم بمظنتها فيحرم هذا الباب سداً للذريعة .

وأجابوا أيضاً : بأن هذه الأحاديث ضعيفة الإسناد .

ويجاب عن هذا :

أولاً : أن كل من تُكلّم فيه من رجال الإسناد قد عدّله طائفة من العلماء ، وإذا كان الجارح والمعدل من الأئمة ، لم يقبل الجرح إلا مفسراً ، فيكون التعديل مقدماً على الجرح المطلق .

ثانياً : أن حَدِيثَ مِثْلِ هَؤُلَاءِ يَدْخُلُ فِي الْحَسَنِ الَّذِي يَحْتَجُّ بِهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ فَإِذَا صَحَّحَهُ مَنْ صَحَّحَهُ كَالتِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنْ الْجَرْحِ إلَّا مَا ذُكِرَ كَانَ أَقَلَّ أَحْوَالِهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْحَسَنِ .

ثالثاً : أَنْ يُقَالَ قَدْ رُوِيَ مِنْ وَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: أَحَدُهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْآخَرُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَرِجَالُ هَذَا لَيْسَ رِجَالَ هَذَا فَلَمْ يَأْخُذْهُ أَحَدُهُمَا عَنْ الْآخَرِ وَلَيْسَ فِي الْإِسْنَادَيْنِ مَنْ يُتَّهَمُ بِالْكَذِبِ وَإِنَّمَا التَّضْعِيفُ مِنْ جِهَةِ سُوءِ الْحِفْظِ وَمِثْلُ هَذَا حُجَّةٌ بِلَا رَيْبٍ.

٣٢–وعن أبي هريرة ﷺ : أنَّ رسولَ الله ﷺ ، قَالَ : ((يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : مَا لعَبدِي المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلاَّ الجَنَّةَ)) رواه البخاري .

(**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى**) هذا يسمى عند العلماء حديث قدسي .

إِ(**ذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ**) هو الحبيب المصافي كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان ، والمراد بالقبض قبض روحه وهو الموت .

(**ثُمَّ احْتَسَبَهُ**) أي : صبر على فقده راجياً الأجر من الله على ذلك ، والاحتساب طلب الأجر من الله خالصاً .

١- الحديث دليل على فضل من صبر واحتسب على فقد من يحبه .

٢- الحديث دليل على فضل الصبر وأن جزاءه دخول الجنة .

٣- لو تأملنا في الأحاديث السابقة لوجدنا التركيز على قضية مهمة وهي قضية الاحتساب في الصبر ، وذلك لأن يقين الإنسان بحسن الجزاء ، وعظم الأجر عند الله ، يخفف مرارة المصيبة على النفس ، ويهون وقعها على القلب ، وكلما قوي اليقين ضعف الإحساس بألم المصيبة ، حتى تتحول لدى النفس من المكاره إلى المحابِّ .

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه قوله : ما أصبت ببلاء إلا كان لله عليَّ فيه أربع نعم : أنه لم يكن في ديني ، وأنه لم يكن أكبر منه ، وأني لم أحرم الرضا به ، وأني أرجو الثواب عليه .

فجعل انتظار الثواب على البلاء من أسباب تخفيفه ، ونقله من دائرة المصائب التي توجب الصبر إلى دائرة النعم التي تستحق الشكر .

وكان نبينا ﷺ يسأل الله اليقين الذي تهون معه المصائب، فقلما كان يقوم من مجلس إلا ويدعو بهؤلاء الدعوات (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا) .

وإذا كانت مقادير الله نافذة على العبد رضي أم سخط ، صبر أم جزع ، فإن العاقل ينبغي أن يصبر ويحتسب ويرضى بقضاء الله حتى لا يحرم الأجر والمثوبة ، وإلا جرى عليه المقدور وهو كاره .

قال علي رضي الله عنه : إنك إن صبرت إيماناً واحتساباً ، وإلا سلوت سلو البهائم .

وعزَّى رجلاً في ابن له مات ، فقال : يا أبا فلان إنك إن صبرت نفذت فيك المقادير ، ولك الأجر ، وإن جزعت نفذت فيك المقادير ، وعليك الوزر .

٣٣-وعن عائشةَ رضيَ الله عنها: أَنَّهَا سَأَلَتْ رسولَ الله ﷺ عَنِ الطّاعُونِ، فَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ كَانَ عَذَاباً يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يشَاءُ ، فَجَعَلَهُ اللهُ تعالى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنينَ ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُونِ فيمكثُ في بلدِهِ صَابراً مُحْتَسِباً يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يصيبُهُ إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أجْرِ الشّهيدِ . رواه البخاري .

(**الطّاعُونِ**) قيل : إنه وباء معين ، وقيل : إنه وباء عام يحل بالأرض فيصيب أهلها ويموت الناس منه مثل الكوليرا .

١- الحديث دليل على فضل الصبر والاحتساب لمن يقع في الطاعون ، وأنه يكون شهيداً إذا مات .

وقد جاء في الحديث :

عن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: المطْعُونُ وَالمبْطُونُ، وَالغَرِيقُ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ الله) متفقٌ عَلَيْهِ .

وعنه قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ (مَا تَعُدُّونَ الشُّهَدَاءَ فِيكُم ؟) قالوا : يَا رسولَ اللهِ ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ . قَالَ : إنَّ شهَدَاءَ أُمَّتِي إِذاً لَقَليلٌ)) ! قالوا: فَمَنْ هُمْ يَا رسول الله ؟ قَالَ : ((مَنْ قُتِلَ فِي سَبيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي البَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَالغَرِيقُ شَهِيدٌ) رواه مسلم .

وعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ) رواه مسلم .

قال النووي : المطعون هو الذي يموت في الطاعون ، والمبطون هو صاحب داء البطن ، وصاحب الهدم من يموت تحته (أي تحت الهدم والأنقاض) ، ومن مات في سبيل الله معناه بأي صفة مات ، قال العلماء : وإنما كانت هذه الموتات شهادة بتفضل الله تعالى

بسبب شدتها وكثرة ألمها ، قال العلماء : المراد بشهادة هؤلاء كلهم غير المقتول في سبيل الله أنَّهم يكون لهم في الآخرة ثواب الشهداء وأما في الدنيا فيغسلون ويصلى عليهم .

وقال رحمه الله : اعلم أن الشهيد ثلاثة أقسام :

أحدها : المقتول في حرب الكفار بسبب من أسباب القتال .

فهذا له حكم الشهداء في ثواب الآخرة وفى أحكام الدنيا ، وهو أنه لا يغسل ولا يصلى عليه .

والثاني : شهيد في الثواب دون أحكام الدنيا .

وهو المبطون ، والمطعون ، وصاحب الهدم ، ومن قتل دون ماله وغيرهم ممن جاءت الأحاديث الصحيحة بتسميته شهيدا ، فهذا يغسل ويصلى عليه وله في الآخرة ثواب الشهداء ولا يلزم أن يكون مثل ثواب الأول .

والثالث : من غل في الغنيمة وشبهه ممن وردت الآثار بنفي تسميته شهيداً إذا قتل في حرب الكفار ، فهذا له حكم الشهداء فى الدنيا فلا يغسل ولا يصلى عليه وليس له ثوابهم الكامل في الآخرة .

وقال في المجموع : والدليل للقسم الثاني أن عمر وعثمان وعلياً ﷺ غسلوا وصلي عليهم بالاتفاق واتفقوا على أنهم شهداء والله أعلم .

٢- الحديث دليل على أن ينبغي لمن وقع الطاعون في بلده وهو فيه أن لا يخرج منها فراراً منه .

عن أُسَامَةُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (الطّاعُونُ رِجْزٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَعَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ) متفق عليه .

وعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ . قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ) متفق عليه .

قال ابن القيم: وَقَدْ جَمَعَ النّبِيّ ﷺ لِلْأُمّةِ فِي نَهْيِهِ عَنْ الدّخُولِ إلَى الْأَرْضِ الّتِي هُوَ بِهَا وَنَهْيِهِ عَنْ الْخُرُوجِ مِنْهَا بَعْدَ وُقُوعِهِ كَمَالِ التّحَرّزِ مِنْهُ فَإِنّ فِي الدّخُولِ فِي الْأَرْضِ الّتِي هُوَ بِهَا تَعَرّضًا لِلْبَلَاءِ وَمُوَافَاةً لَهُ فِي مَحَلّ سُلْطَانِهِ وَإِعَانَةً لِلْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ وَهَذَا مُخَالِفٌ لِلشّرْعِ وَالْعَقْلِ بَلْ تَجَنّبُ الدّخُولِ إلَى أَرْضِهِ مِنْ بَابِ الْحِمْيَةِ الّتِي أَرْشَدَ اللهُ سُبْحَانَهُ إلَيْهَا وَهِيَ حَمِيّةٌ عَنْ الْأَمْكِنَةِ وَالْأَهْوِيَةِ الْمُؤْذِيَةِ .

وَأَمّا نَهْيُهُ عَنْ الْخُرُوجِ مِنْ بَلَدِهِ فَفِيهِ مَعْنَيَانِ :

أَحَدُهُمَا : حَمْلُ النّفُوسِ عَلَى الثّقَةِ بِاَللهِ وَالتّوَكّلِ عَلَيْهِ وَالصّبْرِ عَلَى أَقْضِيَتِهِ وَالرّضَى بِهَا .

وَالثّانِي : مَا قَالَهُ أَئِمّةُ الطّبّ : أَنّهُ يَجِبُ عَلَى كُلّ مُحْتَرِزٍ مِنْ الْوَبَاءِ أَنْ يُخْرِجَ الرّيَاضَةَ وَالْحُمَامَ فَإِنّهُمَا مِمّا يَجِبُ أَنْ يُحْذَرَا ، لِأَنّ الْبَدَنَ لَا يَخْلُو غَالِبًا مِنْ فَضْلٍ رَدِيءٍ كَامِنٍ فِيهِ فَتُثِيرُهُ الرّيَاضَةُ وَالْحُمَامُ وَيَخْلِطَانِهِ بالكيموس الْجَيّدِ وَذَلِكَ يَجْلِبُ عِلّةً عَظِيمَةً بَلْ يَجِبُ عِنْدَ وُقُوعِ الطّاعُونِ السّكُونُ وَالدّعَةُ وَتَسْكِينُ هَيَجَانِ الْأَخْلَاطِ وَلَا يُمْكِنُ الْخُرُوجُ مِنْ أَرْضِ الْوَبَاءِ وَالسّفَرِ مِنْهَا إلّا بِحَرَكَةٍ شَدِيدَةٍ وَهِيَ مُضِرّةٌ جِدّا هَذَا كَلَامُ أَفْضَلِ الْأَطِبّاءِ الْمُتَأَخّرِينَ فَظَهَرَ الْمَعْنَى الطّبّيّ مِنْ الْحَدِيثِ النّبَوِيّ وَمَا فِيهِ مِنْ عِلَاجِ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ وَصَلَاحِهِمَا .

فَإِنْ قِيلَ : فَفِي قَوْلِ النّبِيّ ﷺ لَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ مَا يُبْطِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ هَذَا الْمَعْنَى الّذِي ذَكَرْتُمُوهُ وَأَنّهُ لَا يَمْنَعُ الْخُرُوجَ لِعَارِضٍ وَلَا يُحْبَسُ مُسَافِرًا عَنْ سَفَرِهِ ؟

قِيلَ : لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ طَبِيبٌ وَلَا غَيْرُهُ إنّ النّاسَ يَتْرُكُونَ حَرَكَاتِهِمْ عِنْدَ الطّوَاعِينِ وَيَصِيرُونَ بِمَنْزِلَةِ الْجَمَادَاتِ وَإِنّمَا يَنْبَغِي فِيهِ التّقَلّلُ مِنْ الْحَرَكَةِ بِحَسْبِ الْإِمْكَانِ وَالْفَارّ مِنْهُ لَا مُوجِبَ لِحَرَكَتِهِ إلّا مُجَرّدَ الْفِرَارِ مِنْهُ وَدَعَتُهُ وَسُكُونُهُ أَنْفَعُ لِقَلْبِهِ وَبَدَنِهِ وَأَقْرَبُ إلَى تَوَكّلِهِ عَلَى اللهِ

تَعَالَى وَاسْتِسْلَامِهِ لِقَضَائِهِ ، وَأَمّا مَنْ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ الْحَرَكَةِ كَالصنّاع وَالْأُجَرَاءِ وَالْمُسَافِرِينَ وَالْبُرُدِ وَغَيْرِهِمْ فَلَا يُقَالُ لَهُمْ اُتْرُكُوا حَرَكَاتِكُمْ جُمْلَةً وَإِنْ أُمِرُوا أَنْ يَتْرُكُوا مِنْهَا مَا لَا حَاجَةَ لَهُمْ إلَيْهِ كَحَرَكَةِ الْمُسَافِرِ فَارّا مِنْهُ .

وقال النووي : وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيث مَنْع الْقُدُوم عَلَى بَلَد الطَّاعُون ، وَمَنْع الْخُرُوج مِنْهُ فِرَارًا مِنْ ذَلِكَ . أَمَّا الْخُرُوج لِعَارِضٍ فَلَا بَأْس بِهِ ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ مَذْهَبنَا وَمَذْهَب الْجُمْهُور . قَالَ الْقَاضِي : هُوَ قَوْل الْأَكْثَرِينَ . قَالَ : حَتَّى قَالَتْ عَائِشَة : الْفِرَار مِنْهُ كَالْفِرَارِ مِنْ الزَّحْف . قَالَ : وَمِنْهُمْ مَنْ جَوَّزَ الْقُدُوم عَلَيْهِ وَالْخُرُوج مِنْهُ فِرَارًا . قَالَ : وَرُوِيَ هَذَا عَنْ عُمَر بْن الْخَطَّاب رَضِيَ اللَّه عَنْهُ ، وَأَنَّهُ نَدِمَ عَلَى رُجُوعه مِنْ سَرْغ .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ وَمَسْرُوق وَالْأَسْوَد بْن هِلَال أَنَّهُمْ فَرُّوا مِنْ الطَّاعُون ، وَقَالَ عَمْرو بْن الْعَاصِ : فِرُّوا عَنْ هَذَا الرِّجْز فِي الشِّعَاب وَالْأَوْدِيَة وَرُءُوس الْجِبَال ، فَقَالَ مَعَاذ : بَلْ هُوَ شَهَادَة وَرَحْمَة . وَيَتَأَوَّل هَؤُلَاءِ النَّهْي عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَنْهَ عَنْ الدُّخُول عَلَيْهِ وَالْخُرُوج مِنْهُ مَخَافَة أَنْ يُصِيبهُ غَيْر الْمُقَدَّر، لَكِنْ مَخَافَة الْفِتْنَة عَلَى النَّاس، لِئَلَّا يَظُنُّوا أَنَّ هَلَاك الْقَادِم إنَّمَا حَصَلَ بِقُدُومِهِ، وَسَلَامَة الْفَارّ إنَّمَا كَانَتْ بِفِرَارِهِ . قَالُوا: وَهُوَ مِنْ نَحْو النَّهْي عَنْ الطِّيَرَة وَالْقُرْب مِنْ الْمَجْذُوم، وَقَدْ جَاءَ عَنْ اِبْن مَسْعُود قَالَ: الطَّاعُون فِتْنَة عَلَى الْمُقِيم وَالْفَارّ، أَمَّا الْفَارّ فَيَقُول: فَرَرْت فَنَجَوْت، وَأَمَّا الْمُقِيم فَيَقُول: أَقَمْت فَمُتّ، وَإِنَّمَا فَرَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ أَجَله ، وَأَقَامَ مَنْ حَضَرَ أَجَله وَالصَّحِيح مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ النَّهْي عَنْ الْقُدُوم عَلَيْهِ وَالْفِرَار مِنْهُ لِظَاهِرِ الْأَحَادِيث الصَّحِيحَة . قَالَ الْعُلَمَاء : وَهُوَ قَرِيب الْمَعْنَى مِنْ قَوْله ﷺ : (لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاء الْعَدُوّ ، وَاسْأَلُوا اللَّه الْعَافِيَة ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا)

٣- هَذِهِ الْأَحَادِيث أَنَّ الطاعون أَرْسَلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل أَوْ مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ عَذَابًا لَهُمْ . هَذَا الْوَصْف وَبِكَوْنِهِ عَذَابًا مُخْتَصّ بِمَنْ كَانَ قَبْلنَا ، وَأَمَّا هَذِهِ الْأُمَّة فَهُوَ لَهَا رَحْمَة وَشَهَادَة ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ قَوْله ﷺ (الْمَطْعُون شَهِيد) .

وَفِي حَدِيث آخَر فِي غَيْر الصَّحِيحَيْنِ (أَنَّ الطَّاعُون كَانَ عَذَابًا يَبْعَثهُ اللَّه عَلَى مَنْ يَشَاء ، فَجَعَلَهُ رَحْمَة لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْد يَقَع الطَّاعُون فَيَمْكُث فِي بَلَده صَابِرًا يَعْلَم أَنَّهُ لَنْ يُصِيبهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّه لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْل أَجْر شَهِيد) وَفِي حَدِيث آخَر (الطَّاعُون شَهَادَة لِكُلِّ مُسْلِم) .(النووي) .

٤- الحديث دليل على أن الطاعون يكون شهادة لمن صبر واحتسب .

٥-وَفِي هَذَا الْحَدِيث الِاحْتِرَاز مِنْ الْمَكَارِه وَأَسْبَابهَا .

٦- وَفِيهِ التَّسْلِيم لِقَضَاءِ اللَّه عِنْد حُلُول الْآفَات .

٧-وَاتَّفَقُوا عَلَى جَوَاز الْخُرُوج بِشُغْلٍ وَغَرَض غَيْر الْفِرَار . (النووي) .

٨-تقرير أن البلاء يكون عذابا للمجرمين، ورحمة بالمؤمنين.

٩-أنه لا يجوز الخروج من البلد المطعون، ولا دخوله، وهذه معجزة من معجزات الإسلام، وهو ما يسمى الآن بـ (الحجر الصحّي)، الذي علّمه الله رسوله ﷺ قبل أن يعرفه الناس بأربعة عشر قرنا تقريباً.

٣٤-وعن أنس ﷺ ، قَالَ : سمعتُ رسولَ الله ﷺ ، يقول : ((إنَّ الله ﷻ ، قَالَ : إذَا ابْتَلَيْتُ عبدي بحَبيبتَيه فَصَبرَ عَوَّضتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ)) يريد عينيه ، رواه البخاري .

(**بحَبيبتَيه**) فسره بآخر الحديث (يريد عينيه) ، والمراد بالحبيبتين المحبوبتان ، لأنها أحب أعضاء الإنسان إليه ، لما يحصل له بفقدهما من الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به ، أو شر فيجتنبه

(**فَصَبرَ**) زاد الترمذي (واحتسب) .

(**عَوَّضتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّة**) وهذا أعظم العوض ، لأن الالتذاذ بالبصر يفنى بفناء الدنيا والالتذاذ بالجنة باق ببقائها .

١- الحديث دليل على فضل من ذهب بصره واصبر واحتسب ، وأنه ذلك سبب في دخوله الجنة.

وقد جاء عند البزار عن زيد بن أرقم بلفظ (ما ابتلي عبد بعد ذهاب دينه أشد من ذهاب بصره ، ومن ابتلي ببصره فصبر حتى يلقى الله لقي الله لا حساب عليه) وأصله عند أحمد بغير لفظه بسند جيد

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (المصائب التي تجري بلا اختيار العبد ، كالمرض وموت العزيز عليه ، وأخذ ماله ، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها ، لا على نفس ما يحدث من المصيبة وما يتولد عنها)

٢- الحديث دليل على فضل الصبر وأنه من أسباب دخول الجنة .

قال تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) .

وقال تعالى (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) .

وقال تعالى (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً) .

وقال تعالى (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

٣٥-وعن عطَاء بن أبي رَباحٍ ، قَالَ : قَالَ لي ابنُ عَباسٍ رضي اللهُ عنهما : ألاَ أُريكَ امْرَأةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّة ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ : هذِهِ المَرْأةُ السَّوداءُ أتتِ النَّبيَّ ﷺ، فَقَالَتْ : إنِّي أُصْرَعُ ، وإنِّي أتَكَشَّفُ ، فادْعُ الله تَعَالَى لي . قَالَ : « إنْ شئْتِ صَبَرتِ وَلَكِ الجَنَّةُ ، وَإنْ شئْتِ دَعَوتُ الله تَعَالَى أنْ يُعَافِيكِ » فَقَالَتْ : أَصْبِرُ ، فَقَالَتْ : إنِّي أتَكَشَّفُ فَادعُ الله أنْ لا أَتَكَشَّف ، فَدَعَا لَهَا . مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

(**عطَاء بن أبي رَباحٍ**) القرشي مولاهم المكي ، ثقة فقيه فاضل ، مات سنة ١١٤ هـ .

(**أتَكَشَّفُ**) من التكشف ، والمراد أنها خشيت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر .

١- الحديث دليل على أن الصبر على بلايا الدنيا يورث الجنة.

٢-الحديث دليل أن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة .

٣-أن هذه المرأة من المبشرات بالجنة .

٤-الحديث دليل على فضل الصبر على البلاء .

٥- إيثار الصحابيات للآخرة على الدنيا.

٦-أن الآخرة خير وأبقى.

٧-الزهد في الدنيا ، وأنه ينبغي أن تكون مزرعة للآخرة .

٨-قرب النبي ﷺ من الناس واهتمامه بشؤونهم ، وحرصه على ما فيه المنفعة لهم.

٩- استدل بحديث الباب من قال أن ترك التداوي أفضل ، وقد اختلف العلماء في ذلك على أقوال :

القول الأول: تركه أفضل .

وهو المنصوص عليه في مذهب الحنابلة، ونقل عن الإمام أحمد أنه قال (أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره)، وقد كانت تكون به علل فلا يخبر الطبيب بها إذا سأله .

أ-عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال في السبعين الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ... هُمُ

الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . فَقَالَ: عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: نَعَمْ . فَقَامَ آخَرُ فقال: أَمِنْهُمْ أَنَا قَالَ: سَبَقَكَ عُكَّاشَةُ) .

ب-ولحديث الباب (ألاَ أُريكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّة ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هذِهِ المَرْأَةُ السَّوداءُ أتتِ النَّبيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: إنّي أُصْرَعُ ، وإنِّي أتَكَشَّفُ ، فادْعُ الله تَعَالَى لي . قَالَ : (إنْ شئْتِ صَبَرتِ وَلَكِ الجَنَّةُ ، وَإنْ شئْتِ دَعَوتُ الله تَعَالَى أنْ يُعَافِيكِ) فَقَالَتْ : أَصْبِرُ ...) .

ج- كما استدلوا بأن خَلقاً من الصحابة والتابعين لم يكونوا يتداوون، بل فيهم من اختار المرض، كأبي بن كعب، وأبي ذر – رضي الله عنهما –، ومع هذا فلم ينكر عليهم ترك التداوي .

القول الثاني : أنه مشروع .

لما ورد في شأنه في القرآن الكريم والسنة القولية والعملية، ولما فيه من (حفظ النفس) الذي هو أحد المقاصد الكلية من التشريع .

جمهور العلماء (الحنفية والمالكية) إلى أن التداوي مباح . وذهب الشافعية ، والقاضي وابن عقيل وابن الجوزي من الحنابلة إلى استحبابه .

قال الشيخ ابن باز : الصواب في التداوي أنه مستحب مشروع ذكره النووي وآخرون عن جمهور العلماء, وأن قول الأكثرين أنه مستحب, وذهب بعض أهل العلم إلى أنه مستوي الطرفين لا يستحب ولا يكره بل هو حلال (الفتاوى) .

أما إذا خشي الإنسان على نفسه التلف بتركه فإنه حينئذٍ يجب، وقد أخذ مجمع الفقه الإسلامي بالقول بوجوب التداوي إذا كان تركه يفضي إلى تلف النفس أو أحد الأعضاء أو العجز، أو كان المرض ينتقل ضرره إلى غيره، كالأمراض المعدية . وهذا يؤخذ منه أن الدواء إذا تُيقن نفعه وكان المرض مما يخشى منه التلف، وجب التداوي، فيدخل في ذلك إيقاف النزيف، وخياطة الجروح، وبتر العضو التالف المؤدي إلى تلف بقية البدن، ونحو ذلك مما يجزم الأطباء بنفعه وضرورته، وأن تركه يؤدي إلى التلف أو الهلاك.

الأدلة على مشروعية التداوي :

أ- قال الله تعالى عن العسل (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) .

فهو دليل على جواز التداوي بشرب الدواء.

ب-عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ) رواه أبو داود .

ج- عن أسامة بن شريك – رضي الله عنه – قال: قالت الأعراب يا رسول الله ألا نتداوى ؟ قال : نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ قَالَ دَوَاءً إِلاَّ دَاءً وَاحِدًا ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُوَ قَالَ:«الْهَرَمُ) رواه أبو داود .

د- عن أم قيس بنت محصن قالت سمعت النبي ﷺ يقول (عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعُودِ الْهِنْدِيِّ، فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ، يُسْتَعَطُ بِهِ مِنَ الْعُذْرَةِ، وَيُلَدُّ بِهِ مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ) متفق عليه .

هـ- الأدلة على احتجام النبي ﷺ وأنه ﷺ كان يتداوى بالحجامة.

-وأجابوا عن أدلة أصحاب القول الأول :

أما حديث الصحيحين (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ففيه استحباب ترك الاسترقاء أي طلب الرقية من الغير ، وليس فيه تعرض لحكم التداوي بالأدوية النافعة .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : ولا يدخل في ذلك من عرض نفسه على الطبيب للدواء ؛ لأن النبي ﷺ لم يقل : لا يتداوون

؛ بل قال : (لا يكتوون ولا يسترقون) اللهم إلا أن يعلق الإنسان قلبه بالطبيب ، ويكون رجاؤه وخوفه من المرض متعلقاً بالطبيب ، فهذا ينقص توكله على الله عز وجل ، فينبغي للإنسان إذا ذهب إلى الأطباء أن يعتقد أن هذا من باب بذل الأسباب ، وأن المسبب هو الله سبحانه وتعالى وحده ، وأنه هو الذي بيده الشفاء ، حتى لا ينقص توكله .

- وأما حديث المرأة التي كانت تصرع وتتكشف ، فهذا الحديث يدل على جوزا ترك التداوي في مثل هذه الحال ، لمن قويت عزيمته وقدر على ذلك .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : وَفِي الْحَدِيث فَضْل مَنْ يُصْرَع , وَأَنَّ الصَّبْر عَلَى بَلَايَا الدُّنْيَا يُورِث الْجَنَّة , وَأَنَّ الْأَخْذ بِالشِّدَّةِ أَفْضَل مِنْ الْأَخْذ بِالرُّخْصَةِ ، لِمَنْ عَلِمَ مِنْ نَفْسه الطَّاقَة وَلَمْ يَضْعُف عَنْ اِلْتِزَام الشِّدَّة .

- **وذكر الغزالي في إحياء علوم الدين أسباباً دعت بعض الصحابة والتابعين وتابعيهم على ترك التداوي، منها:**

١-أن يكون المريض قد علم بقرائن الأحوال أن مرضه مرض الموت، وأن الدواء بالتالي لا ينفعه، وهو ما حدث لأبي بكر الصديق رضي الله عنه .

٢-أن يكون مشغولاً بمآله وخوف عاقبته حتى ينسيه ألم المرض. (مثل ما نقل عن أبي ذر الغفاري).

٣-العلة مزمنة ويغلب على الظن عدم نفع الدواء ، قال الغزالي: وأكثر من ترك التداوي من العباد والزهاد هذا مستندهم .

٤-لينال ثواب الصبر على البلاء، وهو يطيقه وتكفير الذنوب لمن أسرف على نفسه.

٥-لمن يعرف في نفسه الأشر والبطر ونسيان النعمة عند الصحة وحلول العافية، فإذا جاء المرض عرف ربه والتجأ إليه، فيترك التداوي حتى لا تعاوده الغفلة

٣٦-وعن أبي عبد الرحمنِ عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه ، قَالَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رسولِ الله ﷺ يَحْكِي نَبِيّاً مِنَ الأَنْبِياءِ ، صَلَواتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ ، ضَرَبه قَوْمُهُ فَأَدْمَوهُ ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، يَقُولُ : ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَومي ، فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ)) مُتَّفَقٌ علَيهِ .

(**عبدِ الله بنِ مسعودٍ**) بن غافل بن حبيب الهذلي ،كان سادس رجل في الإسلام، وهاجر الهجرتين ، وشهد بدراً وما بعدها، مات بالمدينة سنة (٣٢) هـ .

(**يَحْكِي نَبِيّاً مِنَ الأَنْبِياءِ**) قال الحافظ : لم أقف على اسم هذا النبي صريحاً ، ويحتمل أن يكون هو نوح .

١- الحديث دليل على أن الأنبياء لاقوا من الأذى القولي والفعلي من أقوامهم .

فَمِنَ اسْتِهْزَاء قوم نوح بِنُوحٍ قَوْلُهُمْ لَهُ (بَعْدَ أَنْ كُنْتَ نَبِيًّا صِرْتَ نَجَّارًا) .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) .

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) ، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَاء قوم هود بِهُودٍ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) .

وَقَوْلِهِ عَنْهُمْ أَيْضًا (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ الْآيَةَ) .

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي قَوْلِهِ (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ..) ، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِصَالِحٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ (يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

وَقَوْلُهُمْ (يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ...) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِلُوطٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ...) وَقَوْلُهُمْ لَهُ أَيْضًا (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِشُعَيْبٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ .

قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) .

وقال تعالى لرسوله ﷺ (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

٢- الحديث دليل على صبر الأنبياء على أقوامهم .

الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : صبر على الطاعة حتى يفعلها.

فإن العبد لايكاد يفعل المأمور به إلا بعد صبر ومصابرة ومجاهدة لعدوه الباطن والظاهر ، فبحسب هذا الصبر يكون أداؤه للمأمورات و فعله للمستحبات.

القسم الثاني : صبر عن المنهي عنه حتى لا يفعله .

فإن النفس ودواعيها وتزيين الشيطان، وقرناء السوء؛ تأمره بالمعصية وتجرؤه عليها، فبحسب قوة صبره يكون تركه لها قال بعض السلف : أعمال البر يفعلها البر والفاجر ولا يقدر على ترك المعاصي إلا صديق .

القسم الثالث : الصبر على ما يصيبه بغير اختياره من المصائب وهي نوعان:

النوع الأول : لا اختيار للخلق فيه ، كالأمراض وغيرها من المصائب السماوية .

فهذه يسهل الصبر فيها، لأن العبد يشهد فيها قضاء الله وقدره، وإنه لا مدخل للناس فيها، فيصبر إما اضطراراً، وإما اختياراً .

النوع الثاني : أن يحصل له بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه .

فهذا النوع يصعب الصبر عليه جداً، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصديقون .

وكان نبينا ﷺ إذا أوذي يقول (يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر) .

وأخبر عن نبي من الأنبياء أنه ضربه قومه فجعل يقول (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) .

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه جرى له هذا مع قومه، فجعل يقول مثل ذلك.

فجمع في هذا ثلاثة أمور: العفو عنهم، والاستغفار لهم، والاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون .

وهذا النوع من الصبر أثمره النصر والعز والسرور والأمن والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له وزيادة العلم، ولهذا قال الله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

ويعين العبد على هذا الصبر عدة أشياء:

أحدها : أن يشهد أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه ومشيئته، فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك؛ تستريح من

الهم والغم والحزن.

الثانية : أن يشهد ذنوبه .

وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) .

فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطتهم عليه، عن ذمهم ولومهم والوقيعة فيهم .

وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال : هذا بذنوبي صارت في حقه نعمه.

الثالث : أن يشهد العبد حسن الثواب الذي وعده الله لمن عفى وصبر .

كما قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين) .

ولما كان الناس عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام :

ظالم يأخذ فوق حقه -- ومقتصد يأخذ بقدر حقه -- ومحسن يعفو ويترك حقه ، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين .

وإذا شهد مع ذلك فوت الأجر بالانتقام والاستيفاء سهل عليه الصبر والعفو.

الرابع : أن يشهد أنه إذا عفى وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من الغش، والغل، وطلب الانتقام، وإرادة الشر، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته عاجلاً وآجلا على المنفعة الحاصلة له بالإنتقام أضعافاً مضاعفة، ويدخل في قوله تعالى (والله يحب المحسنين) فيصير محبوباً لله، ويصير حاله حال من أخذ منه دراهم فعوض عنها الوفا من الدنانير، فحينئذ يفرح بما من الله عليه أعظم ما يكون فرحاً .

الخامس : أن يعلم أنه ما انتقم أحد قط لنفسه إلا أورثه ذلك ذلاً وجده في نفسه ، فإذا عفى أعزه الله .

وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام حيث يقول (ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً)

فالعز الحاصل له بالعفو أحب إليه وأنفع له من العز الحاصل له بالانتقام، فإن هذا عز في الظاهر وهو يورث في الباطن ذلا؛ والعفو ذل في الظاهر وهو يورث العز باطناً وظاهراً.

السادس : وهي من أعظم الفوائد- أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل وأنه نفسه ظالم مذنب، وأن من عفى عن الناس عفى الله عنه، ومن غفر غفر الله له .

فإذا شهد أن عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه، سبب لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله فيعفو عنه ويصفح ويحسن إليه على ذنوبه، سهل عليه عفوه وصبره ويكفي العاقل هذه الفائدة.

السابع : أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه وتفرق عليه قلبه ، وفاته من مصالحه ، ما لا يمكن استدراكه .

ولعل هذا يكون أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفى وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهم عنده من الانتقام.

الثامن : أن انتقامه واستيفائه وانتصاره لنفسه .

فإن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم يكن ينتقم لنفسه مع أن أذاه أذى لله ويتعلق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس، وأزكاها، وأبرها وأبعدها من كل خلق مذموم، وأحقها بكل خلق جميل، ومع

هذا فلم يكن ينتقم لها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من العيوب والشرور بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها.

التاسع : إن أوذي على ما فعله لله أو على ما أمره به من طاعته ونهى عنه من معصيته وجب عليه الصبر ولم يكن له الانتقام .

فإنه قد أوذى في الله، فأجره على الله، ولهذا لما كان المجاهدون في سبيل الله ذهبت دماؤهم وأموالهم في الله لم تكن مضمونة، فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلب الثمن منهم لم يكن له على الله ثمن، فإنه من كان في الله نفقه كان على الله خلفه.

العاشر : أن يشهد معية الله معه إذا صبر، ومحبة الله له ورضاه، ومن كان الله معه دفع عنه من أنواع الأذى والمضرات ما لايدفع عنه أحد من خلقه .

قال الله تعالى (واصبروا إن الله مع الصابرين) .

وقال (والله يحب الصابرين) .

الحادي عشر : أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان، فلا يبدل من إيمانه جزء في نصرة نفسه، فإن صبر فقد أحرز إيمانه وصانه من النقص والله تعالى يدافع عن الذين آمنوا.

الثاني عشر : أن يشهد أن صبره حكم منه على نفسه وقهر لها، وغلبة لها .

فمتى كانت النفس مقهورة معه مغلوبة، لم تطمع في استرقاقة، وأسره وإلقائه في المهالك، ومتى كان مطيعاً لها سامعاً منها مقهوراً معها لم تزل به حتى تهلكه، أو تتداركه رحمة من ربه ، فلو لم يكن في الصبر إلا قهره لنفسه ولشيطانه؛ فحينئذ يظهر سلطان القلب ويثبت جنوده، فيفرح ويقوى ويطرد العدو عنه.

الثالث عشر : أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولابد، فإن الله وكيل من صبر وأحال ظالمه عليه، ومن انتصر بنفسه لنفسه وكله الله إلى نفسه ، فكان هو الناصر لها، فأين من ناصر الله خير الناصرين، إلى من ناصره نفسه أعجز الناصرين وأضعفه.

الرابع عشر : أن صبره على من آذاه واحتماله له يوجب رجوع خصمه عن ظلمه وندامته واعتذاره، ولوم الناس له فيعود بعد إيذائه له مستحياً منه، نادماً على ما فعله ، بل يصير موالياً له وهذا معنى قوله (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

الخامس عشر : ربما كان انتقامه سبباً لزيادة شر خصمه وقوة نفسه وفكرته في أنواع الأذى التي يوصلها إليه كما هو المشاهد، فإذا صبر وعفى أمن من هذا الضرر، والعاقل لا يختار أعظم الضررين بدفع أدناهما، وكم قد جلب الانتقام والمقابلة من شر عجز صاحبه عن دفعه، وكم قد ذهبت به نفوس ورياسات وأموال وممالك لو عفى المظلوم لبقيت عليه.

السادس عشر : أن من اعتاد الانتقام ولم يصبر ، لابد أن يقع في الظلم .

فإن النفس لا تقتصر على قدر العدل الواجب لها ، لا عملاً ، ولا إرادة ، وربما عجزت عن الاقتصار على قدر الحق، فإن الغضب يخرج بصاحبه إلى حد لا يعقل ما يقول وما يفعل، فبين هو مظلوم ينتظر النصر والعز إذا انقلب ظالماً ينتظر المقت والعقوبة.

السابع عشر : أن هذه المظلمة التي ظلمها هي سبب، إما لتكفير سيئة، أو رفع درجة، فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مكفرة لسيئته ولا رافعة لدرجته.

الثامن عشر : أن عفوه وصبره من أكبر الجند له على خصمه، فإن من صبر وعفى كان صبره وعفوه موجباً لذل عدوه، وخوفه وخشيته منه، ومن الناس، فإن الناس لا يسكتون عن خصمه وإن سكت هو، فإذا انتقم زال ذلك كله ولهذا تجد كثيراً من الناس

إذا شتم غيره أو آذاه يحب أن يستوفي منه، فإذا قابله استراح وألقى عنه ثقلاً كان يجده.

التاسع عشر : أنه إذا عفى عن خصمه، استشعرت نفس خصمه أنه فوقه، وأنه قد ربح عليه فلا يزال يرى نفسه دونه وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعفو.

العشرون : أنه إذا عفى وصفح كانت هذه الحسنة، فتولد له حسنة أخرى، وتلك الأخرى تولد أخرى، وهلم جرا، فلا تزال حسناته في مزيد، فإن من ثواب الحسنة الحسنة، كما أن من عقاب السيئة السيئة بعدها، وربما كان هذا سبباً لنجاته وسعادته الأبدية، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك. (قاعدة في الصبر لابن تيمية) .

٣- تسلية للدعاء .

٤- من أخلاق الأنبياء مقابلة الجهل بالغفران .

٣٧-وعن أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ رضيَ الله عنهما ، عن النَّبيِّ ﷺ ، قَالَ : ((مَا يُصيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ ، وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ ، وَلاَ حَزَنٍ ، وَلاَ أذَىً ، وَلاَ غَمٍّ ، حَتَّى الشَّوكَةُ يُشَاكُهَا إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

٣٨-وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ ، قَالَ : دخلتُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ وهو يُوعَكُ ، فقلت: يَا رسُولَ الله ، إنَّكَ تُوْعَكُ وَعْكاً شَدِيداً، قَالَ : ((أجَلْ ، إنِّي أوعَكُ كمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنكُمْ)) قلْتُ: ذلِكَ أن لَكَ أجْرين ؟ قَالَ : ((أَجَلْ ، ذلِكَ كَذلِكَ ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصيبُهُ أذىً ، شَوْكَةٌ فَمَا فَوقَهَا إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ ، وَحُطَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ

٣٩-وعن أبي هريرة ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ : ((مَا يَزَالُ البَلاَءُ بالمُؤمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ في نفسِهِ ووَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ)) رواه الترمذي ، وَقالَ : ((حديث حسن صحيح)) .

٤٠-وعن أبي هريرة ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ)) رواه البخاري .

وَضَبَطُوا ((يُصِبْ)) بفَتْح الصَّاد وكَسْرها .

(الْوَصَب) الْوَجَع اللَّازِم ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : { وَلَهُمْ عَذَاب وَاصِب } أَيْ لَازِم ثَابِت . وَ (النَّصَب) التَّعَب .

(**نَصَبٍ**) النصب : التعب .

(**وَلاَ وَصَبٍ**) الوصب : المرض .

١- الأحاديث دليل على أن المصائب والبلاء تكفر السيئات والخطيئات .

قال ابن رجب : في فوائد البلاء :

تذكير العبد بذنوبه فربما تاب ورجع .

زوال قسوة القلوب وحدوث رقتها .

انكساره لله وذلهِ ، وذلك أحب إلى الله من كثير من طاعات الطائعين.

أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله والوقوف ببابه والتضرع له والاستكانة.

أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى المخلوق .

أن البلاء يوصل إلى قلبه لذة الصبر عليه أو الرضا به.

قال بعض السلف : إن العبد ليُمرَض فيذكر ذنوبه فيخرج منه مثل رأس الذباب من خشية الله فيغفر له .

وقال بعض العلماء : في بعض الكتب السابقة إن الله ليبتلي العبد وهو يحبه ليسمع تضرعه . [٨ / ١٠ / ١٤٣٢هـ] .

- **وقال القاسمي** : وللإمام عز الدين محمد بن عبد السلام ، رحمه الله تعالى، كلام على فوائد المحن والرزايا يحسن إيراده هنا.

قال عليه الرحمة : للمصائب والبلايا والمحن والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس :

أحدها : معرفة عز الربوبية وقهرها .

والثاني : معرفة ذلة العبودية وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ، اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده ، وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره وقضائه وتقديره لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه .

والثالثة : الإخلاص لله تعالى ؛ إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه ، ولا معتمد في كشفها إلا عليه (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) .

الرابعة : الإنابة إلى الله تعالى والإقبال عليه (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ) .

الخامسة : التضرع والدعاء (وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا) (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) .

السادسة : الصبر عليها ، وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) وقال (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

السابعة : تمحيصها للذنوب والخطايا .

قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) .

الثامنة : معرفة نعمة العافية والشكر عليها .

فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدها .

التاسعة : ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها .

العاشرة : ما في طيّها من الفوائد الخفية .

قال تعالى (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) .

وقال تعالى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) .

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم كان في طيّ تلك البلية أن أخدمها هاجر. فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين ، فأعظم بذلك من خبر كان في طي تلك البلية .

الحادية عشرة : إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر .

فإن نمرود ، لو كان فقيراً سقيماً ، فاقد السمع والبصر ، لما حاجّ إبراهيم في ربه ، لكن حمله بطرُ الملك على ذلك ، وقد علل الله سبحانه وتعالى مُحاجّته بإتيانه الملك ، ولو ابتلى فرعون بمثل ذلك لما قال (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) وقال تعالى (وَمَا نَقَمُوا إِلّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) وقال تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) .

الثانية عشرة : الرضا الموجب لرضوان الله تعالى ، فإن المصائب تنزل بالبَرّ والفاجر ، فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة ، ومن رضيها فله الرضا والرضا أفضل من الجنة وما فيها ؛ لقوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي : من جنات عدن

ومساكنها الطيبة.

٢- الأحاديث دليل على أن المصائب تكفر السيئات ، لكن هل ترفع الدرجات ؟

قال النووي :قوْله ﷺ (مَا مِنْ مُسْلِم يُشَاك شَوْكَة فَمَا فَوْقهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَة ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَة) وَفِي بَعْض النُّسَخ (وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا) وَفِي رِوَايَة (إِلَّا كَتَبَ اللَّه بِهَا حَسَنَة ، أَوْ حُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَة) فِي هَذِهِ الْأَحَادِيث بِشَارَة عَظِيمَة لِلْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّهُ قَلَّمَا يَنْفَكّ الْوَاحِد مِنْهُمْ سَاعَة مِنْ شَيْء مِنْ هَذِهِ الْأُمُور ، وَفِيهِ تَكْفِير الْخَطَايَا بِالْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَام وَمَصَائِب الدُّنْيَا وَهُمُومهَا ، إِنْ قَلَّتْ مَشَقَّتُهَا . وَفِيهِ رَفْع الدَّرَجَات بِهَذِهِ الْأُمُور ، وَزِيَادَة الْحَسَنَات ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيح الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاهِير الْعُلَمَاء . وَحَكَى الْقَاضِي عَنْ بَعْضهمْ أَنَّهَا تُكَفِّر الْخَطَايَا فَقَطْ ، وَلَا تَرْفَع دَرَجَة ، وَلَا تُكْتَب حَسَنَة . قَالَ : وَرُوِيَ نَحْوه عَنْ اِبْن مَسْعُود قَالَ : الْوَجَع لَا يُكْتَب بِهِ أَجْر ، لَكِنْ تُكَفَّر بِهِ الْخَطَايَا فَقَطْ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى الْأَحَادِيث الَّتِي فِيهَا تَكْفِير الْخَطَايَا ، وَلَمْ تَبْلُغهُ الْأَحَادِيث الَّتِي ذَكَرَهَا مُسْلِم الْمُصَرِّحَة بِرَفْعِ الدَّرَجَات ، وَكَتْب الْحَسَنَات .

- قال بعض العلماء أن المصائب على العبد المذنب هي ـ بمجردها ـ عقوبات ، تكفر السيئات ولا ترفع الدرجات ولا يُثاب عليها ؛ لأن الثواب ورفعة الدرجة إنما تكون على الأعمال والطاعات لا على فعل الرب تعالى المجرد ، فإن صبر واحتسب : أُجر على فعله ، الذي هو الصبر والاحتساب ، أو الرضا بقضاء الله وقدره إن ترقى إلى ذلك ؛ لا على مجرد مصيبته التي أصابته – إلا أن تكون المصيبة بسبب طاعة كما سيأتي – ، وهذا قول أجلة مِن الصحابة كأبي عبيدة ، وابن مسعود رضي الله عنهما ، وأجلة من العلماء المحققين كابن تيمية وابن القيم رحمهما الله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :والدلائل على أن المصائب كفارات : كثيرة ، إذا صبر عليها : أثيب على صبره ، فالثواب والجزاء إنما يكون على العمل وهو الصبر ، وأما نفس المصيبة : فهي من فعل الله لا من فعل العبد ، وهي من جزاء الله للعبد على ذنبه وتكفيره ذنبه بها ، وفي المسند (أنهم دخلوا على أبي عبيدة بن الجراح وهو مريض ، فذكروا أنه يؤجر على مرضه ، فقال : ما لي من الأجر ولا مثل هذه ، ولكن المصائب حِطَّة ، فبيَّن لهم أبو عبيدة ﷺ أن نفس المرض لا يؤجر عليه ، بل يكفر به عن خطاياه .

وقال ابن القيم – رحمه الله – : وذكر عن أبي معمر الأزدي قال : كنَّا إذا سمعنا من ابن مسعود شيئاً نكرهه سكتنا ، حتى يفسره لنا ، فقال لنا ذات يوم : " ألا إن السقم لا يكتب له أجر ، فساءنا ذلك وكبر علينا " فقال : ولكن يكفر به الخطيئة ، فسرَّنا ذلك وأعجَبَنا .

وهذا مِن كمال علمه وفقهه ﷺ ؛ فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما تولَّد منها ، كما ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة (التوبة) في قوله في المباشر من الإنفاق وقطع الوادي (إِلاَّ كُتِبَ لَهُم) وفي المتولد من إصابة الظمأ والنصب والمخمصة في سبيله وغيظ الكفار (إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ) فالثواب مرتبط بهذين النوعين.

وأما الأسقام والمصائب : فإن ثوابها : تكفير الخطايا ولهذا قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) والنبي ﷺ إنما قال في المصائب (كفَّر الله بها من خطاياه) ، وكذا قوله (المرض حطة) فالطاعات ترفع الدرجات ، والمصائب تحط السيئات ، ولهذا قال (من يرد الله به خيراً يصب منه) وقال (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه . (عدة الصابرين) .

٣- وهذه الذنوب التي تكفرها المصائب والأمراض التي تكون عقوبات : يحتمل أنها تكفِّر جميع الذنوب ، والجمهور على أنها تكفر الصغائر فحسب .

٤٠–وعن أنس ﷺ ، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ : (لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوتَ لضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ فاعلاً ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِني مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيراً لِي، وَتَوفّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيراً لي) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

(**لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ**) الخطاب للصحابة ، والمراد هم ومن بعدهم من المسلمين عموماً .

(**لِضُرٍّ يَنْزِلُ بِهِ**) من فقر أو مرض أو غير ذلك من الأضرار الدنيوية ، والمراد بالضر الدنيوي لرواية ابن حبان : (لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به في الدنيا) .

(**فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ**) **أي** : لا محالة ولا مفر .

(**اَللَّهُمَّ أَحْيِنِي**) دعاء .

١– الحديث دليل على النهي عن تمني الموت .

لحديث الباب .

ولحديث خباب قال :(لولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به) . رواه البخاري

٢– واختلف العلماء هل النهي عن تمني الموت نهي عام أم يجوز في أحوال ؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين :

القول الأول : المنع مطلقاً .

وهذا قول القرطبي .

أ–لحديث الباب .

ب–ولحديث أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (لا يتمنى أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله يزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعتب) رواه البخاري .

ج–وعنه . قال : قال ﷺ (لا يتمنى أحدكم الموت ، ولا يدْعُ به من قبل أن يأتيَه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً) رواه مسلم .

قال القرطبي : وأما حديث أبي هريرة ففيه النهي عن تمني الموت مطلقاً لضرٍّ ولغير ضر .

القول الثاني : أنه لا يجوز لضر نزل به من فقر أو مرض ، وأما إذا خاف فتنة في دينه فإنه يجوز .

وهذا مذهب جماهير العلماء .

أ– أن النبي ﷺ أطلق – في حديث أبي هريرة – النهي عن تمني الموت ، وقيّده في حديث أنس، بأن يكون تمنيه لضر نزل به، فيحمل المطلق على المقيد .

ب– أن مطلق حديث أنس يشمل الضر الدنيوي والأخروي ، لكن المراد إنما هو الضر الدنيوي فقط ، بدليل رواية ابن حبان: (... لضر نزل به في الدنيا) حيث قيد الضر كونه في الدنيا .

ج– أنه قد ورد عن النبي ﷺ ما يدل على جواز الدعاء بالموت عند خوف الفتن ، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال (... وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون) رواه أحمد .

وقال ﷺ (والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول : ياليتني كنت مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدين إلا البلاء) رواه مسلم .

فقوله ﷺ (وليس به الدين) يقتضي إباحة ذلك أن لو كان عن الدين .

قال ابن رجب : وأما تمني خوف فتنة في الدين ، فإنه يجوز بغير خلاف .

وقال في موضع آخر : هو جائز عند أكثر العلماء .

– وقد ورد عن السلف تمني الموت خوف الفتنة .

قال عمر (اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط) .

وتمنت زينب بنت جحش لما جاءها عطاء عمر فاستكثرته وقالت : اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعدها ، فماتت قبل أن يدركها عطاء ثان لعمر .

وسأل عمر بن عبد العزيز من ظن به إجابة الدعاء أن يدعو له بالموت ، لما ثقلت عليه الرعية ، وخشي العجز عن القيام بحقوقهم .

وطُلب كثير من السلف الصالح إلى بعض الولايات ، فدعوا لأنفسهم بالموت فماتوا .

واشتهر بعضهم واطلع على بعض عمل أحدهم أو معاملته مع الله فدعا لنفسه بالموت فمات .

وكان سفيان الثوري يتمنى الموت كثيراً فسئل عن ذلك فقال : ما يدريني لعلي أدخل في بدعة ، لعلي أدخل فيما لا يحل لي ، لعلي أدخل في فتنة أكون قد مت فسبقت هذا .

وفي المسند عن محمود بن لبيد . عن النبي ﷺ قال (اثنتان يكرههما ابن آدم : الموت ، والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أقل للحساب) .

٣–الحكمة من تحريم تمني الإنسان الموت بسبب الضر الدنيوي ، لأمور :

أولاً : أنه يدل على عدم الصبر ، والمسلم مطالب بالصبر والاحتساب .

ثانياً : أن بقاء المسلم قد يكون خيراً له .

ففي الحديث — وقد سبق – (لا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً ، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب) أي يتوب ، وعند أحمد (وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً) .

قال الحافظ : فيه إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تمني الموت والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت ، فإن الحياة يتسبب منها العمل ، والعمل يحصل زيادة الثواب ، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال .

وقد قال ﷺ : (إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله) .

ثالثاً : أن الإنسان لا يدري ما الأفضل له ، البقاء أم الموت .

٤–الحكمة من هذا الدعاء (اللهم أحيني ...) لمن كان داعياً بالموت، لأن في هذا الدعاء استسلام لقضاء الله، والمسلم يقول هذا الدعاء، لأنه لا يعلم هل الخير البقاء أم في الموت، فشرع قول هذا الدعاء لأن فيه رد ذلك إلى الله الذي يعلم عاقبة الأمور .

٥–فإن قال قائل : ما الجمع بين هذا الحديث ، وقول يوسف (ربّ توفني مسلماً ...) ؟

قال القرطبي : **قيل** : قال قتادة :لم يتمنى الموت أحد ، نبي ولا غيره، إلا يوسف حين تكالبت عليه النعم وجُمع له الشمل، اشتاق إلى لقاء ربه .

وقيل : إن يوسف لم يتمن الموت وإنما تمنى الموافاة على الإسلام ، أي إذا جاء أجلي توفني مسلماً ، وهذا هو القول في تأويل الآية عند أهل التأويل .

٧–أنه لا يعلم الغيب إلا الله .

٨–في قوله (اللهم أحيني ما كانت ...) تفويض وتسليم للقضاء .

٩-أن الموت قد يكون خيراً للإنسان ، لقوله : (ما كانت الوفاة خيراً لي) .

١٠-ثبوت علم الله للمستقبل .

٤١-وعن أبي عبد الله خَبَّاب بنِ الأَرتِّ ﷺ ، قَالَ : شَكَوْنَا إِلَى رسولِ الله ﷺ وَهُوَ متوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ في ظلِّ الكَعْبَةِ ، فقُلْنَا : أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا ألاَ تَدْعُو لَنا ؟ فَقَالَ : « قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ في الأرضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأسِهِ فَيُجْعَلُ نصفَينِ ، وَيُمْشَطُ بأمْشَاطِ الحَديدِ مَا دُونَ لَحْمِه وَعَظْمِهِ ، مَا يَصُدُّهُ ذلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ الله هَذَا الأَمْر حَتَّى يَسيرَ الرَّاكبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَموتَ لاَ يَخَافُ إلاَّ اللهَ والذِّئْب عَلَى غَنَمِهِ ، ولكنكم تَسْتَعجِلُونَ » **رواه البخاري .**

وفي رواية : « وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينا مِنَ المُشْرِكِينَ شدَّةً » .

(**خَبَّاب بنِ الأَرتِّ**) صحابي جليل ، من السابقين إلى الإسلام ، وهو أول من أظهر إسلامه ، وأوذي في سبيل الله ، مات عام (٣٧) هـ بالكوفة .

(**متوسد بردة**) أي : كساء مخططاً ، والمعنى جاعل البردة وسادة له , من توسد الشيء جعله تحت رأسه.

(**ألاَ تَدْعُو لَنا**) أي على المشركين فإنهم يؤذوننا .

(**بِالمِنْشَارِ**) بكسر الميم هو آلة يشق بها الخشبة .

(**مَا دُونَ لَحْمِه وَعَظْمِهِ**) والمعنى ما عند عظمه ومن بيانية , وفي رواية للبخاري (ما دون لحمه من عظم أو عصب) قال القاري : أي ما تحت لحم ذلك الرجل أو غيره وهو الظاهر . وقال الطيبي : من بيان لما وفيه مبالغة بأن الأمشاط لحدتها وقوتها كانت تنفذ من اللحم إلى العظم وما يلتصق به من العصب .

(**ولكنكم تَسْتَعجِلُون**) أي : سيزول عذاب المشركين , فاصبروا على أمر الدين كما صبر من سبقكم .

١- الحديث دليل على عظم ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من الأذى في سبيل الله .

أ-عن عَائِشَةَ - رضي الله عنها - زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ (أنها قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) رواه البخاري .

ب-وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقاً شَدِيداً ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ فَقَالَ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ . وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُم) رواه البخاري ومسلم .

ج-عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَى جَزُورٍ ، فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ - عَلَيْهَا السَّلاَمُ - فَأَخَذَتْهُ مِنْ ظَهْرِهِ ، وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ - أَوْ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ » . شُعْبَةُ الشَّاكُّ - فَرَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأُلْقُوا فِي بِئْرٍ غَيْرَ أُمَيَّةَ أَوْ أُبَيٍّ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ ، فَلَمْ يُلْقَ فِي الْبِئْرِ) متفق عليه .

د- وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ (لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد) رواه الترمذي.

قال ابن القيم : هذا يفهم منه معنيان :

أحدهما : أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله ، وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره كما في الحديث (تعلمت فيك العلم) .

والثاني : أنه بسببه وبجهته حصل ذلك وهذا فيما يصيبه بغير اختياره وغالب ما يأتى قولهم (ذلك في الله) في هذا المعنى فتأمل قوله (ولقد أوذيت في الله) وقول خبيب وذلك (في ذات الإله) وقول عبد الله بن حزام (حتى أقتل فيك) .

هـ- قال عبد الله بن مسعود (أول من أظهر الإسلام سبعة، رسول الله ﷺ ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه ، فأعطوه الولدان , وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد) .

٢- سنة الله في تأخر النصر .

٣- تربية النبي ﷺ لأصحابه بالتأسي بالسابقين .

٤- أن الرسل تبتلى ثم يكون لها التمكين قال تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) .

٥- أن التعذيب من قبل أعداء الدعوة منذ القدم .

٦- يجب الإيمان والثقة بنصر الله ، وإن تأخر في نظر الشخص ، فإنما ذلك لحكمة .

٤٢- وعن ابن مسعودٍ ﷺ ، قَالَ : لَمَّا كَانَ يَومُ حُنَينٍ آثَرَ رسولُ الله ﷺ نَاساً في القسْمَةِ ، فَأعْطَى الأقْرَعَ بْنَ حَابسٍ مئَةً مِنَ الإبِلِ ، وَأعْطَى عُيَيْنَة بْنَ حصن مِثْلَ ذلِكَ ، وَأعطَى نَاساً مِنْ أشْرافِ العَرَبِ وآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ في القسْمَةِ . فَقَالَ رَجُلٌ : واللهِ إنَّ هذِهِ قِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا ، وَمَا أُريدَ فيهَا وَجْهُ اللهِ ، فَقُلْتُ : وَاللهِ لأُخْبِرَنَّ رسولَ الله ﷺ ، فَأَتَيْتُهُ فَأخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كالصِّرْفِ . ثُمَّ قَالَ : « فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لم يَعْدِلِ اللهُ وَرسولُهُ ؟ » ثُمَّ قَالَ : « يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بأكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبر » . فَقُلْتُ : لاَ جَرَمَ لاَ أرْفَعُ إِلَيْه بَعدَهَا حَدِيثاً . مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

وَقَوْلُهُ : « كالصِّرْفِ » هُوَ بِكَسْرِ الصَّادِ المُهْمَلَةِ : وَهُوَ صِبْغٌ أحْمَر .

(**لَمَّا كَانَ يَومُ حُنَينٍ**) أي : لما كانت غزوة حنين ، وهو واد بين مكة والطائف .

(**آثَرَ**) أي : فضل .

(**رسولُ الله ﷺ نَاساً في القسْمَةِ**) على غيرهم في الحظ والغنيمة .

(**فَقَالَ رَجُلٌ**) قال في الفتح : في رواية الأعمش (فقال رجل من الأنصار) .

(**واللهِ إنَّ هذِهِ قِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا ، وَمَا أُريدَ فيهَا وَجْهُ اللهِ**) قال القرطبي : هذا قول جاهل بحال النبي ﷺ ، غليظ الطبع ، حريص شره منافق .

(**فَقُلْتُ**) أي : ابن مسعود .

(**فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كالصِّرْفِ**) هُوَ بِكَسْرِ الصَّادِ المهْمَلَةِ : وَهُوَ صِبْغٌ أحْمَر .

(**فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لم يَعْدِلِ اللهُ وَرسولُه ؟**) الاستفهام هنا إنكاري بمعنى النفي ، والمعنى : لا أحد يعدل إذا لم يعدل الله .

(**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى**) ابن عمران .

١- الحديث دليل على صبر النبي ﷺ على من آذاه .

٢- في قوله (لقد أوذي موسى) تسلية لنفسه ﷺ ، وتحريض لأمته على الصبر على الأذى .

٣- عدل الرسول ﷺ في القسمة ، وقد جاء في رواية (ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أعدل) .

٤-اختلف في السبب في عدم قتله ﷺ للمنافقين مع علمه ببعضهم :

قيل : ما في الصحيحين: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِى ثَوْبِ بِلاَلٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِى النَّاسَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ . قَالَ « وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ » . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ . فَقَالَ « مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّى أَقْتُلُ أَصْحَابِي إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ) متفق عليه .

ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم ، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمدًا يقتل أصحابه، قال القرطبي: وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطي المؤلفة قلوبهم مع علمه بشر اعتقادهم.

وقيل : ما قال مالك، رحمه الله: إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه.

وقيل : ما قال الشافعي: إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأن ما يظهرونه يجبّ ما قبله ، ويؤيد هذا قوله ﷺ في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل) ومعنى هذا : أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهرًا، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه في الآخرة جريان الحكم عليه .

٤- الاقتداء بالأنبياء في صبرهم وثباتهم .

٥- جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنيمة تألفاً لهم .

٤٣- وعن أنسٍ ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ : ((إِذَا أَرَادَ الله بعبدِهِ الخَيرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ في الدُّنْيا ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِهِ الشَّرَّ أمْسَكَ عَنْهُ بذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يومَ القِيَامَةِ)) .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : ((إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ ، وَإنَّ اللهَ تَعَالَى إذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاَهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)) رواه الترمذي ، وَقالَ: ((حديث حسن)).

١- الحديث مصداق لقوله ﷺ (الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ ...) .

٢-أشد الناس بلاء الأنبياء لأسباب :

أولاً : زيادة في درجاتهم .

ثانياً : تكفيراً لسيئاتهم .

ثالثاً : للاقتداء بهم .

رابعاً : لأنه أعظم للتضرع والالتجاء لله .

٤- **فضل الرضا على البلاء .**

وكان ﷺ يقول (... وأسألك الرضا بعد القضاء) .

قال ابن القيم : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : سأله الرضا بعد القضاء لأنه حينئذ تبين حقيقة الرضا وأما الرضا قبله : فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه وإنما يتحقق الرضا بعده .

وقال ابن رجب : الرضا بالمصائب له درجتان :

الأولى : الرضا .

وهذه درجة عالية رفيعة جداً .

قال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) .

قال علقمة : هي المصيبة تصيب الرجل ، فيعلم أنها من عند الله ، فيسلّم ويرضى .

ومما يدعو المؤمن إلى الرضا بالقضاء تحقيق إيمانه بمعنى قول النبي ﷺ (لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك للمؤمن) .

وقال أبو الدرداء : إن الله إذا قضى قضاء أحب أن يُرضَى به .

وقال ابن مسعود : إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .

فالراضي لا يتمنى غير ما هو عليه من شدة ورخاء .

وقال عمر بن عبد العزيز : أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر .

ثم قال ابن رجب : فمن وصل إلى هذه الدرجة : كان عيشه كله في نعيم وسرور .

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) قال بعض السلف : الحياة الطيبة : الرضا والقناعة .

وقال عبد الواحد بن زيد : الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين .

الثانية : الصبر على البلاء لمن لم لا يستطيع الرضا .

وهذا واجب متحتم على المؤمن ، وفيه خير كثير ، قد تقدمت فضائله .

قال ابن رجب : والفرق بين الرضا والصبر :

أن الصبر كف النفس وحبسها عن التسخط مع وجود الألم ، وتمني زوال ذلك .

والرضا : انشراح الصدر وسعته بالقضاء ، وترك تمني زوال ذلك المؤلم .

٥- **قال ابن القيم مبيناً ثمرات الرضا :**

منها : أن الرضى يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس ، فإن حسن الخلق من الرضى ، وسوء الخلق من السخط .

ومنها : أن الرضى يخلصه من عيب ما لم يعبه الله ، ومن ذم ما لم يذمه الله ، فإن العبد إذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعايب وذمه بأنواع المذام ، وذلك منه قلة حياء من الله ، وذم لما ليس له ذنب وعيب لخلقه ، وذلك يسقط العبد من عين ربه .

ومنها : أن الرضى بالقدر يخلص العبد من أن يرضي الناس بسخط الله ، وأن يذمهم على ما لم يؤته الله ، وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله .

ومنها : أن الرضى يفرغ قلب العبد ويقلل همه وغمه ، فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها .

ومنها : أن الرضى يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته ، فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد .

ومنها : أن الرضا يفتح له باب السلامة ، فيجعل قلبه سليماً نقياً من الغش والدغل والغل ، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم ، كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا ، وكلما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم ، فالخبث والدغل والغش : قرين السخط ، وسلامة القلب من ثمرات الرضا . (مدارج السالكين) .

٤٤- وعن أنسٍ ﷺ ، قَالَ (كَانَ ابنٌ لأبي طَلْحَةَ ﷺ يَشتَكِي ، فَخَرَجَ أبُو طَلْحَةَ، فَقُبِضَ الصَّبيُّ ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ، قَالَ : مَا فَعَلَ ابْنِي ؟ قَالَتْ أمُّ سُلَيم وَهِيَ أمُّ الصَّبيّ : هُوَ أَسْكَنُ مَا كَانَ ، فَقَرَّبَتْ إليه العَشَاءَ فَتَعَشَّى ، ثُمَّ أَصَابَ منْهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ ، قَالَتْ : وَارُوا الصَّبيَّ فَلَمَّا أَصْبحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رسولَ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : ((أعَرَّسْتُمُ اللَّيلَةَ ؟)) قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : ((اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا)) ، فَوَلَدَتْ غُلاماً ، فَقَالَ لي أَبُو طَلْحَةَ : احْمِلْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبيَّ ﷺ ، وَبَعَثَ مَعَهُ بِتَمَراتٍ ، فَقَالَ : ((أَمَعَهُ شَيءٌ ؟)) قَالَ : نَعَمْ ، تَمَراتٌ ، فَأَخَذَهَا النَّبيُّ ﷺ فَمَضَغَهَا ، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا في فِيّ الصَّبيّ ، ثُمَّ حَنَّكَهُ وَسَمَّاهُ عَبدَ الله . مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

وفي رواية للبُخَارِيّ : قَالَ ابنُ عُيَيْنَةَ : فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ : فَرَأَيْتُ تِسعَةَ أَوْلادٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَؤُوا القُرْآنَ ، يَعْنِي : مِنْ أَوْلادِ عَبدِ الله المَولُودِ .

وَفي رواية لمسلمٍ (مَاتَ ابنٌ لأبي طَلْحَةَ مِنْ أمِّ سُلَيمٍ ، فَقَالَتْ لأَهْلِهَا : لاَ تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ، فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْه عَشَاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذلِكَ ، فَوَقَعَ بِهَا . فَلَمَّا أَنْ رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وأَصَابَ مِنْهَا ، قَالَتْ : يَا أَبَا طَلْحَةَ ، أَرَأَيتَ لو أنَّ قَوماً أعارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ ، أَلَهُمْ أن يَمْنَعُوهُمْ ؟ قَالَ : لا ، فَقَالَتْ : فَاحْتَسِبْ ابْنَكَ ، قَالَ : فَغَضِبَ ، ثُمَّ قَالَ : تَرَكْتِنِي حَتَّى إِذَا تَلطَّخْتُ ، ثُمَّ أَخْبَرتني بِابْنِي ؟! فانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رسولَ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: ((بَارَكَ اللهُ في لَيْلَتِكُمَا)) ، قَالَ : فَحَمَلَتْ . قَالَ : وَكَانَ رسولُ الله ﷺ في سَفَرٍ وَهِيَ مَعَهُ ، وَكَانَ رسولُ الله ﷺ إِذَا أَتَى المَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ لاَ يَطْرُقُهَا طُرُوقاً فَدَنَوا مِنَ المَدِينَة ، فَضَرَبَهَا المَخَاضُ ، فَاحْتَبَسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ ، وانْطَلَقَ رسولُ الله ﷺ . قَالَ : يَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ : إنَّكَ لَتَعْلَمُ يَا رَبِّ أَنَّهُ يُعْجِبُنِي أنْ أَخْرُجَ مَعَ رسولِ الله ﷺ إِذَا خَرَجَ وَأَدْخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ وَقَدِ احْتَبَسْتُ بِمَا تَرَى، تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أجدُ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا وَضَرَبَهَا المَخَاضُ حِينَ قَدِمَا فَوَلدَت غُلامَاً . فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ، لا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَغْدُو بِهِ عَلَى رسولِ الله ﷺ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رسولِ الله ﷺ ..وَذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيثِ.

(**كَانَ ابنٌ لأبي طَلْحَةَ ﷺ يَشتَكِي**) وفي الرواية الأخرى (اشتكى ابن لأبي طلحة) أي : مرض ، وليس المراد أنه صدرت منه شكوى ، لكن لما كان الأصل أن المريض يحصل منه ذلك استعمل في كل مرض لكل مريض ، والابن المذكور هو أبو عمير الذي كان النبي ﷺ يمازحه ويقول له : يا أبا عميْر ، ما فعل النغير .

(**فَقُبِضَ الصَّبيُّ**) أي : مات ، وفي الرواية الثانية (فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً ، ونحّته في جانب البيت ، فلما جاء أبو طلحة ، قال : كيف الغلام ؟ قالت : قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح ، وظن أبو طلحة أنها صادقة). أي : بالنسبة إلى ما فهمه من كلامها ، وإلا فهي صادقة بالنسبة إلى ما أرادت .

(**ثُمَّ أَصَابَ منْهَا**) وفي الرواية الثانية (فبات ، فلما أصبح اغتسل) كناية عن الجماع ، بدليل رواية الباب (ثم أصاب منها) وفي رواية أخرى (ثم تعرضت له فأصاب منها) .

(**فَلَمَّا فَرَغَ ، قَالَتْ : وَارُوا الصَّبيَّ**) أي : ادفنوه ، وفي الرواية الثانية (فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات ، فصلى مع النبي

ﷺ ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منها) .

(**أَعَرَّسْتُمُ اللَّيلَة ؟**) هُوَ بِإِسْكَانِ الْعَيْن ، وَهُوَ كِنَايَة عَنْ الْجِمَاع .

١-وَفِي هَذَا الْحَدِيث مَنَاقِب لِأُمِّ سُلَيْمٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا مِنْ عَظِيم صَبْرهَا، وَحُسْن رِضَاهَا بِقَضَاءِ اللَّه تَعَالَى، وَجَزَالَة عَقْلهَا فِي إِخْفَائِهَا مَوْته عَلَى أَبِيهِ فِي أَوَّل اللَّيْل لِيَبِيتَ مُسْتَرِيحًا بِلَا حُزْن، ثُمَّ عَشَّتْهُ وَتَعَشَّتْ ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ، وَعَرَّضَتْ لَهُ بِإِصَابَتِهِ فَأَصَابَهَا.

من فضائلها :

أولاً : العقل والحكمة: فقد كانت من عقلاء النساء .

وموقفها مع زوجها أبي طلحة يوم وفاة ولدها —كما في حديث الباب – يدل علي ذلك ، وهو موقف يدل عقل راجح وحكمة بالغة، وصبر جميل .

ثانياً : الشجاعة والإقدام .

فكانت تغزو مع رسول الله ﷺ ولها قصص مشهورة .

فقد أخرج ابن سعد بسند صحيح (أن أم سليم اتخذت خنجراً يوم حنين فقال أبو طلحة يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر ، فقالت : اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت بطنه) .

وكانت أم سليم بنت ملحان مع زوجها أبي طلحة فالتفت رسول الله ﷺ وهى حازمة وسطها ومعها جمل أبى طلحة فقالت بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك فقال رسول الله ﷺ أو يكفي الله يا أم سليم .

ثالثاً : حب النبي ﷺ واقتفاء أثره في كل شيء .

فعن أنس بن مالك (أن النبيﷺ دخل على أم سليم بيتها ، وفي البيت قربة معلقة فيها ماء فتناولها فشرب من فيها وهو قائم فأخذتها أم سليم فقطعت فمها فأمسكته) .

وكان النبي ﷺ يعرف حرص أم سليم على ذلك ويقدر لها ذلك ويمكنها من التبرك به ﷺ كلما أمكن ، ولذا فقد ثبت عنه ﷺ أنه لما حلق شعره يوم النحر ، أشار بيده إلى الجانب الأيمن هكذا ، فقسم شعره بين من يليه ، ثم أشار إلى الحلاق وإلى الجانب الأيسر فحلقه فأعطاه أم سليم .

فهكذا ساوى النبي ﷺ أم سليم بالناس حين أعطاها وحدها نصف شعر الرأس، وأعطى بقية الناس النصف الآخر، وما ذاك إلا تقدير منه ﷺ لأم سليم على اعتنائها الشديد بتتبع آثاره ، وهو دليل على حبها الشديد للنبي ﷺ وقربها منه ﷺ .

وعن أم سليم قالت (كان رسول الله ﷺ يقيل في بيتي فكنت أبسط له نطعاً فيقيل عليه فيعرق فكنت آخذ سكاً فأعجنه بعرقه).

رابعاً : العلم والفقه .

ففي صحيح البخاري عن عكرمة (أن أهل المدينة سألوا ابن عباس رضي الله عنهما عن امرأة طافت ثم حاضت قال لهم: تنفر، قالوا: لا نأخذ بقولك وندع قول زيد رضي الله عنه ، قال إذا قدمتم المدينة فسلوا، فقدموا المدينة فكان فيمن سألوا أم سليم فذكرت حديث صفية ، أي : قول النبي ﷺ لحفصة عقرى حلقى إنك حابستنا أما كنت طفت يوم النحر؟ قالت: بلى، قال: فلا بأس انفري) .

ومن مناقبها وفضائلها : قال النبي ﷺ (دخلت الجنة فسمعت خشفة فقلت من هذا؟ قالوا هذه الغميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك) .

وكان النبي ﷺ لا يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه إلا أم سليم فإنه كان يدخل عليها فقيل له في ذلك فقال إني

أرحمها قتل أخوها معي .

توفيت في حدود الأربعين في خلافة معاوية فرضي الله عن أم سليم وأرضاها .

٢- وَفِيهِ اِسْتِعْمَال الْمَعَارِيض عِنْد الْحَاجَة لِقَوْلِهَا : (هُوَ أَسْكَنُ مِمَّا كَانَ) فَإِنَّهُ كَلَام صَحِيح ، مَعَ أَنَّ الْمَفْهُوم مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ هَانَ مَرَضه وَسَهُلَ ، وَهُوَ فِي الْحَيَاة . وَشَرْط الْمَعَارِيض الْمُبَاحَة أَلَّا يَضِيع بِهَا حَقّ أَحَد وَاللَّه أَعْلَم .

٣- جواز الأخذ بالشدة وترك الرخصة مع القدرة عليها والتسلية عن المصائب .

٤-وجوب الصبر والاحتساب عند المصيبة .

٥-وفيه تزين المرأة لزوجها ، وتعرضها لطلب الجماع منه .

٦- أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه .

٧- بيان حال أم سليْم من التجلد وجودة الرأي وقوة العزم .

٨-تواضع النبي ﷺ ووسمه بيده.

٩-استحباب تحنيك المولود وأن يكون بالتمر، وقد كانوا يبعثون بمواليدهم للنبي ﷺ لتحنيكهم لأجل البركة كما في الحديث، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : ولد لي غلام فأتيت به النبي ﷺ ، فسماه إبراهيم و حنكه بتمرة، و زاد البخاري:" و دعا له بالبركة و دفعه إلي ".

١٠- عناية الإسلام والأطفال، وتكريمه لهم منذ خروجهم إلى الدنيا.

١١- استحباب تسمية المولود في يومه الأول، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ :

حيث قال (وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَد سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيم) متفق عليه .

وكذلك ثبت فيهما (أن أنس بن مالك ذهب بأخيه، حين ولدته أمه، إلى رسول الله ﷺ فَحَنَّكه وسماه عبد الله) .

وفي صحيح البخاري (أن رجلا قال: يا رسول الله، وُلِدَ لي وَلَد، فما أُسمّيه؟ قال: اسْم وَلدِك عَبْد الرَّحْمَنِ) .

١٢- مشروعية التبرك بالنبي ﷺ في حياته؛ بريقه وما لا مس جسده ، وليس ذلك لأحد بعد النبي عليه الصلاة والسلام، حيث لم يفعله الناس مع كبار الصحابة رضي الله عنهم.

١٣-مشروعية تسجية الميت ولو كان طفلاً صغيراً .

١٤-مشروعية خدمة المرأة لزوجها .

١٥-فيه صفة المرأة الصالحة .

١٦-فيه الفزع لأهل العلم في الهموم والمسائل .

٤٥- وعن أبي هريرةَ ﷺ أنّ رسولَ الله ﷺ ، قَالَ : ((لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ ، إنَّمَا الشَدِيدُ الَّذِي يَملكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

((**وَالصُّرَعَةُ**)) : **بضَمّ الصَّادِ وَفَتْحِ الرَّاءِ وأَصْلُهُ عِنْدَ العَرَبِ مَنْ يَصْرَعُ النَّاسَ كَثيراً .**

٤٦- وعن سُلَيْمَانَ بن صُرَدٍ ﷺ ، قَالَ : كُنْتُ جالِساً مَعَ النَّبيّ ﷺ ، وَرَجُلانِ يَسْتَبَّانِ ، وَأَحَدُهُمَا قدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ ، وانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ ، فَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ : ((إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ ، لَوْ قَالَ : أعُوذ باللهِ منَ الشَّيطَانِ

الرَّجِيمِ ، ذَهَبَ منْهُ مَا يَجِدُ)) . فَقَالُوا لَهُ : إنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ : ((تَعَوّذْ باللهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

٤٧–وعن معاذِ بنِ أَنسٍ ﷺ : أنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ : ((مَنْ كَظَمَ غَيظاً ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُنْفِذَهُ ، دَعَاهُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالى عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ)) رواه أبو داود والترمذي، وَقالَ: حديث حسن .

٤٨–وعن أبي هريرةَ ﷺ : أنَّ رَجُلاً قَالَ للنبي ﷺ : أوصِني . قَالَ : ((لا تَغْضَبْ)) فَرَدَّدَ مِراراً ، قَالَ : ((لاَ تَغْضَبْ)) رواه البخاري .

(**لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ**) أي : الذي يصرع الناس كثيراً بقوته ، وقد جاء عن أنس أن النبي ﷺ مر بقوم يصطرعون فقال ما هذا قالوا فلان ما يصارع أحدا إلا صرعه قال أفلا أدلكم على من هو أشد منه رجل كلمه رجل فكظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه . رواه البزار بسند حسن

١– في الأحاديث التحذير من الغضب .

٢– أن الشديد حقيقة هو من يملك نفسه عند الغضب .

عن أنس (أن النبي ﷺ مرّ على أناس يصطرعون ، فقال: ما هذا؟ قالوا : فلان ما يصارع أحداً إلا صرعه، قال: أفلا أدلكم على من هو أشد منه؟ رجل كلمه رجلاً مكتظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه) رواه البزار بسند حسن .

٣– قوله ﷺ (لا تغضب) قال السعدي : والنهي عن الغضب في قوله ﷺ (لا تغضب) يتضمن أمرين عظيمين :

أحدهما : الأمر بفعل الأسباب ، والتمرن على حسن الخلق ، والحلم والصبر . (النهي عن تعاطي الأسباب الموصلة إليه من كل ما يحمل الغضي ويهيجه) .

و**الثاني** : الأمر – بعد الغضب – أن لا ينفذ غضبه : فإن الغضب غالباً لا يتمكن الإنسان من دفعه ورده ، ولكنه يتمكن من عدم تنفيذه .

٤– الغضب ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : مذموم .

وهو الغضب الدنيوي الذي حذرنا منه النبي ﷺ كما في حديث الباب .

القسم الثاني : وهو محمود .

ما كان لله وللحق .

قالت عائشة (وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله) متفق عليه .

وغضب ﷺ لما شكيَ إليه الإمام الذي يطيل بالناس صلاته حتى يتأخر بعضهم عن الصلاة معه ، غضب واشتد غضبه ووعظ الناس وأمر بالتخفيف .

٥– علاج الغضب :

أولاً : الاستعاذة بالله من الشيطان .

لحديث الباب ، سليمان بن صرد .

وقال ﷺ (إذا غضب الرجل فقال أعوذ بالله ، سكن غضبه) .

ثانياً : السكوت .

قال رسول الله ﷺ (إذا غضب أحدكم فليسكت) رواه أحمد .

ثالثاً : السكون .

قال رسول الله ﷺ (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع) رواه أحمد .

قال العلامة الخطابي – رحمه الله – في شرحه على أبي داود : (القائم متهيئ للحركة والبطش ، والقاعد دونه في هذا المعنى ، والمضطجع ممنوع منهما ، فيشبه أن يكون النبي ﷺ إنما أمره بالقعود والاضطجاع لئلا يبدر منه في حال قيامه وقعوده بادرة يندم عليها فيما بعد) .

رابعاً : تذكر وصية النبي ﷺ للرجل : لا تغضب .

كما في حديث الباب ، حديث أبي هريرة .

وقد جاء في رواية قال الرجل : ففكرت حين قال النبي ﷺ ، ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله .

خامساً : من أسباب دخول الجنة .

فقد جاء في رواية لحديث الباب (لا تغضب ولك الجنة) وعزاه ابن حجر إلى الطبراني .

سادساً : الأجر العظيم لمن كظم غيظه .

لحديث الباب ، (من كظم غيظاً وهو قادر على ....) .

سابعاً : معرفة الرتبة العالية والميزة المتقدمة لمن ملك نفسه .

لحديث الباب (ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) .

وقال ﷺ (الصرعة كل الصرعة الذي يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه ، ويقشعر شعره فيصرع غضبه) . رواه الإمام أحمد

وينتهز عليه الصلاة والسلام الفرصة في حادثة أمام الصحابة ليوضّح هذا الأمر .

فعن أنس (أن النبي ﷺ مرّ بقوم يصطرعون، فقال: ما هذا؟ قالوا: فلان الصريع ما يصارع أحداً إلا صرعه قال: أفلا أدلكم على من هو أشد منه، رجلٌ ظلمه رجلٌ فكظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه). رواه البزار قال ابن حجر بإسناد حسن

ثامناً : التأسي بهديه ﷺ في الغضب .

وهذه السمة من أخلاقه ﷺ ، وهو أسوتنا وقدوتنا ، واضحة في أحاديث كثيرة ، ومن أبرزها :

حديث أنس رضي الله عنه قال (كنت أمشي مع رسول الله ﷺ ، وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة ، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ (ما بين العنق والكتف) وقد أثرت بها حاشية البرد ، ثم قال : يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه صلى الله عليه وسلم فضحك ، ثم أمر له بعطاء) متفق عليه .

تاسعاً : معرفة أن رد الغضب من علامات المتقين .

قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين) .

ومن أخلاقهم أنهم (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) .

عاشراً : دعاء الله .

كان من دعائه عليه السلام (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى ...) .

قال الحافظ ابن رجب : وأما قوله (وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا) فعزيز جداً ، وقد مدح الله من يغفر عند غضبه فقال (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) لأن الغضب يحمل صاحبه على أن يقول غير الحق ، ويفعل غير العدل ، فمن كان لا يقول

إلا الحق في الغضب والرضا ، دل ذلك على شدة إيمانه وأنه يملك نفسه .

ثم قال رحمه الله : فإن من لا يملك نفسه عند الغضب إذا غضب قال فيمن غضب عليه ما ليس فيه من العظائم ، وهو يعلم أنه كاذب .

٤- في حديث (من كظم غيظاً ...) فضل كظم الغيظ .

أ-قال تعالى (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ب-وقال تعالى (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) .

ج- حديث الباب (من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله ...) .

د-وقال ﷺ (من كظم غيظا و لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة) أخرجه ابن أبي لدنيا في (قضاء الحوائج) عن ابن عمر وحسنه الألباني .

هـ- وقال ﷺ (ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله) قال الألباني : أخرجه أحمد بإسنادين عنه ، أحدهما صحيح .

٥-من أقوال السلف في الغضب ؟

قال أحد السلف: إياك والغضب، فإنه يصيرك إلى ذل الاعتذار .

وقال بعضهم: عجباً لمن قيل فيه السوء وهو فيه كيف يغضب!، وعجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح!

وقال مورق العجلي : ما قلت في الغضب شيئاً إلا ندمت عليه في الرضا .

وكان الشعبي ينشد :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وكان ابن عون إذا اشتد غضبه على أحد قال : بارك الله فيك ولم يزد .

وقال الفضيل بن عياض : أنا منذ خمسين سنة أطلب صديقاً إذا غضب لا يكذب عليّ ما أجده .

وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر .

وقيل لابن المبارك : اجمع لنا حسن الخلق في كلمة : قال : ترك الغضب .

وروي أن معاوية بن أبي سفيان قال لعرابة بن أوس : بم سدت قومك يا عرابة ؟ فقال عرابة : يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم ، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمن فعل منهم فعلي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه .

وممن اشتهر بالحلم وعدم الغضب الأحنف بن قيس وكان يقال : أحلم من أحنف .

فائدة : نبذة من أقوال وقصص الأحنف بن قيس :

قال ابن المبارك: قيل للأحنف بم سودوك ؟ قال: لو عاب الناس الماء لم أشربه.

وقال خالد بن صفوان: كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه.

وقيل للأحنف: إنك كبير والصوم يضعفك. قال: إني أعده لسفر طويل.

قال مغيرة : ذهبت عين الأحنف فقال: ذهبت من أربعين سنة ما شكوتها إلى أحد.

قال الحسن: ذكروا عن معاوية شيئاً فتكلموا، والأحنف ساكت. فقال: يا أبا بحر! مالك لا تتكلم؟ قال: أخشى الله إن

كذبت، وأخشاكم إن صدقت.

وعن الأحنف: عجبت لمن يجري في مجرى البول مرتين كيف يتكبر .

قيل : عاشت بنو تميم بحلم الأحنف أربعين سنة .

قال سليمان التيمي: قال الأحنف: ثلاث فيّ ما أذكرهن إلا لمعتبر: ما أتيت باب سلطان إلا أن أدعى، ولا دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما، وما أذكر أحداً بعد أن يقوم من عندي إلا بخير.

وقال: ما نازعني أحد إلا أخذت أمري بأمور : إن كان فوقي عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان مثلي تفضلت عليه، وقال لست بحليم ولكني أتحالم.

وقيل: إن رجلاً خاصم الأحنف، وقال: لئن قلت واحدة لتسمعن عشراً ، فقال: لكنك إن قلت عشراً لم تسمع واحدة.

وقيل : إن رجلاً قال للأحنف: بم سدت ؟ وأراد أن يعيبه، قال الأحنف : بتركي ما لا يعنيني، كما عناك من أمري ما لا يعنيك.

وعن الأحنف قال: ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة : شريف من دنيء، وبر من فاجر، وحليم من أحمق.

وسئل ما المروءة ؟ قال: كتمان السر، والبعد عن الشر ، والكامل من عدت سقطاته.

وعنه قال : رأس الأدب آلة المنطق، لا خير في قول بلا فعل، ولا في منظر بلا مخبر، ولا في مال بلا جود، ولا في صديق بلا وفاء، ولا في فقه بلا ورع، ولا في صدقة إلا بنية، ولا في حياة إلا بصحة وأمن .

ورأى الأحنف في يد رجل درهماً ، فقال: لمن هذا ؟ قال لي ، قال: ليس هو لك حتى تخرجه في أجر أو اكتساب شكر.. وتمثل :

أنت للمال إذا أمسكته *** فإذا أنفقته فالمال لك

وقيل: كان الأحنف إذا أتاه رجل وسع له، فإن لم يكن له سعة أراه كأنه يوسع له.

وعنه قال: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام؛ إني أبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه .

وقيل: إنه كلم مصعباً في محبوسين قال: أصلح الله الأمير! إن كانوا حبسوا في باطل فالعدل يسعهم، وإن كانوا حبسوا في الحق فالعفو يسعهم.

وعنه قال: لا ينبغي للأمير الغضب ، لأن الغضب في القدرة مفتاح السيف والندامة.

وعنه قال: لا يتم أمر السلطان إلا بالوزراء والأعوان، ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا بالرأي والعفة.

٥٠- وعن ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ : قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بنِ قَيسٍ ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمرُ ﷺ ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِس عُمَرَ ﷺ وَمُشاوَرَتِهِ كُهُولاً كانُوا أَوْ شُبَّاناً ، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أخيهِ : يَا ابْنَ أَخِي ، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَاسْتَأذِنْ لِي عَلَيهِ ، فاسْتَأذَن فَأذِنَ لَهُ عُمَرُ . فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ : هِي يَا ابنَ الخَطَّابِ ، فَواللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ وَلا تَحْكُمُ فِينَا بالعَدْلِ . فَغَضِبَ عُمَرُ ﷺ حَتَّى هَمَّ أنْ يُوقِعَ بِهِ . فَقَالَ لَهُ الحُرُّ : يَا أميرَ المُؤْمِنينَ ، إنَّ

الله تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِين) وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ ، واللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا ، وَكَانَ وَقَّافاً عِنْدَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى . رواه البخاري .

(**قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ**) الفزاري معدود في الصحابة ، كان في الجاهلية موصوفاً بالشجاعة والجهل والجفاء ، ثم أسلم في الفتح وشهد مع النبي ﷺ حنيناً فأعطاه مع المؤلفة قلوبهم

(**وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمرُ رضي الله عنه**) بيّن بعد ذلك السبب بقوله (وَكَانَ القُرَّاءُ أصْحَابَ مَجْلِس عُمَرَ رضي الله عنه) .

(**فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أخيهِ : يَا ابْنَ أخِي ، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأمِيرِ**) هذا من جملة جفاء عيينة إذ كان من حقه أن ينعته بأمير المؤمنين ولكنه لا يعرف منازل الكبار .

(**هِي يَا ابنَ الخَطَّابِ**) هذا أيضاً من جفائه حيث خاطبه بهذه المخاطبة .

فَواللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ) الجزل : العطاء الكثير .

(**وَكَانَ وَقَّافاً عِنْدَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى**) كناية عن امتثاله للآية والاهتمام بأمرها ، وعدم تجاوز ذلك .

١-الحديث دليل على فضل كظم الغيظ وترك الانتقام .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (من كان تقياً لم يفش غيظه ، ولولا القيامة لكان ما ترون) .

٢- الحديث دليل على وقوف السلف عند معاني القرآن والعلم به وتدبره ، فعمر وقف عند ذكّر بهذه الآية .

ومن الأمثلة على ذلك :

عن عائشة قالت (... فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئاً أَبَداً بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بَلَى ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي ، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِى عَلَيْه) رواه البخاري .

وعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قال (كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالاً وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَى وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ . قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرَحَى وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ شِئْتَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « بَخْ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ » . فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّه) متفق عليه .

وعن ابن عمر قال (حضرتني هذه الآية (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) فذكرت ما أعطاني الله ، فلم أجد شيئاً أحب إليّ من مرجانة ، جارية لي رومية ، فقلت : هي حرة لوجه الله ، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لأنكحتها نافعاً) رواه البزار .

ولما نزلت الآية (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قال زيد بن حارثة : اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إليّ من فرسي هذه ، فجاء بها إلى النبي ﷺ فقال : هذه في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : قد قبله الله منك) .

وروى عن الثوري أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خثيم قالت (كان إذا جاءه السائل يقول لي : يا فلانة أعطي السائل سكراً فإن الربيع يحب السكر) قال سفيان يتأول قوله جل وعز (لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّون) .

وروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه (أنه كان يشتري أعدالاً من السكر ويتصدق بها .فقيل له: هلا تصدقت بقيمتها ؟ فقال : لأن السكر أحب إليَّ فأردت أن أنفق مما أحب) .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : (لما نزلت هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) كان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال :أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ وأنا من أهل النار حبط عملي وجلس في أهله حزيناً ، ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له :تفقدك رسول الله ﷺ مالك ؟ قال أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي وأجهر له بالقول حبط عملي أنا من أهل النار ، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال فقال النبي ﷺ لا ، بل هو من أهل الجنة ، قال أنس ﷺ فكنا نراه يمش بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه ، فقال : بئسما تعودون أقرانكم ، فقاتلهم حتى قُتِلَ ﷺ) رواه أحمد في المسند واللفظ له ، ومسلم نحوه .

هكذا كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين إذا سمعوا آيات الله ظنوا أنها ما أنزلت إلا فيهم ، وما تخاطب إلا هم أما نحن فشتان ما بيننا وبينهم نسمع آيات الله ونظن أنها نزلت لغيرنا ، فكان هذا حال السلف وهذا حالنا فإلى الله المشتكى .

عن معقل بن يسار أنها نزلت فيه (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ...) قال : زوجت أختاً لي من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها ، فقلت له زوجتك وأفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها ، لا والله لا تعود إليك أبداً ، وكان رجلاً لا بأس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه ، فأنزل الله هذه الآية (... فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ..) فقلت: الآن أفعل يا رسول الله! قال : فزوجها إياه) .

وفي رواية أبي مسلم الكجي من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن (فسمع ذلك معقل بن يسار فقال : سمعاً لربي وطاعة ، فدعا زوجها فزوجها إياه) رواه البخاري .

٥١–وعن ابن مسعود ﷺ : أن رَسُول الله ﷺ ، قَال (إِنَّهَا سَتَكونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا !)) قَالُوا : يَا رَسُول الله، فَمَّا تَأْمُرُنا ؟ قَالَ : ((تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ ، وَتَسأَلُونَ الله الَّذِي لَكُم) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

((**وَالأَثَرَةُ**)) : **الانْفِرادُ بالشَّيءِ عَمنَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ .**

٥٢–وعن أبي يحيى أُسَيْد بن حُضَير ﷺ (أنَّ رَجُلاً مِنَ الأنْصارِ ، قَالَ : يَا رسولَ الله ، ألاَ تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلاناً ، فَقَالَ : ((إنكُمْ سَتَلْقَونَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوني عَلَى الحَوْض) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

((**وَأُسَيْدٌ**)) : **بضم الهمزة** . ((**وحُضيْرٌ**)) : **بحاءٍ مهملة مضمومة وضاد معجمة مفتوحة**

(**بَعْدِي أَثَرَةٌ**) عرفها المصنف – رحمه الله – بقوله :الانْفِرادُ بالشَّيءِ عَمنَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ .

قال السندي : أي إن الأمراء بعدُ يفضلون عليكم غيركم .

(**وعن أبي يحيى أُسَيْد بن حُضَير**) صحابي جليل .

(**أنَّ رَجُلاً مِنَ الأنْصار**) قال الحافظ : لم أقف على اسمه ، عند مسلم (فخلا برسول الله ﷺ) .

١– الحديث دليل على علم من أعلام النبوة ، حيث أخبر ﷺ أنه ستكون بعده أثرة .

٢– الحديث دليل على وجوب الصبر على ظلم الولاة وعدم الخروج عليهم ، وذلك لسببين :

الأول : لما ينتج من ذلك من فساد كبير وفتنة عظيمة .

ثانياً : أن أكثر من يخرج عن ولاة الأمور إنما يخرجون لأجل الدنيا لا لله .

قال النووي : وَفِيهِ الْحَثّ عَلَى السَّمْع وَالطَّاعَة ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَوَلِّي ظَالِمًا عَسُوفًا ، فَيُعْطَى حَقّه مِنْ الطَّاعَة ، وَلَا يُخْرَج عَلَيْهِ وَلَا يُخْلَع ؛ بَلْ يُتَضَرَّع إِلَى اللَّه تَعَالَى فِي كَشْف أَذَاهُ ، وَدَفْع شَرّه وَإِصْلَاحه ،

قال ابن تيمية : فَالْخُرُوج عَلَيْهِمْ يُوجِبُ مِنْ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ أَكْثَرَ مِنْ ظُلْمِهِمْ فَيُصْبَرُ عَلَيْهِ كَمَا يُصْبَرُ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ عَلَى ظُلْمِ الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ) وَقَوْلِهِ (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) وَقَوْلِهِ (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) وَهَذَا عَامٌّ فِي وُلَاةِ الْأُمُورِ وَفِي الرَّعِيَّةِ .

وقال رحمه الله أيضاً : ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة ، أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ ، لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة ، فلا يدفع أعظم الفسادَيْن بالتزام أدناهما ، ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته .

وقال رحمه الله : والإسلام جاء بالعلم النافع والعمل الصالح , بمعرفة الحق وقصده ، فيتفق أن بعض الولاة يظلم باستئثارٍ فلا تصبر النفوس على ظلمة , ولا يمكنها دفع ظلمة إلا بما هو أعظم فساداً منه , ولكن لأجل محبة الإنسان لأخذ حقه ودفع الظلم عنه , لا ينظر في الفساد العام الذي يتولد عن فعله ، ولهذا قال النبي ﷺ (إنكم ستلقون بعدي أثرة فأصبروا حتى تلقوني على الحوض) . وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك وأسيد بن حضير (أن رجلاً من الأنصار قال : يا رسول الله ألا تستعملني كما استعملت فلاناً ؟ قال : ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض) .

- **وقال رحمه الله** : ... فهذا أمره بقتال الخوارج , وهذا نهيه عن قتال الولاة الظلمة ، وهذا مما يُستدل به على أنه ليس كل ظالم باغ يجوز قتاله ... ومن أسباب ذلك أن الظالم الذي يستأثر بالمال والولايات لا يُقاتل في العادة إلا لأجل الدنيا , يقاتله الناس حتى يعطيهم المال والولايات , وحتى لا يظلمهم , فلم يكن أصل قتالهم ليكون الدين كله لله , ولتكون كلمة الله هي العليا , ولا كان قتالهم من جنس قتال المحاربين قطاع الطريق .

وبالجملة العادة المعروفة أن الخروج على ولاة الأمور يكون لطلب ما في أيديهم من المال والإمارة , وهذا قتال على الدنيا . (منهاج السنة) ١٥٢/٥

٣- الحديث دليل على إثبات الحوض .

- **تعريف الحوض** :

لغة : مجمع الماء .

وشرعاً : مجمع ماء عظيم يضعه الله عز وجل في عرصات القيامة يرده المؤمنون .

والعرصات : جمع عرصة ، وهي الأرض الفسيحة الواسعة التي لا بناء فيها ولا شجر .

- **يجب الإيمان بثبوت هذا الحوض للرسول ﷺ وقد تواترت أدلته** :

قال ابن أبي العز : والأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً ، ولقد استقصى طرقها شيخنا عماد الدين بن كثير تغمده الله برحمته في آخر تاريخه الكبير المسمى : بالبداية والنهاية .

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أنا فرطكم على الحوض) . متفق عليه

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إني فرطكم على الحوض ، من يرد عليّ شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ...) .

- **الحوض موجود الآن :**

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على حوضي). متفق عليه

وفي حديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال (إني فرطكم على الحوض ، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن) رواه البخاري .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (والله إني لأنظر إلى حوضي الآن) يحتمل أنه كشف له عنه لما خطب ، وهذا هو الظاهر، قال : ويحتمل أنه يريد رؤية القلب .

- **في كيفية مائه ورائحته .**

في الحديث (ماؤه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب من ريح المسك) .

فقوله (ماؤه أشد بياضاً من اللبن) هذا في اللون .

وقوله (وأحلى من العسل) هذا في الطعم .

وقوله (وأطيب من ريح المسك) هذا في الرائحة .

- **آنيته :**

في الحديث (... آنيته كنجوم السماء) .

هذا الفظ (كنجوم السماء) أشمل من لفظ (عدد نجوم السماء) ،كنجوم السماء في العدد ، وفي النور واللمعان .

- **آثار هذا الحوض :**

جاء في الحديث (من يشرب منه فلا يظمأ أبداً) .

- **أول من يرد الحوض :**

عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن حوضي من عدن إلى عمان البلقاء ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين الشعث رؤوساً ، الدنس ثياباً ، الذين لا ينكحون المنعمات ، ولا تفتح لهم السدد ، الذين يعطون الحق الذي عليهم ، ولا يُعطَون الذي لهم) . رواه الترمذي وصححه الألباني .

- **مساحته .**

جاء في الحديث (طوله شهر وعرضه شهر) .

- **مادته :**

هذا الحوض يصب فيه ميزابان .

عن أبي ذر ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال : (والذي نفسي بيده ، لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ، يشخب فيه ميزابان من الجنة ، من شرب منه لم يظمأ ...) . رواه مسلم

- **اختلف العلماء هل لكل نبي حوض أم هو خاص برسولنا ﷺ .**

قيل : لكل نبي حوض .

عن سمرة بن جندب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (لكل نبي حوضاً ، وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة ، وإني أرجو أن أكون أكثر واردة) . رواه الترمذي [وهذا الحديث مختلف فيه فبعضهم صححه وبعضهم ضعفه ولو صح لكان نصاً في محل النزاع] .

وقيل : أنه لا حوض إلا لرسول ﷺ .

قالوا : إن الحديث (إن لكل نبي حوضاً) فيه ضعف .

وقالوا : إن حوض النبي ﷺ هو الحوض الذي تواترت فيه الأدلة .

ورجح بعضهم : لكل نبي حوض ، لكن الحوض الأكبر والأفضل والأعظم هو حوض الرسول ﷺ .

- **من يرد حوض .**

يرد حوض النبي ﷺ في الجملة كل مؤمن لم يتلبس بمانع من موانع ورود الحوض التي تضمنتها الأحاديث السابقة، غير أن النبي ذكر بعض الأعمال الخاصة التي هي أسباب لنيل شرف وردود حوضه ﷺ منها :

أ-الصبر عند الأَثَرة .

ويدل على ذلك حديث الباب (إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض) متفق عليه.

ب-عدم الدخول على أئمة الجور ممالأةً ونفاقاً لهم .

فعن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ أنه قال (أنه ستكون بعدي أمراء، من دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، وليس يرد علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم، ولم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه، وسيرد على الحوض) رواه الترمذي والنسائي

- **من يحرم من الشرب من الحوض :**

عن سهل . قال : قال رسول الله (أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم) .

وفي رواية (إني على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم ، سيُؤخذ أناس دوني ، فأقول : يا رب مني ومن أمتي ؟ فيقال : أما شعرتَ ما عملوا بعدك ، والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم) .

وفي رواية : (إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى) . رواه البخاري

- **الفرق بين الكوثر والحوض :**

أ-أن الكوثر أعظم من الحوض ، فالكوثر نهر عظيم يجري ، والحوض مجمع الماء .

ب-أن الكوثر في الجنة ، والحوض في أرض المحشر .

ج-أن الكوثر أصل ، والحوض فرع عنه ، لأنه ثبت أن للحوض ميزابين .

٥٣- وعن أبي إبراهيم عبدِ الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما : أنَّ رَسُول الله ﷺ في بعْضِ أيامِهِ التي لَقِيَ فِيهَا العَدُوَّ ، انْتَظَرَ حَتَّى إِذَا مالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فيهمْ ، فَقَالَ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، لا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ العَدُوِّ ، وَاسْأَلُوا الله العَافِيَةَ ، فَإِذَا لقيتُمُوهُمْ فَاصْبرُوا ، وَاعْلَمُوا أنّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيوفِ)) .

ثُمَّ قَالَ النَّبيُّ ﷺ (اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

(**عبدِ الله بن أبي أوفى**) واسم أبي أوفى : علقمة بن قيس ، كان أبوه صحابياً أيضاً ، وهو وأبوه من أهل بيعة الرضوان ، شهد الحديبية وخيبر وما بعدهما ، مات سنة ٨٧ هـ .

(**في بعْضِ أيامِهِ**) أي : أيام غزواته وحروبه .

(**حَتَّى إِذَا مالَتِ الشَّمْسُ**) أي : مالت عن كبد السماء إلى جهة الغروب وهو وقت الزوال .

١- الحديث دليل على النهي عن تمني لقاء العدو، لما في ذلك من الاغترار بالنفس والثقة بها، ولما في ذلك من الإعجاب بالقوة، وعدم الاهتمام بالعدو .

قال ابن بطال : حكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر, وهو نظير سؤال العافية من الفتن, وقد قال الصديق: لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر ، وقال غيره : إنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والإنكال على النفوس والوثوق بالقوة وقلة الاهتمام بالعدو , وكل ذلك يباين الاحتياط والأخذ بالحزم .

وقيل يحمل النهي على ما إذا وقع الشك في المصلحة أو حصول الضرر , وإلا فالقتال فضيلة وطاعة . ويؤيد الأول تعقيب النهي بقوله (وسلوا الله العافية) وأخرج سعيد بن منصور من طريق يحيى بن أبي كثير مرسلاً (لا تمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون عسى أن تبتلوا بهم) . (الفتح) .

وقال ابن دقيق العيد : لما كان لقاء الموت من أشق الأشياء على النفس ، وكانت الأمور الغائبة ليست كالأمور المحققة، لم يؤمن أن يكون عند الوقوع كما ينبغي فيكره التمني لذلك ، ولما فيه لو وقع من احتمال أن يخالف الإنسان ما وعد من نفسه , ثم أمر بالصبر عند وقوع الحقيقة .

وقال النووي : إِنَّمَا نَهَى عَنْ تَمَنِّي لِقَاء الْعَدُوّ لِمَا فِيهِ مِنْ صُورَة الْإِعْجَاب وَالِاتِّكَال عَلَى النَّفْس , وَالْوُثُوق بِالْقُوَّةِ , وَهُوَ نَوْع بَغْي , وَقَدْ ضَمِنَ اللَّه تَعَالَى لِمَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْصُرهُ , وَلِأَنَّهُ يَتَضَمَّن قِلَّة الِاهْتِمَام بِالْعَدُوِّ وَاحْتِقَاره , وَهَذَا يُخَالِف الِاحْتِيَاط وَالْحَزْم , وَتَأَوَّلَهُ بَعْضهمْ عَلَى النَّهْي عَنْ التَّمَنِّي فِي صُورَة خَاصَّة , وَهِيَ إِذَا شَكَّ فِي الْمَصْلَحَة فِيهِ وَحُصُول ضَرَر , وَإِلَّا فَالْقِتَال كُلّه فَضِيلَة وَطَاعَة , وَالصَّحِيح الْأَوَّل , وَلِهَذَا تَمَّمَهُ ﷺ بِقَوْلِهِ ﷺ (وَاسْأَلُوا اللَّه الْعَافِيَة) .

وقال بعض العلماء : لأن هذا التمني غالباً ما يكون دافعه وسببه وثوق المرء بقوة نفسه وثباته وصبره ، وفي غزوة حنين درسٌ بليغٌ في ذلك ، وغالباً ما تكون الحقائق خلاف ما يظن الإنسان فيقع منه المحذور من الفرار وعدم الثبات، أو شدة الخوف والاضطراب، وليس الخبر كالمعاينة، كما قال تعالى (ولقد كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُون).

وقال الإمام أبو جعفر الطبري في هذه الآية ، وإنما إنما قيل (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه) لأن قومًا من أصحاب رسول الله ﷺ ممن لم يشهد بدرًا ، كانوا يتمنون قبل أحد يومًا مثل يوم بدر، فيُبْلُوا الله من أنفسهم خيرًا، وينالوا من الأجر مثل ما نال أهل بدر ، فلما كان يوم أحد فرّ بعضهم ، وصبرَ بعضهم حتى أوفَى بما كان عاهد الله قبل ذلك، فعاتب الله من فرّ منهم فقال (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه) وأثنى على الصابرين منهم والموفين بعهدهم .

وقال الإمام ابن الجوزي : اعلم أن تمني لقاء العدو يتضمن أمرين :

أحدهما: استدعاء البلاء .

والثاني: ادعاء الصبر .

وما يدري الإنسان كيف يكون صبره على البلاء ، والمدعي متوكل على قوته ، معرض بدعواه عن ملاحظة الأقدار وتصرفها، ومن كان كذلك وكل إلى دعواه ، كما تمنى الذين فاتتهم غزاة بدر فلم يثبتوا يوم أحد، وكما أعجبتهم كثرتهم يوم حنين فهزموا، وقد نبه هذا الحديث على أنه لا ينبغي لأحد أن يتمنى البلاء بحال .

وقال ابن تيمية : وَأَمَّا مَا يَكُونُ قَبْلَ الْقَضَاءِ فَهُوَ عَزْمٌ عَلَى الرِّضَا لَا حَقِيقَةُ الرِّضَا ؛ وَلِهَذَا كَانَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمَشَايِخِ يَعْزِمُونَ عَلَى الرِّضَا قَبْلَ وُقُوعِ الْبَلَاءِ ؛ فَإِذَا وَقَعَ انْفَسَحَتْ عَزَائِمُهُمْ كَمَا يَقَعُ نَحْوُ ذَلِكَ فِي الصَّبْرِ وَغَيْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) وَقَالَ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) وقال تعالى (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لَمَّا قَالُوا لَوْ عَلِمْنَا أَيَّ الْأَعْمَالِ أَحَبَّ إلَى اللَّهِ لَعَمِلْنَاهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آيَةَ الْجِهَادِ فَكَرِهَهُ مَنْ كَرِهَهُ ، وَلِهَذَا كُرِهَ لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِلْبَلَاءِ بِأَنْ يُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ مَا لَا يُوجِبُهُ الشَّارِعُ عَلَيْهِ بِالْعَهْدِ وَالنَّذْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، أَوْ يَطْلُبُ وِلَايَةً أَوْ يُقْدِمُ عَلَى بَلَدٍ فِيهِ

طَاعُونٌ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ (أَنَّهُ نَهَى عَنْ النَّذْرِ ؛ وَقَالَ : إنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ) وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ (لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ فَإِنَّك إنْ أُعْطِيتهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْت إلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيتهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْت عَلَيْهَا ؛ وَإِذَا حَلَفْت عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْت غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِك) وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ (قَالَ فِي الطَّاعُونِ : إذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تُقْدِمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ) .

وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ (لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَلَكِنْ إذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ) وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِي أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْعَى فِيمَا يُوجِبُ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ فَيَبْخَلُ بِالْوَفَاءِ ؛ وَكَمَا يَفْعَلُ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُعَاهِدُ اللَّهَ عُهُودًا عَلَى أُمُورٍ وَغَالِبُ هَؤُلَاءِ يُبْتَلَوْنَ بِنَقْضِ الْعُهُودِ .

وقال رحمه الله : وَقَدْ جَاءَتْ شَوَاهِدُ السُّنَّةِ : بِأَنَّ مَنْ أُبْتُلِيَ بِغَيْرِ تَعَرُّضٍ مِنْهُ أُعِينَ ، وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْبَلَاءِ خِيفَ عَلَيْهِ .

مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ (لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ فَإِنَّك إنْ أُعْطِيتهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْت إلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيتهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْت عَلَيْهَا) .

وَمِنْهُ قَوْلُه (لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا) .

وَفِي السُّنَنِ (مَنْ سَأَلَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِالشُّفَعَاءِ وُكِّلَ إلَيْهِ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْ الْقَضَاءَ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَيْهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ) وَفِي رِوَايَةٍ (وَإِنْ أُكْرِهَ عَلَيْهِ) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ فِي الطَّاعُونِ (إذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تُقْدِمُوا عَلَيْهِ؛ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ).

وَعَنْهُ أَنَّهُ ﷺ (نَهَى عَنْ النَّذْرِ) .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ (ذَرُونِي مَا تَرَكْتُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ, فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ, وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) .

٢- استحباب سؤال العافية في الدنيا والآخرة .

وَقَدْ كَثُرَتْ الْأَحَادِيث فِي الْأَمْر بِسُؤَالِ الْعَافِيَة ، وَهِيَ مِنْ الْأَلْفَاظ الْعَامَّة الْمُتَنَاوِلَة لِدَفْعِ جَمِيع الْمَكْرُوهَات فِي الْبَدَن وَالْبَاطِن ، فِي الدِّين وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَة . اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلك الْعَافِيَة الْعَامَّة لِي وَلِأَحِبَّائِي وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (أن رسول الله ﷺ أَمَرَ رَجُلاً إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ أن يقول : اللَّهُمَّ خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ) رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال (لم يكن النبي ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: "اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي) . رواه الترمذي

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: "سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ" فَمَكَثْتُ أَيَّامًا ثُمَّ جِئْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهَ، فَقَالَ لِي: "يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) رواه الترمذي .

قال العلامة "المباركفوري في (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي) (سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ) فِي أَمْرِهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ بِالدُّعَاءِ بِالْعَافِيَةِ بَعْدَ تَكْرِيرِ الْعَبَّاسِ سُؤَالَهُ بِأَنْ يُعَلِّمَهُ شَيْئًا يَسْأَلُ اللَّهَ بِهِ دَلِيلٌ جَلِيٌّ بِأَنَّ الدُّعَاءَ بِالْعَافِيَةِ لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ الْأَدْعِيَةِ وَلَا يَقُومُ مَقَامَهُ شَيْءٌ مِنْ الْكَلَامِ الَّذِي يُدْعَى بِهِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ, وَقَدْ تَقَدَّمَ تَحْقِيقُ مَعْنَى الْعَافِيَةِ أَنَّهَا دِفَاعُ اللَّهِ عَنْ الْعَبْدِ , فَالدَّاعِي بِهَا قَدْ سَأَلَ رَبَّهُ دِفَاعَهُ عَنْ كُلِّ مَا يَنْوِيهِ, وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنْزِلُ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ مَنْزِلَةَ أَبِيهِ وَيَرَى لَهُ مِنْ الْحَقِّ مَا يَرَى الْوَلَدُ لِوَالِدِهِ فَفِي

تَخْصِيصِهِ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَقَصْرِهِ عَلَى مُجَرَّدِ الدُّعَاءِ بِالْعَافِيَةِ تَحْرِيكٌ لِهِمَمِ الرَّاغِبِينَ عَلَى مُلَازَمَتِهِ وَأَنْ يَجْعَلُوهُ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَتَوَسَّلُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيُسْتَدْفَعُونَ بِهِ فِي كُلِّ مَا يُهِمُّهُمْ , ثُمَّ كَلَّمَهُ ﷺ بِقَوْلِهِ : (سَلْ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) . فَكَانَ هَذَا الدُّعَاءُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ قَدْ صَارَ عُدَّةً لِدَفْعِ كُلِّ ضُرٍّ وَجَلْبِ كُلِّ خَيْرٍ , وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا . قَالَ الْجَزَرِيُّ فِي عِدَّةِ الْحِصْنِ الْحَصِينِ: لَقَدْ تَوَاتَرَ عَنْهُ ﷺ دُعَاؤُهُ بِالْعَافِيَةِ وَوَرَدَ عَنْهُ ﷺ لَفْظًا وَمَعْنًى مِنْ نَحْوٍ مِنْ خَمْسِينَ طَرِيقاً .

٣- في قوله (وإذا لقيتم فاصبروا) هَذَا حَثّ عَلَى الصَّبْرِ فِي الْقِتَال وَهُوَ آكد أَرْكَانه ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّه سُبْحَانه آدَاب الْقِتَال فِي قَوْله تَعَالَى (يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَة فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّه كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُوا اللَّه وَرَسُوله وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَب رِيحكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّه مَعَ الصَّابِرِينَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارهمْ بَطَرًا وَرِئَاء النَّاس وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيل اللَّه).

وقد حرم الله الفرار من الزحف كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

٤-فضل الجهاد في سبيل الله وأنه من أسباب دخول الجنة .

لقوله (واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) فَمَعْنَاهُ : ثَوَاب اللَّه ، وَالسَّبَب الْمُوَصِّل إِلَى الْجَنَّة عِنْد الضَّرْب بِالسُّيُوفِ فِي سَبِيل اللَّه ، وَمَشْي الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيل اللَّه ، فَاحْضُرُوا فِيهِ بِصِدْقٍ وَاثْبُتُوا .

وقال ﷺ (إِنَّ أَبْوَاب الْجَنَّة تَحْت ظِلَال السُّيُوف) قَالَ الْعُلَمَاء : مَعْنَاهُ : إِنَّ الْجِهَاد وَحُضُور مَعْرَكَة الْقِتَال طَرِيق إِلَى الْجَنَّة وَسَبَب لِدُخُولِهَا .

عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ (إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف) فقال رجل من القوم رث الهيئة: أأنت سمعت هذا من رسول ﷺ يذكره؟ قال نعم، فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام وكسر جفن سيفه فضرب به حتى قتل) رواه مسلم .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

٤ – باب الصدق

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة : ١١٩] .

وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ** ﴾ [الأحزاب : ٣٥].

وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ** ﴾ [محمد :٢١] .

تعريف الصدق : الصدق يكون :

في الأقوال : ومعناه : استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها .

وفي الأعمال : ومعناه : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد .

وفي الأحوال : ومعناه : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص .

- **قَالَ الله تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين) .**

أي : يا أيها الذين آمنوا بالله ، وبما أمر الله بالإيمان به ، قوموا بما يقتضيه الإيمان ، وهو القيام بتقوى الله ، باجتناب ما نهى الله عنه ، والبعد عنه (**وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين**) في أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم ، الذين أقوالهم صدق ، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً ، خالية من الكسل والفتور ، سالمة من المقاصد السيئة ، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة . (تفسير السعدي) .

- **وَقالَ تَعَالَى (وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَات) .**

ذكر الله تعالى ضمن الذين أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً (**الصادقين والصادقات**) فهذا يدل على فضل الصدق وعلة منزلته ، وأنه سبب لمغفرة الذنوب ، ونيل الأجور العظيمة .

- **وَقالَ تَعَالَى (فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُم) .**

أي : فلو أخلصوا له النية لله وصدقوا (**لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ**) من المعصية والمخالفة ، فليس هناك أنفع للعبد من صدقه مع ربه .

٥٤-وأما الأحاديث فالأول : عن ابن مسعود ﷺ ، عن النَّبيّ ﷺ ، قَالَ : « إنَّ الصِّدقَ يَهْدِي إِلَى البرِّ ، وإنَّ البر يَهدِي إِلَى الجَنَّةِ ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدّيقاً . وَإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإنَّ الفُجُورَ يَهدِي إِلَى النَّارِ، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً » مُتَّفقٌ عَلَيهِ .

(**يَهْدِي**) أي : يرشد ويوصل .

(**إِلَى البرِّ**) البر كلمة جامعة لأعمال الخير ، ومختلف الأعمال الصالحات ، قال تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

(**وإنَّ البر يَهدِي**) أي : يقود ويوصل .

(**إِلَى الجَنَّةِ**) وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(**حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدّيقاً**) أي : يصير الصدق له سجية وخلقاً .

(**وَإنَّ الكَذِبَ**) وهو الإخبار بخلاف الواقع .

(**يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ**) الفجور يشمل جميع الأعمال السيئة .

١-الحديث دليل على فضل الصِّدْقِ .

قال ابن تيمية : ... الصدق أَصْلُ الْخَيْرِ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إلَى النَّارِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) وَقَالَ (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا) .

وَلِهَذَا يُذْكَرُ أَنَّ بَعْضَ الْمَشَايِخِ أَرَادَ أَنْ يُؤَدِّبَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَهُمْ ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ فَقَالَ : يَا بُنَيَّ : أَنَا آمُرُك بِخَصْلَةٍ وَاحِدَةٍ فَاحْفَظْهَا لِي ؛ وَلَا آمُرُك السَّاعَةَ بِغَيْرِهَا الْتَزِمْ الصِّدْقَ وَإِيَّاكَ وَالْكَذِبَ وَتَوَعَّدَهُ عَلَى الْكَذِبِ بِوَعِيدِ شَدِيدٍ فَلَمَّا الْتَزَمَ ذَلِكَ الصِّدْقَ دَعَاهُ إلَى بَقِيَّةِ الْخَيْرِ وَنَهَاهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْفَاجِرَ لَا حَدَّ لَهُ فِي الْكَذِبِ . (مجموع الفتاوى : ١٥ / ٢٤٦) .

وقال ابن القيم : ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق ، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب , فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤة الصدق, وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤة الكذب , والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه , ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته , فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ؛ ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب , قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) .

قال ابن تيمية : الصِّدْقُ أَسَاسُ الْحَسَنَاتِ وَجِمَاعُهَا وَالْكَذِبُ أَسَاسُ السَّيِّئَاتِ وَنِظَامُهَا وَيَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ حَيٌّ نَاطِقٌ فَالْوَصْفُ الْمُقَوِّمُ لَهُ الْفَاصِلُ لَهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ الدَّوَابِّ هُوَ الْمَنْطِقُ وَالْمَنْطِقُ قِسْمَانِ : خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ وَالْخَبَرُ صِحَّتُهُ بِالصِّدْقِ وَفَسَادُهُ بِالْكَذِبِ فَالْكَاذِبُ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ الْبَهِيمَةِ الْعَجْمَاءِ .

الثَّانِي : أَنَّ الصِّفَةَ الْمُمَيِّزَةَ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّئِ هُوَ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ الصَّادِقُ الْأَمِينُ, وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابُ, قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ . وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

الثَّالِثُ : أَنَّ الصِّفَةَ الْفَارِقَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ هُوَ الصِّدْقُ فَإِنَّ أَسَاسَ النِّفَاقِ الَّذِي بُنِيَ عَلَيْهِ الْكَذِبُ, وَعَلَى كُلِّ خُلُقٍ يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ لَيْسَ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ) .

الرَّابِعُ : أَنَّ الصِّدْقَ هُوَ أَصْلُ الْبِرِّ, وَالْكَذِبَ أَصْلُ الْفُجُورِ, كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ...) .

الْخَامِسُ : أَنَّ الصَّادِقَ تَنْزِلُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ, وَالْكَاذِبَ تَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ, كَمَا قَالَ تَعَالَى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) .

السَّادِسُ : أَنَّ الْفَارِقَ بَيْنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَبَيْنَ الْمُتَشَبِّهِ بِهِمْ مِنْ الْمُرَائِينَ وَالْمُسْمِعِينَ وَالْمُبْلِسِينَ هُوَ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ .

السابع : أَنَّ الْمَشَايِخَ الْعَارِفِينَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ أَسَاسَ الطَّرِيقِ إلَى اللَّهِ هُوَ الصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ كَمَا جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ دَالٌّ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) .

وقَوْله تَعَالَى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوى لِلْكَافِرِينَ) .

وقوله تعالى (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

٢-الحديث دليل على فضائل الصدق ، وللصدق فضائل :

أولاً : أنه سبب للطمأنينة .

كما في الحديث الآتي (فإن الصدق طمأنينة) .

ثانياً : هو المميز بين المؤمن والمنافق .

قال ﷺ (آية المنافق ثلاث : . وإذا حدث كذب ...) .

ثالثاً : لا ينفع يوم القيامة إلا الصدق :

قال تعالى (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) .

رابعاً : الصدق أصل كل بر .

قال ﷺ (إن الصدق يهدي إلى البر) متفق عليه .

خامساً : أن مجاهدة النفس على تحري الصدق توصلها إلى مرتبة الصديقية .

قال ﷺ : (... ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً) .

سادساً : الصدق سبب للبركة .

كما قال ﷺ (البيعان بالخيار ... فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما) .

قال ابن تيمية : الله يَصِفُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصِّدْقِ ؛ قَالَ تَعَالَى (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ). وَقَالَ (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ . وَقَالَ تَعَالَى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وَقَالَ (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) إلَى قَوْلِهِ (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

وقال ابن تيمية : (الصدق يهدي إلى البر ...) فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الصِّدْقَ أَصْلٌ يَسْتَلْزِمُ الْبِرَّ , وَأَنَّ الْكَذِبَ يَسْتَلْزِمُ الْفُجُورَ , وَقَدْ قَالَ تَعَالَى (إنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الْمَشَايِخِ إذَا أَمَرَ بَعْضَ مُتَّبِعِيهِ بِالتَّوْبَةِ وَأَحَبَّ أَنْ لَا يُنَفِّرَهُ وَلَا يُشَعِّبَ قَلْبَهُ أَمَرَهُ بِالصِّدْقِ . وَلِهَذَا كَانَ يَكْثُرُ فِي كَلَامِ مَشَايِخِ الدِّينِ وَأَئِمَّتِهِ ذِكْرُ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ حَتَّى يَقُولُوا : قُلْ لِمَنْ لَا يَصْدُقُ : لَا يَتَّبِعْنِي . وَيَقُولُونَ : الصِّدْقُ سَيْفُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ, وَمَا وُضِعَ عَلَى شَيْءٍ إلَّا قَطَعَهُ.

وَيَقُولُ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ وَغَيْرُهُ : مَا صَدَقَ اللَّهَ عَبْدٌ إلَّا صَنَعَ لَهُ وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ .

وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ هُمَا فِي الْحَقِيقَةِ تَحْقِيقُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ, فَإِنّ الْمُظْهِرِينَ لِلْإِسْلَامِ يَنْقَسِمُونَ إلَى مُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٍ, وَالْفَارِقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ هُوَ الصِّدْقُ, فَإِنَّ أَسَاسَ النِّفَاقِ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ هُوَ الْكَذِبُ ؛ وَلِهَذَا إذَا ذَكَرَ اللَّهُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ نَعَتَهُ بِالصِّدْقِ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) إلَى قَوْلِهِ (إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وَقَالَ تَعَالَى (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) فَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّادِقِينَ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ لَمْ يَتَعَقَّبْ إيمَانَهُمْ رِيبَةٌ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا هُوَ الْعَهْدُ الْمَأْخُوذُ عَلَى الْأَوَّلِينَ والآخرين .

وقال : وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَوَصَفَهُمْ سُبْحَانَهُ بِالْكَذِبِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ, كَقَوْلِهِ تَعَالَى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) وقَوْله تَعَالَى (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) وقَوْله تَعَالَى (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) وَنَحْوُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ .

وقال رحمه الله : وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الصِّدْقَ وَالتَّصْدِيقَ يَكُونُ فِي الْأَقْوَالِ وَفِي الْأَعْمَالِ, كَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ (كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنْ الزِّنَا فَهُوَ مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْأُذُنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا السَّمْعُ وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ وَالْقَلْبُ يَتَمَنَّى وَيَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ) وَيُقَالُ حَمَلُوا عَلَى الْعَدُوِّ حَمْلَةً صَادِقَةً إذَا كَانَتْ إرَادَتُهُمْ لِلْقِتَالِ ثَابِتَةً جَازِمَةً, وَيُقَالُ فُلَانٌ صَادِقُ الْحُبِّ وَالْمَوَدَّةِ, وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَلِهَذَا يُرِيدُونَ بِالصَّادِقِ ؛ الصَّادِقُ فِي إرَادَتِهِ وَقَصْدِهِ وَطَلَبِهِ وَهُوَ الصَّادِقُ فِي عَمَلِهِ, وَيُرِيدُونَ الصَّادِقَ فِي خَبَرِهِ وَكَلَامِهِ وَالْمُنَافِقُ ضِدُّ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ كَاذِبًا فِي خَبَرِهِ, أَوْ كَاذِبًا فِي عَمَلِهِ كَالْمُرَائِي فِي عَمَلِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ) الْآيَتَيْنِ .

وقد قسم ابن القيم الصدق إلى ثلاثة أقسام :

الأول : صدق في الأقوال :

ومعناه : استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها .

والثاني : صدق في الأعمال .

ومعناه : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد .

والثالث : صدق في الأحوال .

ومعناه : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص .

٤- من أقوال السلف في الصدق .

قال عمر بن الخطاب : عليك بالصدق وإن قتلك .

وقال بشر بن الحارث : مَنْ عامل الله بالصدق استوحش من الناس .

وقال جعفر بن محمد : الصدق هو المجاهدة، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك، فقال تعالى (هو اجتباكم) .

وقال بعض العلماء : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض : الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله في الأعمال ، وطيب المطعم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والصدق أساس الحسنات وجماعها ، والكذب أساس السيئات ونظامها .

قال ابن القيم : الصادق مطلوبه رضى ربه ، وتنفيذ أوامره ،وتتبع محابه ، فهو متقلب فيها ، يسير معها أينما توجهت ركائبها ، ويستقل معها أينما استقلت مضاربها ، فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ثم في حج ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع المنافع.

قال ابن تيمية : الصديقية : كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة للخبر والأمر ظاهراً وباطناً .

قال ابن القيم : لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره .

وقال : كل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب.

وقال : أصل أعمال القلوب كلها : الصدق .

وقال : من ترك المألوفات والعوائد مخلصاً صادقاً من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليمتحن أصادق هو أم

كاذب .

٥- علامات الصادق .

أولاً : طمأنينة القلب واستقراره :

إن الصدق في جميع الأحوال باطنها وظاهرها يورث الطمأنينة والسكينة في القلب ، وينفي عنه التردد والريبة والاضطراب التي لا توجد إلا في حالات الشك وضعف الصدق أو عدمه ، يقول ﷺ (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة) .

ثانياً : الزهد في الدنيا والتأهب للقاء الله عز وجل .

فالصادق مع الله عز وجل لا تراه إلا متأهباً للقاء ربه ، مستعداً لذلك بالأعمال الصالحة ، والقيام بأوامر الله عز وجل والانتهاء عن نواهيه ، يريد بذلك وجه الله عز وجل متبعاً في ذلك رسوله ﷺ .

ثالثاً : سلامة القلب .

إن من علامة الصدق سلامة القلب ، وخلوه من الغش والحقد والحسد للمسلمين ، فالعبد المؤمن الصادق في إيمانه لا يحمل في قلبه غلاً للمؤمنين ولا شراً ، بل إن حب الخير والنصح للمسلمين هو طبعه وعادته .

رابعاً : حفظ الوقت وتدارك العمر .

إن الصادق في إيمانه لا تجده إلا محافظاً على وقته شحيحاً به ، لا ينفقه إلا فيما يرجو نفعه في الآخرة ، ينظر إلى العمر كله كأنه ساعة من نهار, وإلى الدنيا كأنها ظل شجرة نزل تحتها ، ثم قام وتركها ، فبادر بالأعمال الصالحة فراغه وصحته ، وشبابه ، وحياته ، وابتعد عن كل آفة تقطع عليه طريقه ، وتضيع عليه وقته ، وتبدد عليه عمره القصير بما لا ينفع .

خامساً : الزهد في ثناء الناس ومدحهم بل وكراهة ذلك :

ويتبع ذلك الزهد فيما عند الناس ، والقناعة بما كتب الله عز وجل ، وهذه الصفة إذا وجدت فهي علامة على الصدق والإخلاص ، وهي تنبع أصلاً من صحة المعتقد ، وكمال التوحيد لله عز وجل ، وحول هذه الصفة والوصول إليها يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار .

سادساً : إخفاء الأعمال الصالحة وكراهة الظهور .

إن من علامة صدق العبد فيما يعمله لله عز وجل ، حرصه على إخفاء عمله ، وكراهة اطلاع الناس عليه ، كما أن كراهة الشهرة والظهور علامة من علامات الصدق الذي يبعد صاحبه عن الرياء والسمعة والتصنع للخلق ، فكلما كان العبد صادقاً مع ربه عز وجل كلما كان حريصاً على إخفاء أعماله حيث لا يطلع عليها إلا الله عز وجل .

قال الحسن : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به .

سابعاً : الشعور بالتقصير والانشغال بإصلاح النفس ونقدها أكثر من الآخرين .

ثامناً : الاهتمام بأمر هذا الدين والجهاد في سبيل الله عز وجل .

إن الصدق في محبة الله عز وجل ومحبة دينه تقتضي أن يكون أمر هذا الدين هو شغل المؤمن الشاغل ، حيث لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال ، وهو يرى دين الله عز وجل ينتهك ويقصى من الحياة ، وبالتالي يرى الفساد المستطير يدب في أديان الناس ودمائهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم .

إن المؤمن الصادق لا يقدّم على هذا الهم الأكبر أي اهتمام من أمور الدنيا الفانية . [كتاب وقفات مع آيات للشيخ الجليل حفظه الله] .

قال ابن القيم رحمه الله : إن الصادق لا يحب أن يعيش إلا ليشبع من رضا محبوبه ، ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه وتدنيه منه , لا لعلة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها.

٥٥-الثاني : عن أبي محمد الحسن بنِ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، قَالَ: حَفظْتُ مِنْ رَسُول الله ﷺ : ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ؛ فإنَّ الصِّدقَ طُمَأنِينَةٌ ، وَالكَذِبَ رِيبَةٌ)) رواه الترمذي , وَقالَ: ((حديث صحيح)) .

قوله : ((**يَرِيبُكَ**)) هُوَ بفتح الياء وضمها : ومعناه اتركْ مَا تَشُكُّ فِي حِلِّهِ وَاعْدِلْ إِلَى مَا لا تَشُكُّ فِيهِ .

١- هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الدين ، وأصل في الورع الذي عليه مدار اليقين ، ومنج من ظلم الشكوك والأوهام المانعة من نور اليقين .

والورع : ترك ما تخاف ضرره في الآخرة .

وفي هذا الحديث تقسيم الواردات القلبية إلى قسمين :

الأول : الوارد الذي يُرِيبُكَ (أي : يُنشىءُ في قلبك الريب) ، والريب : هو قلق النفس واضطرابها .

والثاني : الوارد الذي لا يُريب (وهو ما لا يتولد من إتيانه قلق النفس واضطرابها) .

ويسمى الأول : إثماً ، ويسمى الثاني : براً .

والمأمور به شرعاً في القسم الأول : أن تدعه .

وفي القسم الثاني : أن تأتيه .

٢- فضائل الورع .

أولاً : أنه سبب لاستبراء العرض والدين .

كما في قال ﷺ (من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) .

ثانياً : أنه خير خصال الدين :

قال ﷺ (وخير دينكم الورع) رواه الحاكم .

ثالثاً : من علامات العبادة .

قال ﷺ (كن ورعاً تكن أعبد الناس) رواه الترمذي وفيه ضعف .

رابعاً : أنه من هدي النبي ﷺ وخلقه .

عن أنس : (أن النبي ﷺ وجد تمرة في الطريق فقال : لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها) متفق عليه .

خامساً : أنه سبب للنجاة .

كما في حديث الباب (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) .

٣- من أقوال السلف في الورع :

قال الحسن : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

وقال حسان بن أبي سنان : ما من شيء أهون من الورع ، إذا رابك شيء فدعه .

وقال عمر : كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام .

وقال العسكري : لو تأمل الحذاق في هذا الحديث لتيقنوا أنه قد استوعب كل ما قيل في تجنب الشبهات .

وقال شيخ الإسلام : الورع من قواعد الدين .

وقال ابن المبارك : ترك فلس من حرام أفضل من مائة ألف فلس أتصدق بها .

وقال الضحاك : لقد أدركت أصحابي وما يتعلمون إلا الورع .

وقال أبو سليمان الداراني : الورع أول الزهد ، كما أن القناعة أول الرضا .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه .

وكان الإمام الورع سعيد بن المسيب لا يقبل من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً ولا شيئاً .

وقال إدريس الحداد : كان أحمد بن حنبل إذا ضاق به الأمر آحر نفسه من الحاكة ، فلما كان أيام المحنة وصرف إلى بيته ، حمِل إليه مال فرده وهو محتاج إلى رغيف ، فجعل عمه إسحاق يحسب مارد فإذا هو نحو ٥٠٠ ألف ، قال ، فقال : يا عم لو طلبناه لم يأتنا ، وإنما أتانا لما تركناه .

وقال الحسن بن عرفة : قال لي ابن المبارك : استعرت قلماً بأرض الشام فذهب عليّ أن أرده إلى صاحبه ، فلما قدمت مرو نظرت فإذا هو معي ، فرجعت يا أبا علي إلى أرض الشام حتى رددته على صاحبه .

٥٦–الثالث : عن أبي سفيانَ صَخرِ بنِ حربٍ ﷺ في حديثه الطويلِ في قصةِ هِرَقْلَ، قَالَ هِرقلُ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ – يعني : النَّبيّ ﷺ – قَالَ أبو سفيانَ : قُلْتُ : « اعْبُدُوا اللهَ وَحدَهُ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً ، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ ، ويَأْمُرُنَا بالصَلاةِ ، وَالصِّدْقِ ، والعَفَافِ ، وَالصِّلَةِ » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

١– الحديث دليل على فضل الصدق ، حيث أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومنهم نبينا كان يأمر بالصدق .

٢– وجوب عبادة الله .

٣– تحريم الشرك بالله تعالى .

٤– أن دعوة الرسل هي لتحقيق التوحيد .

٥– أن التوحيد نفي وإثبات .

٦–وجوب الصلاة .

٧– أن الصلاة فرضت بمكة .

٨–فضل العفاف والصلة .

٥٧–الرابع : عن أبي ثابت ، وقيل : أبي سعيد ، وقيل : أبي الوليد ، سهل ابن حُنَيْفٍ وَهُوَ بدريٌّ ﷺ : أنَّ النَّبيّ ﷺ ، قَالَ : « مَنْ سَأَلَ الله تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ » رواه مسلم .

(**عن سهل ابن حُنَيْفٍ**) صحابي جليل شهد بدراً .

(**بدريٌّ ﷺ**) أي : شهد بدراً .

(**مَنْ سَأَلَ الله تَعَالَى الشَّهَادَةَ**) أي : الموت شهيداً .

(**بِصِدْقٍ**) من قلبه .

(**بَلَّغَهُ**) أي : أوصله .

(**مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ**) مجازاة له على صدقه .

١– الحديث دليل على فضل الصدق وعظم منزلته ، وأنها سبب لرفعة العمل وعلوه .

ذكر للإمام أحمد الصدق والإخلاص ، فقال : بها ارتفع القوم .

٢- الحديث دليل على استحباب طلب الشهادة ، ويدل لذلك :

أ- حديث الباب .

ب-وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقاً أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ) رواه مسلم .

ج-وعن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (...وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَل) متفق عليه .

د- كان عمر يقول (اللهم ارزقني شهادة في سبيلك) .

٣- هل من مات وهو يسأل الشهادة بصدق يأخذ نفس ما للشهيد من الثواب والأجر ؟

في هذه المسألة تفصيل :

أولاً : من كان يجاهد في سبيل الله صادقاً محتسباً ، ويشارك في قتال الأعداء ، ويرجو مِن الله أن يكتب له الشهادة ، ولكن مع ذلك لم ينلها حقيقة ، فمثله يكتب الله له أجر الشهيد كاملاً غير منقوص .

ثانياً : من اتخذ الأسباب التي يملكها لنيل الشهادة ، وسعى للمشاركة في الجهاد في سبيل الله ، وسبق ذلك عزيمةٌ صادقةٌ ، وسأل الله بإخلاص أن يكتب له هذه المرتبة ، غير أنه حيل بينه وبين المشاركة الفعلية في الجهاد : فهذا يكتب الله له أجر الشهيد ، ويعطيه مِن سعة فضله سبحانه ما يبلغ به أجر الشهداء .

ثالثاً : وأما من نوى الجهاد في سبيل الله نية مجردة عن اتخاذ الأسباب والسعي التام لنيل الشهادة ، فهذا له أجر نيته فقط ، وليس له أجر الشهيد الذي قُتل في المعركة .

يقول ابن القيم رحمه الله : بل هذا النوع منقسم إلى :

أولاً: معذور من أهل الجهاد، غلبه عذره، وأقعده عنه، ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها، وإنما أقعده العجز، فهذا الذي تقتضيه أدلة الشرع أن له مثل أجر المجاهد ، وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفي التسوية .

وهذا لأن قاعدة الشريعة : أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل نزل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام ، كما دل عليه قوله ﷺ : (إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه) .

وفي الترمذي ومسند الإمام أحمد من حديث أبي كبشة الأنماري عن النبي ﷺ أنه قال : (إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقي في ماله ربه ويصل به رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأحسن المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته، وهما في الأجر سواءٌ ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، فهو لا يتقى في ماله ربه ، ولا يصل به رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأسوأ المنازل عند الله ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، وهما في الوزر سواءٌ) .

فأخبر ﷺ أن وزر الفاعل والناوي الذي ليس مقدوره إلا بقوله دون فعله سواءٌ ؛ لأنه أتى بالنية ومقدورِه التام ، وكذلك أجر الفاعل والناوي الذي اقترن قوله بنيته ، وكذلك المقتول الذي سل السيف وأراد به قتل أخيه المسلم فقتل ، نزل منزلة القاتل لنيته التامة التي اقترن بها مقدورها من السعي والحركة .

ومثل هذا قوله ﷺ: (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) ، فإن بدلالته ونيته نزل منزلة الفاعل .

ومثل هذا من كان له وِردٌ يُصَلِّيه من الليل فنام ، ومن نيته أن يقوم إليه فغلب عينه نوم كتب له أجر ورده ، وكان نومه عليه صدقة ، ومثله المريض والمسافر إذا كان له عمل يعمله فشغل عنه بالمرض والسفر كتب له مثل عمله وهو صحيح مقيم ، ومثله (من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداءِ ولو مات على فراشه) ونظائر ذلك كثيرة.

ثانياً : والقسم الثاني : معذور ليس من نيته الجهاد ، ولا هو عازم عليه عزماً تاماً .

فهذا لا يستوي هو والمجاهد في سبيل الله ، بل قد فضَّل الله المجاهدين عليه وإن كان معذوراً ؛ لأنه لا نية له تلحقه بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الأول . (طريق الهجرتين) .

فالخلاصة أن من نوى الجهاد ، وسعى إليه ، وبذل أسبابه ، وسأل الله الشهادة بصدق ، كتب الله له أجر شهيد .

فائدة :

ومع ذلك ننبه هنا إلى أنه ليس المقصود أن الله يكتب لمن سأل الشهادة بصدق جميع ما للشهيد الذي قتل في المعركة من الأجر والكرامة ، وإنما يكتب له قدر أجر الشهادة مجردة عن كل أجور الأعمال المقترنة بالعمل الجهادي من تعب ونصب وجراح وبذل مال ونحو ذلك ، فالشهيد وسائل الشهادة بصدق يستويان في أصل الأجر وليس في نوعه ومتعلقاته .

يقول الإمام النووي رحمه الله : واعلم أن الشهيد ثلاثة أقسام :

أحدها : المقتول في حرب بسبب من أسباب القتال ، فهذا له حكم الشهداء في ثواب الآخرة وفي أحكام الدنيا ، وهو أنه لا يغسَّل ولا يصلَّى عليه .

والثاني : شهيد في الثواب دون أحكام الدنيا ، وهو المبطون , والمطعون , وصاحب الهدم , ومن قتل دون ماله , وغيرهم ممن جاءت الأحاديث الصحيحة بتسميته شهيداً ، فهذا يغسَّل ويصلَّى عليه ، وله في الآخرة ثواب الشهداء , ولا يلزم أن يكون مثل ثواب الأول .

والثالث : من غل في الغنيمة ، وشبهه ممن وردت الآثار بنفي تسميته شهيداً ، إذا قتل في حرب الكفار ، فهذا له حكم الشهداء في الدنيا فلا يغسل , ولا يصلَّى عليه , وليس له ثوابهم الكامل في الآخرة . انتهى.

ويقول الحافظ ابن حجر : والذي يظهر أن المذكورين – في الشهداء خمسة وغيرهم – ليسوا في المرتبة سواء ، ويدل عليه ما روى أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث جابر ، والدارمي وأحمد والطحاوي من حديث عبد الله بن جحش ، وابن ماجه من حديث عمرو بن عتبة : أن النبي ﷺ ، سئل أي الجهاد أفضل ؟ قال : من عقر جواده وأهريق دمه .

وروى الحسن بن علي الحلواني في (كتاب المعرفة) له بإسناد حسن من حديث ابن أبي طالب قال : " كل موتة يموت بها المسلم فهو شهيد ، غير أن الشهادة تتفاضل . (الفتح) .

ويقول المناوي رحمه الله : (وإن مات على فراشه) لأن كلاً منهما نوى خيراً وفعل ما يقدر عليه ، فاستويا في أصل الأجر ، ولا يلزم من استوائهما فيه من هذه الجهة : استواؤهما في كيفيته وتفاصيله ، إذ الأجر على العمل ونيته يزيد على مجرد النية ، فمن نوى الحج ولا مال له يحج به يثاب دون ثواب من باشر أعماله ، ولا ريب أن الحاصل للمقتول من ثواب الشهادة تزيد كيفيته وصفاته على الحاصل للناوي الميت على فراشه ، وإن بلغ منزلة الشهيد ، فهما وإن استويا في الأجر لكن الأعمال التي قام بها العامل تقتضي أثراً زائداً وقرباً خاصاً ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء ، فعلم من التقرير أنه لا حاجة لتأويل البعض وتكلفه بتقدير (مِنْ) بَعد قوله : (بلغه الله) ، فأعط ألفاظ الرسول ﷺ حقها ، وأنزلها منازلها ، يتبين لك المراد . (فيض القدير) .

وبناء عليه فالفضل الوارد في حديث الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ : يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنْ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنْ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ) .

رواه الترمذي (حديث رقم/١٦٦٣) وقال : حسن صحيح غريب .

يظهر أن هذه الفضائل إنما تكتب لشهيد المعركة ، بدليل قوله : (يغفر له في أول دفعة)، يعني من دمه ، فنال هذه الخصال الستة بسبب ما أريق من دمه في سبيل الله ، فلا ينال هذه الخصال غيره وإن نال أجر الشهادة الأصلي .

٥٨–الخامس : عن أبي هريرةَ ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « غَزَا نبيٌّ مِنَ الأنْبياءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لِقَومِهِ : لا يَتْبَعَنِّي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأةٍ وَهُوَ يُريدُ أنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا ، وَلا أحَدٌ بَنَى بُيُوتاً لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا ، وَلا أحَدٌ اشْتَرَى غَنَماً أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلادَها . فَغَزا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلاةَ العَصْرِ أَوْ قَرِيباً مِنْ ذلِكَ ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ : إنَّكِ مَأمُورَةٌ وَأنَا مَأمُورٌ ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا ، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيهِ ، فَجَمَعَ الغَنَائِمَ فَجَاءتْ – يعني النَّارَ – لِتَأكُلَهَا فَلَمْ تَطعَمْها ، فَقَالَ : إنَّ فِيكُمْ غُلُولاً ، فَلْيُبايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبيلةٍ رَجُلٌ ، فَلَزِقَتْ يد رجل بِيَدِهِ فَقَالَ : فِيكُمُ الغُلُولُ فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده ، فقال : فيكم الغلول ، فَجَاؤُوا بِرَأْس مثل رأس بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ ، فَوَضَعَهَا فَجاءت النَّارُ فَأَكَلَتْها . فَلَمْ تَحلَّ الغَنَائِمُ لأحَدٍ قَبْلَنَا ، ثُمَّ أحَلَّ الله لَنَا الغَنَائِمَ لَمَّا رَأَى ضَعْفَنا وَعَجْزَنَا فَأحَلَّهَا لَنَا » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

« **الخَلِفَاتُ** » بفتحِ الخَاءِ المعجمة وكسر اللامِ : جمع خِلفة وهي الناقة الحامِل .

(**غَزَا نبيٌّ مِنَ الأنْبياءِ**) أي : أراد أن يغزو ، والنبي المذكور في هذا الحديث هو يوشع بن نون عليه السلام كما بينه شراح هذا الحديث، وصَرَّحتْ به رواية الحاكم في (مستدركه) عن كعب ، ودلت عليه رواية الإمام أحمد في (مسنده) بسند على شرط البخاري عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الشمس لم تُحْبَسْ لبَشَرٍ إلا ليوشع لَيَالِيَ سافَرَ إلى بيت المقدس) .

(**مَلَكَ بُضْعَ امْرَأةٍ**) (بُضْع) بضم الباء وسكون الضاد ؛ يطلق على الفرج والنكاح والجماع .

(**وَهُوَ يُريدُ أنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا**) أي : ولم يدخل عليها ، ووقع في رواية سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عند النسائي وأبي عوانة وابن حبان (لا ينبغي لرجل بنى داراً ولم يسكنها أو تزوج امرأة ولم يدخل بها) وفي التقييد بعدم الدخول ما يفهم أن الأمر بعد الدخول بخلاف ذلك فلا يخفى فرق بين الأمرين , وإن كان بعد الدخول ربما استمر تعلق القلب , لكن ليس هو كما قبل الدخول غالباً .

(**وَلا أحَدٌ بَنَى بُيُوتاً لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا**) وفي صحيح مسلم (ولما يرفع سقفها) وهو بضم القاف والفاء لتوافق هذه الرواية .

(**وَلا أحَدٌ اشْتَرَى غَنَماً أَوْ خَلِفَاتٍ**) الخَلِفَاتُ بفتحِ الخَاءِ المعجمة وكسر اللامِ : جمع خِلفة وهي الناقة الحامِل .

(**فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ**) هي أريحا بفتح الهمزة وكسر الراء بعدها تحتانية ساكنة ومهملة مع القصر, سماها الحاكم في روايته عن كعب, وفي رواية مسلم (فأدنى للقرية) أي : قرب جيوشه لها .

(**فَقَالَ لِلشَّمْسِ : إنَّكِ مَأمُورَةٌ وَأنَا مَأمُورٌ**) في رواية سعيد بن المسيب (فلقي العدو عند غيبوبة الشمس) وبين الحاكم في روايته عن كعب سبب ذلك فإنه قال (أنه وصل إلى القرية وقت عصر يوم الجمعة , فكادت الشمس أن تغرب ويدخل الليل) وبهذا يتبين معنى قوله (وأنا مأمور) والفرق بين المأمورين أن أمر الجمادات أمر تسخير وأمر العقلاء أمر تكليف .

(**اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا**) في رواية أحمد (اللهم احبسها علي شيئاً) وهو منصوب نصب المصدر , أي قدر ما تنقضي حاجتنا

من فتح البلد , قال عياض : اختلف في حبس الشمس هنا , فقيل ردت على أدراجها , وقيل وقفت , وقيل بطئت حركتها , وكل ذلك محتمل .

(**فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيهِ**) في رواية أبي يعلى (فواقع القوم فظفر) .

(**فلَمْ تَطعَمْها**) أي لم تذق لها طعماً , وهو بطريق المبالغة .

(**فَقَالَ : إنَّ فِيكُمْ غُلُولاً**) الغلول : السرقة من الغنيمة .

(**فَلْيُبايعْنِي مِنْ كُلِّ قَبيلةٍ رَجُلٌ ، فَلَزِقَتْ يد رجل بِيَدِهِ**) فيه حذف يظهر من سياق الكلام أي فبايعوه فلزقت .

١- الحديث دليل على حل الغنائم لهذه الأمة دون غيرها من الأمم .

وقد جاء في حديث جابر قال : قال ﷺ (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : .... وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي) متفق عليه .

٢- الحديث دليل على فضل هذه الأمة حيث اختصت بحل الغنائم دون غيرها .

٣- الحديث دليل على أن من الأنبياء عدداً جماً لم يسم في كتاب الله ، منهم هذا ، وهو يوشع بن نون .

٤- أن الشمس لم تحبس إلا له ، فلا يصح قول من قال : إنها حبست لعلي بن أبي طالب .

٥- أن الأمور المهمة لا ينبغي أن تفوّض إلا لحازم فارغ البال لهوالقل ، والقلب إذا تفرق ضعف فعل الجوارح وإذا اجتمع قوي .

٦- تحريم الغلول .

٧- أن الغلول وخيم العاقبة على من فعله .

٨- وفيه إشعار بأن إظهار العجز بين يدي الله تعالى يستوجب ثبوت الفضل .

٩- في هذا الحديث أن فتن الدنيا تدعو النفس إلى الهلع ومحبة البقاء , لأن من ملك بضع امرأة ولم يدخل بها ، أو دخل بها وكان على قرب من ذلك ، فإن قلبه متعلق بالرجوع إليها ويجد الشيطان السبيل إلى شغل قلبه عما هو عليه من الطاعة , وكذلك غير المرأة من أحوال الدنيا .

١٠- وفيه أن من مضى كانوا يغزون ويأخذون أموال أعدائهم وأسلابهم , لكن لا يتصرفون فيها بل يجمعونها , وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل النار من السماء فتأكلها , وعلامة عدم قبوله أن لا تنزل، ومن أسباب عدم القبول أن يقع فيهم الغلول .

٥٩-السادس : عن أبي خالد حَكيمِ بنِ حزامٍ ﷺ ، قَالَ : قَالَ رسولُ الله ﷺ : ((البَيِّعَانِ بالخِيَار مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإنْ صَدَقا وَبيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا في بيعِهمَا ، وإنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بركَةُ بَيعِهِما)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

(**البَيِّعَانِ**) أي : البائع والمشتري ، وأطلق عليهما ذلك من باب التغليب .

(**بالخِيَار**) الخيار هو طلب خير الأمرين من إمضاء العقد أو فسخه .

(**مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا**) أي بأبدانهما على القول الراجح .

١- الحديث دليل على فضل الصدق والبيان في البيع والشراء وأنه سبب للبركة في البيع ، وأن الكذب والكتمان سبب لمحق البركة .

فالصدق : أي فيما يصفان السلعة به من الصفات المرغوبة .

والبيان : أي فيما يصفان به السلعة من الصفات المكروهة .

مثال : لو باع شخص سيارة وقال : هذه السيارة جديدة ونظيفة ، ومدحها بما ليس فيها ، فهذا كذب .

مثال : وإذا باع السيارة وفيها عيب ولم يخبره بالعيب ، فهذا كتم ولم يبيّن .

٢- الحديث دليل على وجوب بيان عيب السلعة ، لأن البيان سبب لحلول البركة ، ولأن الكتمان غش ، وقد قال ﷺ : (من غشَّ فليس منّا).

قال الشيخ السعدي : هذا الحديث أصل في بيان المعاملات النافعة ، والمعاملات الضارة ، وأن الفاصل بين النوعين : الصدق والبيان .

فمن صدق في معاملته ، وبيّن جميع ما تتوقف عليه المعاملة من الأوصاف المقصودة ، ومن العيوب والنقص ، فهذه معاملة نافعة في العاجل : بامتثال أمر الله ورسوله ، والسلامة من الإثم ، ونزول البركة في معاملته ، وفي الآجلة : بحصول الثواب ، والسلامة من العقاب .

ومن كذب وكتم العيوب ، وما في المعقود عليه من الصفات ، فهو – مع إثمه – معاملته ممحوقة البركة .

ومتى نزعت البركة من المعاملة خسر صاحبها دنياه وأخراه .

٣- في هذا الحديث إثبات خيار المجلس (وهو الخيار الذي يثبت للمتعاقدين ما داما في المجلس، أي مجتمعين).

وإلى هذا ذهب جماهير العلماء ، كالشافعي وأحمد .

قال ابن قدامة : وهو مذهب أكثر أهل العلم .

قال النووي : وبهذا قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

لحديث الباب .

وذهب الإمام مالك وجماعة إلى أنه لا خيار للمجلس ، بل يلزم العقد بالإيجاب والقبول .

وقد أجاب هؤلاء عن حديث الباب بأجوبة كثيرة كلها ضعيفة .

ولذلك قال النووي : وهذه الأحاديث الصحيحة ترد على هؤلاء ، وليس لهم عنها جواب صحيح .

٤- المراد بقوله : (ما لم يتفرقا) أي بأبدانهما .

قال بعض العلماء : المراد بالتفرق ، تفرق الأقوال ، وهذا ضعيف .

٥- ضابط التفرق ، لم يحدد ، فيرجع فيه إلى العرف ، والقاعدة : [كل ما ورد مطلقاً في لسان الشارع ، ولم يحدد ، فإنه يرجع إلى تحديده إلى العرف] .

أمثلة :

- إذا كانا في بيت ، فبخروج أحدهما منه .
- إذا كانا في غرفة ، فبخروج أحدهما منها .

٦- **الحكمة من خيار المجلس** :

أن الإنسان قبل أن يملك الشيء تتعلق به نفسه تعلقاً كبيراً ، فإذا ملكه زالت تلك الرغبة ، لذلك شرع خيار المجلس .

٧- يثبت البيع إذا تفرقا بأبدانهما بعد البيع .

٩-يحرم لأحد المتبايعين أن يقوم خشية الاستقالة .

لقوله ﷺ(ولا يحل له أن يفارقه خشية أن يستقيله) رواه أبو داود .

فإن قيل : ما الجواب عن فعل ابن عمر : أنه كان إذا بايع رجلاً فأراد أن لا يقيله قام فمشى هنيّة ثم رجع إليه ؟

الجواب :

أ- هذا اجتهاد منه ، مدفوع بالحديث المتقدم الذي ينهى عن ذلك .

ب- أو يحمل على أنه لم يبلغه الخبر .

٥- باب المراقبة

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٩ - ٢٢٠]، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم ﴾ [الحديد :٤] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران : ٦]، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤]، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] وَالآيات في البابِ كثيرة معلومة .

تعريف المراقبة : هي دوامُ علمِك بأن الله لا يخفى عليه شيءٌ من أمرك .

قال ابن القيم : هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه .

- **قَالَ الله تَعَالَى (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِين) .**

أي : يراك في هذه العبادة العظيمة ، التي هي الصلاة ، وقت قيامك ، وتقلبك راكعاً وساجداً ، خصها بالذكر لفضلها وشرفها ، ولأن من استحضر فيها قرب ربه ، خشع وذل ، وأكملها . (تفسير السعدي) .

ففي الآية وجوب مراقبة الله في جميع العبادات والطاعات والأحوال .

- **وَقالَ تَعَالى : (وهو مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم) .**

أي : معنا بعلمه وإحاطته ، فهو معنا أينما كنا ، في بر أو بحر أو جو ، في ظاهر الأرض أو باطنها ، لا تخفي عليه سبحانه خافية من أعمالهم وأقوالهم .

وهذه هي المعية العامة ، فالمعية تنقسم إلى قسمين :

معية عامة : وهي التي تشمل كل أحد من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر ، ودليلها هذه الآية (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

ومعية خاصة : وهي المعية لأوليائه المخلصين المتقين التي مقتضاها النصر والتأييد والحفظ والتسديد ، كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) وقال تعالى (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) وقال تعالى لموسى وهارون (قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) .

ففي الآية مراقبة الله ، لأن الله مطلع علينا ، لا يخفى عليه شيء من أعمالنا .

- **وَقالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاء) .**

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماوات والأرض، ولا يخفى عليه شيء من ذلك.

قال القرطبي : هذا خبر عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل ؛ ومثله في القرآن كثير، فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون ؛ فكيف يكون عيسى إلهاً أو ابن إله وهو تَخْفى عليه الأشياء .

وقال السعدي : وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها ، جليها وخفيها ، ظاهرها وباطنها ، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بألطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير .

- **وَقالَ تَعَالَى : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاد) .**

قال ابن عباس : يرى ويسمع ، يعني يرصد خلقه فيما يعملون ويجازي كلاً بسعيه في الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم بعدله ويقابل كلاً بما يستحقه ، وهو المنزه عن الظلم والجور , (تفسير ابن كثير) .

- **وَقالَ تَعَالَى : (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور) .**

يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ؛ ليحذر الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله حَقّ الحياء ، ويَتَّقُوهُ حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. (تفسير ابن كثير)

- **وَالآيات في البابِ كثيرة معلومة .**

٦٠–وأما الأحاديث ، فالأول : عن عمر بن الخطاب ﷺ ، قَالَ : بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَومٍ ، إذْ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لا يُرَى عَلَيهِ أثَرُ السَّفَرِ ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبيّ ﷺ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إِلَى رُكْبتَيهِ ، وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ ، وَقالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أخْبرني عَنِ الإسلامِ ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : ((الإسلامُ : أنْ تَشْهدَ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحمَّداً رسولُ الله ، وتُقيمَ الصَّلاةَ ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبيلاً)) . قَالَ: صَدَقْتَ . فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ ! قَالَ: فَأَخْبرني عَنِ الإيمَانِ . قَالَ : ((أنْ تُؤمِنَ باللهِ ، وَمَلائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ)) . قَالَ : صَدقت . قَالَ : فأَخْبرني عَنِ الإحْسَانِ . قَالَ : ((أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ)) . قَالَ : فَأَخْبِرني عَنِ السَّاعَةِ . قَالَ : ((مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)) . قَالَ : فأخبِرني عَنْ أمَارَاتِهَا . قَالَ : ((أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وأنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ في البُنْيَانِ)) . ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيّاً ، ثُمَّ قَالَ : ((يَا عُمَرُ ، أَتَدْري مَنِ السَّائِلُ ؟)) قُلْتُ : اللهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ . قَالَ : ((فإنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يعلِّمُكُمْ أمْرَ دِينكُمْ)) . رواه مسلم .

ومعنى ((تَلِدُ الأَمَةُ رَبَّتَهَا)) أيْ سَيِّدَتَهَا ؛ ومعناهُ : أنْ تَكْثُرَ السَّراري حَتَّى تَلِدَ الأَمَةُ السُّرِّيَّةُ بِنْتاً لِسَيِّدِهَا وبِنْتُ السَّيِّدِ في مَعنَى السَّيِّدِ وَقيلَ غَيْرُ ذلِكَ . وَ((العَالَةُ)) : الفُقَراءُ . وقولُهُ : ((مَلِيّاً)) أَيْ زَمَناً طَويلاً وَكانَ ذلِكَ ثَلاثاً .

(إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رجل) هو جبريل عليه السلام .

(لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ) أي لا يرى عليه علامة السفر وهيئته .

١– الحديث دليل على وجوب مراقبة الله، وأن ذلك من أسباب إحسان العمل لقوله (الإحسان أن تعبد الله ....) .

فالإحسان : فهو إتقان الباطن والظاهر بعبادة الله على وجه المشاهدة أو المراقبة .

قال ابن قدامة : أراد بذلك ـ أي الإحسان ـ استحضار عظمة الله، ومراقبته في حال العبادة .

وقال ابن الأثير : أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة، وحسن الطاعة .

وقال النووي في شرحه للحديث : فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة، ومراقبة العبد ربه ـ تبارك وتعالى ـ في إتمام الخشوع والخضوع .

وقال ابن حجر: وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع، وفراغ البال حال التلبّس بها، ومراقبة المعبود .

قال ابن منظور : فسّر النّبيّ ﷺ الإحسان حين سأله جبريل، صلوات الله عليهما وسلامه، فقال (هو أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك) أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطّاعة فإنّ من راقب الله أحسن عمله .

وقال الشنقيطي : فسر النبي ﷺ الإحسان بقوله لما سأله جبريل ما الإحسان ؟ (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم .

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان ، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه .

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً). (أضواء البيان).

فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا تقصير ، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون .

قال ابن القيم : ولكن ركن الإحسان له مقامان : وهو (أن تعبد الله كأنك تراه) هذا هو المقام الأول ، وهكذا جاء بيانه عن النبي ﷺ في حديث جبريل، (فإن لم تكن تراه) هذا هو المقام الثاني، (فإنه يراك)، وانظر كيف بدأ بأعلى ما يكون من الإحسان، وهو أن يعبد العبد ربه سبحانه وتعالى كأنه يراه، يعني: وحاله حال الذي يعبد الله وهو يشاهده وينظر إليه، وكيف تكون الحال إذا كان العبد في عباداته، وفي ذهابه وإيابه، وفي معاملاته وجميع شئونه يتصرف وهو كالناظر إلى رب السماوات والأرض فوق سماواته مستوٍ على عرشه، يراه ويراقبه ويطلع عليه ؟ تكون حاله في أعلى درجات الإيمان، وأعلى درجات الدين وهي درجة الإحسان، بل أعلى المقامين في الإحسان، وهو أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، فهذا المقام كبير وشأنه عظيم، ويحتاج إلى استحضار تام وشهود متواصل، وأن يعلم العبد أنه لا تخفى على الله منه خافية، ويحتاج إلى زيادة العناية بمطالعة ما ذكره الله عن نفسه من الأسماء والصفات؛ فإن القلب إذا توالى عليه ما أخبر الله به عن نفسه، وما أخبر به رسوله ﷺ عن ربه قوي قلبه، وأصبح العلم كالمشاهدة، أي: يكون كالذي يشاهد ربه بعينه في تصرفه، وفي عمله، وفي قيامه وقعوده وخروجه، وفي عبادته، وهذا المعنى أكثر الناس يغفلون عنه.

المقام الثاني : هو منزلة دون المنزلة الأولى(فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وهو استحضار مراقبة الله عز وجل واطلاعه سبحانه وتعالى عليك .

قال ابن القيّم : وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء، والسكينة، والمحبة، والخضوع، والخشوع، والخوف، والرجاء، ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامُها به، ولقد جمعَ النبي أصولَ أعمال القلب وفروعَها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: (أن تَعْبُدَ الله كأنك تراه) فتأمل كلَّ مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه .

وقال رحمه الله : وَلا رَيبَ أَنَّ مُجَرَّدَ القِيَامِ بِأَعْمَالِ الجَوَارِحِ، مِنْ غَيرِ حُضُورٍ وَلا مُرَاقَبَةٍ، وَلا إِقْبَالٍ عَلَى الله قَلِيلُ المَنْفَعَةِ، دُنْيًا وَأُخْرَى، كَثِيرُ المؤنَةِ. فَإِنَّهُ – وَإِنْ كَثُرَ – مُتْعِبٌ غَيرُ مُفِيد .

وَلِهَذَا قَالَ الله تعالى (الَّذِي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) .

وَقَالَ (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وَقَالَ تَعَالَى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَالمَوْتَ وَالحَيَاةَ، وَزَيَّنَ الأَرْضَ بِمَا عَلَيْهَا لِيَبْلُوَ عِبَادَهُ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلًا، لَا أَكْثَرُ عَمَلًا.

وَلِهَذِهِ المعَانِي الجَلِيلَةِ، لَمْ تُغْنِ الصَّالِحِينَ كَثْرَةُ الأَعْمَالِ بِالظَّاهِرِ، وَقَالُوا: الشَّأْنُ فِي الصَّفْوَةِ لَا فِي الكَثْرَةِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ أَغْفَلُوا مَا فِي القُلُوبِ، فَغَرَّهُمُ العَدَدُ وَالكَثْرَةُ، وَمَا يَنْفَعُ رَفْعُ السُّقُوفِ وَلَمْ تُحْكَمْ مَبَانِيهَا؟!

وقال رحمه الله: المرَاقَبَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعلَى أَعْمَالِ القُلُوبِ هِيَ التَّعَبُّدُ لِلّاهِ بِاسْمِهِ الرَّقِيبِ الشَّهِيدِ، فَمَتَى عَلِمَ العَبدُ أَنَّ حَرَكَاتِهِ الظَّاهِرَةَ وَالبَاطِنَةَ قَد أَحَاطَ اللّاهُ بِعِلمِهَا، وَاسْتَحْضَرَ هَذَا العِلْمَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، أَوجَبَ لَهُ ذَلِكَ حِرَاسَةَ بَاطِنِهِ عَنْ كُلِّ فِكْرٍ وَهَاجِسٍ يُبْغِضُهُ اللهَ، وَحَفِظَ ظَاهِرَهُ عَنْ كُلِّ قَولٍ أَو فِعْلٍ يُسْخِطُ اللهَ، وَتَعَبَّدَ بِمَقَامِ الإِحْسَانِ فَعَبَدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاه.

فائدة : الإحسان في الشرع له معنيان على حسب تصريفه اللغوي :

احدهما : إيصال النفع ، ومحله المخلوق لا الخالق . ويشمل جميع أنواع البر والعطف .

والثاني : إتقان العمل وإيجادة الشيء ، ومحله الخالق والمخلوق معنى ، فهو نوعان :

أحدهما : الإحسان مع الخالق : وحده ما ذكره النبيﷺ في هذا الحديث ، وحقيقته كما سبق : إتقان الظاهر والباطن على المشاهدة والمراقبة .

والآخر : الإحسان إلى المخلوق بأداء حقوقه إليه .

٢-فضائل مراقبة الله :

أولاً : فضل مراقبة الله في السر توجب للعبد الإخلاص والخلاص من الكبائر .

كما ورد في الحديث (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله) متفق عليه.

ثانياً : النصح في العبادة

كما قال رسول الله ﷺ (إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قِبَل وجهه فإن الله قِبَل وجهه إذا صلى) متفق عليه .

ثالثاً : تورث القلب خشية وخشوعاً وبكاء .

كما في الحديث (ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) .

رابعاً : ومن قدر على معصية الله في سره ثم راقب الله فتركها خوفاً من الله له ثواب عظيم وينفرج همه وينفس كربه .

كما في قصة صاحب الغار الذي خلا بابنة عمه وتمكن منها ثم قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقام وتركها وترك المال الذي أرادته خوفاً من الله تعالى فانفرج الغار لعمله.

خامساً : من راقب الله في السر حسن عمله وعظم يقينه ، ووجد حلاوة الإيمان ، واطمأن قلبه ، وقذف الله نوراً في قلبه وضياء في وجهه ، ووجد سعة في رزقه وبركة في أهله وألفة ومحبة فيما بينه وبين الخلق وانعكس ذلك على حياته بالتوفيق والرضا والسعادة.

سادساً : عبادة السر من أجل الطاعات ، لأنها مبنية على حسن المراقبة لله والإخلاص المحض واليقين التام وعدم التفات القلب للمخلوقين وثوابهم .

ولذلك أثنى الله عز وجل على صدقة السر فقال: (إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِي وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير) .

وجاء في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما

تنفق يمينه).

وكان من دعاء النبي ﷺ (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة) .

أن العبد يخشى الله سراً وعلانية ، ظاهراً وباطناً ، فإن أكثر الناس قد يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن خشية الله في الغيب إذا غاب عن أعين الناس فقد مدح الله من خافه بالغيب .

ثامناً : أنها من أفضل الطاعات وأعلاها .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى (وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين) ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء... في عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة .

ثامناً : أن بها يكسب العبد رضا الله سبحانه وتعالى عنه.

تاسعاً : أنها من أعظم البواعث على المسارعة إلى الطاعات.

عاشراً : أن بها يحصل العبد على معيّة الله وتأييده.

الحادي عشر : أنها تعينه على ترك المعاصي والمنكرات.

قال ابن الجوزي : فقلوب الجهال تستشعر البُعْد؛ ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكُفَّ عن الخطايا، والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط .

وقال ابن القيم : فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذِكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلاً عن مواقعتها .

وقال أيضاً: فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته .

الثاني عشر : أنها من خصال الإيمان وثمراته.

٣-الحديث دليل على استحباب السؤال في العلم .

قال تعالى (فاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) .

وقد قيل : السؤال نصف العلم .

٤-الحديث دليل على أنه ينبغي لمن حضر مجلس علم، ورأى أن الحاضرين بحاجة إلى معرفة مسألة ما، ولم يسأل عنها أحد، أن يسأل هو عنها . وإن كان هو يعلمها . لينتفع أهل المجلس بالجواب ، فقد كان غرض جبريلَ عليه السلام من أسئلته هذه أن يتعلم المسلمون ، وهذا ما بينه النبيُّ ﷺ بقوله : فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أتاكم يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُم ، وفي رواية أبي هريرة عند البخاري ومسلم : هَذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا .

٥- الحديث دليل على أنه ينبغي للسائل حسن الأدب بين يدي معلمه ، وأن يرفق في سؤاله . قاله النووي .

و يشهد لهذا ما في رواية عطاء بن السائب عن يحيى بن يعمر فقال أدنو يا رسول الله قال نعم فدنا ثم قام فتعجبنا لتوقيره رسول الله ثم قال أدنو يا رسول الله قال نعم فدنا حتى وضع فخذه على فخذ رسول الله ﷺ .

وفي رواية علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن ابن عمر عند أحمد : ما رأينا رجلاً أشد توقيراً لرسول الله ﷺ من هذا .

قال الشافعي : لا يطلب هذا العلم أحد بالملك وعزة النفس فيفلح ، لكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح .

وقال عبد الله بن المعتز : المتواضع في طلب العلم أكثرهم علماً كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء .

٦- قوله (فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْه) .

قيل : معناه أن الرجل الداخل وضع كفيه على فخذي نفسه وجلس على هيئة المتعلم .

وقيل : معناه وضع كفيه على فخذي النبي ﷺ .

وهذا الصحيح لحديث أبي هريرة وأبي ذر عند النسائي (... إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهاً ، وأطيب الناس ريحاً، كأن ثيابه لم يمسّها دَنَس، حتى سلم في طرف البساط ، فقال : السلام عليك يا محمد، فرد عليه السلام، قال: أدْنو يا محمد ؟ قال : ادْنُهْ ؟ فما زال يقول : ادنو ؟ مراراً ويقول له : ادن ، حتى وضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ) .

- واختلف العلماء في الحامل له على ذلك : والصحيح أن الحامل له على ذلك : الإيغال في التعمية لئلا يعرف ، فإن هذا فعل جفاة الأعراب ، وأما قول من قال : إنه فعل ذلك كحال المؤدب ، فإن ذلك ليس حال المؤدب .

٧- الحديث دليل على أن المَلَك يجوز أن يتمثل لغير النبي ﷺ فيراه ، ويتكلم بحضرته وهو يسمع ، وقد ثبت عن عمران بن حصين أنه كان يسمع كلام الملائكة .

٨- الحديث دليل لجمهور أهل السنة على أن الإسلام غير الإيمان ، (وهذا عند الاجتماع) .

فالإسلام هو الأعمال الظاهرة ، والإيمان هو الأعمال الباطنة .

لقوله تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) .

فهذه الآية أثبت لهم الإسلام ونفت عنهم الإيمان مما يدل على أن مرتبة الإيمان أعلى .

فالمراد بقوله (أسلمنا) أي : دخلنا في الإسلام على القول الصحيح في معنى الآية ، والدليل على أن المراد به الإسلام وليس الاستسلام قوله (وإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً) فدل على أنهم إذا أطاعوا الله ورسوله مع هذا الإسلام ، آجرهم الله على الطاعة .

قال ابن كثير : استفيد من هذه الآية أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة .

ولحديث الباب ، فهو من أهم الأدلة على ذلك .

٩- وجوب الإيمان بالقدر .

ومن الأدلة على وجوبه وأنه من أركان الإيمان :

قوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) .

وقوله تعالى (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) .

وَقوله تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) .

وَقَالَ تَعَالَى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) .

- في قوله ﷺ (وأن تؤمن بالقدر خيرِهِ وشره) فهل في القدر شر ؟

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله : ليس في القدر شر ، وإنما الشر في المقدور ، يعني ليس فعل الله وتقديره شراً ، الشر في مفعولات الله لا في فعله ، والله لم يقدر هذا الشر إلا لخير .

كما قال تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) هذا بيان سبب الفساد .

وأما الحكمة فقال (ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) ، إذاً هذه مصائب مآلها الخير .

١٠- الحديث دليل على أن حسن السؤال من أسباب تحصيل العلم .

قيل لابن عباس : بما بلغت العلم ؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول .

وقال الزهري : العلم خزانة مفتاحها المسألة .

وسئل الأصمعي : بما نلت ما نلت ؟ قال : بكثرة سؤالي ، وتلقفي الحكمة الشرود .

١١- الحديث دليل على مشروعية الرحلة في طلب الحديث .

ورحل جابر بن عبد الله شهراً كاملاً في مسألة .

وكان سعيد بن المسيب يقول : إن كنت لأسهر الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد .

١٢- الحديث دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب .

١٣- الحديث دليل على أنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم .

وقد سئل ﷺ عن أحب البقاع إلى الله ؟ فقال : لا أدري .وقد قالت الملائكة (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) .

وقال ﷺ كما في حديث جبريل : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .

وقال ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله أعلم .

وسئل الشعبي عن شيء فقال : لا أدري ، فقيل له : ألا تستحيي من قولك لا أدري وأنت فقيه العراقين ؟

فقال : لكن الملائكة لم تستح حين قالت سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .

وقال البراء : لقد رأيتُ ثلاثمائة من أهل بدر ما منهم أحد إلا وهو يحبُّ أن يكفيَه صاحبُه الفتوى .

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى : أدركتُ عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله يسأل أحدهم عن المسألة فيردها إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول .

وقال ابن وهب : وكنت أسمعه – أي مالكاً – كثيراً ما يقول : لا أدري ، ولو كتبنا عن مالك لا أدري لملأنا الألواح .

وقال ابن عباس : إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله .

وقال الشعبي : لا أدري نصف العلم .

وعن عقبة بن مسلم قال : صحبت ابن عمر أربعةً وثلاثين شهراً فكان كثيراً ما يُسأل فيقول : لا أدري ، ثم يلتفت فيقول : أتدري ما يريدون هؤلاء ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً إلى جهنم .

قال ابن عيينة : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً .

وقال مالك : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون من أهل المدينة .

قال ابن القيم : وقد حرم الله القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله في المرتبة العليا, قال الله تعالى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) .

وقيل : ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري لكثرة ما يقولها .

قال ابن جماعة : واعلم أن قول (لا أدري) لا يضع من قدر العالم كما يظنه بعض الجهلة ، بل هي رفعة له ، لأنه دليل على عظم محله وعلى ورعه وعلى تقواه وعلى طهارة قلبه ، إنما يأنف من قول (لا أدري) من ضعفت ديانته وقلت معرفته .

وقد أدب الله العلماء بقصة موسى مع الخضر حيث لم يرد موسى العلم إلى الله تعالى لما سئل : هل أحد في الأرض أعلم منك ؟

١٣- الحديث دليل على إجابة السائل بأكثر مما سأل .

فإن النبي ﷺ لما أجاب السائل عن الساعة ؟ بجواب جامع ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، لم يكتف بذلك وإنما زاده أن بين له بعض أماراتها ، فقال : وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ ، فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ "، ثُمَّ تَلا النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَة) .

١٤- الحديث دليل على أنه لا يدري أحد متى الساعة ، وقد استأثر الله بعلمها ، فلم يطلع على ذلك ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً.

قال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) .

قال ابن كثير : أي ليس علمها إليك، ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين .

لكن هي قريبة : قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

١٥- أن للساعة علامات تدل على قربها .

وعلامات الساعة تنقسم إلى قسمين :

أشراط صغرى .

وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة ، وتكون من نوع المعتاد ، كقبض العلم ، وظهور الجهل ، وشرب الخمر ، والتطاول في البنيان .

أشراط كبرى .

وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة ، وتكون غير معتادة الوقوع ، كظهور الدجال ، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها .

١٦- قوله (أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا) اختلف في معناها ؟

قال النووي : جاء في رواية : ربها ، وفي أخرى : بعلها ، قال الأكثرون من العلماء : هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن ، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها .

وهذا أقوى الأقوال : أن يكثر التسري (اتخاذ الإماء) فيكون ولد الأمَة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه بأبيه، وقيل : أن تستخدم الأم كالأمَة ورجحه الحافظ ابن حجر .

فائدة : اختلف لما خص النبي ﷺ هاتين العلامتين فقط ؟

قيل : لأنهما من أول ما يظهر في الناس .

وقيل : تحذيراً للحاضرين .

وقيل : لأن البلية تقع بهما فيتسع هذا الأمر في الخلق .

١٧- قوله (وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ) .

(**الحفاة**) جمع حاف، وهو من لا نعل له في رجليه (**العراة**) جمع عار، وهو من لا ثياب على جسده. (**العالة**) جمع عائل، وهو الفقير (**رعاء الشاء**) جمع راع ، وهو الحافظ ، والشاء : جمع شاة ، وهي واحدة الضأن ، وإنما خص رعاء الشاء بالذكر لأنهم أضعف أهل البادية وقد جاء في حديث أبي هريرة (إذا رأيت الرعاء البهم) وعند البخاري (وإذا تطاول الإبل البهم) .

قال القرطبي : المقصود الإخبار عن تبدل الحال ، فاستولى أهل البادية على الأمر ، وتملكوا البلاد بالقهر ، فتكثر أموالهم وتنصرف همومهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به ، وقد شاهدنا ذلك في هذه الأزمان . فمن علامات الساعة : أي يتفاخرون في طول بيوتهم ورفعتها ، يعني من علامات القيامة أن ترى أهل البادية ممن ليس لهم لباس ولا نعل بل كانوا رعاء الإبل والشاء

يتوطّنون البلاد ، ويتخذون العقار ، ويبنون الدور والقصور المرتفعة .

١٨- قوله ﷺ (أتاكم يعلمكم دينكم) فيه أن الإيمان والإسلام والإحسان تسمى كلها ديناً .

فائدة : قال القرطبي : هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة , لما تضمنه من جمل علم السنة .

١٩- جواز إطلاق رمضان على الشهر وأنه لا يلزم قول : شهر رمضان ، خلافاً لمن قال يكره قول (رمضان) من غير إضافة كلمة (شهر) ويدل لجواز ذلك :

قوله ﷺ (من صام رمضان إيماناً ...) متفق عليه .

وقوله ﷺ (لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين ...) متفق عليه .

وقوله ﷺ (إذا جاء رمضان فتحت ...) متفق عليه .

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يقال رمضان على انفراده بحال ، وإنما يقال شهر رمضان .

وهذا قول أصحاب مالك .

واستدلوا بحديث (لا تقولوا رمضان ، فإن رمضان اسم من أسماء الله ، ولكن قولوا شهر رمضان) .

قال النووي : قولهم أنه اسم من أسماء الله ليس بصحيح ، ولم يصح فيه شيء ، وإن كان قد جاء به أثر ضعيف .

وقال ابن حجر : أخرجه ابن عدي في الكامل وضعفه بأبي معشر .

٢٠- أن العالم قد ينتقل بالمسؤول إلى ما ينفعه ، لأنه سأله عن الساعة ، فأخبره بأشراطها .

٦١-الثاني : عن أبي ذر جُنْدُب بنِ جُنادَةَ وأبي عبدِ الرحمانِ معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنهما ، عن رسولِ الله ﷺ ، قَالَ : (اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ وَأتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) رواه الترمذي ، وَقالَ : (حديث حسن) .

(**اتق الله**) أي : اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

(**حَيْثُمَا كُنْتَ**) أي : في أي مكان وأي زمان كنت فيه ، لوحدك أو مع الناس .

(**وَخَالِقِ النَّاسَ**) أي : عامل الناس .

(**بِخُلُقٍ حَسَنٍ**) الخلق الحسن : هو فعل الفضائل وترك القبائح .

١-الحديث دليل على وجوب تقوى الله في السر والعلن ومراقبته سبحانه لقوله (اتق الله حيثما كنت) حيث يراه الناس وحيث لا يرونه .

إن تقوى الله في الغيب ، وخشيته في السر ، دليل كمال الإيمان ، وسبب حصول الغفران، ودخول الجنان، بها ينال العبد كريم الأجر وكبيره .

قال تعالى (إنما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيم) .

وقال تعالى (إن الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِير) .

وقال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ . لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد) .

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة) .

وخشية الله في الغيب والشهادة من المنجيات ، كما قال ﷺ (ثلاث منجيات ، وذكر منها : خشية الله في السر والعلن) .

وقال الشافعي : أعز شيء في الوجود ثلاثة : الجود من قلة ، والورع في خلوة ، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف .

وكان الإمام أحمد ينشد :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ ولكنْ قل عليّ رقيب .

ولا تحسبنّ اللهَ يغفلُ ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ .

وقال الشاعر :

إذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلَى الطغيان .

فاستحي مِن نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني .

قال ابن رجب رحمه الله : وفي الجملة ، فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان ، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناء في قلوب المؤمنين .

وقال رحمه الله في شرح حديث عمار : فأما خشية الله في الغيب والشهادة ، فالمعنى أن العبد يخشى الله سراً وإعلاناً وظاهراً وباطناً ، فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة ، ولكن الشأن في خشيته في الغيب إذا غاب عن أعين الناس ، وقد مدح الله من يخافه بالغيب :

قال تعالى (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) .

وقال تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) .

وقال تعالى (لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

ومن هنا عظم ثواب من أطاع الله سراً بينه وبينه ، ومن ترك المحرمات التي يقدر عليها سراً .

فأما الأول : فمثل قوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ..... فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

قال بعض السلف : أخفوا لله العمل فأخفى لهم الجزاء .

وفي حديث السبعة الذي يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه

وأما الثاني : فمثل قوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله) .

واعلم أن المراقبة هي التعبد لله بأسمائه: الرقيب، الحفيظ، السميع، العليم، الخبير، البصير، الشهيد، والمحصي ، فمن عقل هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها حصلت له المراقبة.

الله هو الرقيب:

الله سبحانه هو الرقيب، يعلم أحوال عباده، ويعد أنفاسهم، حفيظ لا يغفل، وحاضر لا يغيب، قال تعالى في قول عيسى لربه: (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) .

وقد سُئل بعضهم: بم يُستعان على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى المنظور.

وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى. فسأله عن تفسير ذلك؟ فقال: كُن أبدًا كأنك ترى الله.

والله هو الحفيظ:

قال تعالى: (وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) فمن علم ذلك حفظ قلبه وجوارحه من معاصيه.

وهو العليم:

فمن علم أنه سبحانه عالم بكل شيء حتى بخطرات الضمائر، ووساوس الخواطر، راقب ربه واستحيا منه، وكف عن معاصيه، قال تعالى: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وهو الشهيد:

قال تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

وهكذا بقية أسمائه الحسنى التي ذكرناها، فإن التعبد لله بمقتضاها يورث القلب مراقبة الرب عز وجل.

قال عامر بن قيس: ما نظرتُ إلى شيءٍ إلا رأيتُ الله تعالى أقرب إليه مني.

٢- من أقوال السلف في المراقبة .

قال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطّاب ﷺ إلى مكّة فعرّسنا في بعض الطّريق فانحدر عليه راع من الجبل، فقال له: يا راعي، بعني شاة من هذه الغنم؟ فقال: إنّي مملوك، فقال: قل لسيّدك: أكلها الذّئب؟ قال: فأين الله ؟ قال: فبكى عمرﷺ ثمّ غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه، وأعتقه وقال: أعتقتك في الدّنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

قال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسيرها فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل .

وسئل الحارث المحاسِبي عن المراقبة فقال: علم القلب بقرب الله تعالى .

قال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للنّاس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرّنّك اجتماعهم عليك فإنّهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك .

وقيل لبعضهم: متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهَلَكة؟ فقال: إذا علم أنَّ عليه رقيباً .

قال ابن عطاء رحمه الله : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات .

قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبداً وقف عند همِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر .

قال ابن منظور رحمه الله: من راقب الله أحسن عمله .

قال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه .

وقال رجل لوُهَيب بن الوَرْد رحمه الله : عظني ؟ قال : اتق أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

وقال بعضهم : ليس الخائف من بكى فعصر عينيه، إنما الخائف من ترك ما اشتهى من الحرام إذا قدر عليه .

قال ابن رجب : فتقوى الله في السر، هي علامة كمال الإيمان، ولها تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبها الثناء في قلوب المؤمنين .

قال أبو الدرداء : ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين .

وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر، فيصبح وعليه مذلته .

وقال غيره : إن العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبين الله ثم يجيء إلى إخوانه فيرون أثر ذلك الذنب عليه .

قال ابن القيم : وكان شجاع الكرماني يقول: من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، واعتاد أكل الحلال؛ لم تخط له فراسة، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة .

٣- الموجب لخشية الله في السر والعلانية أمور :

منها : قوة الإيمان بوعده ووعيده على المعاصي .

ومنها : النظر في شدة بطشه وانتقامه ، وقوته وقهره ، وذلك يوجب للعبد ترك التعرض لمخالفته ، كما قال الحسن : ابن آدم ، هل لك طاقة بمحاربة الله ، فإن من عصاه فقد حاربه .

ومنها : قوة المراقبة له، والعلم بأنه شاهد ورقيب على قلوب عباده وأعمالهم، وأنه مع عباده حيث كانوا، كما دل القرآن على ذلك في مواضع كقوله تعالى (... إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) وقال تعالى (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ) .

قال بعض السلف : خف الله على قدر قدرته عليك واستحيي منه على قدر قربه منك .

وقال بعضهم لمن استوصاه : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

دخل بعضهم غيضة ذات شجر ، فقال : لو خلوت ها هنا بمعصية من كان يراني ؟ فسمع هاتفاً بصوت ملأ الغيضة (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

٤-الحديث دليل على وجوب تقوى الله عز وجل لقوله : اتق الله .

والتقوى : أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

قال علي : وقد سئل عن التقوى فقال: هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقال بعضهم : تقوى الله تعالى ألا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك .

- وللتقوى فضائل كثيرة ستأتي في بابها إن شاء الله .

٥- أن الحسنات يذهبن السيئات لقوله (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) .

قال ابن رجب : فإنه لما كان العبد مأموراً بالتقوى في السر والعلانية مع أنه لابد أن يقع منه أحياناً تفريط في التقوى ، إما بترك بعض المأمورات ، أو بارتكاب بعض المحظورات ، أمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة ، وهي أن يتبعها بالحسنة وقد قال تعالى (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود (أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة ، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فسكت النبي ﷺ حتى نزلت هذه الآية ، فدعاه فقرأها عليه ، فقال رجل : هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس عامة) متفق عليه .

وقد وصى الله المتقين في كتابه بمثل ما وصى به النبي ﷺ في هذه الوصية في قوله تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) .

ومعنى (ذكروا الله) أي : ذكروا عظمته وشدة بطشه وانتقامه ، وما توعد به على المعصية من العقاب ، فيوجب ذلك لهم الرجوع في الحال والاستغفار وترك الإصرار . (ابن رجب) .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الأسباب العشر التي تندفع بها عقوبة السيئات فقال : والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب : أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، أو يستغفر فيغفر له ، أو يعمل حسنات تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات .

٦- الحث على مخالقة الناس بخلق حسن .

قال ابن رجب رحمه الله : هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرد بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإن كثيراً من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده ... إلى أن قال : والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جداً ، ولا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين .

- ولحسن الخلق فضائل كثيرة :

أولاً : أنه من أسباب دخول الجنة .

فقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة فقال (تقوى الله وحسن الخلق) . رواه الترمذي

ثانياً : أنه أثقل شيء في الميزان .

قال ﷺ (ما من شيء أثقل في الميزان يوم القيامة من حسن الخلق) . رواه الترمذي

ثالثاً : أن حسن الخلق من كمال الإيمان .

قال ﷺ (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) . رواه أحمد

رابعاً : أن النبي ﷺ حصر دعوته في حسن الخلق .

قال ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) . رواه أحمد

خامساً : يدرك المؤمن بحسن خلقه درجة الصائم القائم .

قال ﷺ (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) . رواه أبو داود

سادساً : بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه .

قال ﷺ (أنا زعيم بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه) . رواه أبو داود

زعيم : ضامن .

سابعاً : أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ صاحب الخلق الحسن .

قال ﷺ (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً) . رواه الترمذي

ثامناً : جعله من خصال التقوى .

قال تعالى (... أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) .

قال الحسن : حسن الخلق : الكرم ، والبذلة ، والاحتمال .

وقال ابن المبارك : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى .

وسئل سلام بن أبي مطيع عن حسن الخلق فأنشد شعراً فقال :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله .

ولو لم يكن في كفه غيرُ روحهِ لجاد بها فليتق اللهَ سائلُه .

هو البحرُ من أي النواحي أتيتَه فلجته المعروفُ والجودُ ساحلُه

٦٢-الثالث : عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ : كنت خلف النَّبيّ ﷺ يوماً ، فَقَالَ : ((يَا غُلامُ ، إنِّي أعلّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ الله، وإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ ، وَاعْلَمْ : أنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبهُ اللهُ لَكَ ، وَإن اجتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحفُ)) رواه الترمذي ، وَقالَ : ((حديث حسن صحيح)) .

وفي رواية غيرِ الترمذي : ((احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفكَ فِي الشِّدَّةِ ، وَاعْلَمْ : أنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبكَ ، وَمَا أصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَاعْلَمْ : أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً)) .

١- الحديث دليل على حسن تعليم النبي ﷺ وتربيته .

٢- الحديث دليل على تواضع النبي ﷺ .

٣- الحديث دليل على جواز الإرداف على الدابة ، لكن بشرط أن تطيق ذلك .

٤- قوله ﷺ (احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْك) أي : أن من حفظ الله وذلك بإقامة أوامره وترك نواهيه حفظه الله في الدنيا والآخرة ، ويحفظه في صحة بدنه وقوته وعقله وماله .

أمثلة لحفظ الله لمن حفظه :

كان العبد الصالح أبو الطيب الطبري رحمه الله ، قد جاوز المائة ، وهو متمتع بعقله وقوته وكافة حواسه ، حتى أنه سافر ذات مرة مع رفقة له ، فلما اقتربت السفينة من الشاطئ وثب منها إلى الأرض وثبة شديدة، عجز عنها بقية الذين كانوا معه على السفينة، فاستغرب بعضهم هذه القوة الجسدية التي منحها الله إياه مع كبر سنه وشيخوخته ، فقال لهم الطبري : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر .

وكان العبد الصالح شيبان الراعي رحمه الله ، يرعى غنماً له في البرية ، فإذا جاءت الجمعة خط عليها خطاً ، ثم ذهب وشهد الجمعة والخطبة مع جماعة المسلمين ، ثم عاد إليها ، فيجدها كما هي لم تتحرك منها شيء ، ولم تجاوز الخط منها أي غنمة ، فسبحان الحافظ المعين .

وقال عروة بن الزبير : بلغت أسماء بنت أبي بكر مائة سنة لم يسقط لها سن ولم ينكر لها عقل .

- وقد يحفظ الله العبد بصلاحه في ولده وولد ولده :

كما قيل في قوله تعالى (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً) إنهما حفظا بصلاح أبيهما .

قال محمد بن المنكدر : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التي هو فيها ، والدويرات التي حولها ، فما يزالون في حفظ الله وستر .

- ومن أنواع حفظ الله لمن حفظه في دنياه : أن يحفظه من شر كل من يريده بأذى من الجن والإنس .

كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) قالت عائشة : يكفيه غم الدنيا وهمها .

وكتبت عائشة إلى معاوية : إن اتقيت الله كفاك الناس ، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً .

كتب بعض السلف إلى أخيه : فإنه من اتقى الله فقد حفظ نفسه ، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه ، والله الغني عنه .

- قال ابن رجب: ومن عجيب حفظ الله لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى:

كما جرى لسفينة مولى النبي ﷺ حيث كسر به المركب وخرج إلى جزيرة فرأى الأسد ، فجعل يمشي معه حتى دله على الطريق ، فلما أوقفه عليها جعل يهمهم كأنه يودعه ثم رجع عنه .

وكان العبد الصالح إبراهيم بن أدهم نائماً ذات مرة في بستان ، فجاءته حية في فمها نرجس ، فما زالت تذب عنه الحيات التي تريد به سوءاً وتدافع عنه ، حتى استيقظ من نومه .

قال مسروق بن الأجدع : من راقب الله في خطرات قلبه ، عصمه الله في حركات جوارحه .

وقال سعيد بن المسيب لابنه : لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك ، ثم تلا هذه الآية : وكان أبوهما صالحاً .

- ومن أعظم الحفظ حفظه تعالى لعبده في دينه ، فيحفظ عليه دينه وإيمانه في حياته من الشبهات المردية والشهوات المحرمة ، ويحفظ عليه دينه عند موته ، فيتوفاه على الإسلام .

ثبت في الصحيحين من حديث البراء أن النبي ﷺ علمه أن يقول عند منامه (اللهم إن قبضت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) .

وفي حديث عمر عن النبي ﷺ أنه علمه أن يقول (اللهم احفظني بالإسلام قائماً ، واحفظني بالإسلام قاعداً ، واحفظني بالإسلام راقداً) رواه ابن حبان .

وكان النبي ﷺ إذا ودّع من يريد السفر يقول له : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك .

وكان عمر يقول في خطبته : اللهم اعصمنا بحفظك ، وثبتنا على أمرك .

وهذا كما حفظ يوسف عليه السلام قال (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فمن أخلص لله خلصه الله من السوء والفحشاء منها من حيث لا يشعر ، وحال بينه وبين أسباب المعاصي المهلكة .

وسمع عمر رجلاً يقول : اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه ، فحُل بيني وبين معاصيك ، فأعجب ذلك عمر ودعا له بخير .

راود رجل امرأة عن نفسها وأمرها بغلق الأبواب ففعلت ، وقالت له : قد بقي باب واحد ، قال : وأي باب هو ؟ قالت : الباب الذي بيننا وبين الله ، فلم يتعرض لها .

وراود رجل أعرابية ، قال لها : ما يرانا إلا الكوكب ، قالت : فأين مكوكبها ؟

وهذا كله من ألطاف الله وحيلولته بين العبد ومعصيته .

- ومن أنواع حفظ الله لعبده في دينه : أن العبد قد يسعى في سبب من أسباب الدنيا ، إما بالولايات أو التجارات أو غير ذلك ، فيحول الله بينه وبين ما أراده لما يعلم له من الخيرة في ذلك وهو لا يشعر مع كراهته لذلك .

- وأعجب من هذا أن العبد قد يطلب باباً من أبواب الطاعات ، ولا يكون فيه خيرة ، فيحول الله بينه وبينه صيانة له وهو لا يشعر .

وكان بعض السلف يدور على المجالس ويقول : من أحب أن تدوم له العافية فليتق الله .

وقال بعض السلف : من حفظ الله فقد حفظ نفسه .

٥- أن من لم يحفظ الله لم يحفظه الله .

قال تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

٦- قوله ﷺ (احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ) أي : من حفظ حدود الله وراعى حقوقه ، وجد الله معه في جميع الأحوال ، يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويؤيده ويسدده ، فإنه قائم على كل نفس بما كسبت ، وهو تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

كتب بعض السلف إلى أخ له : أما بعد ، فإن كان الله معك فمن تخاف ؟ وإن كان عليك فمن ترجو ؟ والسلام .

٧- قوله ﷺ (إِذَا سَأَلْت فَاسْأَلْ اللَّهَ) هذا أمر بإفراد الله عز وجل بالسؤال ونهي عن سؤال غيره من الخلق .

وقد أمر الله بسؤاله فقال (واسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ) .

وفي الترمذي عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه) .

واستحق الغضب لأمرين :

الأول : لأنه ترك محبوباً لله ، فإن الله يحب أن يسأل ، ذكر ذلك المناوي .

والثاني : لأن ترْك الدعاء دليل على الاستغناء عن الله ، ذكر ذلك المباركفوي .

وفي النهي عن سؤال المخلوق أحاديث كثيرة أيضاً ، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً منهم : أبو بكر ، وأبو ذر ، وثوبان ، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله .

- واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعاً وذلك من وجوه متعددة :

منها : أن السؤال فيه بذل لماء الوجه وذلة للسائل ، وذلك لا يصلح إلا لله وحده ، وهذا هو حقيقة العبادة التي يختص بها الإله الحق .

كان الإمام أحمد يقول في دعائه : اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك .

ولهذا كان عقوبة من أكثر المسألة بغير حاجة أن يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم كما ثبت في الصحيحين ، لأنه أذهب عز وجهه وصيانته وماءه في الدنيا ، فأذهب الله من وجهه في الآخرة جماله وبهاءه الحسي ، فيصير عظماً بغير لحم ، ويذهب جماله وبهاؤه المعنوي ، فلا يبقى له عند الله وجاهة .

ومنها : أن في سؤال الله عبودية عظيمة ، لأنها إظهار للافتقار إليه ، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج ، وفي سؤال المخلوق ظلم ، لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها ، فكيف يقدر على ذلك لغيره .

قال بعض السلف : إني لأستحي من الله أن أسأله الدنيا وهو يملكها فكيف أسألها ممن لا يملكها ؟ يعني المخلوق .

ومنها : أن الله يحب أن يُسأل ، ويغضب على من لا يسأل ، فإنه سبحانه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه ويدعوه ويفتقروا إليه ، ويحب الملحين في الدعاء ، والمخلوق غالباً يكره أن يُسأل لفقره وعجزه .

قال أبو العتاهية :

الله يغضب إن تركتَ سؤاله وبُنيّ آدم حين يسأل يغضب

فاجعل سؤالك للإله فإنما في فضل نعمة ربنا نتقلب .

- **قال ابن تيمية** : سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد :

الأولى : مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي نوع من الشرك .

والثانية : مفسدة إيذاء المسؤول وهي نوع من ظلم الخلق .

والثالثة : فيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس ، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة .

٨- قوله ﷺ (وَإِذَا اسْتَعَنْت فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ) أرشد ﷺ بالاستعانة بالله بعد حفظه لحدود الله والقيام بدعائه .

وهذا منتزع من قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وهي كلمة عظيمة جامعة يقال : إن سر الكتب الإلهية كلها ترجع إليها وتدور عليها .

وفي استعانة الله فائدتان :

إحداهما : أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات .

والثانية : أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ، فمن أعانه الله فهو المعان ، ومن خذله الله فهو المخذول .

وفي الحديث (احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز) .

وكان ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا (الحمد لله نستعينه ونستهديه) .

وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول : (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

٩- قوله ﷺ (وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوك بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوك إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَك، وَإِنْ اجْتَمَعُوا ....) يريد بذلك أن ما يصيب العبد مما يضره أو ينفعه في دنياه فكله مقدر عليه ، ولا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يُقدَّر عليه ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً وقد دل القرآن أيضاً على مثل هذا :

كما قال تعالى (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) .

وقال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) .

وقال سبحانه (قلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) .

- ثم قال ابن رجب :

واعلم أن مدار هذه الوصية على هذا الأصل ، وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه ، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر ، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة ، علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع ، المعطي المانع ، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل ، وإفراده بالسؤال والتضرع والابتهال ، وإفراده أيضاً بالعبادة والطاعة ، لأن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذم الله سبحانه من يعبد ما لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئاً ، وأيضاً فكثير ممن لا يحقق الإيمان في قلبه يقدّم طاعة مخلوق على طاعة الله رجاء نفعه أو دفعاً لضره ، فإذا تحقق العبد تفرد الله وحده بالنفع والضر وبالعطاء والمنع ، أوجب ذلك إفراده بالطاعة والعبادة ، ويقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعاً ، كما يوجب ذلك أيضاً إفراده سبحانه بالاستعانة به والطلب منه .

١٠-قوله ﷺ (تَعَرَّفْ إلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفُك فِي الشِّدَّةِ) يعني أن العبد إذا اتقى الله ، وحفظ حدوده ، وراعى حقوقه في حال رخائه ، فقد تعرف بذلك إلى الله ، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة ، فعرفه ربه في الشدة ، ورعى له تعرفه إليه في الرخاء ، فنجّاه من الشدائد بهذه المعرفة ، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه .

فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه ، عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته .

- لأن معرفة الله لعبده نوعان :

الأولى : معرفة عامة ، وهي علمه سبحانه بعباده ، واطّلاعه على ما أسروه وما أعلنوه .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) .

وقال تعالى (هو أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) .

والثاني : معرفة خاصة ، وهي تقتضي محبته لعبده ، وتقريبَه إليه ، وإجابة دعائه ، وإنجاءه من الشدائد ، وهي المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكي عن ربه (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ...) .

قال الضحاك : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، وإن يونس عليه السلام كان يذكر الله كثيراً ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله (فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) ، وإن فرعون كان طاغياً ناسياً لذكر الله ، فلما أدركه الغرق ، قال : آمنت ، فقال الله (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) .

لما هرب الحسن البصري دخل إلى بيت حبيب أبي محمد ، فقال له حبيب : يا أبا سعيد ، أليس بينك وبين ربك ما تدعوه ، فيسترك مِن هؤلاء ؟ ادخل البيت ، فدخل ، ودخل الشُّرط على أثره ، فلم يروه ، فذُكر ذلك للحجاج ، فقال : بل كان في البيت ، إلا أنّ الله طمس أعينهم فلم يروه .

وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد ، فليكثر الدعاء في الرخاء) .

قال رجل لأبي الدرداء أوصني ؟ فقال : اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء .

وعنه أنه قال : ادعُ الله في يوم سرّائك لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك .

١١- قوله ﷺ (احفظ الله يحفظك) ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله :

أولاً : الصلاة .

قال تعالى (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) .

ثانياً : الطهارة .

قال ﷺ (ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) رواه أحمد .

ثالثاً : الأيْمان .

قال تعالى (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) .

رابعاً : حفظ الرأس والبطن .

قال ﷺ (الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى) رواه الترمذي

خامساً : حفظ الفرج .

قال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) .

١٢- أن الجزاء من جنس العمل ، فمن حفظ الله حفظه الله ، وهذه قاعدة شرعية جاءت نصوص كثيرة تدل عليها :

قال تعالى (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) .

وقال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) .

وقال تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) .

وقال ﷺ (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (احفظ الله يحفظك) .

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد .

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه .

وقال ﷺ (من وصل صفاً وصله الله) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (من كان له وجهان في الدنيا ، كان له لسانان من نار يوم القيامة) رواه أبو داود .

١٣- قوله (وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ) يشمل النصر في الجهادين، جهاد العدو الظاهر (وهو جهاد الكفار) وجهاد العدو الباطن (وهو جهاد النفس والهوى) ، فمن صبر فيهما ، نُصِر وظفر بعدوهِ ، ومن لم يصبر فيهما وجَزِع ، قهِرَ وصار أسيراً لعدوه أو قتيلاً له .

قال تعالى (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

قال عمر لأشياخ من بني عبس : بم قاتلتم الناس ؟ قالوا : بالصبر ، لم نلق قوماً إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا .

وقال بعض السلف : كلنا يكره الموت ، وألم الجراح ، ولكن نتفاضل بالصبر .

وقال بعض العلماء : الشجاعة صبر ساعة .

قال أبو الطيب المكي : اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة ، وسبب النجاة من النار ، لأنه جاء في الخبر (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة ، وإلى صبر عن الشهوات لينجو من النار .

وقال في مقام آخر : واعلم أن كثرة معاصي العباد في شيئين : قلة الصبر عما يحبون ، وقلة الصبر على ما يكرهون .

وللصبر فضائل عظيمة سبقت في حديث (الطهور شطر الإيمان وفيه : والصبر ضياء) .

١٤- قوله (وَأَنْ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) فيه البشارة العظيمة بأن تفريج الكربات وإزالة الشدائد مقرون بالكرب ، فكلما كرب الإنسان فرج الله عنه . ويشهد لهذا :

قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا) .

وقوله تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا) .

وقوله تعالى (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

قال ابن رجب رحمه الله: وكم قص سبحانه من قصص تفريج كربات أنبيائه عند تناهي الكرب ،كإنجاء نوح ومن معه في الفلك ، وإنجاء إبراهيم من النار ، وفدائه لولده الذي أمر بذبحه ، وإنجاء موسى وقومه من اليم ، وإغراق عدوهم .

وقال رحمه الله : ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر : أن الكربَ إذا اشتد وعظُمَ وتناهي ، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين ، وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلبُ بها الحوائج ، فإن الله يكفي من توكل عليه ،كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال الفضيل : لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كل ما تريد .

١٥-فوائد البلايا والمصائب :

منها : تكفير الخطايا بها ، والثواب على الصبر عليها .

ومنها : تذكر العبد بذنوبه ، فربما تاب ورجع منها .

ومنها : انكسار العبد لله عز وجل وذله له .

ومنها : أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله تعالى ، والوقوف ببابه والتضرع له والاستكانة .

ومنها : أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى مخلوق ويوجب له الإقبال على الخالق وحده .

وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد ، فكيف بالمؤمن .

فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه ، وذلك أعلى المقامات وأشرف الدرجات .

٦٣-الرابع : عن أنسٍ ﷺ ، قَالَ : إِنَّكُمْ لَتعمَلُونَ أعْمَالاً هي أدَقُّ في أعيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُول الله ﷺ مِنَ المُوبِقاتِ . رواه البخاري .

وَقالَ : ((المُوبقاتُ)) : المُهلِكَاتُ .

١-الحديث فيه التحذير من محقرات الذنوب .

والمحقرات هي : ما لا يبالي المرء بها من الذنوب .

وقال العيني في عمدة القاري: هي الذنوب التي يحتقرها فاعلها .

عَنِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدِيثَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِه) فَقَالَ بِهِ هَكَذَا قَالَ أَبُو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ) رواه البخاري .

قال الحافظ في الفتح : قوله (المؤمِنَ يَرى ذُنوبَهُ كأنَّه قاعِدٌ تحتَ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يقعَ عَليه) قال ابن أبي جمرة : السبب في ذلك أن قلب المؤمن منور ، فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه عظم الأمر عليه .

والحكمة في التمثيل بالجبل ، أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادة ، وحاصله أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان ، فلا يأمن العقوبة بسببها ، وهذا شأن المسلم ، أنه دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيئ .

قوله (وإن الفاجر يرى ذُنوبَه كذُباب) في رواية أبي الربيع الزهراني عن أبي شهاب عند الإسماعيلي (ذُنوبَه كأنَّها ذباب مَرَّ على أنفه) أي : ذنبُه سهلٌ عنده ، لا يعتقد أنه يحصل له بسببه كبير ضررٍ، كما أن ضررَ الذُّباب عنده سهل، وكذا دفعه عنه .

قوله (فقال به هكذا) أي : نحاه بيده ، أو دفعه ، هو مِن إطلاق القول على الفعل ، قالوا : وهو أبلغ .

قال المحبُّ الطَّبري :إنَّما كانت هذه صفة المؤمن لشدَّة خوفه مِن الله ومِن عقوبته ; لأنَّه على يقين مِن الذنب ، وليس على يقينٍ من المغفرة ، والفاجر قليل المعرفة بالله ؛ فلذلك قلَّ خوفُه، واستهان بالمعصية .

وقال ابن أبي جمرة: السَّبب في ذلك أنَّ قلب الفاجرِ مُظلمٌ ، فوُقوع الذنبِ خفيفٌ عنده ، ولهذا تجد مَن يقع في المعصيةِ إذا وُعظ يقول: هذا سهل .

قال : ويُستفاد من الحديث أنَّ قلَّة خوف المؤمن ذُنوبَه، وخِفَّتَه عليه يدلُّ على فُجوره .

قال : الحكمةُ في تشبيه ذنوبِ الفاجر بالذُّبابِ ،كونُ الذُّباب أخفَّ الطَّير وأحقرَه، وهو مما يعاين ويُدفع بأقل الأشياء .

قال: وفي ذِكر الأنف مُبالغةٌ في اعتقاده خِفَّة الذَّنب عنده ، لأنَّ الذُّباب قلَّما ينزلُ على الأنف؛ وإنَّما يقصد غالبًا العينَ .

قال: وفي إشارتِه بيدِه تأكيدٌ للخِفَّة أيضًا؛ لأنه بهذا القدر اليسير يدفع ضرره .

قال: وفي الحديث ضربُ المثل بما يُمكن، وإرشاد إلى الحض على محاسبة النفس واعتبار العلامات الدالة على بقاء نعمةِ الإيمان،

٢- قال ابن بطال : يُؤخذ منه أنه ينبغي أن يكونَ المؤمن عظيمَ الخوف من الله تعالى مِن كل ذنب – صغيرًا كان أو كبيرًا– لأن الله تعالى قد يُعذِّب على القليلِ؛ فإنه لا يُسأل عما يَفعل سبحانه وتعالى .

٣- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِي . أن رَسُولَ الله ﷺ قال (إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبَ، فَإِنَّ مَثَلَ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِبَطْنِ وَادٍ ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَذَا بِعُودٍ حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْه) رواه أحمد .

قال الغزالي : صغائر المعاصي يجرّ بعضها إلى بعض حتىّ تفوت أهل السّعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة .

وقال : تصير الصغيرة كبيرة بأسباب :

منها : الاستصغار والإصرار .

فإن الذنب كلما استعظمه العبد صغر عند الله ، وكلما استصغره عظم عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به ، واستصغاره يصدر عن الألفة به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب المطلوب

تنويره بالطاعة والمحذور تسويده بالخطيئة.

وقال الحكيم الترمذي : إذا استخف بالمحقرات ، دخل التخلط في إيمانه ، وذهب الوقار وانتقص من كلّ شيء بمنزلة الشمس ينكسف طرف منها ، فبقدر ما انكسف ولو كرأس إبرة ينقص من شعاعها وإشراقها على أهل الدنيا وخلص النقصان إلى كل شيء في الأرض ، فكذا نور المعرفة ، ينقص بالذنب على قدره فيصير قلبه محجوباً عن الله ، فزوال الدنيا بكليتها أهون من ذلك، فلا يزال ينقص ويتراكم نقصانه وهو أبله لا ينتبه لذلك حتى يستوجب الحرام .

وقال الغزالي : وتواتر الصّغائر عظيم التأثير في سواد القلب ، وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر ، فإنه يحدث فيه حفرة لا محالة مع لين الماء وصلابة الحجر.

قال العلائي : أخذ من كلام حجة الإسلام : أن مقصود الحديث الحث على عدم التهاون بالصغائر ، ومحاسبة النفس عليها وعدم الغفلة عنها ، فإن في إهمالها هلاكه ، بل ربما تغلب الغفلة على الإنسان فيفرح بالصغيرة ويتحجج بها ويعد التمكن منها نعمة ، غافلاً عن كونها وإن صغرت سبب للشقاوة ، حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه لشدة فرحه بمفارقته فيقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟

ويقول المناظر : أما رأيتني كيف فضحته وذكرت مساوئه حتى أخجلته ؟ ، وكيف استخففت به وحقرته ؟

ويقول التاجر : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وغبنته ؟ وذلك وأمثاله من المهلك .

٤- وها هنا أمور ينبغي التنبيه عليها :

الأمر الأول: أن الإصرار يُصيِّر الصغيرة كبيرة .

كما قال شيخ الإسلام : إذا أصر على الصغيرة صارت كبيرة ، وإذا تاب منها غفرت .

والأمر الثاني : أن محقرات الأعمال وصغار الذنوب لها قدرها من الحساب والعذاب ، فمتى اجتمعت على المرء أهلكته، ولذلك قال النبي ﷺ (إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكْنَه) .

وقد ضرب رسول الله ﷺ لهن مثلاً فقال (كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً فأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها) رواه أحمد، وصححه الألباني بطرقه.

وقال رسول الله ﷺلعائشة (إياك ومحقرات الأعمال ، فإن لها من الله طالباً) رواه أحمد وابن ماجه .

قال القاري في المرقاة (طالباً) أي نوعاً من العذاب يعقبه، فكأنه يطلبه طلباً لا مرد له، فالتنوين للتعظيم، أي طالباً عظيماً ، فلا ينبغي أن يغفل عنه بل ينبغي أن يخشى منه .

٥- ومن أعظم مصائب هذه المحقرات أنها تُظلِم القلب وتُسوِّده، إذا لم يتب منها صاحبها ويستغفر الله تعالى.

فقد قال ﷺ (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه : وهو الران الذي ذكر الله (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) رواه الترمذي .

٦- أن الوقوع في الصغائر خطوة من خطوات الشيطان للوقوع في الكبائر.

وقد قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيم) .

قال السعدي : هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة ، أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً ، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه ، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله ، وإن خالفه تركه ، ولما كان الدخول في السلم كافة، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أي: في العمل بمعاصي الله (إنه لكم عدو مبين) والعدو

المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء ، وما به الضرر عليكم ، ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى (فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات) أي : على علم ويقين (فاعلموا أن الله عزيز حكيم) وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر الحكيم ، إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة .

٦٤-الخامس : عن أبي هريرةَ ﷺ ، عن النَّبيّ ﷺ ، قَالَ : ((إنَّ الله تَعَالَى يَغَارُ ، وَغَيرَةُ الله تَعَالَى ، أنْ يَأتِيَ المَرْءُ مَا حَرَّمَ الله عَلَيهِ)) متفق عَلَيهِ .

١-الحديث دليل على وجوب الابتعاد عن معصية الله .

٢- الحديث دليل على الحذر من غضب الله وانتقامه ، وأن الله يغار إذا انتهكت محارمه .

وقد قال ﷺ لما خطب في كسوف الشمس (لا أحد أغير من الله ، أن يزني عبده ، أو تزني أمتَه) .

٣- أن الله حرم علينا أشياء لمصلحتنا ، فالله لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين .

٤- إثبات الغيرة لله تعالى ، وأنه سبحانه يغار إذا انتهكت محارمه ، وكان ﷺ أغير الخلق على الأمة .

قال ﷺ (أتعجبون من غيْرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير مني) .

وقال ﷺ في خطبة الكسوف (يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته) .

وفي الصحيح قال ﷺ (لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن) .

٥- ينبغي على المسلم أن يغار إذا انتهكت محارم الله .

٦٥-السادس : عن أبي هريرةَ ﷺ : أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ ، يقُولُ : ((إنَّ ثَلاثَةً مِنْ بَني إسْرَائِيلَ : أبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، أَرَادَ اللهُ أنْ يَبْتَليَهُمْ فَبَعَثَ إلَيْهِمْ مَلَكاً ، فَأَتَى الأَبْرَصَ، فَقَالَ : أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْنٌ حَسنٌ، وَجِلدٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ ؛ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوناً حَسنَاً . فَقَالَ : فَأيُّ المَالِ أَحَبُّ إليكَ ؟ قَالَ : الإبِلُ – أَوْ قالَ : البَقَرُ شكَّ الرَّاوي – فَأُعطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ ، فَقَالَ : بَارِكَ الله لَكَ فِيهَا .

فَأَتَى الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ ؛ فَمَسَحَهُ فَذَهبَ

عَنْهُ وأُعْطِيَ شَعراً حَسَناً . قالَ : فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : البَقَرُ ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً ، وَقالَ : بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا .

فَأَتَى الأَعْمَى ، فَقَالَ : أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : أَنْ يَرُدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ النَّاسَ؛ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرهُ. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الغَنَمُ ، فَأُعْطِيَ شَاةً والداً ، فَأَنْتَجَ هذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا ، فَكانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبلِ ، وَلِهذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ في صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ في سَفَري فَلا بَلاغَ لِيَ اليَومَ إِلاَّ باللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذي أَعْطَاكَ اللَّونَ الحَسَنَ ، والجِلْدَ الحَسَنَ ، وَالمَالَ ، بَعِيراً أَتَبَلَّغُ بِهِ في سَفَري ، فَقَالَ : الحُقُوقُ كَثِيرةٌ . فَقَالَ : كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فقيراً فأَعْطَاكَ اللهُ !؟ فَقَالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ الله إِلَى مَا كُنْتَ .

وَأَتَى الأَقْرَعَ في صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذا ، وَرَدَّ عَلَيهِ مِثْلَ مَا رَدَّ هَذَا ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ .

وَأَتَى الأَعْمَى في صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابنُ سَبيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ في سَفَرِي ، فَلا بَلاَغَ لِيَ اليَومَ إِلاَّ بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسأَلُكَ بالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا في سَفري ؟ فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أعمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللهِ ما أَجْهَدُكَ اليَومَ بِشَيءٍ أَخَذْتَهُ للهِ ﷻ. فَقَالَ : أَمْسِكْ مالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ . فَقَدْ رضي الله عنك ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيكَ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

و((النَّاقةُ العُشَرَاءُ)) بضم العين وفتح الشين وبالمد : هي الحامِل . قوله : ((أَنْتَجَ)) وفي رواية : ((فَنَتَجَ)) معناه : تولَّى نِتاجها ، والناتج لِلناقةِ كالقابِلةِ للمرأةِ . وقوله : ((وَلَّدَ هَذَا)) هُوَ بتشديد اللام : أي تولى ولادتها ، وَهُوَ بمعنى أنتج في الناقة ، فالمولّد ، والناتج ، والقابلة بمعنى ؛ لكن هَذَا لِلحيوان وذاك لِغيرِهِ . وقوله : ((انْقَطَعَتْ بِي الحِبَالُ)) هُوَ بالحاءِ المهملةِ والباءِ الموحدة : أي الأسباب . وقوله : ((لا أَجْهَدُكَ)) معناه : لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أَوْ تطلبه من مالي . وفي رواية البخاري : ((لا أَحمَدُكَ)) بالحاءِ المهملة والميمِ ومعناه : لا أحمدك بترك شيء تحتاج إِلَيْه، كما قالوا : لَيْسَ عَلَى طولِ الحياة ندم : أي عَلَى فواتِ طولِها .

١-هذا الحديث عظيم وفيه معتبر : فإن الأَوَلَين جحدا نعمة الله ، فما أقرا لله بنعمه ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها ، ولا أديا حق الله فيهما بنعمه فحل عليهما السخط ، وأما الأعمى فاعترف بنعم الله ونسبها إلى من أنعم عليه بها ، وأدى حق الله فيها ، فاستحق الرضا من الله .

٢- أن شكر النعمة يكون بثلاثة أمور وهي :

- **الإقرار بالنعمة** ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .
- **ونسبتها إلى المنعم** ، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .
- **وبذلها فيما يجب** ، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً) .

٣-بيان أن زعْم الإنسان استحقاقه النعم المستادة إليه بعد ضراء أصابته منافٍ لكمال التوحيد .

٤- أن من كمال التوحيد نسبة النعمة إلى الله ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .

٥-أن الرسول ﷺ يقص علينا أنباء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ .

٦-إثبات معجزة النبي ﷺ .

٧- أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان ، كما قال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

٨-أن الابتلاء يكون بالنفس والمال والولد .

٩- أن المال فتنة لأكثر الناس .

١٠- فيه مصداق لقوله تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) .

١١-أن الأكثر من الناس لا يشكر، كما قال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور) وقال تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ).

١٢-نسبة النعمة إلى غير الله كفرٌ بها .

١٣- أن نسبة النعمة لغير الله سبب لزوالها .

١٤-أن شكر النعم سبب لبقائها وزيادتها ، كما قال تعالى (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

١٥-أن الابتلاء يكون بالخير والشر ، كما قال تعالى (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

١٦-فيه مصداق لقول عبد الرحمن بن عوف (ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر) رواه الترمذي .

١٧-بيان قدرة الله بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى .

١٨-قدرة الملائكة على التشكل بصورة البشر .

١٩-أن الملائكة أجسام وليسوا أرواح أو معاني .

٢٠-فضل الصدقة والحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم .

٢١-أن للمعاصي أخوات ، ربما تكون أكبر منها ، فالبخل معصية جر صاحبه إلى الكذب وجحد نعمة الله .

٢٢-من أقبح الصفات البخل ، فإنه حمل الشخصين على نسيان نعمة الله عليهما وجحدها .

٢٣-أن البخل والكذب موجبان لغضب الله وسخطه .

٢٤-الصدق والكرم من الصفات الحميدة .

٢٥-أن بركة الله لا نهاية لها .

٢٦-أنه لا شيء أحب للمبتلى بالمرض من ذهاب مرضه ومعافاته .

٢٧-أن الله هو الذي يعطي ويمنع ، ويغني ويفقر ، فعلى العبد أن يعلق قلبه بالله تعالى .

٢٨-أن من الأدب أن تنسب الشفاء والغنى إلى الله وحده (كنت أعمى فرد الله بصري) .

٢٩-بيان أن شكر كل نعمة بحسبها .

٣٠-أن كثرة المال ليست دليلاً على حب الله للعبد .

٣١-أن الملائكة يتشكلون .

٣٢-جواز الدعاء المعلق ، إن كنت كاذباً فصيرك الله ، وفي دعاء الاستخارة (اللهم إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر ..) .

٣٣-أن الابتلاء قد يكون عاماً وظاهراً .

٣٤-فضيلة الورع والزهد .

٣٥-ثبوت الإرث في الأمم السابقة .

٣٦-إثبات صفة الرضا لله .

٣٧-إثبات صفة السخط لله .

٣٨-جواز قول المرء لأخيه : أنا بالله ثم بك .

٣٩- على الإنسان أن يبحث عن الأسباب التي تؤدي إلى رضا الله .

٤٠- ينبغي على العبد أن يعرف الأسباب التي تؤدي إلى سخط الله ليتجنبها .

٦٦-السابع : عن أبي يعلى شداد بن أوس ﷺ ، عن النَّبيّ ﷺ ، قَالَ : ((الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بعدَ المَوتِ ، والعَاجِزُ مَنْ أتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ)) رواه الترمذي ، وَقالَ : ((حديث حسن)) .

قَالَ الترمذي وغيره من العلماء : معنى ((دَانَ نَفْسَهُ)) : حاسبها .

(**الكَيِّسُ**) أي : العاقل .

(**من دَانَ نَفْسَهُ**) أي : حاسبها .

١-الحديث دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يحاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب في الآخرة .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) أي : وليتأمل كل إنسان ماذا قدم من الأعمال ليوم القيامة ، وهل يصلح أن تلقى الله به يوم العرض الأكبر على الله أو لا يصلح .

قال ابن كثير : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم .

- والغد في الأصل اليوم الذي بعد يومك ، والمراد بـ(غد) يوم القيامة ، وسمي بـ(غد) لتحقق وقرب وقوعه ، لأنه آت وكل آت قريب قال تعالى (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) .

قال قتادة : قرب الله القيامة حتى جعلها غداً .

- الآية دالة على وجوب محاسبة النفس .

قال ابن القيم : وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) يقول تعالى : لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال ، أمن الصالحات التي تنجيه ، أم من السيئات التي توبقه ؟

٢- في محاسبة النفس عدة مصالح :

منها : الاطلاع على عيوبها ، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه من إزالته .

قال ابن القيِّم رحمهُ الله : الله – سبحانه- إذا أراد بعبدِه خيرًا أنساهُ رُؤيةَ طاعاته، ورفعها مِن قلبِه ولسانه.

فإذا ابتُلي بالذَّنب جعلهُ نُصبَ عينيْه، ونسي طاعاتِه، وجعل همَّه كله بذنبِه.

فلا يَزال ذنبُه أمامَه -إن قام، أو قعدَ، أو غدا، أو راحَ-؛ فيكونُ هذا عَينُ الرَّحمةِ في حقِّه.

كما قال بعضُ السَّلف : إن العبدَ ليَعملُ الذَّنبَ فيَدخُل به الجنَّة، ويعمل الحسنةَ فيدخل بها النَّار ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يعملُ الخطيئةَ فلا تَزالُ نُصب عينيْه كلَّما ذكَرَها بَكى، وندِمَ، وتاب ، واستغفر، وتضرَّع، وأناب إلى الله، وذلَّ له وانكسر، وعمِل لها أعمالًا؛ فتكون سببَ الرَّحمةِ في حقِّه.

ويعمل الحسنةَ؛ فلا تَزالُ نُصبَ عينَيْه؛ يَمُنُّ بها، ويَراها، ويعتدُّها على ربِّه، وعلى الخَلْق، ويتكبَّر بها، ويتعجَّب مِن النَّاس كيف لا يُعظِّمونَه ويُكرِمونَه ويُجلُّونه عليها!!فلا تزالُ هذه الأمور به؛ حتَّى تَقوى عليه آثارُها؛ فتُدخله النَّار.

فعلامةُ السَّعادةِ :أن تكونَ حسناتُ العبدِ خلفَ ظهرِه، وسيِّئاتُه نُصبَ عينَيْه.

وعلامةُ الشَّقاوة :أن يجعلَ حسناتِه نُصبَ عَينيه، وسيِّئاتِه خلفَ ظهرِه. (الفوائد) .

ومنها : أنه يعرف بذلك حق الله تعالى عليه ، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه ، وهي قليلة

المنفعة جداً ، فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله تعالى على العبد .

٣- ترك محاسبة النفس ضرر عظيم :

قال ابن القيم : أضر ما عليه الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال ، وتسهيل الأمور وتمشيتها ، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك ، وهذه حال أهل الغرور : يغمض عينية عن العواقب ، ويمشّي الحال ، ويتكل على العفو ، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة ، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب ، وأنس بها ، وعسر عليها فطامها.

٤- محاسبة النفس نوعان :

نوع قبل العمل ، ونوع بعده .

- محاسبة النفس قبل العمل :

أن يقف عند أول همهِ وإرادته ، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه .

وقد ذكر ابن القيم أن الإنسان إذا أقدم على عمل فإنه ينظر هل يريد به وجه الله وثوابه ، أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم عليه وإن أفضى إلى مطلوبه ، فلماذا ؟

لئلا تعتاد النفس الشرك ، ويخفّ عليها العمل لغير الله ، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله ، حتى يصير أثقل شيء عليها .

- محاسبة النفس بعد العمل :

محاسبة النفس بعد العمل ثلاثة أنواع :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حق الله فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي .

الثاني : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً من فعله .

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد ، لمَ فعله ؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة ؟ فيكون رابحاً ، أو أراد به الدنيا وعاجلها ، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به .

٥- ما الذي يعين على محاسبة النفس ومراقبتها ؟

قال ابن القيم : يعينه على هذه المراقبة والمحاسبة : معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره ، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً .

ويعينه أيضاً : معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس ، والنظر إلى وجه الرب سبحانه ، وخسارتها : دخول النار والحجاب عن الرب تعالى ، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم .

٦- من أقوال السلف :

قال عمر : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا .

وقال الحسن : لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه : ماذا أردتِ تعملين ؟ وما أردتِ تأكلين ؟

وقال ميمون بن مهران : إن التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاص ومن شريك شحيح .

وقال الحسن : المؤمن قوّام على نفسه ، يحاسب نفسه لله ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا .

وقال مالك بن دينار : رحم الله عبداً قال لنفسه : ألستِ صاحبة كذا ؟ ألستِ صاحبة كذا ؟ ثم زمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله فكان لها قائد .

وقال الحسن : رحم الله عبداً وقف عند همهِ ، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر .

٧- ينبغي على الإنسان أن يعمل لما بعد الموت ، وأن يستغل هذه الدنيا بالأعمال الصالحات ، لأنه في هذه الدنيا دار العمل ، وفي الآخرة الحساب والجزاء .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .

وقال تعالى (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

نسير إلى الآجال في كل لحظةٍ --- وأعمارنا تطوى وهن مراحلُ

ترحل من الدنيا بزاد من التقى --- فعمرك أيام وهن قلائلُ

فالأيام تطحن الأعمار طحن القمح في الرحى ، ثم تذرى الأعمال أدراج الرياح؛ ولا يبقى إلا ما رضيه الله سبحانه، وأحبه من الأقوال والأفعال.

إنا لنفرح بالأيام نقطعها --- وكل يوم مضى يدني من الأجل .

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً --- فإنما الربح والخسران في العمل .

أخي المسلم : بادر الأيام بالعمل الصالح، وأملأ خزائنها بالفرائض والنوافل قبل أن تبادرك هي بموتٍ أو عجز، وقبل أن تجدها فارغة خاوية تقول (يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) .

خطب حذيفة يوم جمعة في المدائن فقال : إن الله تعالى يقول (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) إلا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم الضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة .

فيا أيها العاجز المقصر في الأعمال ، الغارق في لجج الآمال، المغتر بطول الإمهال ، إن الأمر جد والخطب جلل، ولن ينفعك – بعد رحمة الله – إلا العمل الصالح ، فالبدار البدار فهو الذخيرة المأمولة ، والوسيلة المرجوة ، وهو المؤنس في الوحشة ، والقرين في الخلوة ، والصاحب حيث لا صاحب ولا أهل ولا مال ، فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً فإنما الربح والخسران في العمل .

قال ﷺ (يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله) .

فرحم الله امرءاً أخذ من نفسه لنفسه ، وأعد العدة لأوان رمسه ، وتأهب للرحيل قبل غروب شمسه ، فما الحياة إلا كان ثم بان .

تزود من الدنيا فإنك لا تدري ---- إذا جنَ ليل هل تعيش إلى الفجرِ .

فكم من عروس زينوها لزوجها ---- وقد أخذت أرواحهم ليلة القدر .

وكم من فتى يمسي ويصبح لاهياً ---- وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري .

وكم من ساكن عند الصباح بقصره ---- وعند المسا قد كان من ساكن القبر .

فكن مخلصاً واعمل الخير دائماً ---- لعلك تحظى بالمثوبة والأجر .

قال تعالى (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)

وقال تعالى (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً) .

قال الشاعر :

فارْحلْ من الدنيا بزادٍ من التقى فعُمُرُك أيامٌ وهنّ قلائلُ .

قال رجل للفضيل : كم أتت عليك ؟ فقال الرجل : ستون سنة ، فقال الفضيل : فأنت منذ ستين تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ .

٦٧–الثامن : عن أبي هريرة ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ : ((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ)) حديث حسن رواه الترمذي وغيرُه .

(**من حسن**) أي من كمال وجمال .

(**إسلام المرء**) أي استسلامه وانقياده .

(**تركه**) يشمل الأقوال والأعمال .

(**ما لا يعنيه**) أي : ما لا تتعلق به عنايته ويهتم به .

١–قوله ﷺ (من حسن إسلام المرء) المراد بالإسلام هنا اسم لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة .

وله مرتبتان :

الأولى : مطلق الإسلام .

وهو القدر الذي يثبت به عقد الإسلام ، فمتى التزم به العبد صار مسلماً داخلاً في جملة أهل القبلة ، **وحقيقته** : التزام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والقيام بحقوقهما .

والأخرى : حسن الإسلام .

وحقيقته : امتثال شرائع الإسلام ظاهراً وباطناً باستحضار مشاهدة الله أو مراقبته للعبد .

وهذا القيام تحقق بمرتبة الإحسان المذكورة في حديث جبريل المتقدم .

وحديث الباب يتعلق بالمرتبة الثانية .

٢– الحديث دليل على أن من حسن وكمال إيمان الإنسان تركه ما لا يهمه ولا يعنيه في دنياه وآخرته من أقوال أو أعمال .

والذي لا يعني العبد : هو ما لا يحتاج إليه في القيام بما أمِرَ به من عبادة الله .

والذي لا يعني العبد أفراده كثيرة لكن يمكن ردها إلى أربعة أصول :

أولها : المحرمات ، **وثانيها** : المكروهات ، **وثالثها** : المشتبهات لمن لم يتبينها ، **ورابعها** : فضول المباحات وهي ما زاد عن حاجة العبد منها .

قال ابن رجب : وإذا حسُن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها ، فإن هذا كله لا يعني المسلم ، إذا كمُل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان ، وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، فمن عبد الله عن استحضار قربه ومشاهدته بقلبه أو على استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه ، فقد حسن إسلامه ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام ، ويشتغل بما يعنيه فيه ، فإنه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من الله ، وترك كل ما يستحيي منه .

وقال ابن القيم : قد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة فقال (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فهذا يعم الترك لما

لا يعني : من الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشي ، والفكر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة ، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع .

٣- وأكثر ما يراد بترك ما لا يعني حفظ اللسان من لغو الكلام .

كما في قوله تعالى (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) .

وقال تعالى (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) .

قال بعض العارفين : إذا تكلمت فاذْكر سمع الله لك ، وإذا سكت فاذكر نظره إليك .

٤- أن عدم ترك الإنسان لما لا يعنيه يدل على أن إسلامه ليس بحسن .

٥- من أقوال السلف :

قال الغزالي : علاج ترك ما لا يعني أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسؤول عن كل كلمة تكلم بها ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكته يقدر على أن يقتنص _ أي يصطاد _ بها الحور العين ، فإهماله وتضييعه فيما لا يعنيه خسران مبين .

وقال الحسن : من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه .

وقال معروف الكرخي : كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله تعالى .

وقال مالك بن دينار : إذا رأيت قساوة في قلبك، وضعفاً في بدنك، وحرماناً في رزقك، فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك .

وقيل للقمان : ما بلغ بك ما نرى ؟ قال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنيني .

وقال يونس بن عبيد : ترك كلمة فيما لا يعني أفضل من صوم يوم .

وقال الشافعي : ثلاثة تزيد في العقل : مجالسة العلماء ، ومجالسة الصالحين ، وترك الكلام فيما لا يعني .

وقال أيضاً : من أراد أن ينور الله قلبه فليترك الكلام فيما لا يعنيه .

٦- ينبغي للمسلم أن ينشغل بما يعنيه وينفعه .

٧- اغتنام الحياة بالعمل الصالح .

٨- أن الإيمان يزيد وينقص .

٩- يخطئ البعض ويعتقد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التدخل فيما لا يعني الإنسان ، وهذا خطأ كبير .

والتدخل في شؤون الغير له أحوال :

يكون واجباً : مثل التدخل لتغيير المنكر ، ويأثم لو لم يتدخل وهو يستطيع .

يكون مستحباً : مثل التدخل لتحسين وضع أخيك في طريقة كلامه مثلاً .

ويكون مباحاً : كسؤال إنسان هل سافر أم لا .

ويكون مكروهاً : مثل سؤال رجل يتحرج في الجواب في أمر خاص به .

ويكون محرماً ، مثل التجسس على المسلم .

٦٨-التاسع : عن عُمَرَ ﷺ ، عَنِ النَّبِيّ ﷺ ، قَالَ : ((لاَ يُسْأَلُ الرَّجُلُ فِيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ)) رواه أبو داود وغيره .

الحديث ضعيف ولا يصح .

قال ابن القطان رحمه الله : لا يصح .

وقال الذهبي رحمه الله : فيه عبد الرحمن المسلي : لا يعرف .

وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : إسناده ضعيف .

١- على فرض صحة الحديث ، فتفسيره عند أهل العلم تفسير مقبول وصحيح ، حاصله أنه لا ينبغي للناس أن يتدخلوا فيما لا يعنيهم ، فإذا عرف شخص بوقوع خلاف بين رجل وزوجته ، وعرف أنه خلاف شديد أدى إلى ضرب الزوج زوجته : فلا يجوز له أن يفتش عن أسرار البيوت ، ولا يتطاول ليطلع على خباياهم ، فذلك من سوء الأدب ، وقلة الذوق ، إلا إذا كان ذلك الشخص من أهل الإصلاح ، وغلب على ظنه أنه يمكنه تقديم المساعدة والمشورة لتجاوز النزاع ، فله حينئذ أن يسأل عن المشكلة وأسبابها ، بعد قبول الطرفين ورضاهما بتحكيمه وتدخله .

وأقوال الفقهاء وشراح الحديث تدل على هذا المعنى :

يقول ابن قدامة رحمه الله في بيان تعليل هذا الأثر : لأنه قد يضربها لأجل الفراش – أي: امتناعها عن الجماع – فإن أخبر بذلك استحيا ، وإن أخبر بغيره كذب .

ويقول المناوي رحمه الله : أي : لا يُسأل عن السبب الذي ضربها لأجله لأنه يؤدي لهتك سترها ، فقد يكون لما يستقبح ، كجماع ، والنهي شامل لأبويها .

ويقول الإمام النووي رحمه الله : فصل : يكره أن يُسأل الرجل : فيم ضرب امرأته من غير حاجة : قد روينا في أول هذا الكتاب في (حفظ اللسان) والأحاديث الصحيحة في السكوت عما لا تظهر فيه المصلحة ، وذكرنا الحديث الصحيح : (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) .

٢- من تعدى وبغى على زوجته وضربها بغير حق فإنه يسأل، لأن الله تعالى يقول (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً) .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى قوله (إن الله كان علياً كبيراً) تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليُّهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

باب في التقوى

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **فَاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ [التغابن :١٦] . وهذه الآية مبينة للمراد مِنَ الأُولى . وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾ [الأحزاب :٧٠] ، وَالآيات في الأمر بالتقوى كثيرةٌ معلومةٌ ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق : ٢-٣] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ**

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال :٢٩] والآيات في البابِ كثيرةٌ معلومةٌ .

تعريف التقوى : أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

قال علي : وقد سئل عن التقوى فقال : هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله .

وقال ابن رجب رحمه الله : وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه ، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه.

- قَالَ الله تَعَالَى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**) .

أمر بتقوى الله حق تقاته .

عن ابن مسعود في قوله (اتقوا الله حق تقاته) قال : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) والصحيح أنها محكمة غير منسوخة ، واختار هذا الطبري ، وابن تيمية ، ورجحه ابن عطية ، والقرطبي ، والقاسمي ، وابن عاشور .

قالوا إن قوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) بيان وتفسير لقوله تعالى (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) والمعنى : فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم .

قال ابن تيمية : فإن الله يقول (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) وهذا تفسير قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) قال ابن مسعود وغيره : حق تقاته : أن يطاع فلا يُعصى ، وأن يذكر فلا يُنسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، أي : بحسب استطاعتكم ، فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، قال تعالى (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) .

- وَقالَ تَعَالَى : (**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُم**) .

وهذه الآية مبينة للمراد مِنَ الأُولى .

- وَقالَ تَعَالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً**) .

يأمر تعالى المؤمنين بتقواه ، في جميع أحوالهم ، في السر والعلانية ، ويخص منها؛ ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق يوصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه، في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة، بما هو الأصلح.

- وَقالَ تَعَالَى : (**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب**) .

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ) وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه (يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً) أي : يجعل له كوناً وقدراً مخرجاً وفرجاً من كل كرب ، ومن أي ضائقة تصيبه وتلم به ، مالية أو اجتماعية أو نفسية أو غير ذلك (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) أي : ييسر له أسباب الرزق من حيث لا يشعر ولا يعلم ، أي : من حيث لا يخطر بباله (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) .

- وَقالَ تَعَالَى : (**إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم**) .

قال السعدي : امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً

كثيراً ، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها :

الأول : الفرقان : وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال ، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث : تكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب ، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق ، وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

الرابع : الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم) .

والآيات في البابِ كثيرةٌ معلومةٌ .

٦٩–وأما الأحاديث : فالأول : عن أبي هريرةَ ﷺ ، قَالَ : قِيلَ: يَا رسولَ الله ، مَنْ أكرمُ النَّاس ؟ قَالَ : ((أَتْقَاهُمْ)) . فقالوا : لَيْسَ عن هَذَا نسألُكَ ، قَالَ : ((فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابنُ نَبِيِّ اللهِ ابنِ نَبِيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ)) قالوا : لَيْسَ عن هَذَا نسألُكَ ، قَالَ : ((فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلوني ؟ خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

و((**فَقُهُوا**)) **بِضم القافِ عَلَى المشهورِ وَحُكِيَ كَسْرُها : أيْ عَلِمُوا أحْكَامَ الشَّرْعِ** .

(**مَنْ أكرمُ النَّاس**) أَصْل الْكَرَم كَثْرَة الْخَيْر .

(**فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابنُ نَبِيِّ اللهِ ابنِ نَبِيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ**) يوسف بْن يَعْقُوب بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم الْخَلِيل ﷺ .

(**مَعَادِنِ العَرَبِ**) أي : أُصُولهَا .

١– الحديث على فضل التقوى ، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم ، وليس بكثرة المال أو النسب أو الحسب أو الجاه .

وهذا مطابق لقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

قال ابن كثير : أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب.

وقال السعدي : ... ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله، ظاهرًا وباطنًا، ممن يقوم بذلك، ظاهرًا لا باطنًا، فيجازي كلاً بما يستحق.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم). رواه مسلم

وعن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له (انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى) رواه أحمد .

وعن ابن عمر . قال : قال ﷺ (يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، إن الله يقول (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) ثم قال: "أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم) رواه أحمد .

قال النووي : قَالَ الْعُلَمَاء : لَمَّا سُئِلَ ﷺ أَيُّ النَّاس أَكْرَم ؟ أَخْبَرَ بِأَكْمَل الْكَرَم وَأَعَمّه ، فَقَالَ : أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ . وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ أَصْل الْكَرَم كَثْرَة الْخَيْر ، وَمَنْ كَانَ مُتَّقِيًا كَانَ كَثِير الْخَيْر وَكَثِير الْفَائِدَة فِي الدُّنْيَا ، وَصَاحِب الدَّرَجَات الْعُلَا فِي الْآخِرَة . فَلَمَّا قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُك قَالَ : يُوسُف الَّذِي جَمَعَ خَيْرَات الْآخِرَة وَالدُّنْيَا وَشَرَفهمَا .

٢– الحديث دليل على فضل من فضائل التقوى ، **وللتقوى فضائل كثيرة** :

أولاً : أنها سبب لتيسير الأمور .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً) .

ثانياً : أنها سبب لإكرام الله .

قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

ثالثاً : العاقبة لأهل التقوى .

قال تعالى (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

رابعاً : أنها سبب في دخول الجنة .

قال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

خامساً : أنها سبب لتكفير السيئات .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً) .

سادساً : أنها سبب لحصول البشرى لهم .

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا) .

سابعاً : أنها سبب للفوز والهداية .

قال تعالى (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

ثامناً : أنها سبب للنجاة يوم القيامة .

قال تعالى (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً) .

تاسعاً : أنها سبب لتفتيح البركات من السماء والأرض .

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) .

عاشراً : أنها سبب للخروج من المأزق .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

الحادي عشر : أنها سبب لمحبة الله .

قال تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

الثاني عشر : أنها سبب للاهتداء بالقرآن .

قال تعالى (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) .

الثالث عشر : بالتقوى تنال معية الله .

قال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

الرابع عشر : أنها خير زاد .

قال تعالى (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) .

الخامس عشر : أنها من أسباب نيل الأجر العظيم .

قال تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

السادس عشر : أن الآخرة خير من الدنيا للمتقين .

قال تعالى (والْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) .

السابع عشر : أنها سبب لقبول الأعمال .

قال تعالى (قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

الثامن عشر : أن لباس التقوى خير لباس .

قال تعالى (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) .

التاسع عشر : أنها من أسباب الرحمة .

قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) .

العشرون : أنها من أسباب ولاية الله .

قال تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

وقال تعالى (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) .

فالتقوى هي وصية الله لجميع خلقه ، ووصية رسوله ﷺ لأمته .

كان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيراً .

ولما خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع يوم النحر وصى الناس بتقوى الله وبالسمع والطاعة لأئمتهم .

ولما وعظ الناس كأنها موعظة مودع قال : أوصيكم بتقوى الله .

٣- من أقوال السلف في التقوى ؟

كان أبو بكر يقول في خطبته : أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله .

ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر ، دعاه فوصاه بوصية وأول ما قال له : اتق الله يا عمر .

وكتب عمر إلى ابنه عبد الله : أما بعد ، فإني أوصيك بتقوى الله ، فإنه من اتقاه وقاه .

واستعمل علي بن أبي طالب رجلاً على سرية فقال له : أوصيك بتقوى الله الذي لا بد لك من لقائه ، ولا منتهى لك دونه .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل : أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها ، ولا يرحم إلا أهلها .

ولما ولي خطب فحمد الله وأثنى عليه وقال : أوصيكم بتقوى الله .

وكتب رجل من السلف إلى أخ له : أوصيك بتقوى الله ، فإنها أكرم ما أسررت ، وأزين ما أظهرت ، وأفضل ما ادخرت .

وقال الحسن : التقوى أن لا تختار عل الله سوى الله ، وتعلم أن الأمور كلها بيد الله.

وقال إبراهيم بن أدهم : التقوى أن لا يجد الخلق في لسانك عيباً.

وقال الحسن : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

وقال الثوري : إنما سموا متقين ، لأنهم اتقوا ما لا يُتقى .

- **قال ابن القيم** : مراتب التقوى :

التقوى ثلاث مراتب :

إحداها : حميّة القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات ، **والثانية** : حميّتها عن المكروهات ، **والثالثة** : الحمية عن الفضول وما لا يعني .

فالأولى تعطي العبد حياته ، والثانية تفيده صحته وقوته ، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته .

٤- الحديث دليل على فضل نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام ، وأنه من أكرم الناس .

قال الحافظ ابن حجر : وإنما أطلق على يوسف أكرم الناس ، لكونه رابع نبي في نسق ولم يقع ذلك لغيره ، فإنه اجتمع له الشرف

في نسبه من وجهين .

وقال النووي : وَقَدْ جَمَعَ يُوسُف ﷺ مَكَارِم الْأَخْلَاق ، مَعَ شَرَف النُّبُوَّة ، مَعَ شَرَف النَّسَب ، وَكَوْنه نَبِيًّا اِبْن ثَلَاثَة أَنْبِيَاء مُتَنَاسِلِينَ أَحَدهمْ خَلِيل اللَّه ﷺ ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ شَرَف عِلْم الرُّؤْيَا ، وَتَمَكُّنه فِيهِ ، وَرِيَاسَة الدُّنْيَا ، وَمُلْكهَا بِالسِّيرَةِ الْجَمِيلَة ، وَحِيَاطَته لِلرَّعِيَّةِ ، وَعُمُوم نَفْعه إِيَّاهُمْ ، وَشَفَقَته عَلَيْهِمْ ، وَإِنْقَاذه إِيَّاهُمْ مِنْ تِلْكَ السِّنِينَ .

٥- قوله (فعن معادن العرب تسألوني ؟) قَالَ الْعُلَمَاء : لَمَّا سُئِلَ ﷺ أَيُّ النَّاس أَكْرَم ؟ أَخْبَرَ بِأَكْمَل الْكَرَم وَأَعَمّه ، فَقَالَ : أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ . وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ أَصْل الْكَرَم كَثْرَة الْخَيْر ، وَمَنْ كَانَ مُتَّقِيًا كَانَ كَثِير الْخَيْر وَكَثِير الْفَائِدَة فِي الدُّنْيَا ، وَصَاحِب الدَّرَجَات الْعُلَا فِي الْآخِرَة . فَلَمَّا قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُك قَالَ : يُوسُف الَّذِي جَمَعَ خَيْرَات الْآخِرَة وَالدُّنْيَا وَشَرَفهمَا . فَلَمَّا قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُ ، فَهِمَ عَنْهُمْ أَنَّ مُرَادهمْ قَبَائِل الْعَرَب قَالَ (خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّة خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَام إِذَا فَقُهُوا) وَمَعْنَاهُ أَنَّ أَصْحَاب الْمُرُوءَات وَمَكَارِم الْأَخْلَاق فِي الْجَاهِلِيَّة إِذَا أَسْلَمُوا أَوْ فَقُهُوا فَهُمْ خِيَار النَّاس . قَالَ الْقَاضِي : وَقَدْ تَضَمَّنَ الْحَدِيث فِي الْأَجْوِبَة الثَّلَاثَة أَنَّ الْكَرَم كُلّه عُمُومه وَخُصُوصه وَمُجْمَله وَمُبَانه. إِنَّمَا هُوَ الدِّين مِنْ التَّقْوَى وَالنُّبُوَّة وَالْإِغْرَاق فِيهَا وَالْإِسْلَام مَعَ الْفِقْه، بِضَمِّ الْقَاف عَلَى الْمَشْهُور ، وَحُكِيَ كَسْرُهَا أَيْ صَارُوا فُقَهَاء عَالِمِينَ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّة الْفِقْهِيَّة وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٧٠-الثَّاني : عن أبي سعيد الخدري ﷺ ، عن النَّبيّ ﷺ ، قَالَ : ((إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرةٌ ، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرَ كَيفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاء ؛ فإنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسرائيلَ كَانَتْ في النِّسَاءِ)) رواه مسلم .

(**حُلْوَةٌ خَضِرةٌ**) يَحْتَمِل أَنَّ الْمُرَاد بِهِ شَيْئَانِ أَحَدهمَا : حُسْنهَا لِلنُّفُوسِ ، وَنَضَارَتهَا وَلَذَّتهَا كَالْفَاكِهَةِ الْخَضْرَاء الْحُلْوَة ، فَإِنَّ النُّفُوس تَطْلُبهَا طَلَبًا حَثِيثًا ، فَكَذَا الدُّنْيَا . وَالثَّانِي : سُرْعَة فَنَائِهَا كَالشَّيْءِ الْأَخْضَر فِي هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ . (نووي) .

(**مُسْتَخْلِفكُمْ فِيهَا**) جَاعِلكُمْ خُلَفَاء مِنْ الْقُرُون الَّذِينَ قَبْلكُمْ ، فَيَنْظُر هَلْ تَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ، أَمْ بِمَعْصِيَتِهِ وَشَهَوَاتكُمْ .

١- الحديث دليل على أن هذه الحياة الدنيا حلوة قد يغتر بها بعض الناس .

٢- الحديث دليل على أن الله قد استخلف الناس في هذه الدنيا للاختبار والابتلاء .

فعبادة الله وإحسان العمل هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) . ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم .

٣- الحذر من فتنة الدنيا .

قال تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) .

وقال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وكان النبي ﷺ يتعوذ بالله من فتنة الدنيا .

فروى البخاري في صحيحه من حديث عمرو بن ميمون الأودي، قال: كان سعد يعلم بنيه هؤلاء الكلمات، كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة، ويقول (إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ منهن دبر الصلاة : اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر) .

وقد نهى الله نبيه ﷺ عن التطلع إلى الدنيا وفتنتها .

فقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

وقال تعالى (وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

وبيّن تعالى أن ما يعطيه الكفار من نعم الدنيا، إنما ذلك لهوان الدنيا عنده وحقارتها، وابتلاء لهم وفتنةً .

قال تعالى (فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُون) .

وقال تعالى (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُون) .

وقال تعالى (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ . وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِين) .

وروى الترمذي في سننه من حديث سهل بن سعد ﷺ : أن النبي ﷺ قال (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء) .

وقد حذّر النبي ﷺ أمته من فتنة الدنيا وزخرفها .

فعن عَمْرو بْنَ عَوْفٍ . أن النبي ﷺ قال (أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ . وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ) متفق عليه .

وكان النبي ﷺ من أكثر الناس بُعداً عن الدنيا وفتنتها .

فروى الترمذي في سننه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: نام النبي ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال (مالي وما للدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) .

وفي الصحيحين (... قال عمر ادْعُ اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى أُمَّتِكَ فَقَدْ وَسَّعَ عَلَى فَارِسَ وَالرُّومِ وَهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاسْتَوَى جَالِساً ثُمَّ قَالَ : أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

وفي رواية (فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ فَقَالَ « مَا يُبْكِيكَ » . فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ . فَقَالَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ) .

قال علي ﷺ – وهو يصف الدنيا – (أولها عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، من صح فيها أمن ، ومن حرص ندم ، ومن استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن ساعاها (أي سعى إليها) فتنته ، ومن قعد عنها أتته ، ومن نظر إليها أعمته ، ومن نظر بها (أي اعتبر بها) بصّرته .

قال الشاعر أبو الحسن التهامي:

طُبعت على كدرٍ وأنت تُريدُها صفواً من الأقذاء والأكدار .

وكان النبي ﷺ يوصي أصحابه بالتقلل من الدنيا وزينتها .

فروى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال (أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال :كن في الدنيا

كأنك غريب أو عابر سبيل) .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك .

٤- إن من أخطر فتن الدنيا فتنة النساء .

قال تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) .

فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد .

قال القرطبي : قوله تعالى (مِنَ النساء) بدأ بهِنّ لكثرة تشوّف النفوس إليهن ؛ لأنهنّ حبائل الشيطان وفتنة الرجال.

وفتنة النساء من أعظم الفتن ، وخاصة في هذه الأزمنة التي انتشر فيها التبرج والاختلاط ، وانفتح الإعلام ، وأصبحت فتنة المرأة تعرض ليلاً نهاراً .

قال ﷺ (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّساء) متفق عليه .

وقال ﷺ (... فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) رواه مسلم .

وقال ﷺ (ما رأيت من ناقصات عقل ودين ، أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن) متفق عليه .

ويكفي في فتنتها قوله ﷺ (إِنَّ المرأَةَ تُقبِلُ فِي صُورَةِ شَيطَانٍ، وَتُدبِرُ فِي صُورَةِ شَيطَان) .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : مَعنَاهُ : الْإِشَارَةُ إِلَى الهَوَى وَالدُّعَاءِ إِلَى الفِتنَةِ بِهَا ، لِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي نُفُوسِ الرِّجَالِ مِنَ الميلِ إِلَى النِّسَاءِ وَالِالتِذَاذِ بِنَظَرِهِنَّ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِن ، فهي شَبِيهَةٌ بِالشَّيطَانِ فِي دُعَائِهِ إِلَى الشَّرِّ بِوَسوَسَتِهِ وَتَزيينِهِ لَه .

قال سَعيدُ بنُ المسَيّبِ رَحِمَهُ الله تَعَالَى : مَا يَئِسَ الشَّيطَانُ مِنَ شَيءٍ إلا أتَاهُ مِن قِبَلِ النِّسَاءِ .

وقال أبو صَالِحٍ السَّمَّانُ رَحِمَهُ الله تَعَالَى : بَلغَنِي أنَّ أكثرَ ذُنُوبِ أهلِ النَّارِ فِي النِّساء .

وقال ﷺ (المرأة عورة ، كلها عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان) رواه الترمذي .

قال المباركفوري : (فَإِذَا خَرَجَتْ اِسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ) أَيْ : زَيَّنَهَا فِي نَظَرِ الرِّجَالِ، وَقِيلَ أَيْ نَظَرَ إِلَيْهَا لِيُغْوِيَهَا وَيُغْوِيَ بِهَا . وَالْأَصْلُ فِي الِاسْتِشْرَافِ رَفْعُ الْبَصَرِ لِلنَّظَرِ إِلَى الشَّيْءِ وَبَسْطُ الْكَفِّ فَوْقَ الْحَاجِبِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَرْأَةَ يُسْتَقْبَحُ بُرُوزُهَا وَظُهُورُهَا فَإِذَا خَرَجَتْ أَمْعَنَ النَّظَرَ إِلَيْهَا لِيُغْوِيَهَا بِغَيْرِهَا ، وَيُغْوِيَ غَيْرَهَا بِهَا لِيُوقِعَهُمَا أَوْ أَحَدَهُمَا فِي الْفِتْنَةِ . أَوْ يُرِيدَ بِالشَّيْطَانِ شَيْطَانُ الْإِنْسِ مِنْ أَهْلِ الْفِسْقِ سَمَّاهُ بِهِ عَلَى التَّشْبِيهِ .

ففتنة النساء أشدّ من جميع الأشياء.

ويقال : في النساء فتنتان ، وفي الأولاد فتنة واحدة.

فأمّا اللتان في النساء فإحداهما : أن تؤدّي إلى قطع الرحم ؛ لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأُمَّهَات والأخوات.

والثانية : يُبْتلى بجمع المال من الحلال والحرام.

وأمّا البنون فإن الفتنة فيهم واحدة ، وهو ما ابتلي بجمع المال لأجلهم.

- وقد حذر الإسلام من الفتنة بالنساء .

فالشهوة أمرها خطير وشرها جسيم ، فكم من عابد لله حولته الشهوة إلى فاسق ، وكم من عالم حولته إلى جاهل ، وكم أخرجت أناساً من الدين كانوا في نظر من يعرفهم أبعد الناس عن الضلال والانحراف .

ولذا قال أحد السلف : لم يكن كفر من مضى إلا من قِبَل النساء وهو كائن كفر من بقي من قبل النساء .

وقد أورد القرطبي مجموعة من القصص والأمثلة التي تبين مدى خطورة هذا الداء ، وأنه سبب قوي للانتكاس والردة .

فقد ذكر أن رجلاً ملتزماً مسجداً للأذان والصلاة ، وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة ، وكان مثالاً لأهل الخير والصلاح ، وكان يرقى كل يوم المنارة للأذان ، وفي أحد الأيام نظر إلى بيت نصراني ذمي تحت منارة المسجد فرأى بنت صاحب الدار فافتتن بها وترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار ، فقالت له : ماذا تريد ؟ قال : أريدك أنتِ ، قالت : لماذا ؟ قال لها : قد سلبتني لبي وأخذت بمجامع قلبي، قالت : لا أجيبك إلى ريبة، قال : أتزوجك، قالت له : أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال لها : أتنصر ، قالت : إن فعلت أفعل ، فتنصر ليتزوجها ، وأقام معها في الدار ، وقبل الزواج رقى إلى سطح الدار فسقط منه فمات ، فلا ظفر بها ، ولا ظفر بدينه ، فنعوذ بالله من سوء الخاتمة .

وذلك مما يؤكد أن الفتنة بالنساء في الحرام موجب للانتكاسة عن الإيمان والاستقامة .

- قصة ذكرها ابن كثير رحمه الله في حوادث سنة ثمان وسبعين ومائتين فقال : وفيها توفي عبده بن عبد الرحيم قبحه الله ، ذكر ابن الجوزي أن هذا الشقي كان من المجاهدين كثيراً في بلاد الروم ، فلما كان في بعض الغزوات والمسلمون يحاصرون بلدة من بلاد الروم ، إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن ، فهويها ، فراسلها : ما السبيل إلى الوصول إليك ؟ فقالت : أن تتنصر وتصعد إليّ ، فأجابها إلى ذلك ، فما راع المسلمين إلا وهو عندها ، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غماً شديداً ، وشق عليهم مشقة عظيمة ، فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن ، فقالوا : يا فلان ما فعل قرآنك ؟ ما فعل علمك ؟ ما فعل صيامك ؟ ما فعل جهادك ؟ ما فعلت صلاتك ؟ فقال : اعلموا أني أُنسيت القرآنَ كله إلا قوله : (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) وقد صار لي فيهم مال وولد " [البداية والنهاية ٦٤/١١]
- وقال ابن الجوزي : بلغني عن رجل كان ببغداد يُقال له : صالح المؤذن ، أذّن أربعين سنة ، وكان يُعرف بالصلاح ، أنه صعد يوماً إلى المنارة ليؤذن، فرأى بنت رجل نصراني كان بيته إلى جانب المسجد، فافتتن بها، فجاء فطرق الباب، فقالت : من ؟ فقال : أنا صالح المؤذن ، ففتحت له ، فلما دخل ضمها إليه ، فقالت : أنتم أصحاب الأمانات فما هذه الخيانة ؟ فقال : إن وافقتني على ما أريد وإلا قتلتك ، فقالت : لا؛ إلا أن تترك دينك ، فقال : أنا بريء من الإسلام ومما جاء به محمد ، ثم دنا إليها ، فقالت : إنما قلت هذا لتقضي غرضك ثم تعود إلى دينك ، فكُلْ من لحم الخنزير ، فأكل ، قالت : فاشرب الخمر ، فشرب ، فلما دبّ الشراب فيه دنا إليها ، فدخلت بيتاً وأغلقت الباب ، وقالت : اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوّجني منك ، فصعد فسقط فمات ، فخرجت فلفّته في ثوب ، فجاء أبوها ، فقصّت عليه القصة ، فأخرجه في الليل فرماه في السكة ، فظهر حديثه ، فرُمي في مزبلة . [ذم الهوى٤٠٩]

قال طاوس: ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء .

وروي عن ابن عباس أنه قرأ (وخلق الإنسان ضعيفاً) أي وخلق الله الإنسان ضعيفاً ، أي لا يصبر عن النساء .

وكان يقال: لا تعقد قلبك مع المال لأنه فيء ذاهب ، ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغدا مع غيرك ، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغدا لغيرك ؟

- وفي الأدب الكبير، لابن المقفع: اعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأجلبها للعار، وأزراها للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار: الغرام بالنساء ، ومن العجب أن الرجل لا بأس بلبّه ورأيه يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها، فيصوّر لها في قلبه الحُسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح، وأدمّ الدمامة، فلا يعظه ذلك؛ ولا يقطعه عن أمثالها، ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق، حتى لو لم يبق في الأرض غير

امرأة واحدة، لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاق، وهذا هو الحمق والشقاء والسفه .

قال عمر بن الخطاب ﷺ : خلق النساء من ضعف وعورة، فداووا ضعفهن بالسكوت، وعوراتهن بالبيوت .

وقيل للاسكندر : لو أكثرت من النساء حتى يكثر نسلك ويحيا ذكرك، فقال : إنما يحيي الذكر الأفعال الجميلة والسير الحميدة، ولا يحسن بمن يغلب الرجال وتغلبه النساء .

قال سعيد بن المسيب : ما خفتُ على نفسي شيئاً مخافة النساء ! قالوا يا أبا محمد ! إنّ مثلك لا يريد النساء ولا تريده ، قال : هو ما أقول لكم ، وكان شيخًا كبيرًا أعمش .

وقال رحمه الله : ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء .

وقال محمد بن سيرين – رحمه الله – : والله ما نظرت إلى غير أم عبد الله — أي زوجته – في يقظة ولا منام ، وإني لأرى المرأة في المنام فأذكر أنها لا تحل لي فأصرف بصري عنها .

وقال العلاء بن زياد : لا تتبع بصرك رداء امرأة ، فإن النظرة تجعل في القلب شهوة .

وقال أحد الصالحين لابنه: يا بني امشي وراء الأسد والحية و الثعبان، امشي وراء الأَسْوَد والأُسُود ولا تمشي وراء امرأة ؟

وقال ميمون بن مهران : لأن أوتمن على بيت مالٍ أحبّ إليّ من أنْ أُوتمن على امرأة .

وقال عمر بن عبد العزيز لابن مهران : لا تأتين أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر ، ولا تخلون بامرأة وإنْ علمتها سورة من القرآن ، ولا تصحبن عاقاً فإنه لن يقبلك وقد عقّ والديه .

وقال ميمون بن مهران: ثلاث لا تبلون نفسك بهن : لا تدخل على السلطان وإن قلت آمره بطاعة الله ، ولا تُصغين بسمعك إلى صاحب هوى فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه ، ولا تدخل على امرأة ولو قلت أعلمها كتاب الله .

وقال الأحنف بن قيس: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، إني أبغض الرجل يكون وصَّافًا لفرجه وبطنه .

وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم يكن كفر من مضى إلا من قبل النساء ، وهو كائن كفر من بقي من قبل النساء .

- ومن أرخى لشهوته العنان؛ فإن سعار هذه الشهوة لا حد له ولا انقضاء، والمولع بشهوة الجنس بدون ضابط، أو رادع؛ لا يقف ولا يرعوي، يقول الشيخ علي الطنطاوي : لو أوتيتَ مال قارون، وجسد هرقل، وواصلتك عشر آلاف من أجمل النساء من كل لون وكل شكل، وكل نوع من أنواع الجمال، هل تظن أنك تكتفي؟ لا، أقولها بالصوت العالي: لا.. أكتبها بالقلم العريض..ولكن واحدة بالحلال تكفيك. لا تطلبوا مني الدليل؛ فحيثما تلفّتم حولكم وجدتم في الحياة الدليل قائماً ظاهراً مرئياً .

٥- حرص النبي ﷺ على نصح أمته ليقيها من الفتن .

٦- أخذ العبرة والعظة من الغير .

٧- إثبات فتنة الدنيا والنساء .

٨- أن فتنة النساء أخطر فتن الدنيا .

٩- تفاوت فتن الدنيا .

١٠- الحكمة من هذه الدنيا الابتلاء والاختبار .

١١- وجوب الابتعاد عن الفتن وأسبابها ، وقد جاء في الحديث (إن السعيد لمن جنب الفتن) رواه أبو داود .

٧١-الثالث : عن ابن مسعودٍ ﷺ: أنَّ النَّبيّ ﷺ كَانَ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدَى ، وَالتُّقَى ، وَالعَفَافَ ، وَالغِنَى»

رواه مسلم .

١- هذا الحديث اشتمل على دعاء عظيم اشتمل على أربع جمل :

(**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدَى**) قال السعدي : هذا الدعاء العظيم ، شامل لأربعة مطالب عظيمة، وجليلة، لا غنى عنها لأي عبد سائر إلى الله عز وجل لما فيها من أهم مطالب الدنيا والآخرة.

فبدأ بسؤال (الهدى) وهو أعظم مطلوب للعباد ، لا غنى لهم عنه في هذه الدار ، لأن الهدى : هو طلب الهداية ، وهي كلمة شاملة تتناول كل ما ينبغي أن يُهتدى إليه من أمر الدنيا والآخرة من حسن الاعتقاد ، وصلاح الأعمال ، والأقوال ، والأخلاق.

(**وَالتُّقَى**) أي التقوى: وهو اسم جامع لفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه .

قال الطيبي : أطلق الهدى والتقى ، ليتناول كل ما ينبغي أن يهتدي إليه من أمر المعاش والمعاد ومكارم الأخلاق، وكل ما يجب أن يتقي منه من الشرك، والمعاصي، ورذائل الأخلاق، وطلب العفاف .

وأصل الكلمة من التوقي، وهو أن تجعل بينك وبين عقوبة الله تعالى وقاية, ويكون بفعل الطاعات، واجتناب المحرمات .

(**وَالعَفَافَ**) هو التنزُّه عما لا يُباح, والصيانة عن مطامع الدنيا، فيشمل العفاف بكل أنواعه .

العفاف عن الزنا كله بأنواعه : زنى النظر، وزنى اللمس، وزنى الاستماع، وزنى الفرج .

والتعفُّف عن الكسب، والرزق الحرام.

(**وَالغِنَى**) وهو غنى النفس بأن يستغني العبد عن الناس، وعمّا في أيديهم، فيستغني العبد بما أعطاه الله، سواء أُعطي قليلاً أو كثيراً، وهذه الصفة يحبها الله عز وجل قال النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِي) .

- وسؤال الله (العفاف والغنى) وهما داخلان في الهدى والتقى من باب التخصيص بعد التعميم، وذلك لعظم شأنهما، وشدة احتياج الخلائق لهما.

قال السعدي في شرح الحديث : هذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها، وهو يتضمن سؤال خير الدين وخير الدنيا، فإن الهدى هو: العلم النافع ، والتقى : العمل الصالح، وترك ما نهى عنه الله ورسوله، وبذلك يصلح الدين، فإن الدين علوم نافعة ومعارف صادقة فهو (الهُدَى)، وقيام بطاعة الله ورسوله، فهو (التقى) .

والعفاف والغنى : يتضمّن العفاف عن الخلق، وعدم تعليق القلب بهم، والغنى بالله وبرزقه، والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية، وبذلك تتم سعادة الحياة الدنيا، والراحة القلبية، وهي الحياة الطيبة، فمن رُزِقَ الهُدى، والتقى، والعفاف، والغنى نال السعادتين، وحصل على كل مطلوب، ونجا من كل مرهوب .

٢- استحباب الدعاء بهذا الدعاء الجامع .

٣- فضل الدعاء .

٤-عبودية النبي ﷺ لربه .

٥- فضل القناعة والاستعفاف عن الناس .

وقد قال ﷺ (قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه) .

وعن فضالة بن عبَيد . قال : قال رسول الله ﷺ (طوبى لمن هديَ للإسلام ، وكان عيشه كفافاً وقنع) رواه الترمذي .

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

فَسَّر الحياةَ الطيبة عليٌّ وابن عباس والحسن – رضي الله عنهم – فقالوا : الحياة الطيبة هي القناعة .

وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي : من قنع طاب عيشه ، ومن طمع طال طيشه .

وقال أحد الحكماء : أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة .

وقال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غماً الحسود ، وأهنأهم عيشاً القنوع .

٦– أنه كلما كملت عبودية المسلم كلما استغنى عن الناس .

٧– سؤال الله الهداية ، والنبي ﷺ وهو المبعوث لهداية البشرية كان يسأل الله الهداية ، وفي الحديث كان يقول ﷺ (اللهم رب جبرائيل وميكائيل ..... اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك) رواه مسلم .

٨– إن قيل: لم قدم (الهدى والتقى) على (العفاف والغنى) ؟

أجيب : لأن الهدى والتقى قوام صلاح العبد في أمر دينه والعفاف والغنى قوام صلاحه في أمر دنياه . وأمر الدين مقدم على أمر الدنيا.

أو لأن (الهدى والتقى) فيهما شفاء الشبهات ، (والعفاف والغنى) فيهما شفاء الشهوات. وداء الشبهات أخطر من داء الشهوات.

فإن قيل: ولم قدم (العفاف) على الغنى) ؟

أجيب : لأن العبد أحوج إلى العفاف منه إلى الغنى.

أو لأن العفاف فيه من درء المفسدة ما ليس في الغنى.

أو لأن العفاف فيه كسر شهوة النساء، والغنى فيه كسر شهوة المال والتطلع ، والأول أولى.

٧٢–الرابع : عن أبي طريفٍ عديّ بن حاتمٍ الطائيّ رضي الله عنه ، قَالَ : سمعتُ رسولَ الله ﷺ ، يقول : ((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى أَتْقَى للهِ مِنْهَا فَلْيَأْتِ التَّقْوَى)) رواه مسلم .

(عَلَى يَمِينٍ) اليمين : وهي : توكيد الشيء بذكر اسم الله أو صفة لله .

قال الجوهري : سميت اليمين بذلك لأنهم كانوا إذا تحالفوا ضرب كل امرئ منهم بيمينه على يمين صاحبه .

١– في حديث الباب استحباب الحنث في اليمين إذا كان الحنث خيراً من التمادي .

وقد جاء ذلك في أحاديث :

أ–عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ , لا تَسْأَلْ الإِمَارَةَ , فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِّلْتَ إِلَيْهَا , وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا , وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا , فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ , وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ) متفق عليه .

ب–وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنِّي وَاَللَّهِ – إِنْ شَاءَ اللَّهُ – لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ , فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا إِلاَّ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ , وَتَحَلَّلْتُهَا) متفق عليه .

ففي هذه الأحاديث استحباب الحنث في اليمين والتكفير عنه إذا كان الحنث خيراً من التمادي ، وهذا متفق عليه بين العلماء .

قال النووي : فِي هَذِهِ الْأَحَادِيث : دَلَالَة عَلَى مَنْ حَلَفَ عَلَى فِعْل شَيْء أَوْ تَرْكه ، وَكَانَ الْحِنْث خَيْرًا مِنْ التَّمَادِي عَلَى الْيَمِين ،

أُسْتُحِبَّ لَهُ الْحِنْث ، وَتَلْزَمهُ الْكَفَّارَة وَهَذَا مُتَّفَق عَلَيْهِ ، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَا تَجِب عَلَيْهِ الْكَفَّارَة قَبْل الْحِنْث ، وَعَلَى أَنَّهُ يَجُوز تَأْخِيرهَا عَنْ الْحِنْث ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوز تَقْدِيمهَا عَلَى الْيَمِين ، وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَازهَا بَعْد الْيَمِين وَقَبْل الْحِنْث ، فَجَوَّزَهَا مَالِك وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيّ وَأَرْبَعَة عَشَر صَحَابِيًّا وَجَمَاعَات مِنْ التَّابِعِينَ ، وَهُوَ قَوْل جَمَاهِير الْعُلَمَاء ، لَكِنْ قَالُوا : يُسْتَحَبّ كَوْنهَا بَعْد الْحِنْث .

- والخيرية في الحنث تارة تكون واجبة ، وتارة تكون مستحبة ، فإن كانت خيرية واجبة كان الحنث واجباً ، وإن كانت خيرية تطوع صار الحنث تطوعاً .

أمثلة :

قال : والله لا أصلي اليوم ، فهذا حلف على ترك واجب ، فالحنث واجب .

قال : والله لا أوتر ، نقول هنا الأفضل أن يحنث ، فنقول أوتر وكفر عن يمينك .

ولذلك قسم العلماء المسألة إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن يكون الحنث خير [وجوباً أو استحباباً] فهنا يحنث .

القسم الثاني : أن يكون عدم الحنث خير ، فإنه لا يحنث .

القسم الثالث : أن يتساوى الأمران ، فالأفضل عدم الحنث .

٢-اختلف العلماء في موعد الكفارة : هل تجوز قبل الحنث وبعد اليمين أو لا بد أن تكون بعد الحنث على قولين :

الراجح ما ذهب إليه جماهير العلماء أنه تجزئ بعد اليمين وقبل الحنث .

لأن الروايات جاءت بذلك :

فقد جاءت رواية بتقديم الكفارة (فكفر عن يمينك وأئتِ الذي هو خير) .

وجاءت رواية بتأخير الكفارة كما في حديث أبي موسى (إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها) .

فدل ذلك على جواز الأمرين .

مثال : قال : والله لا أسافر إلى الرياض الشهر القادم ، ثم رأى أنه يريد السفر .

فيجوز أن يدفع الكفارة الآن قبل الحنث (وهو سفره إلى الرياض) ويجوز يجعل الكفارة بعد الحنث (بعد سفره إلى الرياض) .

٣-وجوب كفارة اليمين عند الحنث لقوله : فكفّر .

والكفارة كما قال تعالى (لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ) .

فيخير من لزمته كفارة يمين بين :

إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو عتق رقبة — فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .

- مقدار الإطعام لكل مسكين نصف صاع من قوت البلد، ومقداره كيلو ونصف تقريباً، وإن عشا العشرة أو غداهم يجزئ .
- ذهب جمهور العلماء إلى أنه يلزم إطعام عشرة مساكين ولا يجزئ أقل من ذلك لأنه هو العدد المنصوص عليه في الآية .
- في العتق لا بد أن تكون الرقبة مؤمنة ، وهذا مذهب جماهير العلماء ، لحديث الجارية قال ﷺ (أعتقها فإنها مؤمنة) .
- **الراجح** من أقوال أهل العلم أنه يلزم التتابع في صيام الكفارة لقراءة ابن مسعود (فصيام ثلاثة أيام متتابعة) .

٧٣-الخامس : عن أبي أُمَامَةَ صُدَيّ بنِ عجلانَ الباهِلِيّ ﷺ ، قَالَ : سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يَخْطُبُ في حجةِ الوداعِ ، فَقَالَ : « اتَّقُوا الله وَصلُّوا خَمْسَكُمْ ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ ، وَأَطِيعُوا أُمَرَاءَكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ » رواه

الترمذي ، في آخر كتابِ الصلاةِ ، وَقالَ : « **حديث حسن صحيح** » .

(**حجةِ الوداعِ**) وكانت في العام العاشر ، سميت بذلك ، لأن رسول الله ودع بها الناس وقال (لعلي لا أحج بعد عامي هذا) .

١- الحديث دليل على وجوب تقوى الله في السر والعلن لقوله (اتقوا الله) .

وقد جاءت آيات كثيرة تأمر بتقوى الله :

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

وقد ذكر الله صفات المتقين في القرآن الكريم :

قال تعالى (الم . ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وقال تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون) .

وقال تعالى (وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ.أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ.قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) .

٢- الحديث دليل على وجوب الصلوات الخمس، وأنها أعظم الأركان بعد الشهادتين .

٣- الحديث دليل على أن الصلوات المفروضة خمس :كما في حديث أبي هريرة . قال : قال ﷺ (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ... مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) رواه مسلم .

وعن طَلْحَة بْن عُبَيْدِ اللَّهِ قال (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ، ثَائِرُ الرَّأْسِ ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ ، وَلاَ يُفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ » . فَقَالَ هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهَا قَالَ «لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ » ...) متفق عليه .

٤- الحديث دليل على وجوب صوم شهر رمضان ، وصومه ركن من أركان الإسلام .

٥-الحديث دليل على وجوب الزكاة ، وهي ركن أركان الإسلام .

٦- الحديث دليل على فضل الكرم .

٧- الحديث دليل على ذم البخل .

٨- ينبغي على المسلم أن يزكي نفسه وماله وذلك بإخراج الزكاة .

٩- الحديث دليل على وجوب طاعة ولي الأمر في غير معصية الرحمن ، وقد جاءت الأدلة الكثيرة في ذلك :
قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) .
وعن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني) متفق عليه .
وعن ابن عمر . قال : قال رسول الله ﷺ (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) متفق عليه .
وعن أبي ذر . قال : قال رسول الله ﷺ (إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف) رواه مسلم ، وعند البخاري (ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة) .
وعن ابن عباس . قال : قال رسول الله ﷺ (من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية) متفق عليه .
وعن عوف بن مالك. قال: قال رسول الله ﷺ (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم ، فقلنا يا رسول الله ! أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك ؟ قال : لا ، ما أقاموا الصلاة فيكم ، ألا من وليَ عليه والٍ ، فرآه يأتي شيئاً من معصيته فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة) رواه مسلم .
وفي صحيح البخاري أن عبد الله بن عمر كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف، وكذا أنس بن مالك، وكان الحجاج فاسقاً ظالماً.
وصلى ابن مسعود خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيْط وكان يشرب الخمر .
١١- أن هذه الأعمال سبب في دخول الجنان .

٧- باب في اليقين والتوكل

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً**﴾ [الأحزاب : ٢٢]، وَقالَ تَعَالَى : ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ [آل عمران :١٧٣- ١٧٤] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان :٥٨] ، وَقالَ تَعَالَى : **وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [إبراهيم : ١١] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله** ﴾ [آل عمران :

١٥٩]، والآيات في الأمرِ بالتوكلِ كثيرةٌ معلومةٌ . وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق : ٣] : أي كافِيهِ . وَقالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [الأنفال : ٢] ، والآيات في فضل التوكل كثيرةٌ معروفةٌ .

تعريف التوكل :

قال الإمام أحمد : هو قطع الاستشراف بالإياس من الخلق .

قال ابن رجب : التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله تعالى في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة .

وقال الشيخ السعدي رحمه الله : وحقيقة التوكل على الله : أن يعلم أن الأمر كله لله ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

قال ابن القيم أيضاً : فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له ، يكون توكلك عليه ، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله .

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.

واليقين : هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك ، والموجب للعمل . (السعدي) .

جمع المؤلف بين اليقين والتوكل لأن التوكل ثمرة من ثمرات اليقين . (ابن عثيمين) .

- **قَالَ الله تَعَالَى : (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً) .**

(**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ**) أي : بأبصارهم (**الأَحْزَابَ**) الذين تحزبوا لقتال الرسول ﷺ ومن معه (قريش وغطفان وأسد وغيرهم) (**قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ**) من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب ، والمراد بقول الله تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ...) .

فبين تعالى أنه لا يمكن أن يدخلوا الجنة إلا بعد الابتلاء والاختبار والمحن .

وهذا يدل على ثباتهم وإيمانهم ويقينهم ، بخلاف المنافقين الذين قالوا : (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) (وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ) أي صدق الله في وعده ، ورسول الله فيما بشرنا به .

قال المفسرون : ولما كان المسلمون يحفرون الخندق اعترضهم صخرة عظيمة عجزوا عن كسرها ، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء وأخذ المعول وضربها ثلاث ضربات أضاءت له منها مدائن كسرى وقصور الروم ، فقال : أبشروا بالنصر ، فلما أقلعت جموع المشركين ورأوهم قالوا : (هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) .

(**وَمَا زَادَهُمْ**) ذلك الأمر (**إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً**) أي ما زادهم رؤية الأحزاب وتألبهم على رسول الله ، إلا (**إِيمَاناً**) بالقلب (**وَتَسْلِيماً**) بالجوارح .

فالإنسان لا يتم دينه إلا بهذين الأمرين : الإيمان والتسليم ، فمن استسلم ولم يؤمن فهو منافق ، ومن آمن ولم يستسلم فهو متكبر .

- **وَقالَ تَعَالَى : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ،**

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيم) .

(**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ**) المراد بالناس هنا رجل يقال له : نعيم بن مسعود ، وقيل : ركب لقيهم أبو سفيان ، فضمن لهم ضماناً لتخويف النبي ﷺ وأصحابه (**إِنَّ النَّاسَ**) المراد بالناس هو أبو سفيان وأصحابه ورؤساء عسكره (**قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ**) أي : جمعوا لكم الجموع (**فَاخْشَوْهُمْ**) أي : خافوهم (**فَزَادَهُمْ إِيمَاناً**) أي : أن هذا القول الذي قاله المثبطون (**وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ**) أي : كافينا الله وحده ، كما قال تعالى (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) أَيْ حَسْبُك وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَك مِنْ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ اللَّهُ فَهُوَ كَافِيكُمْ كُلُّكُم (**وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**) المدافع عن غيره .

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على قوة إيمانهم ، وشدة ثقتهم بنصر الله – تعالى – لهم ، مهما كثر عدد الأعداء ، ومهما تعددت مظاهر قوتهم .

فالمؤمن عند المحن يزداد إيماناً ، كما قال تعالى (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً) (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ) قيل : المراد بالنعمة هنا : السلامة من ملاقاة العدو ، وقيل : هي ما أخذوه من الأموال (وَفَضْلٍ) أي : فضل وثواب الجهاد (لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) أي : لم يصبهم قتل ولا جراح (وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ) في طلب القوم .

فأنت ترى أن الله تعالى قد أخبر عن هؤلاء المجاهدين المخلصين أنهم قد صحبهم في عودتهم أمور أربعة : أولها : النعمة العظيمة ، وثانيها : الفضل الجزيل ، وثالثها : السلامة من السوء ، ورابعها : اتباع رضوان الله ، وهذا كله قد منحه الله لهم جزاء إخلاصهم وثباتهم على الحق الذي آمنوا به (وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) أي : صاحب الفضل العظيم .

- وَقالَ تَعَالَى : (**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ**) .

(**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ**) الذي له الحياة الكاملة المطلقة (**الَّذِي لا يَمُوت**) أبداً ، فحياته سبحانه وتعالى لم يلحقها عدم ولا يلحقها زوال ، فلا ينبغي أن يُعتمد على مخلوق ضعيف يموت .

قال ابن كثير : أي: في أمورك كلها كُن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً ، الذي هو (الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الدائم الباقي السرمدي الأبدي، الحي القيوم ربّ كل شيء ومليكه، اجعله ذُخْرك وملجأك، وهو الذي يُتَوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) .

- **وَقالَ تَعَالَى ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .**

(**وَعَلَى اللهِ**) وحده لا على غيره (**فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون**) أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم ، فلا خاب من توكل عليه ، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله ، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله .

- **وَقالَ تَعَالَى (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله) .**

(**فَإِذَا عَزَمْتَ**) على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه ، إن كان يحتاج إلى استشارة (**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**) أي : اعتمد على حول الله وقوته ، متبرئاً من حولك وقوتك (**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**) عليه ، اللاجئين إليه ، وفي هذا فضل عظيم للمتوكلين .

- **وَقالَ تَعَالَى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُه) .**

(ومَنْ **يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ**) أي : ومن يعتمد على الله ويفوض جميع أموره إلى الله مع تمام الثقة بالله في جلب النفع ودفع الضر مع فعل الأسباب (**فَهُوَ حَسْبُهُ**) أي : فهو كافيه كل ما أهمه في أمر دينه ودنياه ، قال تعالى (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) .

- **وَقالَ تَعَالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون) .**

(**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ**) الكُمّل ، لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان ، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة ، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده (**الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**) أي : خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم ، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب (**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً**) ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم ، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه ، أو يتذكرون ما كانوا نسوه ، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم ، أو وجلاً من العقوبات ، وازدجاراً عن المعاصي ، وكل هذا مما يزداد به الإيمان (**وَعَلَى رَبِّهِمْ**) وحده (**يَتَوَكَّلُون**) أي : يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية ، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك. (تفسير السعدي)

قال ابن كثير : وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه ، أي: خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره ، كقوله تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وكقوله تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) .

ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) قال: هو الرجل يريد أن يظلم –أو قال : يهم بمعصية–فيقال له: اتق الله فَيجل قلبه.

٧٤–وأما الأحاديث : فالأول : عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قَالَ : قَالَ رسولُ الله ﷺ : ((عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيّ ومَعَهُ الرُّهَيطُ ، والنبي وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ ، والنبيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لي سَوَادٌ عَظيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فقيلَ لِي : هَذَا مُوسَى وَقَومُهُ ، ولكنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ ، فَنَظَرتُ فَإِذا سَوادٌ عَظِيمٌ ، فقيلَ لي : انْظُرْ إِلَى الأفُقِ الآخَرِ ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظيمٌ ، فقيلَ لِي : هذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ ألفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ)) ، ثُمَّ نَهَضَ فَدخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ في أُولئكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمْ الَّذينَ صَحِبوا رسولَ الله ﷺ ، وَقالَ بعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا في الإِسْلامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيئاً – وذَكَرُوا أشيَاءَ –

فَخَرجَ عَلَيْهِمْ رسولُ الله ﷺ ، فَقَالَ : « مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ ؟ » فَأَخْبَرُوهُ فقالَ : « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ ، وَلا يَسْتَرْقُونَ ، وَلا يَتطَيَّرُونَ ؛ وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون » فقامَ عُكَّاشَةُ ابنُ محصنٍ ، فَقَالَ : ادْعُ الله أنْ يَجْعَلني مِنْهُمْ ، فَقَالَ: « أَنْتَ مِنْهُمْ » ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ : ادْعُ اللهَ أنْ يَجْعَلنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ : « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

« **الرُّهَيْطُ** » بضم الراء تصغير رهط : وهم دون عشرة أنفس ، وَ« **الأُفقُ** » الناحية والجانب . و« **عُكَّاشَةُ** » بضم العين وتشديد الكاف وبتخفيفها ، والتشديد أفصح .

(**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَم**) كان هذا في ليلة الإسراء على القول الصحيح كما عند الترمذي .

(**والنبي وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ**) ، قال الشيخ ابن عثيمين : الظاهر أن الواو بمعنى أو ، أي : ومعه الرجل أو الرجلان ، لأنه لو كان معه الرجل والرجلان صار يغني أن يقول : ومعه ثلاثة .

(**لاَ يَرْقُونَ**) هذه الرواية بهذا اللفظ عند مسلم دون البخاري ، قال ابن تيمية : وهو غلط ، فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة ، وكان النبي ﷺ يرقي نفسه وغيره ، ولم يكن يسترقي .

(**وَلا يَسْتَرْقُونَ**) أي : لا يطلبون من أحد أن يرقيهم .

(**وَلا يَتطَيَّرُونَ**) التطير التشاؤم ، وفي لفظ للصحيحين (ولا يكتوون) .

١- الحديث دليل على فضل التوكل على الله ، وحكمه واجب .

قال تعالى (وعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) . وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) .

وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وقال تعالى (فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) .

٢- الحديث دليل على فضل التوكل على الله وأنه سبب لدخول الجنة ، **وللتوكل فضائل :**

أولاً : أنه سبب لدخول الجنة .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

ولحديث الباب .

وللحديث الآتي (يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير) .

حكى النووي في هذا الحديث : أن المراد بهؤلاء القوم هم المتوكلون .

ثانياً : أهل التوكل هم أهل محبة الله عز وجل .

قال تعالى (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين) .

ثالثاً : التوكل من شيم أنبياء الله ورسله وأوليائه .

قال تعالى في نوح (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ).

وقال تعالى عن هود (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

رابعاً : أهل التوكل هم أهل الإيمان .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أي : وعلى الله وحده فليعتمد وليثق المؤمنون .

قال ابن القيم : فجعل التوكل شرطاً في الإيمان ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه ، وكلما قوي توكل العبد كان إيمانه أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد .

خامساً : التوكل على الله مجلبة للرزق .

عن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً) رواه الترمذي .

سادساً : المتوكلون ليس عليهم للشيطان سبيل .

قال تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

سابعاً : المتوكلون الله حسبهم وكافيهم .

قال تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، ولم يقل : نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه ، وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً ، وكفاه ونصره . (بدائع الفوائد) .

ثامناً : أهل التوكل على الله هم أهل العزة والاستعلاء .

قال تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

قال في الإحياء : أي عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى زمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير أمر من توكل على تدبيره .

تاسعاً : لا توكل بدون إيمان .

قال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين) .

وقال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

- الفرق بين الثقة بالله والغرور والعجز .

قال ابن القيم : والفرق بينهما : أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها ، كغارس الشجر وباذر الأرض .

والمغتر العاجز : قد أفرط فيما أمر به ، وزعم أنه واثق بالله ، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود .

٣- من أقوال السالف :

قال شيخ الإسلام : وما رجا أحدٌ مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك ، قال تعالى (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) .

وقال : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

وقال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه .

وقال ابن القيم – رحمه الله –ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته لأزاله .

قيل لحاتم الأصم : على ما بنيت أمرك في التوكل ؟ قال : على خصال أربعة :

علمت أن رزقي لا يأكله غيري ... فاطمأنت به نفسي .

وعلمت أن عملي لا يعمله غيري ... فأنا مشغول به .

وعلمت أن الموت يأتي بغتة ... فأنا أبادره .

وعلمت أني لا أخلو من عين الله ... فأنا مستحيٍ منه .

قال بعض العلماء لا تتكلن على غير الله فيكلك الله إلى من اتكلت عليه .

قال منصور بن عمار : قلوب المتوكلين أوعية الرضا .

وقال بعضهم : علامة التوكل انقطاع المطامع : أي في الخلق والأسباب .

وقال آخر : التوكل إسقاط رؤية الوسائط والتعلق بأعلى العلائق .

- أن من تمام التوكل الأخذ بالأسباب . (وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله) .

٤- الحديث دليل على فضل التوحيد ، لقوله (ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب .. هم الذين لا يسترقون) .

والصفات المذكورة (لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون) من تحقيق التوحيد ، فلما اتصفوا بصفات أهل تحقيق التوحيد أثابهم الله الجنة بغير حساب ولا عذاب .

(والحساب : المناقشة على الدقيق والجليل ، والعذاب : حصول الألم في الموقف) .

٤- الحديث دليل على تحريم التطير ، وقد جاءت الأدلة على تحريمه :

أ-عن أبي هريرة ﷺ . أن الرسول ﷺ قال (لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر) متفق عليه .

ب-وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل) قالوا : ما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة). متفق عليه .

ج-وعن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً (الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل) رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

والتطير هو : ما يحمل على الإقدام أو الإحجام في أمر ما .

وقيل التطير : هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم .

بمرئي : مثل لو رأى طائراً فتشاءم لكونه موحشاً .

أو مسموع : مثل لو هم بأمرٍ فسمع شخص يقول لآخر : يا خسران ، أو يا خائب ، فتشاءم .

أو معلوم : كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور .

وأصل التطير عند العرب : زجر الطير ، فإن العرب كانوا إذا أرادوا أمراً زجروا الطير ، فإن أقبلتْ أقدموا عليه ، وإذا أدبرت أحجموا عليه .

- واعلم أن التطير ينافي التوحيد من وجهين :

الوجه الأول : أن المتطير قطع توكله على الله ، واعتمد على غيره .

الوجه الثاني : أنه تعلق بأمر لا حقيقة له ، (أي : أخلد إلى سببٍ غير معتدٍ به شرعاً ولا قدراً) .

- وهو شركاً أصغر ، لأنه جعل سبباً ما ليس بسبب ، أما إذا اعتقد أن المتطيَّر به مستقلٌ بالتأثير تكون الطيرةُ شركاً أكبر .

وقول الله تعالى: (أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) .

قال ابن القيم : التطير : هو التشاؤم بمرئيٍ أو مسموع ، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفر وامتنع بها عما عزم عليه فقد قرع باب الشرك ، بل ولجه ، وبرئ من التوكل على الله سبحانه ، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله ، والتطير مما يراه أو يسمعه ، وذلك قاطع على مقام (إياك نعبد وإياك نستعينٍ) وقوله تعالى (فاعبده وتوكل عليه) وقوله تعالى (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) فيصير قلبه متعلقاً بغير الله عبادة وتوكلاً ، فيفسد عليه قلبه وإيمانه وحاله ، ويبقى هدفاً لسهام الطيرة ، ويساق إليه من كل أرب ، ويقيض له الشيطان من يفسد عليه دينه ودنياه ، وكم هلك بسبب ذلك وخسر الدنيا والآخرة .

٥- الحديث دليل على فضل ترك طلب الاسترقاء من الغير لقوله (ولا يسترقون) أي : لا يطلبون من أحد ذلك ، ففيه أن ترك طلب الرقية والكي من تحقيق التوحيد .

قال ابن القيم رحمه الله : وذلك لأن هؤلاء دخلوا الجنة بغير حساب لكمال توحيدهم ، ولهذا نفى عنهم الاسترقاء وهو سؤال الناس أن يرقوهم ، ولهذا قال (وعلى ربهم يتوكلون) فلكمال توكلهم على ربهم وسكونهم إليه وثقتهم به ورضاهم عنه وإنزال حوائجهم به لا يسألون الناس شيئاً ، لا رقية ولا غيرها ، ولا يحصل لهم طيرة تصدهم عما يقصدونه ؛ فإن الطيرة تنقص التوحيد وتضعفه . (زاد المعاد١/٤٧٥) .

وقال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم لما يلي :

أولاً : لقوة اعتمادهم على الله .

ثانياً : لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله .

ثالثاً : ولما في ذلك من التعلق بغير الله .

٦- هل طلب الرقية يقدح في التوكل أم لا ، اختلف العلماء في ذلك على قولين :

القول الأول : أن الاسترقاء يقدح في تمام التوكل .

وهذا قول الإمام أحمد ، والخطابي ، والقاضي عياض ، والنووي ، وابن تيمية .

أ- واستدلوا بحديث الباب (ولا يسترقون ...) .

قال ابن تيمية : فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون ، والاسترقاء : أن يطلب من غيره أن يرقيه ، والرقية نوع من الدعاء .

وقال الحافظ ابن حجر : فتمسك بهذا الحديث من كره الرقى والكي من بين سائر الأدوية ، وزعم أنهما قادحان في التوكل دون غيرهما .

ب-ولحديث المغيرة . قال : قال رسول الله ﷺ (من استرق فقد بريء من التوكل) رواه الترمذي .

ج- وقالوا : إن فعله ﷺ وأمره بها وإقراره لها فإنما هو لبيان الجواز .

القول الثاني : أن طلب الرقية لا يقدح في التوكل .

وإليه ذهب : الطبري ، والمازري ، وابن القيم ، وابن قتيبة ، وابن عبد البر ، والداوودي ، والقرطبي .

أ-لحديث عائشة قالت (كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نسترقي من العين) متفق عليه .

ب- ولحديثها أيضاً (أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضاً أو أتيَ به قال : أذهب البأس رب الناس ، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً) متفق عليه .

ج-وعنها (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ نفسه بالمعوذات وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها) متفق عليه .

د- وعنها قالت (كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل قال : باسم الله يبريك ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شر حاسد إذا حسد ، وشر كل ذي عين) رواه مسلم .

ففي هذه الأحاديث : أنه ﷺ أذِنَ في الرقى بل أمر بها ، ومن فعله ﷺ ، حيث رقى نفسه ورقي غيره ورُقيَ من قِبل جبريل وعائشة ، مع أنه ﷺ سيد المتوكلين .

هـ-وقال ﷺ (استرقوا لها) .

- وأجاب هؤلاء عن الباب (... ولا يسترقون ...) :

أولاً : ما قاله الطبري والمازري ، من أنه يحمل ما في الحديث على قوم يعتقدون أن الأدوية تنفع بطبعها كما كان أهل الجاهلية يعتقدون .

ثانياً : ما قاله الداوودي : أن المراد بالحديث الذين يجتنبون فعل ذلك في الصحة خشية وقوع الداء ، وأما من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا .

وهذا اختيار ابن عبد البر ، واختاره أيضاً البيهقي .

والصحيح الأول ، وأن طلب الرقية مكروه ، وهو اختيار ابن تيمية كما تقدم .

فالنبي ﷺ ثبت عنه أنه رقى نفسه وغيره ، ولم يثبت عنه أنه كان يسترقي ، وحاله ﷺ أكمل الأحوال .

والمسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه .

- قوله (لا يسترقون) فلو رقاه أحد من غير طلب فلا يقدح ذلك .
- وأما ما جاء في رواية عند مسلم (ولا يرقون) فهذا غلط ، فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة ، وكان النبي ﷺ يرقي نفسه وغيره ، ولم يكن يسترقي . [ابن تيمية] .
- قوله (... ومعهم سبعون ألفاً ....) هل العدد مقصود أم لا ؟

قيل : ليس العدد مقصوداً ، فهم أكثر من السبعين ألفاً .

بدليل ما جاء في رواية عند الإمام أحمد في مسنده (فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً) وحسنه ابن حجر .

وقيل : بل العدد مقصود ، إذ أن الأصل أن يُقصد لا أن يُهمل .

ويُوفّق مع الحديث الذي رواه أحمد بأن الأول قبل الاستزادة والثاني بعدها ، بدليل قوله (فاستزدت ربي فزادني) بل إن في رواية الإمام أحمد دلالة على قصد الحصر ، إذ أن أوله (فاستزدت ربي) فلو لم يكن العدد مقصوداً لما استزاد ﷺ ربه ، وهذا رجحه جمع من العلماء .

٧- فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية .

أما الكمية : فلأن النبي ﷺ رأى سواداً عظيماً أعظم من السواد الذي مع موسى عليه السلام .

وأما الكيفية : فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون .

٨- عرض الأمم على النبي ﷺ لفائدتين :

الأولى : تسلية النبي ﷺ حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان .

الثانية : بيان فضيلته عليه السلام وشرفه حيث كان أكثرهم أتباعاً .

٩- قوله (ولا يكتوون) ، اختلفت الروايات في الكي :

ما ورد من فعله ﷺ :

عن جابر قال (رُميَ سعد بن معاذ في أكحله ، قال : فحسمه النبي ﷺ بيده في مشقص ثم ورمت فحسمه الثانية) رواه مسلم

(الأكحل) عرق في وسط الذراع، (فحسمه) أي : قطع الدم عنه بالكي .

ما ورد من عدم محبته له :

عن جابر . قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - أَوْ يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ) متفق عليه .

ما ورد في الثناء على تركه .

في حديث الباب (... هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ...) .

وفي حديث عمران بن حصين قال (وقد كان يُسلّم عليّ حتى اكتويت فتُركت ، ثم تركت الكيّ فعاد) رواه مسلم .

ما ورد من النهي عن الكي :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال (الشِّفَاءُ فِي ثَلاَثَةٍ شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ). متفق عليه

اختلف العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث :

فقال بعض العلماء : الكي مباح ، وأما أحاديث النهي فتحمل على أفضلية ترك الكي ثقة بالله وتوكلاً عليه ويقيناً بما عنده .

وإلى هذا ذهب ابن عبد البر .

وذهب بعض العلماء إلى أن الكي جائز غير مكروه بشرطين وهما :

أ- إذا دعت الحاجة إليه ، ولا يمكن الاستغناء عنه بغيره بل تعين كونه طريقاً للعلاج .

ب-وإذا اعتقد أن الشفاء بيد الله تعالى وأن الكي مجرد سبب فقط .

فإذا استعمله مع إمكان الاستغناء عنه بغيره من الأدوية كُرِهَ .

وإلى هذا ذهب القرطبي ، والمناوي ، والشوكاني .

قال القرطبي في المفهم : وكي النبي ﷺ لأُبي وسعد دليلٌ على جواز الكي والعمل به ، إذا ظن الإنسان منفعته ، ودعت الحاجة إليه ، فيحمل نهيه ﷺ عن الكي ، على ما إذا أمكن أن يُستغنى عنه بغيره من الأدوية ، فمن فعله في محله ، وعلى شرطه ، لم يكن ذلك مكروهًا في حقه ، ولا مُنقصًا له من فضله ، ويجوز أن يكون من السَّبعين ألفًا ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، كيف لا وقد كوى النبي ﷺ سعد بن معاذ ؛ الذي اهتز له عرش الرَّحمن ، وأُبي بن كعب المخصوص بأنه أقرأ الأمَّة للقرآن ، وقد اكتوى عمران بن حصين ، فمن اعتقد : أن هؤلاء لا يصلحون أن يكونوا من السبعين ألفًا ؛ ففساد كلامه لا يخفى . وعلى هذا البحث : فيكون قوله في السبعين ألفًا : أنهم هم الذين لا يكتوون: إنما يعني به: الذي يكتوي وهو يجد عنه غنى . (المفهم) .

وقال المناوي : الكي لا يُترك مطلقاً ، ولا يستعمل مطلقاً ، بل عند تعينه طريقاً للشفاء ، وعدم قيام غيره مقامه ، مع مصاحبة

اعتقاد أن الشفاء بإذن الله تعالى والتوكل عليه .

وقال أيضاً (نهىَ عن الكي) نهي تنزيه حيث أمكن الاستغناء عنه بغيره ، لأنه يشبه التعذيب بعذاب الله الذي نهى عنه ، ولما فيه من الألم الذي ربما زاد على ألم المرض ، أما عند تعينه طريقاً فلا يكره ، فقد كوى النبي ﷺ . (فيض القدير) .

وقريب من هذا القول اختيار ابن القيم حيث قال مفصلاً :

فَقَدْ تَضَمّنَتْ أَحَادِيثُ الْكَيّ أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ أَحَدُهَا : فِعْلُهُ ، وَالثّانِي : عَدَمُ مَحَبّتِهِ لَهُ ، وَالثّالِثُ : الثّنَاءُ عَلَى مَنْ تَرَكَهُ ، وَالرّابِعُ : النّهْيُ عَنْهُ ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى .

فَإِنّ فِعْلَهُ يَدُلّ عَلَى جِوَازِهِ ، وَعَدَمُ مَحَبّتِهِ لَهُ لَا يَدُلّ عَلَى الْمَنْعِ مِنْهُ .

وَأَمّا الثّنَاءُ عَلَى تَارِكِهِ فَيَدُلّ عَلَى أَنّ تَرْكَهُ أَوْلَى وَأَفْضَلُ .

وَأَمّا النّهْيُ عَنْهُ فَعَلَى سَبِيلِ الِاخْتِيَارِ وَالْكَرَاهَةِ أَوْ عَنْ النّوْعِ الّذِي لَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ بَلْ يُفْعَلُ خَوْفًا مِنْ حُدُوثِ الدّاءِ وَاَللّهُ أَعْلَم . (زاد المعاد) .

١٠-أن المتبعين للحق قليل .

قال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) .

وقال تعالى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) .

وقال تعالى (وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

وقال تعالى (وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هم) .

وقال تعالى في شأن نوح (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) .

وقال تعالى في الحديث القدسي (يا آدم أخرج بعث النار من ذريتك ، قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين) متفق عليه .

وقال ﷺ (إنما أنتم في الأمم كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض ، أو الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود) متفق عليه

وقال ﷺ (عرضت علي الأمم فرأيت النبي يمر ومعه الرجل ، والنبي يمر ومعه الرجلان ...) متفق عليه .

١١- استدل بالحديث من قال إن النبي ﷺ مأمور بالتبليغ ، وقد اختلف العلماء في التفريق بين النبي والرسول على أقوال :

الذي عليه جمهور العلماء أن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، أما الرسول فهو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه .

وهذا الوجه في التفريق عليه إشكالات :

قال الشنقيطي في أضواء البيان : ما اشتهر على ألسنة أهل العلم ، من أن النَّبي هو من أوحى إليه وحي ، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النَّبي الذي أوحي إليه وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح، لأن قوله تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ) يدل على أن كلاً منهما مرسل ، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير . (أضواء البيان) .

ومقصود كلامه – رحمه الله – أن الإرسال للنبي والرسول يقتضي التبليغ وعدم الكتمان .

وقد استبعد الأشقر في رسالته الرسل والرسالات (ص/١٤-١٥) هذا الوجه من المغايرة من عدة وجوه :

الأول : أن الله نص على أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله (وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيّ ...)

فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ ، فالإرسال يقتضي من النبي البلاغ .

الثاني : أن ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى ، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس ، ثم يموت هذا العلم بموته .

الثالث : قول الرسولﷺ (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ...) متفق عليه .

فدل هذا على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ وأنهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم .

وقيل : الرسول : من جاء بشريعة مستقلة، والنبي : من جاء تابعاً لشريعة من سبقه ، وهذا اختيار ابن تيمية في كتابه النبوات .

قال ابن تيمية : فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيته) وقوله (من رسول ولا نبي) فذكر إرسالاً يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول ، فان هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح ، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس ـ عليهما السلام . وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً .

وقال الأشقر في رسالته الرسل والرسالات : والتعريف المختار : أن الرسول من أوحي إليه بشرع جديد ، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله .

وقد ردّ شيخ الإسلام هذا القول حيث قال في النبوات : وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة ، فإن يوسف كان رسولاً ، وكان على ملة إبراهيم ، وداود وسليمان كانا رسولين ، وكانا على شريعة التوراة قال تعالى عن مؤمن آل فرعون (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً) وقال تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً . وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً) .

١٢- قوله (سبقك بها عكاشة) اختلف العلماء لماذا قال الرسول ﷺ هذا الكلام لهذا الرجل ؟

قيل : أنه كان منافقاً ، وهذا فيه نظر من وجهين :

أولاً : أن الأصل في الصحابة عدم النفاق ، فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح .

ثانياً : أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصدٍ صحيح ، ويقين بتصديق الرسول ﷺ ، وكيف يصدر ذلك من منافق

وقيل : أنه قال ذلك سداً للباب لئلا يقوم من ليس من أهلها فيطلبها فيتسلسل الأمر ، فقال هذه الكلمة التي أصبحت مثلاً .

١٣-استعمال المعاريض ، والمراد بالمعاريض : الكلام المتضمن إطلاق لفظٍ وإرادةَ غيرِه ، وهو شبيه بالتورية عند علماء البلاغة .

٧٥-الثاني : عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : أنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يقول : ((اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْك تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ. اللَّهُمَّ أَعُوذُ بعزَّتِكَ؛ لا إلهَ إلاَّ أَنْتَ أنْ تُضلَّني، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لاَ تَمُوتُ، وَالجِنُّ والإنْسُ يَمُوتُونَ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، وهذا لفظ مسلم واختصره البخاري.

(**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ**) أي : استسلمت لك .

(**وَبِكَ آمَنْتُ**) باطناً .

(**وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ**) لا على غيرك ، والمعنى : فوضت أموري كلها عليك .

(**وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ**) أي : رجعت بالتوبة والإنابة إليك , وأعرضت عن من سواك .

(**وَبِكَ خَاصَمْتُ**) قال ابن حجر في فتح الباري (وبك خاصمت) أي: بما أعطيتني من البرهان، وبما لقنتني من الحجة .

(**أَنْتَ الحَيُّ**) أي أنت الباقي الذي لا يموت والخلائق كلهم يموتون .

١-الحديث دليل على فضل التوكل حيث كان ﷺ يتوكل على ربه ، وقد أمر الله أنبيائه بالتوكل عليه .

قال تعالى لنبيه محمد ﷺ (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) .

وقال تعالى (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وقال تعالى لنبيه ﷺ (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) .

وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) .

وقال تعالى (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) .

توكل الأنبياء على الله :

قال تعالى عن هود (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وقال تعالى عن شعيب (.... قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) .

وقال تعالى عن يعقوب (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

٢-قال ابن القيم : التوكل على الله نوعان :

أحدهما : توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية ، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية .

والثاني : التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة اليه .

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله ، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله ، كفاه النوع الأول تمام الكفاية ، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضاً لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه .

ثم قال : فأعظم التوكل عليه ، التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول ، وجهاد أهل الباطل ، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم .

٣-من أسباب تعمق التوكل في نفوس المؤمنين معرفة أسماء الله ومعانيها .

وإليك بعض أسماء الله ومعانيها التي تعمق التوكل في نفوس المؤمنين :

أولاً : الحي .

قال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) .

وقال رسول الله ﷺ في دعائه كما في حديث الباب (اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون) .

ومعنى الحي : الذي له صفة الحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا تلحق بزوال .

ثانياً : الرزاق :

قال تعالى (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

ومعناه : المتكفل بالرزق والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها ، وسع الخلق كلهم رزقه ورحمته .

ثالثاً : المجيب .

قال تعالى (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) .

قال ﷺ للصحابة لما رفعوا أصواتهم بالدعاء (إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون قريباً مجيباً يسمع دعاءكم ويستجيب).

ومعناه: هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويغيث الملهوف إذا ناداه .

رابعاً : الوكيل .

قال تعالى (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) .

وكان النبي ﷺ يدعو من الليل (اللهم لك الحمد ، أنت رب السماوات والأرض ، لك الحمد قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، لك الحمد ، أنت نور السماوات والأرض ، قولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله غيرك) .

ومعناه: هو الكافي وهو الذي يستقل بالأمر الموكول إليه ، وقيل الكفيل بالرزق والقيام على الخلق بما يصلحهم .

خامساً : القابض الباسط .

قال تعالى (وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

ومعناه: هو الذي يوسع الرزق ، ويقتره ، ويبسطه بجوده ورحمته ، ويقبضه بحكمته .

سادساً : الخافض الرافع :

قال تعالى (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) .

وقال رسول الله ﷺ (إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى الفيض أو القبض ، يرفع ويخفض) .

ومعنى الخافض : هو الذي يخفض من يشاء بانتقامه ، والرافع : هو الذي يرفع من يشاء بإنعامه .

سابعاً : القيوم :

قال تعالى (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) .

قال رسول الله ﷺ في تهجده إذا قام من الليل (اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ...) .

ومعناه : القائم بنفسه فلا يحتاج إلى أحد ، القائم على غيره .

فائدة : قوله (**وَالجِنُّ والإنْسُ يَمُوتُونَ**) **هل تموت الملائكة ؟**

الذي عليه أكثر الناس أن الملائكة يموتون ، وأن ملك الموت يموت .

حتى نقل المناوي الإجماع عليه في "فيض القدير" (٥٦١/٣) ، ثم إذا ماتوا أحياهم الله تعالى قبل الناس.

أ-قال تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَه) .

قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله ، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ؛ فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت ، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً .

ب- وقال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

يَنْظُرُونَ) .

ج- وفي السنة حديث طويل يعرف بحديث (الصور) يرويه أبو هريرة رضي الله عنه ، وقد أخرجه جماعة من المحدثين بألفاظ فيها تفاوت زيادة ونقصانا ، إلا أنها متفقة على ذكر موت الملائكة العظام : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فقد جاء فيه :

ثم يجيء ملك الموت إلى الجبار ، فيقول : يا رب ، قد مات حملة العرش ، فيقول الله وهو أعلم : من بقي ؟ ، فيقول : بقيت أنت يا رب ، الحي الذي لا تموت ، وبقي جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا ، فيقول الله : فليمت جبريل وميكائيل ، فيموتان ، وينطق الله العرش فيقول : يا رب ، تميت جبريل وميكائيل ؟ فيقول الله له : اسكت ، فإني كتبت الموت على من تحت عرشي ، ثم يجيء ملك الموت إلى الجبار فيقول : يا رب ، مات جبريل وميكائيل ، فيقول الله وهو أعلم : فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت أنا ، فيقول الله : أنت خلق من خلقي ، خلقتك لما قد ترى ، مت ... ثم قال : أنا الجبار ، ثم ينادي : لمن الملك اليوم ؟ ثم يرد على نفسه : لله الواحد القهار ، يقول ذلك ثم ينادي : ألا من كان لي شريكا فليأت ، فلا يأتيه أحد ، قال ذلك ثلاثاً) .

هذا الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في "الأهوال" (٥٤) وهذا لفظه ، وإسحاق بن راهويه – كما في "المطالب العالية" (٥٥٥/٧) – وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢٩٢٨/٩-٢٩٣١) وأبو يعلى – كما عزاه إليه "إتحاف المهرة" (٥٦/٨) – والطبري في "تفسيره" (٣٣١/٢١ (والطبراني في "الأحاديث الطوال" (٣٦) ، واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" (٢٢٢/٢) والبيهقي في "البعث والنشور" (رقم ٥٩٣) وأبو الشيخ في "العظمة وعزاه الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٣٦٨/١١) لعبد بن حميد وعلي بن معبد في كتاب "الطاعة والمعصية"كما عزاه السيوطي في "الدر المنثور" (٢٥٦/٧) لأبي الحسن القطان في "المطولات" وابن المنذر وأبي موسى المديني في "المطولات . "جميعهم من طرق تلتقي في إسماعيل بن رافع المدني أبو رافع الأنصاري عن محمد بن يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة به .

وهذا الحديث منكر معلول ، علته محمد بن يزيد بن أبي زياد ، فقد جاء في ترجمته في" تهذيب التهذيب" (٥٢٤/٩) : " قال البخارى : روى حديث الصور ولم يصح.

د-ويستدلون من السنة أيضا بحديث لقيط بن عامر الطويل في قدوم وفد بني المنتفق على رسول الله ﷺ .

وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم

تَلْبَثُونَ مَا لَبِثْتُمْ ، ثُمَّ يُتَوَفَّى نَبِيُّكُم ، ثُمَّ تَلْبَثُونَ مَا لَبِثْتُمْ ، ثُمَّ تُبْعَثُ الصَّائِحةُ ، فَلَعَمْرُ إلهِكَ ما تَدَعُ عَلى ظَهْرِها شَيْئاً إلا مَاتَ ، والملائِكَةُ الَّذِينَ مَعَ رَبِّكَ ..الخ

أخرجه عبد الله بن أحمد في "زوائد المسند" (١٣/٤-١٤) ، وابن أبي عاصم في السنة (٩٥١) والطبراني في "الكبير" (٤٧٧/١٩) وابن خزيمة في "التوحيد" (١٢٢-١٢٥) والحاكم في "المستدرك" (٥٦٠/٤) ، وأخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" (٢٤٩/٣) وأبو داود مختصرا ليس فيه محل الشاهد .

جميعهم من طريق عبد الرحمن بن عياش السمعي عن دلهم بن الأسود ، عن أبيه .

وهؤلاء ثلاثتهم مجاهيل لم يوثقهم أحد من أهل العلم إلا ذكر ابن حبان لهم في الثقات ، وذلك غير كاف في التوثيق ، خاصة وأن في الحديث من الألفاظ المنكرة ما يقتضي رده وتضعيفه.

يقول الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" (٨٢/٥) : غريب جداً ، وألفاظه في بعضها نكارة . وقال الحافظ ابن حجر في

"تهذيب التهذيب" (٥/٥٧) : وهو حديث غريب جداً . وضعفه محققو مسند أحمد (٢٦/١٢١) .

يقول ابن القيم في "زاد المعاد" (٣/٦٧٩):

"وقوله: (والملائكة الذين عند ربك) : لا أعلم موت الملائكة جاء فى حديث صريح إلا هذا ، وحديث الصُّور " انتهى

والخلاصة أنه لا يصح دليل لقول جماهير أهل العلم في موت الملائكة إلا عموم الآية ، وما سوى ذلك من أحاديث فهي منكرة ضعيفة لا يصلح الاستشهاد بها.

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : هل جميع الخلق حتى الملائكة يموتون ؟

فأجاب : الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة ، وحتى عزرائيل ملك الموت ، وروي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ .

القول الثاني : أن الملائكة لا تموت ، وقد ذهب إلى هذا ابن حزم ، وبعض المفسرين .

ويمكن أن يستدل لهذا القول بما يأتي:

١- يقول الله عز وجل : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ) الزمر/٦٨

وقد فسر كثير من السلف هذا الاستثناء بالملائكة ، وهو اختيار ابن جرير الطبري في" تفسيره" (٢١/٣٣٠) وأسند إلى قتادة قوله : قد استثنى الله ، والله أعلم إلى ما صارت ثنيته

إلا أنه يمكن الجواب عن هذا الدليل بأن استثناء الملائكة من الصعقة لا يلزم منه استثناءهم من الموت ، فهم يموتون بعد الصعقة التي يموت منها ما على الأرض.

يقول الحسن البصري : يستثني الله ، وما يدع أحدا من أهل السموات ولا أهل الأرض إلا أذاقه الموت .

ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في "تفسير القرآن العظيم" :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ : (أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ). رواه البخاري (٧٣٨٣) ومسلم (٢٧١٧)

قالوا : مفهوم الحديث ، أن غير الجن والإنس لا يموتون

وأجاب عن ذلك الجمهور ، فقال ابن حجر في "فتح الباري" (١٣/٣٧٠):

قوله : (والجن والإنس يموتون) استدل به على أن الملائكة لا تموت ، ولا حجة فيه ؛ لأنه مفهوم لقب ولا اعتبار له ، وعلى تقديره فيعارضه ما هو أقوى منه ، وهو عموم قوله تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) مع أنه لا مانع من دخولهم في مسمى الجن ؛ لجامع ما بينهم من الاستتار عن عيون الإنس " انتهى . (الإسلام سؤال وجواب) .

٧٦-الثالث : عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، قَالَ : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، قَالَهَا إِبرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْماناً وَقَالُوا : حَسْبُنَا الله ونعْمَ الوَكِيلُ . رواه البخاري .

وفي رواية لَهُ عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ : كَانَ آخر قَول إِبْرَاهِيمَ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ : حَسْبِي الله ونِعْمَ الوَكِيلُ .

(**حَسْبُنَا اللهُ**) كافينا .

١- الحديث دليل على فضل التوكل على الله ، وأن المتوكل على الله لا يمسه السوء بل يحفظه الله من الشرور ويعصمه ، ويرحمه ويدل على هذا :

قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

وقال تعالى (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وحديث الباب : لما ألقي إبراهيم في النار قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) .

وقال رسول الله ﷺ لابن عباس – وقد تقدم الحديث – (يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام ورفعت الصحف) .

فمن أعظم ثمرات التوكل على الله أن الله يحفظه من كل سوء .

ومن ثمرات التوكل على الله :

أن الله يحبه ، ويكفيه ، ويعينه ، ويؤيده ، وهو حسبه ووليه ورازقه .

ويدل على كل ذلك قوله تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ . إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم) .

وقال تعالى (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

وقال تعالى (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) .

٢- الحديث دليل على سنة الله في أوليائه وهي الابتلاء في الدنيا والامتحان .

قال تعالى (ألم . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) .

وقال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

وقال ﷺ (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الإنسان على قدر دينه ...) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (لقد أوذيت في الله وما أوذي أحد) متفق عليه .

٣-أنه لا تمكين إلا بعد ابتلاء ومحن وشدائد ، هذا ما علمنا إياه قرآننا .

فيوسف عليه السلام بدأ التمكين له عندما كان يباع ويشترى ، وحيداً شريداً ضعيفاً (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ . وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

ولوط عليه السلام جاءته النجاة عندما كان قومه يتأهبون للتخلص منه بسبب طهره (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغَابِرِينَ) .

وأصحاب موسى عليه السلام : بدأ التمكين لهم وهم في أشد حالات الاستضعاف : يُذبحُ أبناؤهم وتُسْتَحْيَا نساؤهم ، وكان فرعون في أعلى حالات الجبروت والإفساد (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) .

هكذا نتعلم من كتاب ربنا : أن أقصى نقطة استضعاف هي أول نقطة تمكين بشرط أن تكون حالة الفئة المستضعفة في أعلى نقطة إخلاص وارتباط بالله ولجوء إليه ، وبعد ذلك تظهر الأسباب التي ينبغي على الطائفة المؤمنة السعي إليها واستغلالها .

٤- تسلية للدعاة في سبيل الله فيما يصيبهم من أذى في سبيل الله .

٥- مصداق حديث الرسول ﷺ (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ...) .

٦- مصداق لحديث الرسول ﷺ (إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ....) .

فائدة :

قال ابن تيمية : وما يروى أن الخليل لما ألقي في المنجنيق قال له جبريل : سل، قال (حسبي من سؤالي علمه بحالي) ليس له إسناد معروف، وهو باطل، بل الذي ثبت في الصحيح حديث ابن عباس أنه قال (حسبي الله ونعم الوكيل) قال ابن عباس: قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين (قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) .

وأما سؤال الخليل لربه عز وجل فهذا مذكور في القرآن في غير موضع، فكيف يقول: حسبي من سؤالي علمه بحالي، والله بكل

شيء عليم، وقد أمر العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه .

وقال أيضاً : وَأَمَّا قَوْلُهُ : حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي فَكَلامٌ بَاطِلٌ خِلافَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَغَيْرِهِ مِنْ الأَنْبِيَاءِ مِنْ دُعَائِهِمْ لِلَّهِ وَمَسْأَلَتِهِمْ إِيَّاهُ وَهُوَ خِلافُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنْ سُؤَالِهِمْ لَهُ صَلاحَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ كَقَوْلِهِمْ : (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) ا وَدُعَاءُ اللَّهِ وَسُؤَالُهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ عِبَادَةٌ لِلَّهِ مَشْرُوعَة .

- وقال الألباني : وبالجملة فهذا الكلام المعزو لإبراهيم عليه السلام لا يصدر من مسلم يعرف منزلة الدعاء في الإسلام فكيف يصدر ممن سمانا المسلمين ؟

ثم وجدت الحديث قد أورده ابن عراق في "تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة"(١/٢٥٠): قال ابن تيمية موضوع .

٧٧–الرابع : عن أبي هريرةَ رضي الله عنه ، عن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: ((يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَقْوامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثلُ أَفْئِدَةِ الطَّيرِ)) . رواه مسلم

قيل : معناه متوكلون ، وقيل : قلوبهم رَقيقَةٌ .

١– قوله (مِثلُ أَفْئِدَةِ الطَّيرِ) اختلف في معناها :

قيل : في رقتها ولينها ، أي : أنها لا تحتمل أشغال الدنيا فلا يسعها الشيء وضده كالدنيا والآخرة .

أو في التوكل كقلوب الطير تغدو خماصاً تروح بطاناً .

وقيل في الخوف والهيبة لله ، فإن الطير أكثر الحيوان خوفاً وفزعاً .

قال النووي : قيل : مثلها في رقتها وضعفها ، كالحديث الآخر (أهل اليمن أرق قلوباً وأضعف أفئدة) .

وقيل : في الخوف والهيبة ، والطير أكثر الحيوان خوفاً وفزعاً ، كما قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكأن المراد قوم غلب عليهم الخوف كما جاء عن جماعات من السلف في شدة خوفهم .

وقيل : المراد متوكلون .

يقول النووي معلقاً على حديث (أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً الإيمان يمان) والمعنى أنها ذات خشية واستكانة ، سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير ، سالمة من الشدة والقسوة والغلظة . (نووي مسلم) .

والشاهد من كل ذلك بيان أن هناك علاقة ، بين الرقة و الإيمان والحكمة والفقه .

٢– الحديث دليل على فضل التوكل على الله وأنها سبب لدخول الجنة كما تقدم .

قال بعض العلماء : (قلوبهم مثل أفئدة الطير) أي : هم في توكلهم على الله مثل الطير التي هي أعظم المخلوقات توكلاً على الله ، تجده يخرج في الصحراء لا يدري هل يلقى حباً أو لا , فيلقى حباً ويملأ الله بطنه طعاماً بدون حيلة .

٣–الحديث دليل على فضل التوكل ورقة القلب والخوف من الله ، كقلوب الطير .

فالكبر منتف من قلوبهم .

واللين والرحمة والتواضع صفتهم .

ليس فيهم الجبروت ولا الظلم .

بل فيهم الخير والتسامح والمغفرة والعفو والصفح وحسن الظن ، وهي ذات خشية واستكانة لله عز وجل ، سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير ، سالمة من الشدة والقسوة والغلظة .

٧٨–الخامس : عن جابر رضي الله عنه : أَنَّهُ غَزَا مَعَ النبي ﷺ قِبلَ نَجْدٍ ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُول الله ﷺ قَفَلَ معَهُمْ ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ

في وَادٍ كثير العِضَاه ، فَنَزَلَ رَسُول الله ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بالشَّجَرِ ، وَنَزَلَ رَسُول الله ﷺ تَحتَ سَمُرَة فَعَلَّقَ بِهَا سَيفَهُ وَنِمْنَا نَوْمَةً ، فَإِذَا رسولُ الله ﷺ يَدْعونَا وَإِذَا عِنْدَهُ أعْرَابِيٌّ ، فَقَالَ : « إنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيفِي وَأنَا نَائمٌ فَاسْتَيقَظْتُ وَهُوَ في يَدِهِ صَلتاً، قَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قُلْتُ : الله – ثلاثاً– » وَلَمْ يُعاقِبْهُ وَجَلَسَ . مُتَّفَقٌ عَلَيهِ

وفي رواية قَالَ جَابرٌ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بذَاتِ الرِّقَاعِ ، فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لرسول الله ﷺ ، فجاء رَجُلٌ مِنَ المُشْركينَ وَسَيفُ رَسُول الله ﷺ معَلَّقٌ بالشَّجَرَةِ فَاخْتَرطَهُ ، فَقَالَ : تَخَافُنِي ؟ قَالَ : « لاَ » فَقَالَ : فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « الله » .

وفي رواية أبي بكر الإسماعيلي في " صحيحه " قَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « اللهُ » . قَالَ : فَسَقَطَ السيفُ مِنْ يَدِهِ ، فَأَخَذَ رسولُ الله ﷺ السَّيْفَ ، فَقَالَ : « مَنْ يَمْنَعُكَ مني ؟ » . فَقَالَ : كُنْ خَيرَ آخِذٍ . فَقَالَ : « تَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله وَأَنِّي رَسُول الله ؟ » قَالَ : لاَ، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أنْ لا أُقَاتِلَكَ، وَلاَ أَكُونَ مَعَ قَومٍ يُقَاتِلُونَكَ ، فَخَلَّى سَبيلَهُ، فَأَتَى أصْحَابَهُ، فَقَالَ : جئتُكُمْ مِنْ عنْد خَيْرِ النَّاسِ .

قَولُهُ : « قَفَلَ » أي رجع، وَ« الْعِضَاهُ » الشجر الَّذِي لَهُ شوك، و« السَّمُرَةُ » بفتح السين وضم الميم: الشَّجَرَةُ مِنَ الطَّلْح، وهيَ العِظَامُ مِنْ شَجَرِ العِضَاهِ ، وَ« اخْتَرَطَ السَّيْف » أي سلّه وَهُوَ في يدهِ . « صَلْتاً » أي مسلولاً ، وَهُوَ بفتحِ الصادِ وضَمِّها .

(**بذَاتِ الرِّقَاعِ**) هِيَ غَزْوَة مَعْرُوفَة كَانَتْ سَنَة خَمْس مِنْ الْهِجْرَة بِأَرْضِ غَطَفَانَ مِنْ نَجْد ، سُمِّيَتْ ذَات الرِّقَاع لِأَنَّ أَقْدَام الْمُسْلِمِينَ نُقِّبَتْ مِنْ الْحُفَاء فَلَفُّوا عَلَيْهَا الْخِرَق، هَذَا هُوَ الصَّحِيح فِي سَبَب تَسْمِيَتهَا، وَقَدْ ثَبَتَ هَذَا فِي الصَّحِيح عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ ﷺ.

وَقِيلَ : سُمِّيَتْ لِجَبَلٍ هُنَاكَ يُقَال لَهُ الرِّقَاع ، لِأَنَّ فِيهِ بَيَاضًا وَحُمْرَة وَسَوَادًا .

وَقِيلَ : سُمِّيَتْ بِشَجَرَةٍ هُنَاكَ يُقَال لَهَا ذَات الرِّقَاع .

وَقِيلَ : لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ رَقَعُوا رَايَاتهمْ وَيَحْتَمِل أَنَّ هَذِهِ الْأُمُور كُلّهَا وُجِدَتْ مَعَهَا . (نووي) .

١– الحديث دليل على ثقة النبي ﷺ بربه وتوكله عليه ، وعصمة الله له من الناس .

قال الحافظ في الفتح : وفي قول النبي ﷺ في جوابه (الله) أي يمنعني منك إشارة إلى ذلك ، ولذلك أعادها الإعرابي فلم يزده على ذلك الجواب ، وفي ذلك غاية التهكم به وعدم المبالاة به أصلاً .

٢– الحديث دليل على فرط شجاعة النبي ﷺ ، وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه عن الجهال .

٣–جواز اتخاذ الحرس ، أما ترك النبي ﷺ فلقوة يقينه قال تعالى (والله يعصمك من الناس) .

قال ابن حجر : لكن قد قيل أن هذه القصة سبب نزول قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) وذلك فيما أخرجه ابن أبي شيبة من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : كنا إذا نزلنا طلبنا للنبي ﷺ أعظم شجرة وأظلها ، فنزل تحت شجرة ، فجاء رجل فأخذ سيفه فقال : يا محمد من يمنعك مني قال : الله فأنزل الله (والله يعصمك من الناس) وهذا إسناد حسن ، فيحتمل إن كان محفوظاً أن يقال كان مخيراً في اتخاذ الحرس فتركه مرة لقوة يقينه ، فلما وقعت هذه القصة ونزلت هذه الآية ترك ذلك .

٤–جواز تفرق العسكر في النزول ونومهم ، وهذا محلة إذا لم يكن هنا ما يخافون منه .

٧٩–السادس : عن عُمَر ﷺ ، قَالَ : سمعتُ رَسُول الله ﷺ ، يقول : ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً)) رواه الترمذي ، وَقالَ : ((حديث حسن)) .

معناه : تَذْهبُ أَوَّلَ النَّهَارِ خِمَاصاً : أي ضَامِرَةَ البُطُونِ مِنَ الجُوعِ ، وَتَرجعُ آخِرَ النَّهَارِ بِطَاناً . أَي مُمْتَلِئَةَ البُطُونِ .

١–الحديث دليل على أن من أعظم أسباب الرزق التوكل على الله .

ففي هذا الحديث أن صفة التوكل من أعظم ما نتعلمه من الطير ، فالطير تحقق التوكل الكامل والصادق ، فلا أسباب لها تعتمد عليها إلا السعي ، لذلك على الأمة أن تعلم أنه كلما تحققت في القلب منزلة التوكل ،كلما تحققت الكفاية من الله والنصرة لهذه الأمة ، وتأمل قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

فهي معادلة كلما زاد التوكل زادت الكفاية والحماية ، وكلما قل التوكل الحقيقي قلت الكفاية ، وتخلف النصر ، ووكلنا الله إلى أنفسنا وأعدائنا .

قال رجب رحمه الله في شرح الحديث :

وهذا الحديثُ أصل في التوكُّل ، وأنَّه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزقُ ، قال الله عز وجل (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

وحقيقة التوكّل : هو صدقُ اعتماد القلب على الله – عز وجل – في استجلاب المصالح ، ودفعِ المضارِّ من أمور الدنيا والآخرة كُلِّها ، وكِلَةُ الأمور كلّها إليه ، وتحقيق الإيمان بأنه لا يُعطي ولا يمنعُ ولا يَضرُّ ولا ينفع سواه .

وقال رحمه الله في شرح قوله ﷺ (وإن الفرج مع الكرب) .

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر : أنَّ الكربَ إذا اشتدَّ وعَظُمَ وتناهى ، وحصل للعبد الإياسُ من كَشفه من جهة المخلوقين، وتعلق قلبُه بالله وحده، وهذا هو حقيقةُ التوكُّل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلَبُ بها الحوائجُ، فإنَّ الله يكفي من توكَّل عليه ،كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال الفضيل : والله لو يئستَ مِنَ الخلق حتَّى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كُلَّ ما تُريد .

٢– أسباب الرزق :

أولاً : التوكل .

كما في حديث الباب .

ثانياً : الاستغفار والتوبة .

قال تعالى (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) .

وقال تعالى (ويَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) .

قال القرطبي : في هذه الآية والتي في هود دليل على أن الاستغفار يُستنزل به الرزق والأمطار .

ثالثاً : التقوى .

قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

رابعاً : التفرغ للعبادة .

عن أبي هريرة . عن النبي ﷺ قال (إن الله تعالى يقول : يا ابن آدم ! تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لا تفعل ملأت يدك شغلاً ولم أسد فقرك) رواه الترمذي .

خامساً : المتابعة بين الحج والعمرة .

عن عبد الله بن مسعود . قال : قال ﷺ (تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة) رواه الترمذي .

سادساً : صلة الرحم .

عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه) متفق عليه .

سابعاً : الإنفاق في سبيل الله تعالى .

قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

قال ابن كثير : أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت في الحديث .

وقال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) .

قال ابن عباس في تفسير الآية : اثنان من الله ، واثنان من الشيطان (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ) يقول : لا تنفق مالك وأمسكه لك فإنك تحتاج إليه ، (وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) (وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ) على هذه المعاصي (وَفَضْلاً) في الرزق

ثامناً : المهاجرة في سبيل الله .

قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً) .

ففي هذه الآية وعد الله تعالى أن من هاجر في سبيله سيجد أمرين : أولهما : مراغماً كثيراً ، وثانيهما : سعة .

والمراد بالأمر الأول كما يقول الرازي : (مراغماً) ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية .

والمراد بالأمر الثاني (سعة) السعة في الرزق .

٣- الحديث دليل على أن ما من دابة إلا الله رازقها .

كما قال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِين) .

وقال تعالى (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وقال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

٤- الحديث دليل على فعل الأسباب وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله .

اعلم . هدانا الله وإياك . أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه المقدورات بها وجرت سنته في خلقه عليها .

فإنه تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل ، فكلاهما عبادة تعبدنا سبحانه بها .

قال ابن القيم : وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها ، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد .

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً) .

وقال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) .

وقال تعالى (فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) .

وجه الدلالة من الآيات : هو أنه سبحانه مع أمره بالتوكل في آيات كثيرة ، فهو جلت قدرته يأمر في هذه الآيات وأشباهها بأخذ الأسباب وتعاطيها ، سواء كان ذلك في تحقيق النصر على العدو ، أو كان ذلك في طلب الرزق والحصول على لقمة العيش ، أو كان ذلك في تحصيل الهداية واجتناب الغواية أو غير ذلك .

وأما بيان هذه الحقيقة من الهدي النبوي :

فحياته ﷺ وهديه كله تأكيد وتبيين لهذه الحقيقة .

- فقد كان سيد المرسلين ﷺ وهو سيد المتوكلين يطوف على القبائل ويقول (من يعصمني حتى أبلغ رسالة ربي) .
- ولما هاجر إلى المدينة استأجر دليلاً مشركاً على دين قومه ليدله على الطريق .
- وكان إذا سافر في جهادٍ أو حجٍ أو عمرةٍ حمل الزاد والمزاد .
- وظاهر ﷺ بين درعين يوم أحد ، وحفر الخندق يوم الأحزاب .
- وكان ﷺ في آخر عمره وأكمل أحواله مع ربه تعالى يدخر لعياله قوت سنة .
- وعن أنس رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أعقلها وأتوكل ؟ أو أطلقها وأتوكل ؟ فقال : اعقلها وتوكل) . رواه الترمذي

قال ابن القيم : وحقيقة التوكل : القيام بالأسباب والاعتماد بالقلب على المسبب ، والاعتقاد أنها بيده ، فإن شاء منعها اقتضاءها ، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها ، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه .

فالموحد المتوكل : لا يلتفت إلى الأسباب ، بمعنى أنه لا يطمئن إليها، ولا يرجوها، ولا يخافها، فلا يركن إليها، ولا يلتفت إليها، بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها ، بل يكون قائماً بها، ملتفتاً إليها ناظراً إلى مسببها – سبحانه – ومجريها .

٨٠–السابع : عن أبي عُمَارة البراءِ بن عازب رضي الله عنهما ، قَالَ : قَالَ رسولُ الله ﷺ : « يَا فُلانُ ، إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فراشِكَ ، فَقُل : اللَّهُمَّ أسْلَمتُ نَفْسي إلَيْكَ ، وَوَجَّهتُ وَجْهِي إلَيْكَ ، وَفَوَّضتُ أَمْري إلَيْكَ ، وَأَلجأْتُ ظَهري إلَيْكَ رَغبَةً وَرَهبَةً إلَيْكَ ، لا مَلْجَأ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إلاَّ إلَيْكَ ، آمنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أنْزَلْتَ ؛ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ . فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ لَيلَتِكَ مِتَّ عَلَى الفِطْرَةِ ، وَإِنْ أصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيراً » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

وفي رواية في الصحيحين ، عن البراءِ ، قَالَ : قَالَ لي رَسُول الله ﷺ : « إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءكَ للصَّلاةِ ، ثُمَّ اضْطَجعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيمَنِ ، وَقُلْ ... وذَكَرَ نَحْوَهُ ثُمَّ قَالَ : وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ » .

(**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ**) أي : إذا أردت أن تضطجع ، وعند أبي داود (إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ وَأَنْتَ طَاهِرٌ فَتَوَسَّدْ يَمِينَكَ ..) .

(**فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ**) أشار إلى أن المراد به الوضوء الشرعي لا اللغوي .

(**ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ**) أي : الجانب الأيمن .

(**وَفَوَّضْتُ أَمْرِى إِلَيْكَ**) أي : توكلت عليك في أمري كله .

(**وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِى إِلَيْكَ**) أي : اعتمدت في أموري عليك لتعينني على ما ينفعني ، وخصه بالظهر لأن العادة جرت أن الإنسان يعتمد بظهره إلى ما يستند إليه .

(**رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ**) أي : رغبة في رفدك وثوابك ، ورهبة : أي خوفاً من غضبك ومن عقابك .

اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ) يحتمل أنه يريد به القرآن ، ويحتمل أن يريد اسم الجنس فيشمل كل كتاب أنزل .

(**فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ**) أي : على الدين القويم ملة إبراهيم .

- جاء في رواية : (قَالَ فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَلَغْتُ : اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ ، قُلْتُ وَرَسُولِكَ . قَالَ : لاَ ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ) قال ابن بطال: وقال بعض العلماء: لم يرد النبي ﷺ برده على البراء تحرى قوله فقط وإنما أراد بذلك ما في قوله: ونبيك الذي أرسلت – من المعنى الذي ليس في قوله (ورسولك الذي أرسلت) وذلك أنه إذا قال : ورسولك الذي أرسلت ، يدخل فيه جبريل وغيره من الملائكة الذين هم رسل الله إلى أنبيائه وليسوا بأنبياء، كما قال تعالى في كتابه (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ) فأراد بقوله : ونبيك الذي أرسلت تلخيص الكلام من اللبس .

وقال الشيخ ابن عثيمين : قال أهل العلم : وذلك لأن الرسول يكون من البشر ويكون من الملائكة كما قال الله عن جبريل (إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين) أما النبي فلا يكون إلا من البشر فإذا قال: ورسولك الذي أرسلت؛ فإن اللفظ صالح لأن يكون المراد به جبريل، لكن إذا قال: ونبيك الذي أرسلت اختص بمحمد ﷺ هذا من وجه؛ ومن وجه آخر: أنه إذا قال: ورسولك الذي أرسلت، فإن دلالة هذا اللفظ على النبوة من باب دلالة اللزوم، وأما إذا قال: ونبيك، فإنه يدل على النبوة دلالة مطابقة، ومعلوم أن دلالة المطابقة أقوى من دلالة اللزوم . (شرح رياض الصالحين) .

١- الحديث دليل على استحباب الوضوء لمن أراد النوم .

وقد جاء في ذلك أحاديث :

منها حديث معاذ رفعه (ما من مسلم يبيت على ذكر وطهارة فيتعار من الليل فيسأل الله خيراً من الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه) أخرجه أبو داود والنسائي .

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر رفعه (من بات طاهراً بات في شعاره ملك، فلا يستيقظ إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان) وأخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس نحوه بسند جيد .

قال ابن حجر : وله فوائد :

منها : أن يبيت على طهارة لئلا يبغته الموت فيكون على هيئة كاملة .

ومنها : أن يكون أصدق لرؤياه وأبعد من تلعب الشيطان به .

٢- الحديث دليل على استحباب النوم على الشق الأيمن .

قال ابن حجر : وخص الأيمن لفوائد :

منها : أنه أسرع إلى الانتباه .

ومنها : أن القلب متعلق إلى جهة اليمين فلا يثقل النوم .

ومنها : ما قال ابن الجوزي : هذه الهيئة نص الأطباء على أنها أصلح للبدن .

قال القسطلاني قوله (ثم اضطجع على شقك الأيمن) لأنه يمنع الاستغراق في النوم لقلق القلب ، فيسرع الإفاقة ليتهجد أو ليذكر الله تعالى بخلاف الاضطجاع على الشق الأيسر .

٣- الحديث دليل على استحباب قول هذا الدعاء وجعله آخر الأذكار .

قال النووي : في الحديث ثلاث سنن إحداها : الوضوء عند النوم ، وإن كان متوضئاً كفاه ، لأن المقصود النوم على طهارة ، ثانيها : النوم على اليمين ، ثالثها : الختم بذكر الله .

٤-عظمة التوحيد وأهميته .

٥- أن هناك أذكاراً تقال قبل النوم :

منها : آية الكرسي .

ومنها : (باسمك ربي وضعت جنبي , وبك أرفعه , فإن أمسكت نفسي فارحمها , وإن أرسلتها فاحفظها , بما تحفظ به عبادك الصالحين) متفق عليه .

ومنها : (اللهم إنك خلقت نفسي وأنت توفاها , لك مماتها ومحياها , إن أحييتها فاحفظها , وإن أمتها فاغفر لها . اللهم إني أسألك العافية) رواه مسلم .

ومنها : (اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك) (ثلاث مرات) رواه أبو داود .

ومنها : (باسمك اللهم أموت وأحيا) متفق عليه .

ومنها : (سبحان الله : ٣٣ ، والحمد لله : ٣٣ ، والله أكبر : ٣٤ ، فإن ذلك خير من خادم) متفق عليه .

٦-أن الأذكار توقيفية .

٧-تعليم النبي ﷺ لأصحابه القرآن والسنة .

٨-ينبغي للعالم أن يتعاهد أصحابه وطلابه بالتعليم والتحضيض .

٩- أهمية التوكل على الله .

١٠-فضل اليمين .

٨١-الثامِنُ : عن أبي بكرٍ الصِّديق . قَالَ (نَظَرتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ وَنَحنُ فِي الغَارِ وَهُمْ عَلَى رُؤُوسِنا ، فقلتُ : يَا رسولَ الله ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيهِ لأَبْصَرَنَا . فَقَالَ : « مَا ظَنُّكَ يَا أَبا بَكرٍ باثنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ

(**باثنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا**) قال النووي معناه : ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ، والتسديد ، وهو داخل في قوله تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

١- **قوله (نَظَرتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ وَنَحنُ فِي الغَارِ)** هو غار في جبل ثور ، وذلك حين هاجر من مكة إلى المدينة .

وقد نوه الله بذلك في كتابه العزيز فقال (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) .

وقد ورد ذكر ذلك في عدة أحاديث غير هذا الحديث :

منها : حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه البخاري في (باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة) وفيه قالت (فلحق النبي ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال) .

ومنها : حديث أبي سعيد في قصة بعث أبي بكر إلى الحج، أخرجه ابن حبان وفيه (أنت أخي وصاحبي في الغار) .

ومنها : حديث ابن عباس في قصته مع ابن الزبير أخرجه البخاري في التفسير، وفيه قول ابن عباس يعني ابن الزبير (وأما جده فصاحب الغار، يريد أبا بكر ﷺ) .

ومنها : حديث ابن عباس أيضاً أخرجه أحمد والحاكم من طريق عمرو بن ميمون عنه قال (كان المشركون يرمون عليّاً وهم يظنون أنه النبي ﷺ ، فجاء أبو بكر فقال: يا رسول الله، فقال له عليّ: إنه انطلق نحو بئر ميمون فأدركه، قال: فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار) .

وروى عبد الله بن أحمد في زيادات المسند عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ (أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار) الحديث؛ ورجاله ثقات كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري. وقد ذكر جميع هذه الأحاديث فيه. وقال في ترجمته في (الإصابة) والأحاديث في كونه كان معه في الغار كثيرة شهيرة ، ولم يشركه في هذه المنقبة غيره.

٢- الحديث دليل على قوة وثقة وتوكل النبي ﷺ بربه .

٢-أن الثقة بالله وبنصره سبب للانتصار .

٣- في الحديث منقبة عظيمة لأبي بكر الصديق ﷺ .

قال النووي: وهي من أجل مناقبه ، والفضيلة من أوجه :

منها : هذا اللفظ - يعني ما ظنك باثنين الله ثالثهما - .

ومنها : بذله نفسه ومفارقة أهله في طاعة الله تعالى ورسوله، وملازمته النبي ﷺ ومعاداة الناس فيه .

ومنها : جعله نفسه وقاية عنه، وغير ذلك .

٤-بيان مدى شدة عداوة المشركين لرسول الله ﷺ وإيذائهم له وحرصهم على قتله.

٥-الأخذ بأسباب السلامة والاحتياط في ذلك، حيث اختفى رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار.

٦-اتخاذ الرفيق في السفر واختياره من ذوي الفضل والصلاح.

٧-عناية الصاحب بصاحبه وطمأنته إياه، وإدخاله السرور عليه.

٨-تسلية المقتفين لآثار المصطفى ﷺ ، وحثهم على الصبر على ما يلاقونه في سبيل نشر الدعوة تأسياً برسول الله ﷺ .

٩-أن الداعي إلى الحق عرضة للأذى، وأن طريق الحق ليس مفروشاً بالورد، بل الأمر كما ثبت عن رسول الله ﷺ (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) .

١٠-أن العاقبة لمن اتقى الله، وأن الله ناصر من نصر دينه، وأن الله مع أوليائه بالنصر والتأييد.

١١-تحدث الإنسان عما يجري له ولأصحابه في السفر وغيره، وذلك فيما إذا لم يكن هناك ما يستدعي الكتمان.

١٢-في الحديث إثبات المعية لله تعالى.

فائدة : قال الألباني رحمه الله : واعلم أنَّهُ لا يصحُّ حديث في عنكبوت الغار والحمامتين علىٰ كثرة ما يُذكر ذٰلك في بعض الكتب والمحاضرات التي تُلقى بمناسبة هجرتِهِ ﷺ إلى المدينة، فكُن مِن ذٰلك عَلىٰ عِلم .

وقال -رحمه الله- في موضع آخر في السلسلة الضعيفة أيضًا تحت حديث (انطلق النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار، فدخلا فيه،

فجاءت العنكبوت، فنسجت على باب الغار، وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ .

قال : ثمَّ إنَّ الآية المتقدمة (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها) فيها ما يُؤَكِّد ضعف الحديث؛ لأنَّها صريحة بأنَّ النَّصر والتأييّد إنَّما كان بجنودٍ لا تُرىٰ، والحديث يُثبت أنَّ نصره ﷺ كان بالعنكبوت، وهو مما يُرىٰ، فتأمَّل.

والأشبه بالآية أنَّ الجنود فيها إنَّما هم الملائكة، وليس العنكبوت ولا الحمامتين؛ ولذٰلك قال البغوي في "تفسيره للآية" (وهم الملائكة نزلوا يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته) .

- سئل الشيخ ابن عثيمين : هل عش العنكبوت والحمامتين وارد يوم اختفى الرسول ﷺ في غار ثور؟

الجواب : لا، يذكر المؤرخون: أنَّ النبي ﷺ حين اختفىٰ في غارِ ثور عشَّشت عليه العنكبوت ووقعت الحمامة علىٰ غُصنِ شجرة؛ وهٰذا كذب لا صحة له، ولا فيه آية للرسول عليه السلام ينقل، أي إنسان تُعشِّش العنكبوت وتكون حوله حمامة إذا رآه من يراه يقول: ما في أحد؛ لكن الرسول عليه السلام أعمى الله أبصارهم عنه؛ ولهٰذا قال أبو بكر: (يا رسول الله! لو نظر أحدهم إلىٰ قدَمِهِ لأبْصَرَنا)؛ لأنَّه لا يوجد مانع، فالعنكبوت والحمامة لا صحة لذكرهما عند اختفاء النبي ﷺ في غار ثور .

ولهٰذا يحترم كثير من الناس العنكبوت، يقول: لا تقتلها؛ لأنها عششت على النبي ﷺ ، فإذا كان الوزغ يُقتل؛ لأنَّه كان ينفخ في النار على إبراهيم فهٰذه تُكرَم؛ فنقول: لا، العنكبوت تُقتَل إذا آذت مثل غيرها، وهي تؤذي بعض الأحيان تعشش على الكتب وعلى الجدار فتُقتل؛ بل في حديث لٰكنه ضعيف الأمر بقتل العنكبوت . (لقاء الباب المفتوح) .

وقال –رحمه الله– أيضًا في سلسلة لقاء الباب المفتوح : وبهٰذه المناسبة أودُّ أن أُنبِّه علىٰ أنَّه يوجد في بعض الكتب أنَّ العنكبوت ضَربت علىٰ بابِ الغار نسيجًا وعشِّ الحمامة وهٰذا لا صحة له، ليس هناك نسيج من العنكبوت وليس هناك حمامة على شجرة علىٰ باب الغار، إنما هي حماية الله ولهٰذا قال أبو بكر رضي الله عنه (لو نظر أحدهم إلىٰ قدمه لأبصرنا) لو نظر أحدهم إلىٰ قدمه لأبصر النبي ﷺ و أبا بكر؛ ولكن الله أعمى أبصارهم فلم يروا أحدًا في هٰذا الغار وانصرفوا عنه .

٨٢–التاسع : عن أم المُؤمنينَ أمِّ سَلَمَةَ وَاسمها هِنْدُ بنتُ أَبي أميةَ حذيفةَ المخزومية رضي الله عنها : أنَّ النَّبيّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيتِهِ ، قَالَ : ((بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلتُ عَلَى اللهِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)) حديثٌ صحيح، رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بأسانيد صحيحةٍ . قَالَ الترمذي : ((حديث حسن صحيح)) وهذا لفظ أبي داود .

٨٣–العاشر : عن أنس رضي الله عنه ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ : ((مَنْ قَالَ – يَعْني : إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيتِهِ – : بِسمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ ، وَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، يُقالُ لَهُ : هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيطَانُ)) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم . وَقالَ الترمذي : ((حديث حسن)) ، زاد أبو داود : ((فيقول – يعني : الشيطان –

لِشيطان آخر : كَيفَ لَكَ بِرجلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ ؟)) .

(**بِسمِ اللهِ**) أي: بسم الله أخرج.

(**تَوَكَّلتُ عَلَى اللهِ**) أي: فوضت جميع أموري إليه .

(**أنْ أَضِلَّ**) أي: أن أضل في نفسي، والضلال الذي هو نقيض الهدى، وفي الأصل ضل الشيء إذا ضاع، وضل عن الطريق إذا حار.

(**أو أُضَل**) أو أن يضلني غيري.

(**أو أَزِلَّ أو أُزَل**) كلاهما من الزلة ، أي : الخطأ؛ ومعنى الأول : أن أخطئ من نفسي أو أوقع غيري به، ومعنى الثاني: أن يوقعني غيري فيه .

(**يُقالُ لَهُ**) يجوز أن يكون القائل هو الله تعالى، ويجوز أن يكون ملك من الملائكة.

(**هُدِيتَ**) أي : إلى طريق الحق والصواب، حيث وفقت على تقديم ذكر الله تعالى، ولم تزل مهدياً في جميع أفعالك، وأقوالك، وأحوالك.

(**وَكُفِيتَ**) أي: صرف عنك الشر.

(**وَوُقِيتَ**) أي: حفظت عن الأشياء الخفية عنك من الأذى والسوء.

١- في الأحاديث استحباب قول هذا الدعاء عند الخروج من المنزل .

الحكمة من هذه الاستعاذة :

قال في تحفة الأحوذي ، قال الطيبي : إن الإنسان إذا خرج من منزله لا بد أن يعاشر الناس ، ويزاول الأمر فيخاف أن يعدل عن الصراط المستقيم ، فإما أن يكون في أمر الدين فلا يخلو من أن يضل أو يضل ، وإما أن يكون في أمر الدنيا, فإما بسبب جريان المعاملة معهم بأن يظلم أو يظلم , وإما بسبب الاختلاط والمصاحبة ، فإما أن يجهل أو يجهل, فاستعيذ من هذه الأحوال كلها بلفظ سلس موجز ، وروعي المطابقة المعنوية والمشاكلة اللفظية .

٢- اختلف العلماء في الخروج من المنزل هل يقدم اليسرى أم اليمنى ؟

فقيل : يقدم اليمنى .

نظراً لعدم وجود الإهانة المقتضية اليسرى .

وقيل : يقدم اليسرى .

لفقدان التكريم المقتضي بها .

والظاهر أن الأمر في ذلك واسع .

٣- التوكل على الله في جميع الأمور ، ومن ذلك عند الخروج من المنزل .

٤- مشروعية الاستعاذة من هذه الأمور كلها المذكورة في الحديث .

٥-هل هناك دعاء يقال عند الخروج إلى المسجد ؟

جاء عند مسلم : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (أَنَّهُ رَقَدَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَيْقَظَ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ ... فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي لِسَانِي نُورًا وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي

نُورًا وَمِنْ أَمَامِي نُورًا وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا وَمِنْ تَحْتِي نُورًا. اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا) .

إلا أن هذه الرواية شاذة ، والصواب ما في الصحيحين معاً في الحديث نفسه أن النبي ﷺ دعا به في الصلاة ، واختلف أهل العلم في محل دعائه به في صلاة الليل على قولين :

أحدهما : أنه دعا به في السجود ، وهذا اختيار النسائي .

والثاني : أنه دعا به قبل السلام وهو اختيار ابن حجر في فتح الباري ، والظاهر ترجيح ما رجحه ابن حجر ، فهو من الأدعية التي تعقب التشهد ، وأما الدعاء به عند الخروج إلى المسجد فإنه لم يثبت به الحديث .

- الأحاديث الواردة فيما يدعو به الخارج إلى المسجد لا يثبت منها حديث عن النبي ﷺ .

٨٤- وعن أنس ﷺ ، قَالَ : كَانَ أَخَوانِ عَلَى عهد النَّبيّ ﷺ وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ وَالآخَرُ يَحْتَرِفُ ، فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ للنبي ﷺ ، فَقَالَ : ((لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ)) . رواه الترمذي بإسناد صحيحٍ عَلَى شرطِ مسلم .

« **يحترِف** » : يكتسب ويتسبب .

(**كَانَ أَخَوانِ عَلَى عهد النَّبيّ ﷺ**) أي : في زمان حياته ﷺ .

(**وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ**) ليتلقى من معارفه ، ويأخذ من أقواله وأفعاله .

(**وَالآخَرُ يَحْتَرِفُ**) يكتسب ويتسبب ، فَكَأَنَّهُمَا كَانَا يَأْكُلَانِ مَعاً .

(**فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ للنبي ﷺ**) أَيْ فِي عَدَمِ مُسَاعَدَةِ أَخِيهِ إِيَّاهُ فِي حِرْفَتِهِ وَفِي كَسْبٍ آخَرَ لِمَعِيشَتِهِ .

(**فَقَالَ**) ﷺ مسلياً له .

(**لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ**) أي : فلعل قيامك بأمره سبب لتيسير رزقك .

١- الحديث دليل على أن من أسباب الرزق : الإنفاق على طلبة العلم الشرعي .

وهذا باب مع كل أسف غفل عنه الكثيرون، فتراه ينفق على فقير محتاج، لكن إذا دعي لمشروع دعوي من أجل طلب علم شرعي، أو حلقات تحفيظ القرآن الذي هو أعظم العلم تراه يحجم ولا يشارك ويقول بأن سد حاجة الفقير أولى، وهذا خطأ أحياناً .

إنَّ طالب العلم إن لم يكن في كفاية في معيشته فلن يُحصِّل من العلم ما يتغيَّاه ويتوخاه ، ذلك أنَّ العلم كثير ، والعمر قصير ، وجمع المال لأجل المعيشة سيأخذ من وقت المرء وقتاً طويلاً ، وكل ذلك سيكون على حساب وقته وجهده.

يقول عبد الرحيم بن سليمان الرازي:كنا عند سفيان الثوري فكان إذا أتاه الرجل يطلب العلم سأله : هل لك وجه معيشة ؟ فإن أخبره أنه في كفاية ، أمره بطلب العلم ، وإن لم يكن في كفاية أمره بطلب المعيشة .

٢- أن من أسباب تحصيل العلم : التفرغ له ، فالعلم الشرعي لا يُدركه بحق إلا من تفرَّغ له، ولا يدركه بصدق إلاَّ من أعطاه ثمرة قلبه وانصباب فؤاده إليه، وإلاَّ فلا !

نُقِلَ عن الخضر أنَّه قال لموسى عليه السلام : يا موسى، تفرغ للعلم إن كنت تريده، فإنما العلم لمن تفرغ له .

إنَّ كلَّ من يعرف حقيقة العلم واتساعه، يشهد بأنَّ تحصيل العلم لا يُنال براحة الجسم ، فمن طلب الراحة فاتته الراحة، والنعيم لا يُدرك بالنعيم .

إنَّ التفرغ الذهني للعلم كان وراء تحصيل أبي هريرة رضي الله عنه لعلوم السنَّة النبويَّة ، حيث كان بدون مُنازع ، الصحابي الجليل الأكثر جمعاً لأحاديث رسول الله ﷺ بعد توفيق الله له ودعاء رسول الله ﷺ له، حتى حمل العلم عنه ثمان مائة رجل ما بين صاحب

وتابع كما قال الإمام البخاري .

يحدِّث أبو هريرة عن نفسه فيقول : إن إخواننا من المهاجرين شغلهم الصفق في الأسواق, وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم, وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ – بشبع بطنه – و يحضر ما لا يحضرون, ويحفظ ما لا يحفظون .

وقد كان التفرغ الذهني للعلم وراء نبوغ الصحابي الجليل زيد بن ثابت ﷺ ، حيث تفرغ لدراسة اللغة العبرية (لغة يهود) فعن زيد بن ثابت قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلَّم له كلمات من كتاب يهود قال : إني والله ما آمن يهود على كتاب ، قال: فما مرّ بي نصف شهر حتى تعلمته له قال : فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم .

ولقد تفرغ للعلم كليَّة جماعة من أكابر أهل العلم المبرّزين، وكان تفرغهم سبب نبوغهم وبلوغهم درجة من العلم لم يصل لها عدد من أقرانهم، ومنهم فيما يحضرني ذكره:

- الإمام البخاري لم يُحصِّل ما حباه الله به من علم، إلاَّ لتفرغه علمياً للدراسة والتحصيل حتَّى ألَّف صحيحه الذي جمع فيه الأحاديث الصحاح ، وقد أتمَّ سبعة عشر عاماً في جمع وتأليف هذا الكتاب.
- الإمام النووي مكث في وقت الطلب في دمشق أربع سنين لم ينم مضطجعاً، وكان ينام مسنداً ظهره إلى إسطوانة، ولم يكن يضطجع خلال هذه المدة اضطجاع المستريح في نومته .
- الإمام ابن الملقن ، فلقد طلب الحديث في صغره بنفسه فأقبل عليه وعُني به حتّى تفرَّغ له.
- العلامة ابن خلدون مكث بضع سنوات في قلعة بني سلامة في المغرب العربي كتب خلالها مقدمته الشهيرة.
- الشيخ بدر الدين الدمشقي حبس نفسه في المكتبة تسع سنوات ، حتَّى حصّل من العلم ما شاء الله أن يُحصِّل. (مقال للأخ خباب الحمد) .

٣- الحديث دليل على فضل الإنفاق على طلبة العلم (كما تقدم) وأن الله تعالى يبارك لمن كفله بزيادة في الرزق بماله .

٨- باب في الاستقامة

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ [هود : ١١٢]، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ** ﴾ [فصلت : ٣٠- ٣٢]، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأحقاف : ١٣-١٤] .

تعريف الاستقامة : هي لزوم طاعة الله .

قال ابن رجب : الاستقامة هي سلوك الصّراط المستقيم، وهو الدّين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطّاعات كلّها الظّاهرة والباطنة وترك المنهيّات كلّها كذلك .

وقال ابن حجر : الاستقامة كناية عن التّمسّك بأمر الله تعالى فعلاً وتركاً .

قَالَ الله تَعَالَى : (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) .

قال ابن كثير : يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد .

وقال السعدي : أمر الله نبيه محمداً ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا ، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع،

ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة، ويدوموا على ذلك .

وَقالَ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيم) .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ) بألسنتهم وقلوبهم (ثُمَّ اسْتَقَامُوا) على طاعة الله ، قاموا بحق الله من التوحيد والطاعات والأخلاق وفي كل شيء (تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ) قيل : عند الاحتضار ، وقيل : يوم خروجهم من قبورهم ، وقيل : يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث ، واختار هذا القول ابن كثير وقال : وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً (أَلاَّ تَخَافُوا) أي : فيما يستقبلون من الموت وأهواله (وَلا تَحْزَنُوا) أي : على ما خلفتموه في الدنيا من أهل ومال وولد فنحن نخلفكم فيه (وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) كما قال تعالى في الآية الأخرى (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا) أي : أولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم هم أهل الجنة ، تلك الدار التي أعدها الله لأوليائه الصالحين ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ) أي : تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم ، ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ) أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم ، أي : كما اخترتم (نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيم) أي: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رءوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف . (تفسير ابن كثير) .

م / وَقالَ تَعَالَى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون) .

(إِن الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ) بألسنتهم وقلوبهم (ثُمَّ اسْتَقَامُوا) على طاعة الله ولزوم مرضاته (فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) أي: فيما يستقبلون من الموت وأهوال القيامة (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) أي : على ما خلفوه في الدنيا من أهل ومال وولد فنحن نخلفكم فيه . (أُولَئِكَ) أي : أولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين (خَالِدِينَ فِيهَا) أي : مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول ، فلا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها (جزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون) أي : نالوا ذلك النعيم جزاء على أعمالهم الصالحة ، كما قال تعالى (لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وذكر من نعيم الجنة الخلود ، لأنه أعظم النعيم ، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ ، وينغص اللذات ، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها ، وأنها زائلة عنه ، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم ، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غماً .

٨٥- وعن أبي عمرو ، وقيل : أبي عَمرة سفيان بن عبد الله ﷺ ، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُول الله ، قُلْ لي في الإسْلامِ قَولاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً غَيْرَكَ . قَالَ : « قُلْ : آمَنْتُ بِاللهِ ، ثُمَّ استَقِمْ » رواه مسلم .

(**قُلْ لي في الإسْلامِ قَولاً**) أي : قولاً جامعاً لمعاني الدين .

(**قُلْ : آمَنْتُ بِاللهِ**) أي : الإيمان الكامل الذي يشمل اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح .

(**ثُمَّ استَقِمْ**) الاستقامة هي المداومة على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه وقيل : هي طلب إقامة النفس على الصراط المستقيم ، والصراط المستقيم هو الإسلام كما ثبت تفسيره من حديث ثوبان عند أحمد بسند جيد .

١- الحديث دليل على وجوب الإيمان بالله تعالى .

٢- الحديث دليل على أن أول واجب على الإنسان هو الإيمان بالله تعالى .

٣- الحديث دليل على فضل من آمن ثم استقام على طاعة الله واستمر على ذلك .

٤- فضائل الاستقامة بعد الإيمان :

أولاً : تتنزل عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة وعدم الخوف .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) .

قوله (تتنزل عليهم الملائكة) **قيل** : عند الاحتضار ، **وقيل** : يوم خروجهم من قبورهم ، **وقيل** : يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث، واختار هذا القول ابن كثير وقال: وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً .

ثانياً : الاستقامة سبب لبسط الرزق .

قال تعالى (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً) .

قال القرطبي : أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق .

ثالثاً : أن الله أمر نبيه بالاستقامة .

قال تعالى (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) .

كان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة .

٥ – أنه لا يلزم من الاستقامة عدم الوقوع بشيء من المعاصي فقد قال تعالى (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ) .

قال ابن رجب : فيه إشارة إلى أنه لا بد من التقصير في الاستقامة المأمور بها ، فيجبر ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، فهو كما قال النبي ﷺ لمعاذ (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها)، وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لن يستطيعوا الاستقامة حق الاستقامة ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة . عن النبي ﷺ قال (سددوا وقاربوا) فالسداد هو حقيقة الاستقامة ، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد ، والمقاربة أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه ، ولكن بشرط أن يكون مصمماً على قصد السداد وإصابة الغرض ، فتكون مقاربته عن عمد .

- وقد قال ﷺ (استقيموا ولن تحصوا) فيه بيان المأمور به شرعاً بقوله (استقميوا) وبيان الواقع قدراً بقوله (ولن تحصوا) . فإن المتعبد لله لا يخلو من تفريط في طاعة أو المواقعة لمعصية ، ولما كان هذا هو الأمر الذي طبع عليه ابن ادم ، فإن الشرع أمر بالقصد والتسديد والمقاربة فقال ﷺ (سددوا وقاربوا) وعند البخاري (القصد القصد تبلغوا) .

٦- وأعظم ما ينبغي مراعاته في الاستقامة استقامة القلب ، فهو ملك الأعضاء وهي جنوده ، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه .

وكذلك مما ينبغي مراعاة استقامته بعد القلب اللسان ، فإنه ترجمان القلب .

ولذلك قال ﷺ (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان ، تقول: إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا) رواه الترمذي .

وجاء في حديث الباب في رواية للترمذي: قلت يا رسول الله! ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه .

وقد جاء في مسند الإمام أحمد عن أنس . أن النبي ﷺ قال (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) .

٧- أسباب الاستقامة :

أولاً : دعاء الله بالثبات .

كان ﷺ يقول : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك) .

ثانياً : قراءة القرآن وتدبره .

قال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) .

٨- أن من استقام في هذه الدار على الهداية ، وفقه الله تعالى للهداية يوم القيامة .

قال ابن القيم رحمه الله : فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم ، الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، هدي هناك إلى الصراط المستقيم ، الموصل إلى جنته ودار ثوابه ، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار ، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على متن جهنم ، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط .

٩- أنه لا خوف ولا حزن على المستقيم .

١٠- الحث على مجالسة ومصاحبة أهل الاستقامة .

٨٦-وعن أبي هريرةَ ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ : ((قَارِبُوا وَسَدِّدُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بعَمَلِهِ)) قالُوا : وَلا أَنْتَ يَا رَسُول الله ؟ قَالَ : ((وَلاَ أنا إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِي الله برَحمَةٍ مِنهُ وَفَضْلٍ)) رواه مسلم .

وَ((المُقَارَبَةُ)) : القَصدُ الَّذِي لا غُلُوَّ فِيهِ وَلاَ تَقْصيرَ ، وَ((السَّدادُ)) : الاستقامة والإصابة . وَ((يتَغَمَّدني)) : يلبسني ويسترني .

قَالَ العلماءُ : مَعنَى الاستقامَةِ لُزُومُ طَاعَةِ الله تَعَالَى ، قالوا : وهِيَ مِنْ جَوَامِعِ الكَلِم ، وَهِيَ نِظَامُ الأُمُورِ ؛ وبِاللهِ التَّوفِيقُ .

(**سَدِّدُوا**) أي : الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط .

(**وقَارِبُوا**) أي : إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرُب منه ، وجاء في رواية (وَأَبْشِرُوا) أي : استبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل، بأن العجز إذ لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره ، وجاء في حديث عائشة (سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ... وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلّ) .

(**إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِي الله**) أي : يُلْبِسنِيهَا وَيُغَمِّدنِي بِهَا ، وَمِنْهُ أَغْمَدْت السَّيْف وَغَمَدْته إذَا جَعَلْته فِي غِمْده وَسَتَرْته بِهِ .

١- الحديث دليل على الاستقامة والاجتهاد في سلوك الاستقامة ، وذلك بلزوم طاعة الله .

لقوله (قَارِبُوا وَسَدِّدُوا) .

قال النووي في شرح صحيح مسلم: ومعنى (سددوا وقاربوا) اطلبوا السداد واعملوا به، وإن عجزتم عنه فقاربوه أي: اقربوا منه، والسداد الصواب، وهو بين الإفراط والتفريط، فلا تغلوا ولا تقصروا.

وقال ابن رجب : (فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا) التسديد : هو إصابة الغرض المقصود ، والمقاربة أن يقارب الغرض وإن لم يُصبه ، لكن يكون مجتهداً على الإصابة ، فيصيب تارة ويقارب أخرى ، أو تكون المقاربة لمن عجز عن الإصابة كما قال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال ﷺ (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) .

وقال الحافظ ابن حجر : السداد ومعناه : اقصدوا السداد أي الصواب، وقال: اعملوا واقصدوا بعملكم الصواب، أي اتباع السنة من الإخلاص وغيره، ليقبل عملكم فتنزل عليكم الرحمة .

والعمل يكون على السداد والصواب بشرطين :

الأول : أن يكون مخلصاً لله تعالى .

كما قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه .

الثاني : أن موافقاً للشريعة .

لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

قال ابن القيم : فجمع في هذا الحديث مقامات الدّين كلّها ، فأمر بالاستقامة وهي السّداد، والإصابة في النّيّات والأقوال ، وأخبر في حديث ثوبان أنّهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم ، كالّذي يرمي إلى الغرض، وإن لم يصبه يقاربه ، ومع هذا فقد أخبرهم أنّ الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يرى أنّ نجاته به؛ بل إنّما نجاته برحمة الله وغفرانه وفضله ، فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدّين، وهي القيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصّدق، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلّق بالأقوال والأفعال والأحوال والنّيّات ، فالاستقامة فيها، وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله.

٢- تبشير من سلك طريق الاستقامة للتوفيق من الله لقوله (وأبشروا) أي : استبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل ، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل ، بأن العجز إذ لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره .

٣- أنه لا أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله وفضله لا بعمله ، كما جاء في رواية عند مسلم (لن ينجو أحدكم منكم بعمله) وعند أحمد (لا يدخل أحدكم الجنة بعمله) .

فإن قيل : ما الجمع بيه هذا الحديث وبين قوله تعالى (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وقوله تعالى (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

فالجواب من وجوه :

قيل : العمل بنفسه لا يستحق به أحد الجنة لولا أن الله جعله – بفضله ورحمته – سبباً لذلك ، والعمل نفسه من فضل الله ورحمته على عبده ، فالجنة وأسبابها كل من فضل الله ورحمته .

وهذا مذهب ابن حزم ، والبيهقي ، وابن العربي ، والنووي ، وابن رجب ، والشوكاني .

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى (أُدْخُلُوا الْجَنَّة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (وَتِلْك الْجَنَّة الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَنَحْوهمَا مِنْ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى أَنَّ الْأَعْمَال يُدْخَل بِهَا الْجَنَّة ، فَلَا يُعَارِض هَذِهِ الْأَحَادِيث ، بَلْ مَعْنَى الْآيَات : أَنَّ دُخُول الْجَنَّة بِسَبَبِ الْأَعْمَال ، ثُمَّ التَّوْفِيق لِلْأَعْمَالِ وَالْهِدَايَة لِلْإِخْلَاصِ فِيهَا ، وَقَبُولهَا بِرَحْمَةِ اللَّه تَعَالَى وَفَضْله ، فَيَصِحّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُل بِمُجَرَّدِ الْعَمَل . وَهُوَ مُرَاد الْأَحَادِيث ، وَيَصِحّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيْ بِسَبَبِهَا ، وَهِيَ مِنْ الرَّحْمَة . وَاَللَّه أَعْلَم . (شرح مسلم) .

وقال ابن رجب : وفي رواية الإمام أحمد في حديث معاذ أنَّه قال : يا رسول الله ، إنِّي أريدُ أنْ أسألَكَ عن كلمةٍ قد أمرضَتني وأسقمتني وأحزنتني ، قال : سل عمَّا شئتَ ، قال : أخبرني بعملٍ يدخلُني الجنَّة لا أسألكَ غيرَه ، وهذا يدلُّ على شدَّةِ اهتمامِ معاذٍ ﷺ بالأعمال الصَّالحة ، وفيه دليلٌ على أنَّ الأعمالَ سببٌ لدخول الجنَّة ، كما قال تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وأما قولُه ﷺ (لَنْ يدخُلَ أحدٌ منكُمُ الجنَّة بِعمَلِه) فالمراد – والله أعلم – أنَّ العملَ بنفسه لا يستحقُّ به أحدٌ الجنَّة لولا أنَّ الله جعله – بفضله ورحمته – سبباً لذلك ، والعملُ نفسُه من رحمة الله وفضله على عبده ، فالجنَّةُ وأسبابُها كلٌّ من فضل الله ورحمته .

وقيل : إن مجرد دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله وفضله ، وعليه يُحمل الحديث ، وأما اقتسام منازل الجنة ودرجاتها فإن ذلك يتفاوت بتفاوت الأعمال ، وعليه تحمل الآية .

وهذا مذهب ابن بطال ، وأبي عبد الله القرطبي .

وقيل : إن الباء في الآية ليست للسببية ، بل للإلصاق أو المصاحبة ، والمعنى : أورثتموها ملابسة أو مصاحبة لأعمالكم .
وهذا مذهب الكرماني ، واختيار العيني .
وقيل : إن الآية في العمل المقبول ، والحديث في العمل المجرد من القبول .
وهذا مذهب الحافظ ابن حجر ، والشنقيطي .
والراجح الأول . (انظر : كتاب الأحاديث المشكلة) .

٩- باب في التفكر في عظيم مخلوقات الله تَعَالَى

وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمورهما وتقصير النفس

وتهذيبها وحملها عَلَى الاستقامة

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ **إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** ﴾ [سبأ :٤٦] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ الآيات[آل عمران : ١٩٠-١٩١] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ**

كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية :١٧-٢١] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا** ﴾ الآية[القتال : ١٠] . والآيات في الباب كثيرة .

تعريف التفكر : هو أن الإنسان يعمل فكره في الأمر حتى يصل فيه إلى نتيجة ، وقد أمر الله به .

قَالَ الله تَعَالَى (**إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا**) .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون (**إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ**) أي : إنما آمركم بواحدة، وهي (**أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ**) أي : تقوموا قياما خالصًا لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضا: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضا، (**ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا**) أي : ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك؛ ولهذا قال (أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ) ، هذا معنى ما ذكره مجاهد، ومحمد بن كعب، والسُّدِّيّ، وقتادة، وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية . (تفسير ابن كثير) .

وَقالَ تَعَالَى : (**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي : تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها ، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع .

وقد أمرنا الله بالنظر والتفكر في السماوات والأرض الدالة على توحيده وعظمته وجلاله في آيات كثيرة .

فقال تعالى (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) .

وقال تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) ، وقال تعالى (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) ، وقال تعالى (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) .

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) .

- وهما من أعظم المخلوقات ، وهما من أدلة البعث ، حيث أن من قدر على خلق الأعظم فهو على غيره من باب أحرى .

قال تعالى (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وقال تعالى (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) .

(**وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**) هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) .

وهذا البرهان ذكره الله تعالى في عدة مواضع :

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وقال تعالى (وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) .

وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون) .

(**لَآياتٍ**) أي : لعلامات ودلالات وبراهين .

- قال القاسمي : عظيمة كثيرة ، فالتنكير للتفخيم كَمّاً وكيفاً .

(**لِأُولِي الْأَلْبَابِ**) أي : العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون .

قال الله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) .

- وسبب تكثير الأدلة أنّ عقول الناس متفاوتة .

قال ابن القيم : الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين :

أحدهما : النظر في مفعولاته ، **والثاني** : التفكر في آياته وتدبرها ، فتلك آياته المشهودة ، وهذه آياته المسموعة .

فالنوع الأول كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ...)

وقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) وهو كثير في القرآن .

والثاني كقوله (أفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) وقوله (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) وقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) .

(**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**) أي : لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم ، بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم .

قال القرطبي : ذكر تعالى ثلاث هيئات لا يخلوا ابن آدم منها في غالب أمره ، فكأنها تحصُر زَمانه .

ومن هذا المعنى قولُ عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه) .

(**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) أي : يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته ، وعلمه وحكمته ، واختياره ورحمته .

(**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً**) أي : ما خلقت هذا الخلق عبثاً ، بل لتجزي الذين أساؤوا بما عملوا ، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى .

(**سُبْحَانَكَ**) تنزيهاً لك يا رب أن تخلق شيئاً باطلاً .

قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ .

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ) .

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

وقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) .

وقال تعالى (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) .

(**فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**) أي : يا من خَلَق الخلق بالحق والعدل يا من هو مُنزه عن النقائص والعيب والعبث، قنا من عذاب النار

○ التفكر هو : تكرار تأمل القلب في الشيء مرّات ومرات ، حتى يتعرف العبد على خباياه وأسراره قدر طاقته .

قال ابن القيم : الفكرة هي تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له .

- وَقالَ تَعَالَى : (**أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٍ**) .

(**أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت**) فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب ، فإنها في غاية القوة والشدة وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها ، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل .

(**وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ**) أي : وإلى السماء البديعة المحكمة ، كيف رفع الله بناءها وأعلى سمكها بلا عمد ولا دعائم .

(**وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ**) أي : جعلت منصوبة ، فإنها ثابتة راسية لئلا تميد بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن .

(**وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**) أي : كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه ، والسماء التي فوق رأسه ، والجبل الذي تجاهه ، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم ، الخالق المالك المتصرف ، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه .

(**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٍ**) أي : فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم .

○ في هذه الآيات حث على التفكر والتدبر .

أولاً : تعريف التفكر .

التفكر هو : تكرار تأمل القلب في الشيء مرّات ومرات ، حتى يتعرف العبد على خباياه وأسراره قدر طاقته . (تفسير القرطبي)

وقال ابن القيم : الفكرة هي تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له .

ثانياً : وقد أمر الله بالتفكر في آياته في مواضع كثيرة .

الآيات السابقة التي ذكرها المصنف رحمه الله .

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) .

وذم المتغافلين المعرضين عن التفكر :

قال تعالى (قال الله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) .

قال ابن القيم : إذا غذي القلب بالتذكر ، وسقيَ بالتفكر ، ونُقي من الدغل ، رأى العجائب وألهم الحكمة .

وقال رحمه الله : معرفة الله سبحانه نوعان : الأول : معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي . والثاني : معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والإنس به والفرار من الخلق إليه، وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم .

ولهذه المعرفة بابان واسعان :

الباب الأول : التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها ، والفهم الخاص عن الله ورسوله .

والباب الثاني : التفكر في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط .

وقال رحمه الله : والتذكر والتفكر منزلان يثمران أنواع المعارف ، وحقائق الإيمان والإحسان ، والعارف لا يزال يعود بتفكره على

التذكرة ، وبتذكره على تفكره ، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم .

ثالثاً : أقوال في التفكر .

سئلت أم ذر عن عبادة أبي ذر فقالت : التفكر والاعتبار .

وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته فكراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو .

وقال الفضيل : الفكرة مرآةُ تريك حسناتِك وسيئاتِك .

وقال ابنُ بَطَّال : إن الإنسان إذا كَمُل إيمانه ، وكَثُر تفكُّره ، كان الغالِبُ علَيْه الإشفاقَ والخَوْف.

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئٍ قط إلا علِم ، وما علِم امرؤ قط إلا عمِل .

وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله حسن ، والفكرةُ في نِعم الله أفضل العبادة .

وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه قط .

وقال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ .

بينما أبو شريح يمشي يوماً إذ جلس ، ثم بكى بكاء شديداً ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تفكرت في ذهاب عمري ، وقلة عملي ، واقتراب أجلي .

وقال الشافعي : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكرة .

قال ابن القيم معلقاً : وهذا لأن الفكرة عمل القلب ، والعبادة عمل الجوارح ، والقلبُ أشرف من الجوارح ، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح ، وأيضاً فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه العمل المجرد .

وقال ابن الجوزي : همة المؤمن متعلقةٌ بالآخرة ، فكل ما في الدنيا يحرّكه إلى ذكر الآخرة ، وكل من شغله شيء فهمته شغله .

ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة رأيت البزاز ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته، والنجار إلى السقف، والبناء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط.

والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن رأى مؤلماً ذكر العقاب، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة، فهمته متعلقة بما ثم، وذلك يشغله عن كل ما تم.

قال سفيان بن عيينة : الفكرةُ نورٌ يدخل القلب .

وقال قتادة : من تفكر في خلق نفسه ، علم أنه إنما خلق ولينتْ مفاصله .

وقال بعض الحكماء : أحْي قلبك بالمواعظ ، ونوّره بالفكر ، وموّتِه بالزهد ، وقوّه باليقين ، وذلله بالموت ، وقرّره بالفناء ، وبصِّره فجائع الدنيا .

سئل أعرابي عن دليل على وجود الله فقال : سبحان الله ! سماءٌ ذات أبراج ، وأرضٌ ذات فجاج ، وبحارٌ ذاتُ أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير !!

قال ابن تيمية : النظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر والاعتبار مأمور به مندوب إليه .

قال ابن القيم : أنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك .

وعن محمد بن كعب القرظي قال : لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بـ(إذا زلزلت والقارعة) لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكر أحب إلى من أن أهذّ القرآن ليلتي هذًا .

وعن طاوس قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: يا روح الله، هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم من كان منطقه ذكرًا

، وصمته فكرًا ، ونظره عبرة فإنه مثلي .

وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول: يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك! فلو جلست مع الناس كان آنس لك, فيقول لقمان: إن طول الوحدة أفهم للفكر، وطول الفكر دليل على طريق الجنة.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم, وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة.

قال عبد الله بن المبارك يوماً لسهل بن علي –ورآه ساكتا متفكراً–: أين بلغت؟ قال: الصراط.

وقال بِشْر: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل.

وعن ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب.

وقال السعدي : التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين .

رابعاً : ثمرات التفكر :

أولا : أن التفكر في الكون يورث الحكمة، ويحيي القلوب، ويغرس فيها الخوف والخشية من الله عز وجل.

فما طالت فكرة امرئ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل، ولو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل، والفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

قال بعض السلف : دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتفكر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

وقال ابن عون : الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات ، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ، ولا استنارت بمثل الفكرة .

قال سفيان بن عيينة : الفكرة نور تدخله إلى قلبك ، كما أنه يظهر على المرء في هيئته وسكونه ووقاره .

وقال وهب بن منبه : المؤمن إذا تفكر علته السكينة .

وقال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله :

زر المحكمة مرة في العام لتعرف فضل الله عليك في حسن الخُلق .

زر المستشفى مرة في الشهر لتعرف فضل الله عليك في الصحة والعافية .

زر الحديقة مرة في الأسبوع لتعرف فضل الله عليك في جمال الطبيعة .

زر المكتبة مرة في اليوم لتعرف فضل الله عليك في العقل .

زر ربك كل آن لتعرف فضله عليك في نعم الحياة .

قال الشاعر :

فوا عجباً كيف يعصي الإله * * * أم كيف يجحده جاحدُ .

لله في كل تحريكة * * * وتسكينة أبداً شاهدُ .

وفي كل شيء له آية * * * تدل على أنه واحدُ .

وقال آخر :

تأَمَّلْ في رِيَاضِ الرّوضِ وانظر * * * إلَى آثارِ مَا صَنَعَ المليكُ

عُيُونٍ مِنْ لجينٍ شاخصاتٍ * * * بأحداقٍ كما الذَّهَب السَّبيك

عَلَى قَضِيبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِداتٍ * * * بأَنَّ اللهَ ليسَ لَهُ شَرِيك

ثانياً : أن التفكر في الكون يكشف عن عظمة الخالق في خلقه ,ويجعل المرء يقر بوحدانية الله تعالى , ويتواضع لعظمته , ويحاسب نفسه على أخطائها فيزداد إيماناً وصفاء.

سئل أعرابي عن الدليل فقال : البعرة تدل على البعير . والروث على الحمير ، وآثار الأقدام على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج . وبحار ذات أمواج ، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟. قال سبحانه (ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله) .

ثالثاً : يجدد الإيمان ويزيده .

قال ابن القيم : التفكر يكشف حقائق الأمور ، ويميز مراتبها في الخير والشر ، ومعرفة المفضول من الفاضل ، والتفكر يزيد الإيمان أكثر مما يزيده العمل .

رابعاً : أن التفكر من أعمال القلوب .

وقد قال ابن القيم : وهو من أفضل أعمال القلب وأنفعها له .

خامساً : التفكر طريق إلى التوبة والعمل .

وقال الحسن البصري ﷺ : التفكر يدعو إلى الخير والعمل به .

والتفكر مع العمل مظنة الاستجابة للدعاء وقبول العمل ، قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) إلى قوله تعالى (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ) الآية فهؤلاء ذكروا الله تعالى وتفكروا في مخلوقاته، وحملهم التفكر على الإيمان والعمل الصالح .

قال الشوكاني : والمعنى أنهم يتفكرون في بديع صنعهما وإتقانهما مع عظم أجرامهما ، فإن هذا الفكر إذا كان صادقاً ، أوصلهم إلى الإيمان بالله سبحانه .

والتفكر مفتاح الرحمة ، قال سفيان بن عيينة : التفكر مفتاح الرحمة ألا ترى أن المرء يتفكر فيتوب .

ولذلك قال بعض السلف : تعود الطاعات إلى التفكر والاعتبار .

خامساً : مجالات التفكر :

أولاً : التفكر في القرآن العظيم :

وهو أعظم مجالات التفكر ، فالقران معجزة الإسلام الخالدة ، أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور .

قال تعالى (الر .كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ).

وهو معجز بلفظه ومعانيه ، لا تنقضي عجائبه للمتفكرين فيه ، قال تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

قال السعدي : قوله تعالى (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه .

ومن التفكر في القرآن التفكر في حججه وآياته وأحكامه الشرعية ، والتفكر في أمثاله التي ضربها الله لعباده ليتفكروا فيها ، قال

تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) .

قال ابن كثير : أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المعنى المراد منها ، كما قال تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) .

وقال السعدي : أخبر تعالى أنه تعالى يضرب للناس الأمثال ، ويوضح لعباده الحلال والحرام ؛ لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها ، فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم ، ويبين له طريق الخير والشر ، ويحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، ويزجره عن مساوئ الأخلاق ، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه .

ثانياً : التفكر في المخلوقات :

وهذا المجال من مجالات التفكر واسع النطاق ، يمتد إلى ملكوت السماوات والأرض ، وما سخر الله منها من كل شيء ، وقد جاءت آيات عديدة في القرآن العظيم تدعو إلى التفكر في السماوات والأرض وما بينهما ، قال تعالى (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) .

ثالثاً : التفكر في الدنيا والآخرة :

وهذا المجال أحد مجالات التفكر التي أمر الله – عز وجل – بها ، فالدنيا دار ممر وليست دار قرار .

قال تعالى : (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) .

قال ابن عباس : يعني في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها) .

وقال قتادة : لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة فتعرفون فضل الآخرة على الدنيا .

وقال أيضاً : من تفكر في الدنيا والآخرة عرف فضل إحداهما على الأخرى ، وعرف أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء ، وأن الآخرة دار بقاء ثم دار جزاء) .

رابعاً : التفكر في الموت والبعث :

قال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى: إن في قبض الله نفس النائم والميت وإرساله بعد، نفس هذا ترجع إلى جسمه، وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر وبياناً أن الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء ويميت من شاء إذا شاء .

وقال عند تفسير قوله تعالى (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) أي : أو لم يتفكر هؤلاء المكذبون في خلق الله إياهم ، وأنه خلقهم ولم يكونوا شيئاً ، ثم صرفهم أحوالاً وتارات ، حتى صاروا رجالاً ، فليعلموا أن الذي فعل ذلك قادر على أن يعيدهم بعد فنائهم خلقاً جديداً ، ثم يجازي المحسن منهم بإحسانه والمسيء بإساءته .

خامساً : التفكر في المتقابلات :

خلق الله – تبارك وتعالى – في هذا الكون من المتقابلات والأضداد ما يدل على كمال قدرته وبديع صنعه ، فالليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسهل والوعر ، والماء العذب والماء المالح ، والذكر والأنثى ، آيات ودلالات وعبرة لمن يعتبر .

قال الله تعالى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

ولقد من الله تعالى على الإنسان بأن خلق له زوجاً يسكن إليها كما قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) .

وبين تعالى تمام رحمته ولطفه بعباده ، بما جعل بين الزوجين من المودة والرحمة ، قال تعالى (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) .

ثم دعا عباده إلى التفكر في ذلك في ختام الآية ليعتبر ويتعظ من أحيا الله قلبه، قال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

قال ابن جرير : يقول تعالى : إن في فعله ذلك لعبرة وعظات لقوم يتذكرون في حجج الله وأدلته فيعلموا أنه الإله الذي لا يعجزه شيء أراده ولا يتعذر عليه فعل شيء شاءه .

سادساً : التفكر في مصارع الغابرين :

ومن مجالات التفكر العظيمة ، التفكر في مصارع الأمم الغابرة ، فيما نقل من أخبارهم في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، كيف كانوا ؟ وأين هم الآن ؟ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وإن الناظر إلى ديار الأمم الغابرة يرى ما وصلوا إليه من قوة وحضارة ، فبادوا وأصبحوا عبرة لمن بعدهم ، وقد أرشد القرآن العظيم إلى أن هذه الأمم الغابرة كان لهم شأن عظيم في بناء القصور، ونحت الجبال، وأعطاهم الله قوة في أجسامهم، فما أغنى عنهم كل ذلك لما كذبوا بآيات الله واستكبروا عن عبادته ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة .

وقد قص القرآن الكريم علينا قصص أولئك الأمم: عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط، وغيرهم، وقص علينا نبأ الذين استكبروا وطغوا وتجبروا: فرعون وهامان وقارون وغيرهم، بماذا قابلوا نعم الله عليهم وماذا كان مصيرهم؟.

وقد دعا النبي ﷺ إلى الاتعاظ بهؤلاء الأقوام الذين استحقوا مقت الله وغضبه ، وفي غزوة تبوك عند ما مر عليه السلام على ديار ثمود قال لأصحابه رضي الله عنهم (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم) .

وفي رواية (أن يصيبكم) .

قال ابن حجر : أي خشية أن يصيبكم ، ووجه هذه الخشية أن البكاء يبعث على التفكر والاعتبار ، فكأنه أمرهم بالتفكر في أحوال توجب البكاء من تقدير الله تعالى على أولئك بالكفر مع تمكينه لهم في الأرض وإمهالهم مدة طويلة ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه ، وهو سبحانه مقلب القلوب ، فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك .

سادساً : معوقات التفكر .

أولاً : **الغفلة** .

وهو من أعظم الأسباب المانعة من التفكر بآيات الله ومخلوقاته ، كما قال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

قال ابن كثير – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية : يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده . مما خلقه في السماوات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت وسيارات ، وأفلاك دائرات والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ،

وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفة في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات .

قال السعدي : فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله ، كان انتفاعه بالآيات أعظم ؛ لأن المنيب مقبل على ربه قد توجهت إرادته وهمته لربه ، ورجع إليه في كل أمر من أموره ، فصار قريباً من ربه ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته ، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكر وعبرة ، لا نظر غفلة غير نافعة .

ثانياً : الكبر .

وهو من أخطر الأدواء وأعظم الذنوب وسبب للمقت من علام الغيوب ، والمتكبرون لا ينتفعون بشيء من آيات الله ودلائل وحدانيته وقدرته .

قال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ).

قال ابن جريج : سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا .

وقال السعدي : سأصرفهم عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية والفهم لآيات الكتاب (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) أي : يتكبرون على عباد الله ، وعلى الحق ، وعلى من جاء به .

ثم ذكر المصنف – رحمه الله – حديث (**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**). وقد تقدم شرحه .

١٠- باب في المبادرة إلى الخيرات

وحثّ من توجه لخير على الإقبال عليه بالجد من غير تردد

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

معنى المبادرة والمسارعة للخيرات .

هي المبادرة إلى الطاعات والسبق إليها والاستعجال في أدائها وعدم الإبطاء فيها أو تأخيرها .

قال السعدي : والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات ، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها ، وإيقاعها على أكمل الأحوال ، والمبادرة إليها .

- **قَالَ الله تَعَالى : (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَات) .**

أي : بادروا إلى ما أمركم الله من استقبال البيت الحرام كما يفيده السياق ، وإن كان ظاهره الأمر بالاستباق إلى كل ما يصدق عليه أنه خير كما يفيده العموم المستفاد من تعريف الخيرات .

- **وَقالَ تَعَالَى : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين) .**

(**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**) أي : إلى أسبابهما من الأعمال الصالحة .

قال ابن الجوزي : ومعنى الآية : بادروا إلى ما يوجب المغفرة (**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**) تقديره كعرض فحذف المضاف ؛ كقوله (مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) أي إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ، ونظيره في سورة الحديد (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السمآء والأرض) . (تفسير القرطبي) .

قال ابن كثير : وقد قيل: إن معنى قوله (عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ) تنبيهاً على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة (بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ) أي: فما ظنك بالظهائر ؟

وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقَبَّب والمستدير عَرْضُه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح (إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الجنة فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَن) .

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) الآية .

(**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين**) أي : هيئت للمتقين ، الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، وفي هذا فضل عظيم للمتقين ، وأن التقوى سبب لدخول الجنة .

٨٧- وأما الأحاديث : فالأولُ : عن أبي هريرة ﷺ : أن رَسُول الله ﷺ ، قَالَ : « بَادِرُوا بِالأَعْمَال فتناً كقطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ ، يُصْبحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً ، وَيُمْسِي مُؤمِناً ويُصبحُ كَافِراً ، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا » رواه مسلم .

١-الحديث دليل على أنه ينبغي للمسلم أن يبادر بالأعمال الصالحات قبل حلول الفتن والمدلهمات .

قال النووي : مَعْنَى الْحَدِيث الْحَثّ عَلَى الْمُبَادَرَة إِلَى الْأَعْمَال الصَّالِحَة قَبْل تَعَذُّرهَا وَالِاشْتِغَال عَنْهَا بِمَا يَحْدُث مِنْ الْفِتَن الشَّاغِلَة الْمُتَكَاثِرَة الْمُتَرَاكِمَة كَتَرَاكُمِ ظَلَام اللَّيْل الْمُظْلِم لَا الْمُقْمِر .

٢- لماذا ينبغي أن نبادر ونسارع إلى الخيرات ؟

أولاً : استجابة لأمر الله ورسوله .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...).

ثانياً : قبل حدوث الشواغل من فقر أو موت أو هرم ونحوها من المعوقات .

كما في حديث أبي هريرة (بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون إلى فقْراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو موتاً مجهزاً ...) رواه الترمذي وفيه ضعف .

وفي الحديث قال ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وفراغك قبل شغلك ، وصحتك قبل مرضك ، وغناك قبل فقرك ، ...) رواه الحاكم .

فالإنسان إذا انشغل بفقره لا يستطيع أن يؤدي ويسارع للأعمال الصالحات ، وكذا إذا مرض ، فإنه ينشغل بمرضه ، وكذا لا

يدري متى يأتيه الموت ، فالموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل .

ثالثاً : قبل الفتن المانعة من العمل .

كما في حديث أبي هريرة (بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ...) .

رابعاً : أن العمل الصالح سبب للنجاة من الفتن .

كما في حديث الباب .

وكما في حديث أُم سَلَمَةَ قَالَتِ (اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ (سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ) رواه البخاري .

– فالإنسان ينبغي أن يبادر بالأعمال الصالحة قبل وقوع الفتن فينشغل بها ، فتشغله عن التفرغ للعمل الصالح ، كما هو حال كثير من الناس الآن ، وأيضاً الأعمال الصالحة سبب للنجاة من الفتن ، ولهذا قال (بادروا بالأعمال – أي الصالحة – فتناً ، أي ، قبل وقوع الفتن ، فالعمل الصالح من إخلاص لله ومتابعة للرسول وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وصلاة وخاصة بالليل وغيره سبب للنجاة من الفتن إذا حدثت وانتشرت ، ولهذا قام النبي ﷺ ليلة من الليل فزعاً وهو يقول : (من يوقظ صواحب الحجرات كي يصلين ، ما أنزل الليلة من الفتن) .

٣– ولذلك عظمت العبادة زمن الفتن لصعوبتها ، حيث ينشغل الإنسان عنها .

عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ . قال : قال النَّبِيّ ﷺ (الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيّ) رواه مسلم .

قال النووي : وَسَبَب كَثْرَة فَضْل الْعِبَادَة فِيهِ أَنَّ النَّاس يَغْفُلُونَ عَنْهَا ، وَيَشْتَغِلُونَ عَنْهَا ، وَلَا يَتَفَرَّغ لَهَا إِلَّا أَفْرَاد .

وقال ابن رجب : سبب ذلك أن الناس في زمن الفتن يتبعون أهواءهم ولا يرجعون إلى دين، فيكون حالهم شبيهاً بحال الجاهلية، فإذا انفرد من بينهم من يتمسك بدينه ويعبد ربه ويتبع مراضيه ، ويجتنب مساخطه ، كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهلية إلى رسول الله ﷺ مؤمناً به ، متبعاً لأوامره ، مجتنباً لنواهيه .

وقال ابن حجر : قال القرطبي : كأن في الحديث إشارة إلى أن الفتن والمشقة البالغة ستقع حتى يخف أمر الدين ويقل الاعتناء بأمره ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه ومعاشه نفسه وما يتعلق به ، ومن ثم عظم قدر العبادة أيام الفتنة .

وقال ابن العربي : وجه تمثيله بالهجرة أن الزمن الأول كان الناس يفرون فيه من دار الكفر وأهله ، إلى دار الإيمان وأهله ، فإذا وقعت الفتن تعين على المرء أن يفر بدينه من الفتنة إلى العبادة ، ويهجر أولئك القوم وتلك الحالة ، وهو أحد أقسام الهجرة .

وقال ابن الجوزي : الهرج : القتال والاختلاط ، وإذا عمت الفتن اشتغلت القلوب ، وإذا تعبد حينئذٍ متعبد ، دل على قوة اشتغال قلبه بالله – عز وجل – فيكثر أجره .

٤–من أقوال السلف :

قال عمر بن عبد العزيز : إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما .

وقال أبو حازم : إن بضاعة الآخرة كاسدة فاستكثروا منها في أوان كسادها فإنه لو جاء وقت نفاقها لم تصلوا فيها إلى قليل ولا كثير .

وكان أبو بكر بن عياش يقول : لو سقط من أحدكم درهم لظل يومه يقول : إنا لله ذهب درهمي وهو يذهب عمره ولا يقول : ذهب عمري وقد كان لله أقوام يبادرون الأوقات ويحفظون الساعات ويلازمونها بالطاعات .

وقال سعيد بن المسيب : ما تركت الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة .

وكان سعيد بن جبير يختم القرآن في ليلتين .

وقيل لعمرو بن هانيء : لا نرى لسانك يفتر من الذكر فكم تسبح كل يوم ؟ قال : مائة ألف إلا ما تخطيء الأصابع .

وصام منصور بن المعتمر أربعين سنة وقام ليلها وكان الليل كله يبكي فتقول له أمه : يا بني قتلت قتيلا فيقول : أنا أعلم بما صنعت نفسي .

قال الجماني : لما حضرت أبو بكر بن عياش الوفاة بكت أخته فقال : لا تبك وأشار إلى زاوية في البيت : إنه قد ختم أخوك في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة .

من قدم اليوم شيئاً قدم عليه غداً ، ومن لم يقدم شيئاً قدم على غير شيء ، قيل لبعضهم جمع فلان مالاً ؟ قال : هل جمع عمراً ينفقه فيه ، قالوا : لا ، قال : ما جمع شيئاً .

وقال بعض السلف : اعمل للدنيا على قدر مكثك فيها ، واعمل للآخرة على قدر مكثك فيها .

٥- الحديث دليل على خطر الفتن ، حيث يُصْبحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً ، وَيُمْسِي مُؤمِناً ويُصبحُ كَافِراً .

قال النووي : وَوَصَفَ ﷺ نَوْعًا مِنْ شَدَائِد تِلْك الْفِتَن ، وَهُوَ أَنَّهُ يُمْسِي مُؤْمِنًا ثُمَّ يُصْبِح كَافِرًا أَوْ عَكْسه . شَكَّ الرَّاوِي وَهَذَا لِعِظَمِ الْفِتَن يَنْقَلِب الْإِنْسَان فِي الْيَوْم الْوَاحِد هَذَا الِانْقِلَاب . وَاَللَّه أَعْلَم .

٦- وجوب اعتزال الفتن والابتعاد عنها ، وقد جاءت الأدلة التي تدل على ذلك :

أ- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ) رواه البخاري .

ب- وعن أبي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (سَتَكُونُ فِتَنٌ ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِى ، وَالْمَاشِى فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِى ، وَمَنَ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذاً فَلْيَعُذْ بِه) متفق عليه .

ج- عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ ، قَالَ : ايْمُ اللهِ ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ ، وَلَمَن ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهاً) رواه أبو داود .

د- وعن عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، قَالَ (بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ ، فَقَالَ : إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ ، وَكَانُوا هَكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، قَالَ : فَقُمْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ : كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ؟ قَالَ : الْزَمْ بَيْتَكَ ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّة) رواه أبو داود .

٨٨- الثَّاني : عن أبي سِروْعَة - بكسر السين المهملة وفتحها - عُقبةَ بن الحارث ﷺ، قَالَ : صَلَّيتُ وَرَاءَ النَّبيّ ﷺ بالمَدِينَةِ العَصْرَ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعاً، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ ، فَخَرَجَ عَلَيهِمْ، فَرأى أَنَّهُمْ قَدْ عَجبُوا مِنْ سُرعَتِهِ، قَالَ: (ذَكَرتُ شَيئاً مِنْ تِبرٍ عِندَنَا فَكَرِهتُ أنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرتُ بِقِسْمَتِهِ) رواه البخاري

وفي رواية لَهُ: ((كُنتُ خَلَّفتُ في البَيْتِ تِبراً مِنَ الصَّدَقةِ فَكَرِهتُ أنْ أُبَيِّتَهُ)). ((التِّبْرُ)) : قِطَعُ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ .

(**فَتَخَطَّى**) أي قطع الصفوف حال جلوس الناس .

(**حُجَرِ نِسَائِهِ**) جمع حجرة اسم للمنزل .

(**فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ**) أي: خافوا، وكانت تلك عادتهم إذا رأوا منه غير ما يعهدونه خشية أن ينزل فيهم شيء يسوؤهم .

(**ذَكَرتُ شَيئاً مِنْ تِبر**) التبر بكسر التاء الذهب الذي لم يصف ولم يضرب .

(**فَكَرِهتُ أنْ يَحْبِسَنِي**) أي : يشغلني التفكر فيه عن التوجه والإقبال على الله تعالى .

(**فَأَمَرتُ بِقِسْمَتِهِ**) وفي رواية (فقسمته) .

١- الحديث دليل على استحباب المسارعة إلى فعل الخيرات .

٢- فضائل المسارعة إلى الخيرات :

أولاً : أنها استجابة لله ورسوله .

قال تعالى (وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقال تعالى (وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم) .

وقال تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً) .

وقال تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون) .

وقال ﷺ (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) رواه مسلم .

وقال ﷺ (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدُّخَانَ أَوِ الدَّجَّالَ أَوِ الدَّابَّةَ أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّة). رواه مسلم .

وقال ﷺ (التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ) .

ثانياً : أن الله مدح المسارعين بالخيرات وبين أن عاقبتهم الفلاح في الدنيا والنعيم الذي لا يزول في الآخرة .

فقال تعالى في مدح أهل الكتاب الذين يتبعون آيات الله والمسارعين بالخيرات (يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِين) .

ثالثاً : أن المسارعة في الخيرات من أسباب استجابة الدعاء .

قال تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) .

رابعاً : أن المسارعة في الخيرات من صفات الموحدين الذين هم من خشية ربهم مشفقون .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُون) .

وقال تعالى بعد ذكره للعديد من الأنبياء (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) .

خامساً : أنها دليل على علو الهمة .

قال تعالى (رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) .

وقال تعالى (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) .

وقال ﷺ (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز) رواه مسلم .

وقال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس) رواه البخاري .

سادساً : الدخول إلى الجنة :

قال تعالى (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) .

السابقون في الدنيا إلى الخيرات سبقوا في الآخرة إلى الجنات فإن السبق هناك على قدر السبق هنا .

٣- الرسول ﷺ وصحابته كانوا يبادرون للخيرات :

أ- حديث الباب ، حيث بادر إلى توزيع الصدقة بعد صلاته مباشرة .

ب- وعن ربيعة بن كعب قال (كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : سلني ، فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم .

ج- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ . فَقَالَ (وَمَا ذَاكَ) . قَالُوا يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ وَيُعْتِقُونَ وَلاَ نُعْتِقُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئاً تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ) . قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ (تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ مَرَّةً) . قَالَ أَبُو صَالِحٍ فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) رواه مسلم .

قال ابن القيم : ... كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه ، بل يحض بعضهم بعضاً ، وهي نوع من المسابقة ، وقد قال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) .

وعن عبد الله بن عمرو (أن رجلاً قال : يا رسول الله ! إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله ﷺ : قل كما يقولون ، فإذا انتهيت فسل تعط) رواه أبوداود .

- ومن المسارعة إلى الخيرات التأسف على فواتها ، ومن الأمثلة على ذلك :

أولاً : ما جاء في الحديث السابق : حيث كان الفقراء يحزنون على ما يتعذر عليهم فعله من الخير مما يقدر عليه غيرهم .

ثانياً : الحزن على التخلف عن الخروج في الجهاد لعدم القدرة على آلته .

كما قال تعالى (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) .

ثالثاً : التأسف على فوات الطاعة .

فإن ابن عمر لما بلغه حديث (من شهد الجنازة حتى تدفن فله قيراط ، ومن شهدها حتى يصلى عليها فله قيراطان) قال : لقد فرطنا في قراريط كثيرة .

٢- الحديث دليل على استحباب التخلص مما يشغل القلب عن الله .

٣- الحديث دليل على استحباب التجرد من مشاغل الدنيا حال العبادة لتصفو نفسه فيها .

٤-أن التفكر في الصلاة في أمر لا يتعلق بالصلاة لا يفسدها ولا ينقص من كمالها .

٥-أن إنشاء العزم في أثناء الصلاة على الأمور الجائزة لا يضر .

٨٩- الثالث : عن جابر ﷺ ، قَالَ : قَالَ رجل للنبي ﷺ يَومَ أُحُد : أَرَأيتَ إنْ قُتِلتُ فَأَيْنَ أَنَا ؟ قَالَ : ((في الجنَّةِ)) فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ في يَدِهِ ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ . مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

١- الحديث دليل على استحباب المبادرة إلى فعل الخير وعدم التكاسل، فهذا الصحابي استجاب لأمر النبي ﷺ وبادر إلى ذلك.

٢-أن المبادرة والمسارعة إلى الخيرات دليل على علو الهمة ، وعلى اليقين بالله وبوعده .

٣-حرص الصحابة على امتثال أمر النبي ﷺ .

٤- الحديث دليل على فضل الشهادة ، وأنها من أسباب دخول الجنة ، وللشهادة فضائل كثيرة :

أولاً : من أسباب دخول الجنة .

كما قال ﷺ (انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَل) متفق عليه .

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وعن جابر . قال (قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة ، فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل). متفق عليه

ثانياً : الحياة بعد الاستشهاد مباشرة .

قال تعالى (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُون) .

وقال تعالى (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) .

ثالثاً : مغفرة الذنوب وتكفير السيئات .

قال تعالى (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) .

وقال ﷺ (يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين) رواه مسلم .

وقال ﷺ (إن للشهيد عند الله ست خصال يغفر له عند أول دفعة من دمه ....) رواه الترمذي .

رابعاً : تمني الرجوع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى بل عشر مرات .

عن أنس . قال : قال ﷺ (ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا ، وأن له الدنيا وما فيها ، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة ، فإنه يسرهُ أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى وفي رواية : لما يرى من الكرامة) متفق عليه .

خامساً : الشهيد في الفردوس الأعلى .

وعن أنس (أن أم حارثة أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ألا تحدثني عن حارثة ، وكان قتل يوم بدر ، أصابه سهم ، فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء ، فقال رسول الله : يا أم حارثة ، إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى) متفق عليه .

سادساً : الملائكة تظل الشهيد بأجنحتها .

عن جابر قال (جيء بأبي إلى النبي ﷺ وقد مثّل به ووضع بين يديه ، فذهبت أكشف عن وجهه، فنهاني قومي ، فسمع صوت نائحة، فقيل: ابنة عمرو – أو أخت عمرو – فقال: لم تبكي أو لا تبكي، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها) متفق عليه

سابعاً : الشهداء لا يفتنون في قبورهم :

عن المقداد بن معد يكرب . قال : قال رسول الله ﷺ (للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر) رواه الترمذي .

وقال ﷺ لما سئل لماذا الشهداء لا يسألون في قبورهم ؟ قال : (كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة) رواه النسائي .

قال ابن النحاس : ولا شك بأن من وقف للقتال ورأى السيوف تلمع وتقطع ، والأسنة تبرق وتخرق ، والسهام ترشق وتمرق ، والرؤوس تندر ، والدماء تثعب ، والأعضاء تتطاير ، وجاد بنفسه لله تعالى إيماناً به وتصديقاً بوعده ووعيده ، فيكفيه هذا امتحاناً لإيمانه واختباراً له وفتنة ، إذ لو كان عنده شك أو ارتياب لولى الدبر ، وذهل عما هو واجب عليه من الثبات ، وداخله الشك والارتياب .

ثامناً : الشهيد لا يشعر بألم القتل .

عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة) رواه الترمذي .

قال علي : إن لم تقتلوا تموتوا ، والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على فراش .

قال ابن تيمية : ... وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَمْ يَرِدْ فِي ثَوَابِ الْأَعْمَالِ وَفَضْلِهَا مِثْلُ مَا وَرَدَ فِيهِ . وَهُوَ ظَاهِرٌ عِنْدَ الِاعْتِبَارِ فَإِنَّ نَفْعَ الْجِهَادِ عَامٌّ لِفَاعِلِهِ وَلِغَيْرِهِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَمُشْتَمِلٌ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ فَإِنَّهُ مُشْتَمِلٌ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَتَسْلِيمِ النَّفْسِ وَالْمَالِ لَهُ وَالصَّبْرِ وَالزُّهْدِ وَذِكْرِ اللَّهِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْأَعْمَالِ : عَلَى مَا لَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ عَمَلٌ آخَرُ . وَالْقَائِمُ بِهِ مِنْ الشَّخْصِ وَالْأُمَّةِ بَيْنَ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ دَائِمًا . إمَّا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ وَإِمَّا الشَّهَادَةُ وَالْجَنَّةُ . فَإِنَّ الْخَلْقَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ مَحْيَا وَمَمَاتٍ فَفِيهِ اسْتِعْمَالُ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ فِي غَايَةِ سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفِي تَرْكِهِ ذَهَابُ السَّعَادَتَيْنِ أَوْ نَقْصُهُمَا ؛ فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّدِيدَةِ فِي الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا مَعَ قِلَّةِ مَنْفَعَتِهَا فَالْجِهَادُ أَنْفَعُ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ عَمَلٍ شَدِيدٍ وَقَدْ يَرْغَبُ فِي تَرْفِيهِ نَفْسِهِ حَتَّى يُصَادِفَهُ الْمَوْتُ ، فَمَوْتُ الشَّهِيدِ أَيْسَرُ مِنْ كُلِّ مِيتَةٍ وَهِيَ أَفْضَلُ الْمِيتَاتِ .

تاسعاً : دم الشهيد أحب شيء إلى الله .

عن أبي أمامة . قال : قال رسول الله ﷺ (ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة من دموع في خشية الله ، وقطرة دم تهرق في سبيل الله ، وأما الأثران : فأثر في سبيل الله ، وأثر في فريضة من فرائض الله) رواه الترمذي .

عاشراً : الشهيد يشفع في أهل بيته .

عن أم الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته) رواه الترمذي .

الحادي عشر : لا يشترط للشهيد أعمال صالحة قبل الشهادة .

عن البراء بن عازب قال (أتى النبي ﷺ رجل مقنع بالحديد ، فقال : يا رسول الله أقاتل أو أسلم ؟ قال : أسلم ثم قاتل ، فأسلم ثم قاتل فقتل ، فقال رسول الله ﷺ : عمل قليل وأجر كثير) رواه البخاري .

فائدة : سمي الشهيد بذلك :

قال النووي : قال النضر بن شميل : لأنه حي ، فإن أرواحهم شهدت وحضرت دار الإسلام وأرواح غيرهم إنما تشهدها يوم القيامة .

وقال ابن الأنباري : إن الله تعالى وملائكته عليهم الصلاة والسلام يشهدون له بالجنة .

وقيل : لأنه شهد عند خروج روحه ما أعده الله تعالى له من الثواب والكرامة .

وقيل : لأن ملائكة الرحمة يشهدونه فيأخذون روحه .

وقيل : لأنه شهد له بالإيمان وخاتمة الخير بظاهر حاله .

وقيل : لأن عليه شاهداً بكونه شهيداً وهو الدم .

٩٠-الرابع : عن أبي هريرة ﷺ ، قَالَ : جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رسولَ الله ، أيُّ الصَّدَقَةِ أعْظَمُ أجْرَاً ؟ قَالَ : ((أنْ تَصَدَّقَ وَأنتَ صَحيحٌ شَحيحٌ ، تَخشَى الفَقرَ وتَأمُلُ الغِنَى ، وَلاَ تُمهِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغتِ الحُلقُومَ قُلْتَ لِفُلان كذا ولِفُلانٍ كَذا ، وقَدْ كَانَ لِفُلانٍ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

« **الحُلقُومُ** » : مَجرَى النَّفَسِ . وَ« **المَرِيءُ** » : مجرى الطعامِ والشرابِ .

(**جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ**) قال الحافظ : لم أقف على تسميته ، ويحتمل أن يكون أبا ذر ، ففي (مسند أحمد) عنه ، أنه سأل ، أي الصدقة أفضل ؟ لكن في الجواب جهد المقل .

(**أيُّ الصَّدَقَةِ أعْظَمُ أجْرَاً ؟**) وفي رواية (أي الصدقة أفضل) أي : في وقت يكون فعلها أفضل ، فهو لم يسأل عن كميتها ولا في نوعها ، وإنما يريد ما هو الوقت الأفضل الذي تكون فيه الصدقة أفضل من غيرها .

(**أنْ تَصَدَّقَ وَأنتَ صَحيحٌ**) البدن ، والمراد بالصحيح هنا من لم يدخل في مرض مخوف .

(**شَحيحٌ**) النفس ، أي : من شأنه الشح للحاجة إلى المال ، وفي رواية للبخاري (وأنت صحيح حريص) .

(**تَخشَى الفَقرَ**) بإخراج المال من يدك .

(**وتَأمُلُ الغِنَى**) أي : تطمع فيه وترجوه ، وفي رواية للنسائي (وتأمل العيش) والعَيْش – بفتح فسكون – الحياة ، أي : ترجو الحياة .

(**وَلاَ تُمهِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغتِ الحُلقُوم**) بلغت الروح ، والمراد قاربت بلوغ الحلقوم إذ لو بلغته حقيقة لم تصح وصيته ولا صدقته ولا شيء من تصرفاته باتفاق الفقهاء.

(**قُلْتَ لِفُلان كذا ولِفُلانٍ كَذا ، وقَدْ كَانَ لِفُلانٍ**) قال الخطابي : المراد به الوارث ، وقال غيره : المراد به سبق القضاء به للموصى له ، ويحتمل أن يكون المعنى أنه قد خرج عن تصرفه وكمال ملكه واستقلاله بما شاء من التصرف فليس له في وصيته كبير ثواب بالنسبة إلى صدقة الصحيح الشحيح . (نووي) .

١- معنى الحديث :يحدثنا أبو هريرة ﷺ عن صحابي جليل جاء يسأل رسول الله ﷺ عن أكثر الصدقات أجراً وأفضلها عند الله سبحانه وتعالى قبولاً وأعظمها ثواباً ؟

فأجابه النبي ﷺ : بأن أفضل أنواع الصدقات وأعظمها أجراً ، أن ينفق الإنسان في حال صحته وقوته .

عندما يكون مطلق التصرف في ماله ، لا يشاركه فيه أحد ، وفي نفس الوقت تكون نفسه طامعة بهذا المال ، وقلبه معلقاً به ، ويده منقبضة عن إنفاقه ، تبخل في إعطائه ، وتشح بالجود به.

قال الله تعالى (وآتى المال على حبه) .

وإنما كان الإنفاق في هذه الحالة أكثر ثواباً وأعظم أجراً ، لما فيه من مجاهدة النفس ، وصدق النية ، والعزم على إرضاء الله تعالى ، ونيل الفلاح عنده .

قال النووي رحمه الله : قَالَ الخطابي : فَمَعْنَى الْحَدِيث أَنَّ الشُّحّ غَالِب فِي حَال الصِّحَّة , فَإِذَا شَحّ فِيهَا وَتَصَدَّقَ كَانَ أَصْدَق فِي نِيَّته وَأَعْظَم لأَجْرِهِ , بِخِلَافِ مَنْ أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْت وَآيَسَ مِنْ الْحَيَاة وَرَأَى مَصِير الْمَال لِغَيْرِهِ فَإِنَّ صَدَقَته حِينَئِذٍ نَاقِصَة بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالَة الصِّحَّة , وَالشُّحّ رَجَاء الْبَقَاء وَخَوْف الْفَقْر .. فَلَيْسَ لَهُ فِي وَصِيَّته كَبِير ثَوَاب بِالنِّسْبَةِ إِلَى صَدَقَة الصَّحِيح الشَّحِيح .

قال العلماء : وإنما خص هاتين الحالتين ، وهما أمل الغنى ، وخشية الفقر ، لأن الصدقة في هاتين الحالتين أشد مراغمة للنفس . ولأنه في حال الصحة يصعب عليه إخراج المال غالباً لما يخوّفه به الشيطان، ويُزين له، من إمكان طول العمر، والحاجة إلى المال . وقال الحافظ ابن حجر : وَفِي الْحَدِيث أَنَّ تَنْجِيز وَفَاء الدَّيْن وَالتَّصَدُّق فِي الْحَيَاة وَفِي الصِّحَّة أَفْضَل مِنْهُ بَعْد الْمَوْت وَفِي الْمَرَض , وَأَشَارَ ﷺ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ (وَأَنْتَ صَحِيح حَرِيص تَأْمُل الْغِنَى الخ) لأَنَّهُ فِي حَال الصِّحَّة يَصْعُب عَلَيْهِ إِخْرَاج الْمَال غَالِبًا لِمَا يُخَوِّفهُ بِهِ الشَّيْطَان وَيُزَيِّن لَهُ مِنْ إِمْكَان طُول الْعُمْر وَالْحَاجَة إِلَى الْمَال كَمَا قَالَ تَعَالَى (الشَّيْطَان يَعِدكُمْ الْفَقْر) الآيَة.

وقد جاء عند الترمذي عن أبي درداء مرفوعاً (مثل الذي يُعتق ويتصدق عند موته ، مثل الذي يهدي إذا شبع) .

وروى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً (لأن يتصدق الرجل في حياته وصحته بدرهم ، خير له من أن يتصدق عند موته بمائة) .

٢- الحديث دليل على الحث على الإنفاق في سبيل الله تعالى ، والمبادرة إلى فعل الخيرات والاعمال الصالحة ،وعدم التأخير والتسويف.

٣- الحديث دليل على أن أفضل أوقات الصدقة ، إذا كان الإنسان صحيحاً شحيحاً يأمل البقاء .

٤-اغتنام الفرص،ومنها ما جاء في الحديث (اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك) .

٥-المريض مرض الموت لا يبقى مطلق التصرف في ماله،بل يمنع من التبرع إلا في حدود ما سمح الشارع به وهو الثلث،وكذلك إذا أراد أن يوصي بشيء إلى ما بعد الموت،يسمح له في حدود الثلث من تركته،وإن أوصى بأكثر من ذلك لا تنفذ الوصية في الزيادة،إلا إذا أجاز الورثة ورضوا بتنفيذها جميعها.

٦-حرص الصحابة ﷺ على فعل الخيرات،وبحثهم عن أفضل الاعمال وأحسن القربات.

٧-مجاهدة النفس للتخلص من الشح والبخل الذي تميل إليه،وإنما تكون هذه المجاهدة بالتخلق بآداب القرآن،والاقتداء برسول الله ﷺ في سيرته وتقليد أصحابه رضوان الله عليهم في اتباعه ، وترويض النفس شيئاً فشيئاً على السخاء والانفاق .

٨- على المسلم أن يبحث عما يفيده ويقربه من الله تعالى ، وسؤاله أهل العلم عن العمل الصحيح.

٩- فضل مراغمة الشيطان .

١٠- فضل الثقة واليقين بوعد الله .

١١- أن الأعمال الصالحة متفاوتة .

فائدة : أفضل الصدقات :

الأول: الصدقة الخفية .

لأنَّها أقرب إلى الإخلاص من المعلنة .

وفي ذلك يقول جل وعلا (إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتؤْتُوهَا الْفُقَرَاءِ فَهُوَ خَيرٌ لَّكُمْ) .

فأخبر أنَّ إعطاءها للفقير في خفية خيرٌ للمنفق من إظهارها وإعلانها .

لما في ذلك من الفوائد ، والستر عليه ، وعدم تخجيله بين النَّاس وإقامته مقام الفضيحة ، وأن يرى النّاس أنّ يده هي اليد السفلى، وأنَّه لا شيء له، فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدرٌ زائدٌ من الإحسان إليه بمجرد الصدقة مع تضمنه الإخلاص، وعدم المراءاة، وطلبهم المحمدة من النّاس.

الثانية: الصدقةُ في حال الصحة والقوة أفضل من الوصية بعد الموت أو حال المرض والاحتضار .

كما في حديث الباب

الثالثة : الصدقة التي تكون بعد أداء الواجب .

كما في قوله عز وجل (وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ) .

وقوله ﷺ (لا صدقة إلاّ عن ظهر غنى...) وفي رواية: (وخير الصدقة ظهر غنى) .

الرابعة : بذل الإنسان ما يستطيعه ويطيقه مع القلة والحاجة .

لقوله ﷺ (الصدقة جهد المقِل، وابدأ بمن تعول) رواه أبو داود .

الخامسة : الإنفاق على الأولاد .

كما في قوله ﷺ (الرجل إذا أنفق النفقة على أهله يحتسبها كانت له صدقة) .

وقال ﷺ (أربعة دنانير: دينار أعطيته مسكيناً، ودينار أعطيته في رقبةٍ، ودينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته على أهلك، أفضلها الدينار الذي أنفقته على أهلك) رواه مسلم .

السادسة : الصدقة على القريب .

عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ قال (كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالاً وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَى وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ . قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرَحَى وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ شِئْتَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « بَخْ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ » . فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّه) متفق عليه .

وقال ﷺ (الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة) رواه الترمذي .

وأخصُّ الأقارب ـ بعد من تلزمه نفقتهم ـ اثنان:

الأول : اليتيم .

لقوله تعالى (فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) . والمسبغة: الجوع والشِّدة.

الثاني: القريب الذي يضمر العداوة ويخفيها .

فقد قال ﷺ (أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح) رواه أبو داود .

السابعة : الصَّدقة على الجار.

فقد أوصى به الله سبحانه وتعالى بقوله (وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ) .

وأوصى النبي ﷺ أبا ذر بقوله (وإذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، واغرف لجيرانك منها) رواه مسلم .

٩١ـالخامس : عن أنس ﷺ : أنَّ رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يومَ أُحُدٍ ، فَقَالَ : ((مَنْ يَأخُذُ مِنّي هَذَا ؟)) فَبَسطُوا أيدِيَهُمْ كُلُّ إنسَانٍ مِنْهُمْ يقُولُ : أنَا أنَا . قَالَ : ((فَمَنْ يَأخُذُهُ بحَقِّه ؟)) فَأَحْجَمَ القَومُ فَقَالَ أَبُو دُجَانَةَ ﷺ : أنا آخُذُهُ بِحَقِّهِ ، فأخذه فَفَلقَ بِهِ هَامَ المُشْرِكِينَ . رواه مسلم .

اسم أبي دجانةَ : سماك بن خَرَشة . قوله : ((**أحجَمَ القَومُ**)) : أي توقفوا . وَ((**فَلَقَ بِهِ**)) : أي شق . ((**هَامَ المُشركينَ**)) : أي رُؤُوسَهم .

(**يَومَ أُحُدٍ**) أي : غزوة أحد ، وكانت في السنة (٣) هـ .

(**فَمَنْ يَأخُذُهُ بحَقِّه ؟**) أي : يقاوم أعداء الله ، ويجاهد به حق الجهاد .

(**فأخذه فَفَلقَ بِهِ هَامَ المُشْرِكِينَ**) أَيْ : شَقَّ رُءُوسَهُمْ .

١- الحديث دليل على المبادرة إلى الخيرات والمسارعة إليها ، حيث أن الصحابة كلهم بادروا ورفعوا أيديهم وبسطوها .

٢- الحديث دليل على حرص الصحابة على الخير ومسارعتهم له ، وإنما أحجموا عن أخذ السيف حينما قال (من يأخذه بحقه) خوفاً منهم أن لا يستطعيوا الوفاء بشرطه وحقه ، وإنما مدوا أيديهم ليأخذوه أولاً ليقاتلوا به جهدهم من غير شرط .

٣- الحديث دليل على ترغيب الرسول ﷺ للصحابة على مزيد التضحية والنكاية بالعدو .

٤- الحديث دليل على حسن رعاية النبي ﷺ لأمته .

٥- الحديث دليل على شجاعة أبي دجانة وقوته .

٩٢-السادس : عن الزبير بن عدي ، قَالَ : أتينا أنسَ بن مالك ﷺ فشكونا إِلَيْه مَا نلقى مِنَ الحَجَّاجِ . فَقَالَ : « اصْبرُوا ؛ فَإِنَّهُ لا يَأتِي زَمَانٌ إلاَّ والَّذِي بَعدَهُ شَرٌّ مِنهُ حَتَّى تَلقَوا رَبَّكُمْ » سَمِعتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ . رواه البخاري .

(**عن الزبير بن عدي**) بفتح العين بعدها دال وهو كوفي همداني بسكون الميم ولي قضاء الري ويكنى أبا عدي ، وهو من صغار التابعين ، وليس له في البخاري سوى هذا الحديث .

(**قَالَ : أتينا أنسَ بن مالك ﷺ**) الصحابي الجليل .

(**فشكونا إِلَيْه مَا نلقى مِنَ الحَجَّاجِ**) **أي:** ابن يوسف الثقفي الأمير المشهور، والمراد شكواهم ما يلقون من ظلمه لهم وتعديه، وقد ذكر الزبير في (الموفقيات) من طريق مجالد عن الشعبي قال : كان عمر فمن بعده إذا أخذوا العاصي أقاموه للناس ونزعوا عمامته ، فلما كان زياد ضرب في الجنايات بالسياط ، ثم زاد مصعب بن الزبير حلق اللحية ، فلما كان بشر بن مروان سمر كف الجاني بمسمار ، فلما قدم الحجاج قال : هذا كله لعب ، فقتل بالسيف .

(**فَقَالَ : اصْبرُوا**) وفي الرواية الثانية (اصبروا عليه) .

(**حَتَّى تَلقَوا رَبَّكُم**) أي : حتى تموتوا .

١- الحديث دليل على أن كل زمان شر من الذي قبله .

قال الحافظ في الفتح : قال ابن بطال : هذا الخبر من أعلام النبوة لإخباره ﷺ بفساد الأحوال ، وذلك من الغيب الذي لا يعلم بالرأي ، وإنما يعلم بالوحي .

لكن استشكل هذا الإطلاق مع أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها ؟ كما في زمن عمر بن عبد العزيز ، فإنه كان بعد زمن الحجاج بن يوسف ، ومعلوم الخير العظيم في عهد عمر ، ومعلوم ما كان في زمن الحجاج من قتل وسفك للدماء ؟

أجاب العلماء بأجوبة :

أولاً : أن هذا الحديث [حديث الباب] على الأغلب .

الثاني : وقيل المراد تفضيل مجموع العصر على مجموع العصر ، فإن عصر الحجاج كان فيه كثير من الصحابة في الأحياء ، وفي عصر عمر بن عبد العزيز انقرضوا ، والزمان الذي فيه الصحابة خير من الزمان الذي بعده .

الثالث : قال الحافظ : ثم وجدت عن ابن مسعود التصريح بالمراد ، وهو أولى بالاتباع .

فأخرج يعقوب بن شيبة من طريق الحارث بن حصيرة عن زيد بن وهب قال سمعت عبد الله بن مسعود يقول (لست أعني رخاء من العيش يصيبه، ولا مالاً يفيده، ولكن لا يأتي عليكم يوم إلا وهو أقل علمًا من اليوم الذي مضى قبله؛ فإذا ذهب العلماء

استوى الناس فلا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر؛ فعند ذلك يهلكون) .

وروي عنه أنه قال (لا يأتي عليكم زمان إلا وهو شر مما كان قبله؛ أما إني لا أعني أميرًا خيرًا من أميرٍ، ولا عامًا خيرًا من عام، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خلفًا, ويجيء قوم يفتون برأيهم) .

وروي عنه أنه قال: (وما ذاك بكثرة الأمطار وقلتها، ولكن بذهاب العلماء, ثم يحدُثُ قومٌ يُفتون في الأمور برأيهم؛ فيثلِمُونَ الإسلامَ ويهدِمُونه) . (انتهى من الفتح) .

٢- من الأحاديث التي تبين ما دل عليه حديث الباب .

قوله ﷺ (سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَسْفٌ وَقَذْفٌ وَمَسْخٌ»، قِيلَ: وَمَتَى ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَازِفُ وَالْقَيْنَاتُ، وَاسْتُحِلَّتِ الْخَمْرُ) رواه الطبراني .

وقال ابن مسعود قال (إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ: كَثِيرٌ فُقَهَاؤُهُ، قَلِيلٌ خُطَبَاؤُهُ، قَلِيلٌ سُؤَّالُهُ، كَثِيرٌ مُعْطُوهُ، الْعَمَلُ فِيهِ قَائِدٌ لِلْهَوَى. وَسَيَأْتِي مِنْ بَعْدِكُمْ زَمَانٌ: قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ، كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ، كَثِيرٌ سُؤَّالُهُ، قَلِيلٌ مُعْطُوهُ، الْهَوَى فِيهِ قَائِدٌ لِلْعَمَلِ، اعْلَمُوا أَنَّ حُسْنَ الْهَدْيِ -فِي آخِرِ الزَّمَانِ- خيرٌ مِنْ بعض العمل) .

وقال ﷺ (كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَانٍ» أَوْ «يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً، تَبْقَى حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ، قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَأَمَانَاتُهُمْ، وَاخْتَلَفُوا، فَكَانُوا هَكَذَا «وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَقَالُوا: وَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ، وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ، وَتُقْبِلُونَ عَلَى أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ، وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُم) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ بْنُ لُكَع) .

فائدة : قال الإمام السخاوي تلميذ الحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى في المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة : حديث (كل عام ترذلون) من كلام الحسن البصري في رسالته بل معناه في حديث عن أنس رفعه (لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث الزبير بن عدي عنه بهذا وفي لفظ لغيره (لا يأتيكم عام) بدل (زمان) .

٣- وهذه مجموعة من الروايات ذكرها ابن حجر في فتح الباري حول الشر والأشرار في آخر الزمان، أذكرها دون تعليق عليها، قال رحمه الله تعالى:

حَدِيث اِبْن مَسْعُود (لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى يَسُود كُلّ قَبِيلَة مُنَافِقُوهَا) أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ ، وَفِي لَفْظ (رُذَّالُهَا) .

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة (وَكَانَ زَعِيم الْقَوْم أَرْذَلهمْ، وَسَادَ الْقَبِيلَة فَاسِقهم) .

وعند البخاري من حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة (إِذَا وُسِّدَ الأَمْر إِلَى غَيْر أَهْله فَانْتَظِرْ السَّاعَة) .

وَحَدِيث اِبْن مَسْعُود (لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى يَكُون الْوَلَد غَيْظًا، وَالْمَطَر قَيْظًا، وَتَفِيض الأَيَّام فَيْضًا) أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِي .

وَعَنْ أُمّ الضِّرَاب مِثْله وَزَادَ (وَيَجْتَرِئ الصَّغِير عَلَى الْكَبِير، وَاللَّئِيم عَلَى الْكَرِيم، وَيُخَرَّب عُمْرَان الدُّنْيَا، وَيُعَمَّر خَرَابهَا) .

وَحَدِيث أَنَس (أَنَّ أَمَام الدَّجَّال سُنُونَ خَدَّاعَات؛ يُكَذَّب فِيهَا الصَّادِق، وَيُصَدَّق فِيهَا الْكَاذِب، وَيُخَوَّن فِيهَا الأَمِين، وَيُؤْتَمَن فِيهَا الْخَائِن، وَيَتَكَلَّم فِيهَا الرُّوَيْبِضَة) الْحَدِيث أَخْرَجَهُ أَحْمَد .

وَأَبُو يَعْلَى وَالْبَزَّار وَسَنَده جَيِّد، وَمِثْله لابْنِ مَاجَهْ مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة وَفِيهِ (قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَة؟ قَال : الرجلُ التَّافِه يَتَكَلَّم فِي أَمْر الْعَامَّة) .

وَحَدِيث سَمُرَة (لا تقوم السَّاعَة حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا عِظَامًا، لَمْ تُحَدِّثُوا بِهَا أَنْفُسكُم) .

وَفِي لَفْظ (يَتَفَاقَم شَأْنهَا فِي أَنْفُسكُمْ، وَتَسْأَلُونَ هَلْ كَانَ نَبِيّكُمْ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْراً) الحديث وَفِيهِ (وَحَتَّى تَرَوْا الْجِبَال تَزُول عَنْ

أَمَاكِنهَا) أَحْمَد وَالطَّبَرَانِيُّ فِي حَدِيث طَوِيل ، وَأَصْله عِنْدَ التِّرْمِذِيّ دُونَ الْمَقْصُود مِنْهُ هُنَا .

وَحَدِيث عَبْد اللَّه بْن عَمْرو (لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى يُتَسَافَد فِي الطَّرِيق تَسَافُد الْحُمُر) أَخْرَجَهُ الْبَزَّار وَالطَّبَرَانِيُّ وَصَحَّحَهُ اِبْن حِبَّان وَالْحَاكِم .

وَلأَبِي يَعْلَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَة (لا تَفْنَى هَذِهِ الأُمَّة حَتَّى يَقُوم الرَّجُل إِلَى الْمَرْأَة فَيَفْتَرِشهَا فِي الطَّرِيق؛ فَيَكُون خِيَارهمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَقُول: لَوْ وَارَيْنَاهَا وَرَاءَ هَذَا الْحَائِط) وَلِلطَّبَرَانِيّ فِي (الأَوْسَط) مِنْ حَدِيث أَبِي ذَرّ نَحْوه وَفِيه (يقول أَمْثَلهمْ: لَوْ اِعْتَزَلْتُمْ الطَّرِيق) .

وَفِي حَدِيث أَبِي أُمَامَةَ عِنْدَ الطَّبَرَانِيّ قَوْله (وحتى تَمُرّ الْمَرْأَة بِالْقَوْمِ، فَيَقُوم إِلَيْهَا أَحَدُهُمْ فَيَرْفَع بِذَيْلِهَا، كَمَا يَرْفَع ذَنَب النَّعْجَة، فَيَقُول بَعْضهمْ: أَلا وَارَيْتهَا وَرَاءَ الْحَائِط، فَهُوَ يَوْمئِذٍ فِيهِمْ مِثْل أَبِي بَكْر وَعُمَر فِيكُم) .

وحَدِيث أَنَس (لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى لا يُقَال فِي الأَرْض :لا إِلَه إِلاَّ اللَّه) أخرجه أَحْمَد بِسَنَدٍ قَوِيّ .

وَهُوَ عِنْدَ مُسْلِم بِلَفْظ (اللَّه اللَّه) .

وَلَهُ مِنْ حَدِيث اِبْن مَسْعُود (لا تَقُوم السَّاعَة إِلاَّ عَلَى شِرَار النَّاس) .

وَلِلطَّبَرَانِيّ مِنْ وَجْه آخَر عَنْه (لا تَقُوم السَّاعَة عَلَى مُؤْمِن) .

وَلأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّد عَنْ عَبْد اللَّه بْن عُمَر (لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى يَأْخُذ اللَّه شَرِيطَته مِنْ أَهْل الأَرْض، فَيَبْقَى عَجَاج؛ لا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلا يُنْكِرُونَ مُنْكَراً) .

وَلِلطَّيَالِسِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة (لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى يَرْجِع نَاس مِنْ أُمَّتِي إِلَى الأَوْثَان يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّه ...) .

وَلِمُسْلِمٍ وَأَحْمَد مِنْ حَدِيث ثَوْبَانَ (وَلا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى تَلْحَق قَبَائِل مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُد قَبَائِل مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَان) .

وَلِمُسْلِمٍ أَيْضًا عَنْ عَائِشَة (لا تَذْهَب الأَيَّام وَاللَّيَالِي حَتَّى تُعْبَد اللاَّتُ وَالْعُزَّى مِنْ دُونِ اللَّه) الحديث وَفِيهِ (ثُمَّ يَبْعَث اللَّه رِيحًا طَيِّبَة فَيَتَوَفَّى بِهَا كُلّ مُؤْمِن فِي قَلْبه مِثْقَال حَبَّة مِنْ إِيمَان، فَيَبْقَى مَنْ لا خَيْر فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِين آبَائِهِم) .

٤-قدوم الفتن وفساد الأحوال ، ولا يزال هذا الأمر – أعني فساد أحوال الزمان – يتتابع شيئاً فشيئاً ، وينقص العلم ، ويظهر الشح ويتغير الناس حتى لا يبقى في آخر الزمان إلا شرار الخلق ، يتهارجون تهارج الحُمُر ، وعليهم تقوم الساعة .

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ قَالُوا وَمَا الْهَرْجُ قَالَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ) متفق عليه .

٥-وجوب الصبر على جور الأئمة .

٦-وجوب الرجوع إلى أهل العلم عند وقوع الفتن .

٧-ظلم الحجاج وكان سفاكاً للدماء .

٨-أن أنس بن مالك عمر طويلاً .

٩٣- السابع : عن أبي هريرة ﷺ : أن رَسُول الله ﷺ ، قَالَ : ((بادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً ، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلاَّ فَقراً مُنسياً ، أَوْ غِنىً مُطغِياً ، أَوْ مَرَضاً مُفسِداً ، أَوْ هَرَماً مُفْنداً ، أَوْ مَوتاً مُجْهزاً ، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ فالسَّاعَةُ أدهَى وَأَمَرُّ)) رواه الترمذي ، وَقالَ : ((حديث حسن)) .

(**بادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً**) أَيْ : سَابِقُوا وُقُوعَ الْفِتَنِ بِالِاشْتِغَالِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَاهْتَمُّوا بِهَا قَبْلَ حُلُولِهَا .

(**أَوْ غِنىً مُطغِياً**) أي : يوقع في الطغيان .

(**أَوْ مَرَضاً مُفسِداً**) أَيْ : لِلْبَدَنِ لِشِدَّتِهِ أَوْ لِلدِّينِ لِأَجْلِ الْكَسَلِ الْحَاصِلِ بِه .

(**أَوْ هَرَماً مُفْنداً**) أَيْ : مَوْقِعٍ فِي الْكَلَامِ الْمُحَرَّفِ عَنْ سُنَنِ الصِّحَّةِ مِنْ الْخَرَفِ وَالْهَذَيَان .

(**أَوْ مَوتاً مُجْهزاً**) بِجِيمٍ وَزَايٍ مِنْ الْإِجْهَازِ ، أَيْ قَاتِلٍ بَغْتَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى تَوْبَةٍ وَوَصِيَّةٍ ، فَفِي النِّهَايَةِ : الْمُجْهِزُ هُوَ السَّرِيعُ ، يُقَالُ أَجْهَزَ عَلَى الْجَرِيحِ إذَا أَسْرَعَ قَتْلَه .

أَوْ الدَّجَّالَ) أي : خروجه .

(**أَوْ السَّاعَةَ فالسَّاعَةُ أدهَى وَأَمَر**) أَيْ : أَشَدُّ الدَّوَاهِي وَأَقْطَعُهَا وَأَصْعَبُهَا .

١-الحديث دليل على المبادرة إلى الأعمال الصالحات قبل وقوع الفتن ، وحدوث ما يعوق عن فعلها ، من موت أو مرض أو فقر أو عجز أو فتنة المسيح الدجال .

كما قال ﷺ (بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أحدكم دينه بعرض من الدنيا) رواه مسلم .

وعنه قال : قال ﷺ (بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها، والدخان ، ودابة الأرض ، والدجال ، وخويصة أحدكم ، وأمر العامة) روه مسلم .

وعن عابس الغفاري قال: قال ﷺ (بادروا بالأعمال ستاً : إمارة السفهاء ، وكثرة الشُّرَط ، وبيع الحكم ، واستخفافا بالدم ، وقطيعة الرحم ، ونشوًا يتخذون القرآن مزامير ، يقدمون أحدهم ليُغَنِّيَهم وإن كان أقلَّهم فقهاً) رواه أحمد والطبراني .

وعن أبي هريرة قال: قال ﷺ (بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هَرَمًا مُفْنِياً، أو موتاً مُجْهِزًا، أو الدجالَ فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعةُ أدهى وأمر) .

٢- إن من فوائد التعجيل بالأعمال الصالحة في زمن الرخاء والراحة والصحة والفراغ والغنى أن من فعل ذلك عرفه الله سبحانه في أوقات الفتن والشدائد، فثبته وسلَّمه في دينه، وكتب له أجر ما كان يعمل وهو صحيح مقيم، كما قال ﷺ (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٣- أن من أعظم الفتن ، فتنة الدجال لدرجة أنه ليس بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أكبر من فتنة المسيح الدجال .

كما جاء وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنْ الدَّجَّالِ) رواه مسلم برقم وفي رواية أحمد عَنْ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فِتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ) .

وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول وتحير الألباب .

فقد ورد أن معه جنة وناراً ، جنته ناره وناره جنته ، وأن معه أنهار الماء وجبال الخبز ، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر ، والأرض أن تنبت فتنبت ، وتتبعه كنوز الأرض ، ويقطع الأرض بسرعة عظيمة كسرعة الغيث استدبرته الريح ، إلى غير ذلك من الخوارق .

وكل ذلك جاءت به الأحاديث الصحيحة .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى ، جُفَالُ الشَّعَرِ - كَثِيرُهُ - مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ) رواه مسلم .

ولمسلم أيضاً عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لأنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ : مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ مَاءٌ أَبْيَضُ وَالآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ نَارٌ تَأَجَّجُ ، فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيُغَمِّضْ ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ) رواه مسلم .

- ومعنى المسيح الدجال .

الدجال : أي الكذاب .

سمي الدجال كذاباً ، لأنه يغطي الحق بباطله ، وقيل : لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه عليهم .

وسمي مسيحاً : قيل: لمسحه الأرض حين خروجه، وقيل: لأنه أعور العين اليمنى وهذا أصح، لحديث (إن الدجال ممسوح العين).

وهو رجل كذاب يخرج في آخر الزمان يدعي الألوهية .

- **خروج الدجال من علامات الساعة الكبرى .**

عن حذيفة . قال (اطلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات : فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، ....) رواه مسلم .

وأجمع المسلمون على خروجه .

- **وقصته باختصار :**

هو رجل من بني آدم – خلقه الله تعالى ليكون محنة للناس في آخر الزمان – هو من أعظم الفتن التي حذرت منها الأنبياء أقوامها – من صفاته قصير أفحج أعور العين اليمنى – معه جنة ونار فناره جنة وجنته نار – وأكثر أتباعه من اليهود والنساء والأعراب – يمكث في الأرض ٤٠ يوماً – لا يدخل مكة ولا المدينة – ويكون هلاكه على يد مسيح الهدى عيسى ابن مريم في بلاد الشام عند باب لد .

- **كيفية النجاة من الدحال :**

أولاً : حفظ أول الكهف .

عن أبي الدرداء . أن رسول الله ﷺ قال (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال) رواه مسلم .

وعن النواس بم سمعان . قال : قال ﷺ (إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ ....) رواه مسلم .

قال النووي : "سَبَب ذَلِكَ مَا فِي أَوَّلهَا مِنْ الْعَجَائِب وَالآيَات , فَمَنْ تَدَبَّرَهَا لَمْ يُفْتَتَن بِالدَّجَّالِ , وَكَذَا فِي آخِرهَا قَوْله تَعَالَى : (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا ..) . (شرح مسلم) .

ثانياً : التعوذ منه وخاصة في الصلاة .

عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال) رواه مسلم .

وعن عائشة (أن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ) رواه البخاري .

ثالثاً : الفرار من الدجال .

عن عمران بن حصين . قال : قال رسول الله ﷺ : (من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات) رواه أبو داود ، فلينأ : يبتعد .

وهذا يدل على أن النائي البعيد عن الدجال يسلم من فتنته .

بل أظهر من ذلك أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صلى لما خسفت الشمس ، فلما انصرف حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَال (ما مِنْ شَيْءٍ كُنْتُ لَمْ أَرَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا ، حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ ، مِثْلَ ، أَوْ قَرِيبَ مِنْ ، فِتْنَةِ الدَّجَّالِ . [قال الراوي :] لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ . ؛ يُؤْتَى أَحَدُكُمْ فَيُقَالُ لَهُ : مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُوقِنُ . لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ . فَيَقُولُ هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا وَاتَّبَعْنَا . فَيُقَالُ لَهُ : نَمْ صَالِحًا ، فَقَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُؤْمِناً ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ ، أَوْ الْمُرْتَابُ . لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ . فَيَقُولُ : لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ !!) متفق عليه .

فهذا يدل على أن للقبر فتنة أخرى ، سوى فتنة الدجال ، أعاذنا الله بمنه وكرمه منهما ، وأن فتنة القبر ، ليست بأقل شأناً ولا خطراً من فتنة الدجال ؛ ولأجل ذلك كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو وَيَقُول : اللهم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّال) متفق عليه .

يكون هلاكه على يد المسيح عيسى ابن مريم .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ .. " فذكر الحديث ، وفيه : " فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُه) رواه مسلم .

ويكون ذلك بباب لُد .

عن مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول (يَقْتُلُ ابْنُ مَرْيَمَ الدَّجَّالَ بِبَابِ لُد) رواه الترمذي .

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه حديثاً طويلاً عن الدجال ، وفيه قصة نزول عيسى وقتله للدجال ، وفيه قوله ﷺ (فَلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ) رواه مسلم .

٩٤- الثامن : عَنْهُ : أن رَسُول الله ﷺ، قَالَ يومَ خيبر : ((لأُعْطِيَنَّ هذِهِ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَفتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيهِ)) قَالَ عُمَرُ ﷺ : مَا أحبَبْتُ الإِمَارَةَ إلاَّ يَومَئِذٍ ، فَتَسَاوَرتُ لَهَا رَجَاءَ أنْ أُدْعَى لَهَا ، فَدَعا رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب ﷺ فَأعْطَاهُ إيَّاهَا ، وَقالَ : ((امْشِ وَلا تَلتَفِتْ حَتَّى يَفتَح اللهُ عَلَيكَ)) فَسَارَ عليٌّ شيئاً ثُمَّ وَقَفَ ولم يلتفت فصرخ : يَا رَسُول الله ، عَلَى ماذا أُقَاتِلُ النّاسَ ؟ قَالَ : ((قاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أنْ لا إله إلاَّ اللهُ ، وَأنَّ مُحمداً رسولُ الله ، فَإِذَا فَعَلُوا فقَدْ مَنَعوا مِنْكَ دِمَاءهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلاَّ بحَقِّهَا ، وحسَابُهُمْ عَلَى الله)) رواه مسلم .

((**فَتَسَاوَرْتُ**)) هُوَ بالسين المهملة : أي وثبت متطلعاً .

(**لأُعْطِيَنَّ هذِهِ الرَّايَةَ**) الراية بمعنى اللواء ، وهو العلم الذي في الحرب يعرف به موضع صاحب الجيش .

(**يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**) وفي رواية (يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُه) ، وفي رواية ابن إسحاق (ليس بفرار) ، وفي حديث بريدة (لا يرجع حتى يفتح الله له) .

(**قَالَ عُمَرُ ﷺ : مَا أحبَبْتُ الإِمَارَةَ إلاَّ يَومَئِذٍ**) وفي حديث بريدة (فما منا رجل له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل ، حتى تطاولت أنا لها ، فدعا علياً وهو يشتكي عينه فمسحها) .

(**فَتَسَاوَرتُ لَهَا رَجَاءَ أنْ أُدْعَى لَهَا**) وفي رواية للحديث لم يذكرها المصنف (قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ ، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا) .

(**فَدَعا رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب ﷺ فَأعْطَاهُ إيَّاهَا**) وجاء في رواية عند مسلم أن الذي أحضر علياً هو سلمة بن الأكوع ففي الحديث (... ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَى عَلِيٍّ وَهُوَ أَرْمَدُ فَقَالَ : لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، قَالَ فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ وَهُوَ أَرْمَدُ حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَسَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ وَأَعْطَاهُ الرَّايَة) وعند الطبراني من حديث علي (فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبي ﷺ إليّ الراية يوم خيبر) .

وجاء في حديث سهل (فَقَالَ نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا . فَقَالَ : عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ) .

١- الحديث دليل على حرص الصحابة على الخير ، ومزيد اهتمامهم به ، وذلك يدل على علو مراتبهم في العلم والإيمان ، ولذلك قال عمر قال (ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ) .

٣- الحديث دليل على علم من أعلام نبوته ﷺ .

٤- الحديث دليل على فضل علي رضي الله عنه .

ومن فضائله :

أ- حديث الباب (يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُه) .

ب- وسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيٍّ (أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي) متفق عليه .

ج- وعَنْ زِرٍّ قَالَ قَالَ عَلِيٌّ وَالَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ إِلَىَّ (أَنْ لاَ يُحِبَّنِي إِلاَّ مُؤْمِنٌ وَلاَ يُبْغِضَنِي إِلاَّ مُنَافِقٌ) رواه مسلم .

د- قوله ﷺ لعلي (أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ) رواه البخاري .

٥- الحديث فيه إشارة إلى أن علياً تام الاتباع لرسول الله ﷺ حتى أحبه الله ، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان ، وبغضه علامة النفاق .

٦- الحديث دليل على إثبات المحبة لله ، وأنه يحب ، وأجمع السلف على ثبوت المحبة لله ، يُحِب ويُحَب من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تمثيل ولا تشبيه .

٧- في الحديث سؤال الإمام عن رعيته ، وتفقده أحوالهم ، وسؤاله عنهم في مجامع الخير .

٨-وفيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسْعَ ومنعها عمن سعى ، لأن الصحابة غدوا على رسول الله ﷺ مبكرين كلهم يرجو أن يُعطاها ولم يعطوها ، وعلي بن أبي طالب ﷺ مريض ولم يسع لها ومع ذلك أعطي الراية .

٩- وفيه أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة ، لا ينافي التوكل .

١٠-وفيه الأدب عند القتال ، وترك العجلة والطيش ، والأصوات التي لا حاجة لها .

١١-وفيه أمر الإمام عماله بالرفق واللين من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة .

١٢- في الحديث معنى قوله تعالى (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

١٣- جاء في رواية (فَقَالَ « أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ » . فَقَالُوا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ - قَالَ - فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ) .

قال الشيخ ابن باز رحمه الله : (قوله : فبرأ ، فيه فائدتان :

الأولى : أنها من علامات صدق النبي ﷺ .

والثانية : وهي آية من آيات الله الدالة على قدرته العظيمة .

- جاء عند أحمد قال علي (فلم أشكُ بعدها شيئاً في عيني ولم أتصدع) أي : لم يصبه صداع .

١٤- قوله (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمْر النعم) حمر النعم بتسكين الميم ، أي خير لك من الإبل الحمر ، وهي أنفس أموال العرب .

قال النووي (وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا ، إنما هي للتقرب إلى الأفهام ، وألا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها) .

- قوله (خير لك من حمر النعم) **قيل** : المراد خير من أن تكون لك فتتصدق بها ، **وقيل** : خير لك من أن تقتنيها وتمتلكها ، وهذا **أظهر** .

والله تعالى أعلم

أخوكم / سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على النت

مجلة رياض المتقين

WWW.ALMOTAQEEN.NET